

زَهْرُ الْكِمَامِ

فِي

قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ



تأليف

سراج الدين أبي حفص عمر بن إبراهيم بن عمر

الأنصاري الأوسي

المتوفى ٧٥١ هـ

منشورات

مجمع رجال بيروت

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

تحقيق

كمال الدين علام

زَهْرُ الْكِمَامِ

فِي

قِصَّةِ يَحْيَى بْنِ إِسْمَاعِيلَ

تَأَلَّفَ

سراج الدين أبي حفص عمر بن إبراهيم بن عمرو

الأنصاري الأوسي

المتوفى (٧٥١ هـ)

تَحْقِيقُ

كمال الدين علام

منشورات

مجمع دعوات بيروت

لتنشيط السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

مستودعات مكتبة بيروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تضيد الكتاب كاملاً أو
مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى

٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage

Administration général

Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3857-X



9 782745 138576

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

زَهْرُ الْكَمَامِ
فِي

قِصَّةِ نُوْسَيْفٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة . وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً .
أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .
لقد يسر الله سبحانه وتعالى الحصول على كتاب " زهر الكمام في قصة يوسف عليه السلام " ، وقد رتبته المصنف - رحمه الله - على مجالس ، ونمق كل مجلس منها بخطبة كاملة وأحاديث وأشعار وأخبار ، وقد جعله في سبعة عشر مجلساً .
والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

اللهم احرسني بعينك التي لا تنام ، واكنفني بكنفك الذي لا يرام ، وارحمني بقدرتك عليّ ، أنت ثقتي ورجائي ، فكم من نعمة أنعمت بها عليّ قل لك بها شكري ، وكم من بلية ابتليتني بها قل لك بها صبري ، فيا من قل عند نعمته شكري فلم يحرمي ، ويا من قل عند بلائه صبري فلم يخذلني ، ويا من رأي على الخطايا فلم يفضحني ، أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد .

وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين .

ترجمة المؤلف

المرسي رحمه الله :

نسبه : عمر بن إبراهيم بن عمر سراج الدين ، أبو حفص الأنصاري الأوسي .

مقرئ مالكي ، من أهل " مرسية " بالأندلس ، من مؤلفاته : زهر الكمام في قصة يوسف عليه السلام .

ذكر ذلك الزركلي في الأعلام ، وذكره صاحب كشف الظنون ، وكذلك ذكره صاحب هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين .

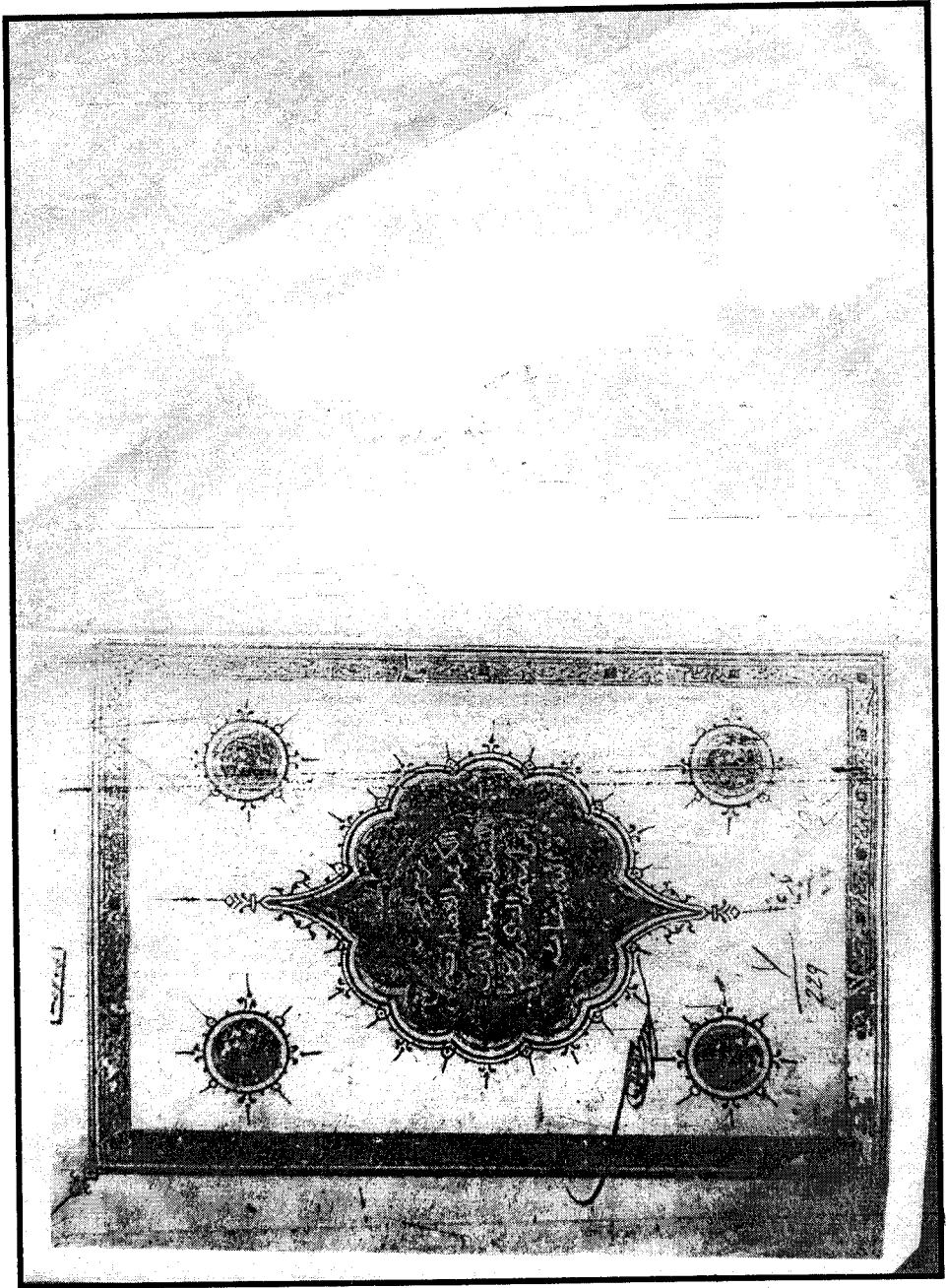
ولم يُعرف له - على التحديد - تاريخ ميلاد ، أما تاريخ وفاته - كما ذكر

الزركلي - فهو : ٧٥١هـ / ١٣٥٠م .

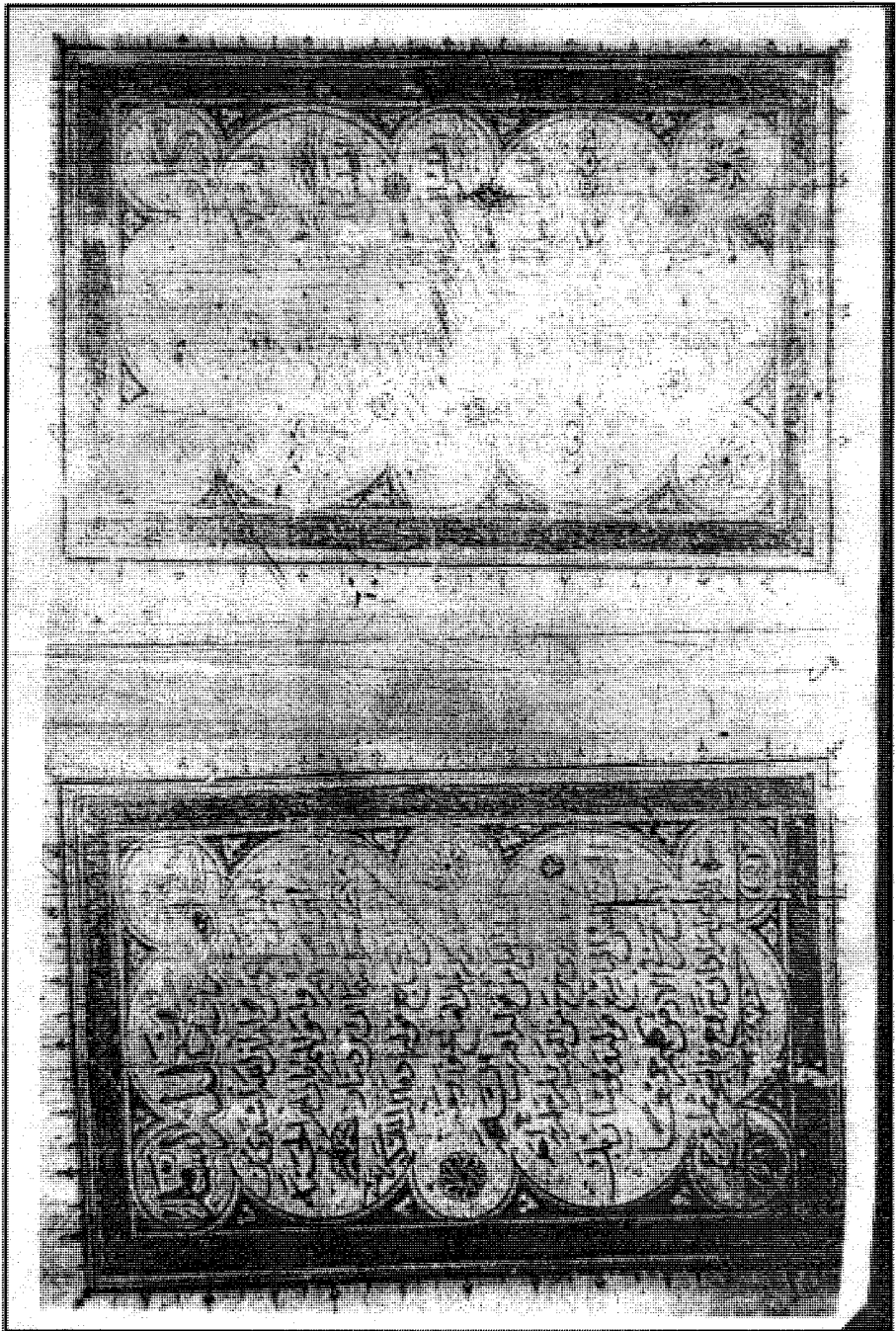
وصف المخطوط

وجدتُ هذه النسخة بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة من المخطوطات ،
وهي أولاها ، ضمن مجاميع طلعت (رقم : ٧٧٦ ميكروفيلم رقم : ١٠٥٣٥) .
وقد كُتب عليها اسمُ مؤلف الكتاب هكذا : أبو علي عمر بن أبي إسحاق
إبراهيم الأنصاري الأوسي .
والكتاب يقع في (٢٦٧) لقطة .

الصفحة الأولى



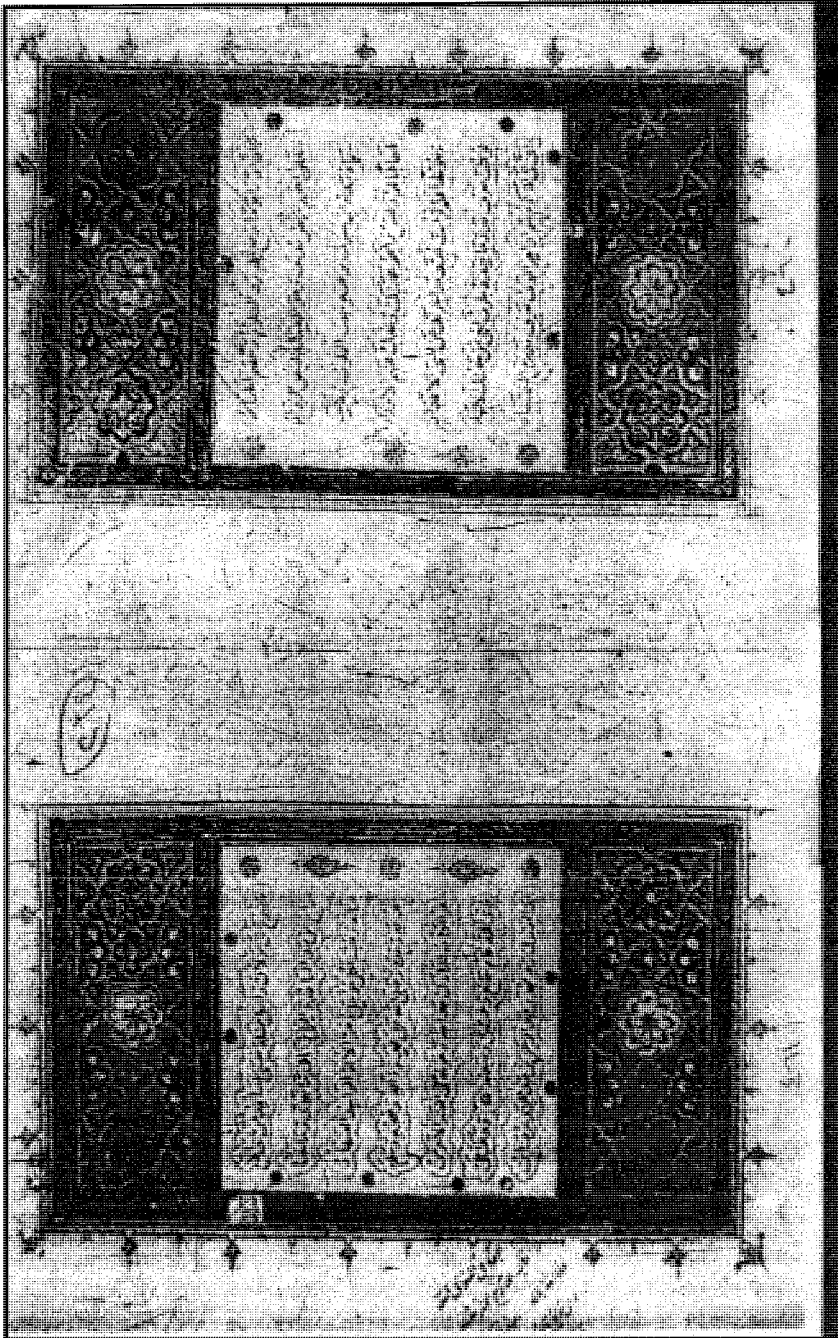
الصفحة الثانية



[illegible]

وَاذْكُرْ اِنَّ اُمَّةً مِّنْ قَبْلِكَ لَمَّا كَفَرَ
 وَكَذَّبَتْ بِآيَاتِنَا فَلَمَّ بِهَا لَقْنًا
 فَخَرَّ سَاقِطَةٌ ﴿١٠٠﴾ وَذِكْرُ
 اُولَئِكَ لِيُنْذِرَ اُمَّةً مِّنْ قَبْلِكَ
 وَلَعَلَّكَ تَتَّقِي

الصفحة الأخيرة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين كثيراً ، والصلاة على سيدنا محمد الذي بعثه للناس كافة بشيراً ونذيراً ، وعلى آله وأصحابه الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .
يقول الفقير إلى ربه ، الراجي عفو ربه الكريم أبو علي عمر بن أبي إسحاق إبراهيم الأنصاري الأوسي :

اعلموا أن قصص الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام عبرة لمن سمعها ، وتذكرة نافعة [لمن] جَمَعَهَا ، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [يوسف : ١٢٠] ، وإن قصة سيدنا يوسف عليه السلام عبرة لأولي العقول والأفهام ، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَسَائِلِينَ ﴾ [يوسف : ٧] ، رتبها على مجالس لتكون لمن طالعها كالأنيس المجالس ، ونمقت كل مجلس منها بخطبة وأشعار وحكايات وأخبار ، إذ القصة عروس والمتكلم ماشطتها ، والأخبار عقد والأدب واسطتها ، بالله أستعين على ما أصفه ، وأستغفره من خطأ أقترفه ، وهو حسينا ونعم الوكيل .

المجلس الأول

في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ الآية [الإسراء : ٢٣] .

الحمد لله الذي رفع السماء على كاهل الاقتدار ، وبنها بنياناً ، وزينها بالكواكب ، وحرسها بالثواقب ، وجعل الشمس سراجاً والقمر حسباناً ، وأنشأ سحائب الأفق ، وضربها بسياط الرعد ، فسالت دموعها هتاناً ، وأضحك البقاع بالأزهار والتّوار والفواكه والأثمار ، ولوّحها ألواناً ، ووضع الأرض على تيار الماء ، وأرساها بالجبال فأذعنت لعزته إذعانا ، وذراً بريته وأجرى فيهم مشيئته ، فهذا يضمّر جحداً ، وهذا يظهر إيماناً ، القديم الذي تفرد بالعزة فلم يتخذ ولداً ولا مدداً ولا عدداً ولا أعواناً ، الحكيم الذي نقلنا من الأصلاب إلى البطون وجعلها مثواناً ، وصورنا بقدرته في ظلمة الأحشاء وسوّاناً ، وأمدنا بالتأييد والإلهام والعقول والأفهام وقواناً ، وأمرنا في كتابه ببر الوالدين وأوصانا ، فقال جل من قائل :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] . أحمده سراً وإعلاناً ، أشكره على ما أنعم به علينا وأولانا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون لنا من عذاب القبر أماناً ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، الذي أنقذ أمته من الضلالة ، وحماهم من الجهالة ، حتى اجتمعوا بعد الفرقة ، وأصبحوا بعد العداوة إخواناً ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين كانوا بالليل رهباناً ، وبالنهار فرساناً ، صلاة وسلاماً يدومان ويقومان ما هيح الشوق أشجاناً ، وعلت الأوراق الأغصانا ، وسلم تسليماً كثيراً :

قَضَىٰ اللهُ أَنْ لَا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ حَتْمًا	فَا وَيَحْ شَخْصٍ غَيْرَ خَالِقِهِ أَمَّا
وَأَوْصَاكُمْ بِالْوَالِدَيْنِ فَبِالْغُوا	بِپَرِّهِمَا فَلَا جُرُ فِي ذَاكَ وَالرَّحْمَا
فَكَمْ بَدَلًا مِنْ رَأْفَةٍ وَلَطَافَةٍ	وَكَمْ مَنَحًا وَقَتَ احتِیَاجِكَ مِنْ نَعْمَى
وَأُمِّكَ كَمْ بَاتَتْ بِثِقَلِكَ تَشْتَكِي	تُوَاصِلُ مَّا شَفَّهَهَا الْبُؤْسَ وَالْعَمَّا
وفي الوضْع كَمْ قَاسَتْ وعند ولادها	مَشَاقُّ تُذِيبُ الْجِلْدَ وَاللَّحْمَ وَالْعَظْمَا
وَكَمْ سَهَرَتْ وَجَدًا عَلَيْكَ جُفُونُهَا	وَأَكْبَادُهَا لَهْفًا بِجَمْرِ الْأَسَى تَحْمَى
وَكَمْ غَسَلَتْ عَنْكَ الْأَذَى بِيَمِينِهَا	حُنُونًا وَإِشْفَاقًا وَأَكْثَرَتِ الضَّمَا

فَضَّيْعَتَهَا لِمَا أَسَنَّتْ جَهَالَهً وَضِقتَ بِهَا ذَرْعًا وَذَوَّقَتْهَا سُمًّا
وَبِتَّ قَرِيرَ الْعَيْنِ رِيَّانَ نَاعِمًا مُكِبًّا عَلَى اللَّذَاتِ لَا تَسْمَعُ اللُّومَا
وَأُمُكَ فِي جُوعٍ شَدِيدٍ وَغُرْبَةٍ تَلِينُ لَهَا مِمَّا بِهَا الصَّخْرَةُ الصَّمَا
أَهَذَا جَزَاها بَعْدَ طَوِيلِ عَنَائِهَا لَأَنْتَ لَذُو جَهْلٍ وَأَنْتَ إِذَا أَعْمَى
قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾
[الإسراء: ٢٣] ، وقضى ربك بمعنى أمر ربك ، والقضاء في القرآن على عشرة
أوجه :

أحدها : بمعنى الفراغ ، ومنه قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٠٠].
والثاني : بمعنى التمام ، ومنه قوله تعالى ﴿ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [الأنعام: ٦٠].
والثالث : بمعنى الفصل ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ [يونس: ٥٤].
والرابع : بمعنى وجوب العذاب ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ [هود: ٤٤].
والخامس : بمعنى الحتم ، ومنه قوله تعالى ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾
[يوسف: ٤١].
والسادس : بمعنى الخير ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾
[الإسراء: ٤].
والسابع : بمعنى الأمر ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾
[الإسراء: ٢٣].

والثامن : بمعنى الفعل ، ومنه قوله تعالى ﴿ فَأَقْضِ مَا أَلْتِ قَاضٍ ﴾ [طه: ٧٢].
والتاسع : بمعنى الخلق ، ومنه قوله تعالى ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [فصلت: ١٢].
والعاشر : بمعنى الموت ، ومنه قوله تعالى ﴿ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيتُ صَبَابَةً
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَجَّ لِي الْبُكَاءُ

[illegible]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٩٨٧ ، وابن حبان في صحيحه ٢ / ١٤٠ ، والحاكم في مستدركه ٤ / ١٧٠ ، والبيهقي في الكبرى ٤ / ٣٠٤ ، وابن أبي شيبه في المصنف ٢ / ٢٧٠ ، والبخاري في مسنده ٤ / ٢٤١ ، والطبراني في الأوسط ٨ / ١١٣ ، والرويان في مسنده ١ / ٩٠ ، والطبراني في الكبير ٢ / ٢٤٣ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٤ / ٣٣٦ ، وابن ماجه في سننه ٢ / ١٢٠٨ ، وأحمد في المسند ٣ / ٤٩٧ ، وابن حبان في صحيحه ١ / ١٦٢ ، والحاكم في المستدرک ٤ / ١٧١ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٩٤ / ٣ ، ومسلم في صحيحه ١٩٧٥ / ٤ .

(٤) أخرجه البخاري ٢ / ٢٢٢٧ ، ومسلم في صحيحه ٤ / ١٩٧٤ .

في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾

فالأقرب»^(١) ذكره الترمذي وأبو داود . وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : «دخلت الجنة فسمعت فيها قراءة ، فقلت من هذا ؟ فقالوا حارثة بن النعمان ، فقال رسول الله ﷺ : كذلكم البر ، كذلكم البر ، وكان أبر الناس بأمه»^(٢) ذكره النسائي . وجاء رجل لأبي الدرداء ﷺ ، فقال : إن لي زوجة ، وإن أمي تأمرني بطلاقها ، فقال أبو الدرداء : قال رسول الله ﷺ : «الوالدان أوسط أبواب الجنة ، فإن شئت فأحفظ ذلك الباب أو ضيعه» ذكره الترمذي^(٣) . وقال ابن عمر ﷺ : «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إنني أصبت ذنباً عظيماً ، فهل لي من توبة ؟ فقال : هل لك من أم ؟ قال : لا ، قال : هل لك من خالة ؟ قال : نعم ، قال : فبرها» ذكره الترمذي . وقالت أسماء بنت أبي بكر : «قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد قريش ، فقلت : يا رسول الله ، قدمت علي أمي وهي راغبة أفأصلها ؟ قال : نعم ، صليها»^(٤) ذكره في الصحيحين ، وقال أبو الطفيل : «رأيت رسول الله ﷺ يقسم لحماً بالجعرانة إذ أقبلت امرأة حتى دنت إليه ، فبسط لها رداءه فجلست عليه ، فقلت : من هي ؟ فقالوا : أمه التي أَرْضَعَتْه»^(٥) ذكره أبو داود ، ومن طريق آخر «أنه بسط رداءه ، فقعدت وقعد معها ، فزال عن مكانه ، فجاء أخوه من الرضاعة ، فأقعده معها ، وقعد هو على الأرض . وقالت عائشة رضي الله عنها : رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ كانا من أبر الناس بأمهما : عثمان بن مظعون ، وحارثة بن النعمان ، أما عثمان فقال : ما قدرت أن أتأمل أمي منذ أسلمت ، وأما حارثة فكان يطعمها بيده ولا يستفهمها كلاماً ؛ فإذا خرج من عندها يقول : ماذا قالت سيدتي ؟ . وكان ابن سيرين إذا دخل عند أمه يكلمها بضعف ، فيقول مَنْ لا يعرفه : أيشتك شيئا ؟ فيقال : لا ، ولكن هكذا يكون عند أمه ، ونادت يوماً ابن عوف أمه فأجابها ، فارتفع صوته

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٩٧٤ ، والترمذي في سننه ٤ / ٣٠٩ ، وابن ماجه في سننه ٢ / ١٢٠٧ ، والحاكم في المستدرک ٣ / ٧٤٤ .

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ١ / ١٠٩ ، والحاكم في المستدرک ٣ / ٢٢٩ ، وسعيد بن منصور في سننه ٢ / ٤١٣ ، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني ٤ / ١٦ .

(٣) أخرجه ابن الترمذي في سننه ٤ / ٣١١ ، وابن حبان في صحيحه ٢ / ١٦٨ ، والحاكم في مستدرکه ٤ / ١٦٩ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٣ / ١١٦٢ .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١ / ٤٤٠ ، وابن حبان في صحيحه ١٠ / ٤٤ ، والحاكم في مستدرکه ٣ / ٧١٧ .

على صوتها فأعتق رقبتين ، وكان طيبان بن علي من أبر الناس بأمه ، فنامت ليلة وفي صدرها عليه شيء منه ، فكره أن يوقظها ، وكره أن يقعد ، فقام حتى ضعف فدعا بغلامين له ، فتوكأ عليهما حتى استيقظت من تلقاء نفسها ، ورضيت عليه فأعتق الغلامين . وقال سفيان بن عيينة : قدم رجل من سفر وأمه قائمة تصلي ، فكره أن يقعد ، وهي قائمة ، وعلمت هي قصده فطولت ليؤجر . وقال بشر : رجل يقرب من أمه بحيث يسمع كلامه ؛ أفضل من الذي يضرب بسيفه في سبيل الله ، والنظر إليها أفضل من كل شيء . وجاء رجل وامرأة إلى رسول الله ﷺ يختصمان في صبي لهما ، فقال الرجل : ولدي خرج من صلي ، وحملته قبل أن تحمليه ، ووضعت قبل أن تضعيه ، فقالت المرأة : نعم يا رسول الله ، حملة خفا ، وحملته ثقلاً ، ووضعه شهوة ، ووضعت كرهاً ، وأرضعته حولين ، فقضى به رسول الله ﷺ للأم » ، وقيل في المعنى :

لَئِنْ كَانَ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ مُقَدَّمًا فَمَا يَسْتَوِي فِي بِرِّهِ الْأَبُ وَالْأُمُّ
وَهَلْ يَسْتَوِي الْوَضْعَانِ وَضْعُ مَشَقَّةٍ وَوَضْعُ التِّدَادِ ذَاكَ بُرٌّ وَذَا سُقْمٌ
لَأُمِّكَ ثَلَاثُهُ وَلِلْأَبِ ثَلَاثُهُ بِهَذَا أَتَاكَ النَّصُّ وَاطَّرَدَ الْحُكْمُ
إِذَا التَّفَتُّ نَحْوَ السَّمَاءِ بَطَرُهَا فَكُنْ حَذِرًا مِنْ أَنْ يُصَبَّ قَلْبُكَ السَّهْمُ
وَفِي آيَةِ التَّأْفِيفِ لِلْحُرِّ مَقْنَعٌ وَلَكِنَّهُ مَا كُلُّ عَبْدٍ لَهُ فَهْمٌ

« فصل » أيها المضيق لأكد الحقوق ، المعتاض من البر بالعقوق ، الناسي لما يجب عليه ، الغافل عما بين يديه ، بر الوالدين عليك دين ، وأنت تماطلهما باتباع الشين ، تطلب الجنة بزعمك ، وهي تحت أقدام أمك ، حملتك في بطنها تسعة أشهر كأنها تسع حجج ، وكابدت عند الوضع ما يذيب المهج ، وأرضعتك من ثديها لبناً ، وأطارت لأجلك وسناً ، وغسلت يمينها عنك الأذى ، وآثرت على نفسها في الغذاء ، وصيرت حجرها لك مهدياً ، وأنالتك إحساناً ورفقاً ، فإن أصابك مرض أو شكاية ، أظهرت من الأسف فوق النهاية ، وأطالت الحزن والنحيب ، وبذلت مالها للطبيب ، ولو خيَّرت بين حياتك وموتها ، لطلبت حياتك بأعلى صوتها ، وكم عاملتها بسوء الخلق مراراً ، فدعت لك بالتوفيق سرّاً وجهاراً ، فلما احتاجت عند الكبر إليك ، جعلتها من أهون الأشياء عليك ، فشبعْتَ وهي جائعة ، ورويتَ وهي ظامئة ، وقدمتَ عليها أهلك وأولادك في الإحسان ، وقابلت أياها بالنسيان ، وصعبَ عليك أمرها وهو يسير ، وطال عليك عمرها وهو قصير ،

في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهًا ﴾

وهجرتها وما لها سواك نصير ، وربك بتضييعك لها خبير ؛ هذا وهو هناك عن التأفيف ، وخاطبك في حقها بخطاب لطيف ، ستعاقب في دنياك بعقوب البنين ، وفي أخراك بالبعد عن رب العالمين ، يناديك لسان التوبيخ والتهديد ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد . وقيل في المعنى :

لَأُمِّكَ حَقٌّ لَوْ عَلِمْتَ كَبِيرُ	كَثِيرُكَ يَا هَذَا لَدَيْهِ يَسِيرُ
فَكَمْ لَيْلَةٌ بَاتَتْ يَثْقُلُكَ تَشْتَكِي	لَهَا مِنْ جَوَاهِرِ أَلَّةٍ وَزَفِيرُ
وَفِي الْوَضْعِ كَمْ قَاسَتْ عَلَيْكَ مَشَقَّةً	وَمَا حَجَرُهَا إِلَّا لَدَيْكَ سَرِيرُ
وَكَمْ غَسَلَتْ عَنْكَ الْأَذَى بِيَمِينِهَا	وَكَمْ غُصَصُ مِنْهَا الْفُؤَادُ يَطِيرُ
وَتَقْدِيرُكَ مِمَّا تَشْتَكِيهِ بِنَفْسِهَا	وَمِنْ تَذِيرِهَا شُرْبُ لَدَيْكَ نَمِيرُ
وَكَمْ سَهَرَتْ وَجَدًا عَلَيْكَ جَفَوْنَهَا	وَأَكْبَادُهَا لَهْفًا بِجَمْرِ الْأَسَى تَحْمِي
وَكَمْ لَيْلَةٌ جَاعَتْ وَأَعْطَتْكَ قُوَّتَهَا	حُنُونًا وَإِشْفَاقًا وَأَنْتَ صَغِيرُ
فَضَيَّعَتْهَا لِمَا أَسْتَتَّ جَهَالَةً	وَطَالَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ وَهُوَ قَصِيرُ
فَاهَا لَذِي عَقْلٍ وَيَتَّبِعُ الْهَوَى	وَأَهَا لِأَعْمَى الْقَلْبِ وَهُوَ بَصِيرُ
فَدُونُكَ فَارْغَبْ فِي عَمِيمِ دُعَائِهَا	فَأَنْتَ لِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ فَقِيرُ

وقيل : إن أبر الناس بأمه يعقوب عليه السلام حيث أظهر برها وهو في بطنها ، وذلك أن أم يعقوب عليه السلام حملت في بطن واحد بتوأمين ، فلما تمت عدة أشهر الحمل ، وجاء وقت الوضع ، تكلموا في بطنها والأم تسمع كلامهما ؛ فقال أحدهما للآخر : طرِّقْ لي حتى أخرج قبلك ، فقال الآخر : لئن خرجت قبلي لأشقن بطنها حتى أخرج من خصرها ، فقال له : اخرج قبلي ، وقيل في المعنى :

أَتَقْتَلُ أُمًّا قَدْ غَدَا بَطْنُهَا كَهَفًا	لَنَا وَالَّذِي تَحْنِي عَلَى اللَّهِ لَا يَخْفَى
وَمِنْ حَجَرِهَا مَهْدٌ لَوْ قَدْ رُقَادَنَا	وَمِنْ تَذِيرِهَا حَقٌّ هُوَ الْمُرْدُ الْأَصْفَى
وَمَوْلَانَا أَضْحَتْ وَنَحْنُ عَيْدُهَا	وَيَقْبُحُ فِعْلُ السُّوءِ يَا ذَا مَعَ الْأَكْمَا
فَدُونُكَ فَاخْرُجْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنِّي	أَلَدُّ وَإِنْ جُرْعْتُ فِي حَقِّهَا الْحَتْفَا
إِذَا كَانَ مَوْلَايَ عَلَيْكَ مُقَدَّمِي	فَمَا ضَرَّرَنِي أَنْ صِرْتُ فِي سَاعَتِي خَلْفَا

قال : فخرج الأول فسمته عيصا ؛ لأنه عصاها في بطنها ، وخرج الثاني وقد

أمسك بعقبه ، فسَمَّته يعقوب ، فنشأ عيص بالغظة والفظاظة صاحب صيد وقصص ، ونشأ يعقوب بالرحمة واللين صاحب زرع وماشية ، وكان أبوهما إسحاق عليه السلام يميل لعيص لكثرة انتفاعه به ، وكانت الأم تميل ليعقوب لكثرة بره لها ^(١) ، ثم إن الله تعالى امتحن إسحاق عليه السلام بذهاب بصره ، فأظهر الصبر والتسليم ، وقيل :

إِنْ أَفْقَدَ اللَّهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُمَا فَفِي فُؤَادِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ
عَقْلِي زَكِيٌّ وَحُكْمِي لَا خَفَاءَ بِهِ وَلِي لِسَانٌ بِحُسْنِ الْقَوْلِ مَشْهُورُ
وَإِنْ أَحْسَنَ شَيْءٍ أَنْتَ مُظْهِرُهُ صَبْرٌ إِذَا مَا جَرَى بِالْكُرْهِ مَقْدُورُ

قال : فترل جبريل عليه السلام وقال له : إن الله تعالى قد ابتلاك ورأى صبرك وعوّضك من صبرك دعوةً مستجابةً لك في أعزّ ولد عليك ، فادعُ له بما شئت ، فدعا إسحاق عليه السلام ولده عيصاً ، وقال له : يا بني ، صدّ لي صيداً ، واشتو لي لحمه ، فإنني أشتهيه ، ثم ائتني به ، فإذا قضيتُ منه شهوتي دعوتُ لك بالدعوة التي وعدني بها ربي ، فتفوز بعز الدارين ، فخرج عيص في طلب الصيد ، وكان يعقوب في ماشيته فأرسلتُ إليه أمه ، فأتني إليها ، فقالت له : اعمدْ إلى غنمك ، فاذبحْ منها شاةً ، ثم اشتو لحمها ، واجعل الجلدَ على ظهرك - لأن عيصاً كان كثير الشعر - ثم ادخل على أبيك وتنكر في كلامك ، ثم قل له : هذا ما أمرتني به ، ثم سلّه أن يدعو لك فتفوز بخيري الدنيا والآخرة ، وعرفته بما كان ، فسار يعقوب عجلاً ، وفعل ما أمرته به أمه ، وأتى به والده متنكراً ، وجعل اللحم بين يديه ، فأكل الشيخ ، ثم قال : اقربْ يا ولدي ، فجعل يده عليه ، فوجد الشعر ، وكان الشيخ يقول : سبحان الله ، اللبس لمس عيص ، والريح ريح يعقوب ، وقيل في المعنى :

أَسِيرُ وَقَلْبِي فِي يَدَيْكَ أَسِيرُ وَكُلُّ الَّذِي أَلْقَى عَلَيْكَ يَسِيرُ
وَإِنْ رُمْتُ أَنْ أُنْسَاكَ فِي الدَّهْرِ سَاعَةً يُعَاتِبُنِي قَلْبٌ عَلَيْكَ يَطِيرُ
وَأَخْضَعُ إِجْلَالاً إِذَا هَبَّ رِيحُكُمْ وَفِي الرِّيحِ لِي مَثْوَى إِلَيْهِ أَسِيرُ

فقالت الأم : هو ولدك ، فادعُ له ، فمسح الشيخ على ظهره ، وقال : اللهم ،

(١) هذا الخبر الذي أورده المصنف لم نجده إلا في تاريخ الطبري (١٩١/١)، والكامل (٩٦/١)، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا يبدو من الإسرائيليات الموضوعة في كتب التفاسير ، وعلامة ذلك واضحة عليه.

اجعل أنبياءك ورسلك سوى النبي العربي الذي أجرته في قناة أخي إسماعيل من نسل ولدي هذا إلى يوم القيامة ، فقام يعقوب وقد فاز بالدعوة ، وأحضر عيص الصيد ، فشوى اللحم ، وأتى والده ، فوجده في البيت ، فقال الشيخ وقد سمع منه نفساً : من أنت ؟ قال ولدك عيص ، جئتكم بما أمرتني به ، فقال يا بني : أولم تأتني به قبل هذا ؟ قال : لا ، قال : فاز أخوك بالدعوة دونك ، قال : والله ، لأقتلنه ، فقال : يا بني ، قدر الله تعالى ومراده ، وقيل في المعنى :

وَلَيْسَ رِزْقُ الْفَتَى مِنْ فَرْطِ قُوَّتِهِ لَكِنْ حُدُودُ بَارَزَاقٍ وَأَقْسَامِ
كَالصَّيِّدِ يَجْرُمُهُ الرَّامِي الْمَجْدُ وَقَدْ يَرْمِي فَيَرْزُقُهُ مَنْ لَيْسَ بِالرَّامِي

قال : فصار عيص يضرب لأخيه المكاييد وينصب له المصايد ، فخافت الأم عليه فقالت له : يا ولدي ، إن لك خلا بنجران^(١) ، فلو مضيت إليه وكنت عنده ، فإني أرضى بفراقك لما أخاف عليك من بأس أخيك ولا طاقة لك به ، فكن عند خالك حتى يقضي الله لكما بما يشاء ، فودعهما وخرج يريد نجران ، وقيل :

دَمْعٌ يُصَبُّ وَمُقَلَّةٌ لَا تَهْجَعُ قَلْبٌ يَذُوبُ وَمُهْجَةٌ تَنْقَطِعُ
بَانُوا فَبَانَتْ رَاحَتِي مِنْ رَاحَتِي وَالصَّبْرُ وَدَعْنِي عَشِيَّةً وَدَعُوا
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ شَخْصِي ظَاهِرٌ وَالصَّدْرُ مِنْ قَلْبِي خَرَابٌ بَلَقُعُ
وَأَجِيلُ طَرْفِي فِي الدِّيَارِ فَلَا أَرَى إِلَّا سَيُوفَ الْبَيْنِ حَوْلِي تَلْمُعُ
وَلَقَدْ أُعْنِتُ عَلَى فِرَاقِ أَحِبَّتِي لَمَّا رَأَيْتُ لَهُمْ فِرَاقِي أَنْفُعُ
يَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُغِيبُ وَهُوَ فِي أَفُقِ الْجَوَانِحِ وَالسَّرَائِرِ يَطْلُعُ
إِنْ غَبْتَ فَاْمُنْ فِي الْمَنَامِ بِزُورَةٍ إِنَّ الضَّعِيفَ بِمَا تَيْسَّرَ يَقْنَعُ
سَبَقَ الْقَضَاءُ بِبُعْدِنَا وَشَتَاتِنَا مَنْ ذَا يُخَاصِمُ فِي الْقَضَا أَوْ يَدْفَعُ
قَدْ كُنْتُ أَجْزَعُ مِنْ صُدُودِ جَفَاكُمْ فَالصَّبْرُ أَفْضَلُ مَا إِلَيْهِ يُرْجَعُ

(١) نَجْرَان : بالفتح ثم السكون وآخره نون ، يقال : نجران الباب ، أي الخشبة التي يدور عليها ، وهي موضع في محاليف اليمن ، أي خلف اليمن من ناحية مكة ، سُمِّيَتْ بنجران بن زيدان بن سبأ بن كعشجب بن يعرب بن قحطان ، قيل : سُمِّيَتْ باسمه لأنه أول من عمرها ونزلها . (انظر : معجم البلدان ٥ / ٢٦٦) .

قال : فخرج يعقوب عليه السلام يسري في الليل ، ويكمن بالنهار ، فسمي بذلك : إسرائيل ، أو لأنه أسري به في سبع سموات ، وأنه نزل أرض كنعان ^(١) ، فبعثه الله لهم نبيا ، وهو أبو الأسباط الذين دُعينا إلى الإيمان بهم ، قال الله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة: ١٣٦] . قال ابن عباس رضى الله عنهما : فقدم يعقوب على خاله واسمه ليا بن تنويل ، وكان صاحب غنم ، وقدم عليه في عام جذب ، وكان له بئر تردُّها غنمُه ، وكان أكثرُ مائها قد نضب ، فشكا ذلك إلى يعقوب ، فأخذ الرِّشَاء ، وقام على البئر ، فملاً دلواً ، فشرب منه ، ثم رد فضلته في البئر ، فإذا بالماء قد نبع ، ووصل فوق الحد وطلع ، فأجلَّه وعظَّم قدره ، فعرض عليه النكاح ، وكان يعقوب قد رأى راحيل ابنة خاله فمال إليها قلبه ، وكانوا يتزوجون المشركات ، ولا يزوجون نساءهم المشركين ، ولا يزوجون الصغار قبل الكبار ، فأجابه يعقوب إلى ذلك ، وهو يرى الصغرى وهي راحيل ، فزوجه من أختها ، فلما نظرها يعقوب قال : يا خالي ، ليست هذه التي أردتُ ، فقال : يا بني ، إنا لا نزوِّج الصغار قبل الكبار ، وإني قد زوجتك أختها الثانية استجاباً لمودتك ، واغتناباً بمقامك عندنا فتزوجهما . قال السدى والضحاك وغيرهما : ففي ذلك يقول الله تعالى ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء: ٢٣] . فأباح الله له ذلك وحرمه علينا ، فكان يعقوب بينهما في غبطة وسرور ونعمة وحبور ، وكان لهما جاريتان أختان ، فوهبته كل واحدة منهما جاريتها ، فجمع بين أختين حرتين وأختين أمتين ، وكان زوجه ابنته على أن يعمل في غنمه سبع سنين ، فلما انقضت المدة اشتاق يعقوب إلى الرجوع إلى أمه وأبيه وأهله وأخيه ، وقيل :

إِلَيْكُمْ رَحَلْنَا لَا لِرَبْعٍ وَمَعَهْدٍ	فَأَنْتُمْ مَحَلُّ الْأُنْثَى فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
نَزُورُكُمْ لَوْ لَمْ تَنْلُ غَيْرَ نَظَرَةٍ	لَكَائَتْ لَنَا بُشْرَى بِإِنْجَازِ مَوْعِدٍ
أُسْكَا نَ قَلْبِي وَالْدِّيَارُ بَعِيدَةٌ	وَمَطْمَعُ نَفْسِي وَالْعُيُونُ بِمَرْصِدٍ
فَلَمْ يَبْقَ مِنِّي غَيْرُ قَلْبٍ مُرَوِّعٍ	يُرَاعِي الْمَنَايَا تَحْتَ جَفْنِ مُسَهَّدٍ

(١) كَنْعَان : بالفتح ثم السكون وعين مهملة وآخره نون ، قال ابن الكلبي والأزهري : هو كنعان بن سام بن نوح ، وإليه ينسب الكنعانيون ، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية ، وقاله ابن منظور في لسان العرب (٣١٦/٨) . (انظر معجم البلدان ٤/٤٨٤ ، ٤٨٥) .

في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾

أَمَّا لَكُمْ بِالرَّفَقِ بِالصَّبِّ حِيلَةٌ فَمَا هُوَ إِلَّا هَامَةٌ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ
أَصَابَ النَّوَى قَلْبِي نَعَمَ وَفُؤَادُهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ بَسْطَ اللِّسَانِ وَلَا الْيَدِ
وَهَا هُوَ وَافَاكُمْ عَلَى قَدَمِ الرِّضَا بِحَقِّكُمْ رَقُّوا لَصَبٍّ وَمُكْمَدٍ

قال : فلما علم خاله ذلك اشتد عليه فراقه ، وقال له : كيف ترجع إلى أهلِكَ دون شيء ؟ أقم عندي سنة ، وأجعل لك جُعلاً ترجع به إلى أهلِكَ ، قال : وما تجعل لي ؟ قال : أجعل لك غنمي شطرين ، فما ولد الشطر عناقاً فهو لك ، قال : قد رَضِيتُ ، فأقام عنده فلما كان وقت نتاج الأغنام أتى جبريل عليه السلام إلى يعقوب فقال : يا يعقوب ، اذهب إلى موضع كذا وكذا من الوادي ، فإن هناك شجرة كذا وكذا ، فاضربها بعصاك يتساقط عليك ورقها فاتفل عليه ، ثم سرح الغنم ، فإنه لا تأكل منه شاة إلا حملتُ عناقاً ، ففعل يعقوب ذلك ، فكان بقدره الله تعالى ، فلما رأى خاله ذلك كبر عليه ، وقال : أرى أن تقيم عندي عاماً ثانياً ، وأجعل لك ما وُلد من شطر غنمي ذكورا ، قال : فأقام عنده ، فلما كان وقت نتاج الغنم أتاه جبريل عليه السلام فقال : اذهب إلى الوادي ، واثت شجرة كذا ، فاضربها بعصاك ؛ فإذا تساقط ورقها فاتفل عليه ، وسرّح غنمك ، فإنه لا تأكل شاة منها ورقة إلا حملتُ ذكراً ، ففعل ذلك ؛ فلما رأى خاله ذلك ، قال : يا يعقوب ، إن ربك الذي تعبد لِقادر ، فودّع خاله وسار بأهله ، وكان قد دعا زوجته وجاريتيهما إلى الله سبحانه وتعالى فأسلمن ، وكانت إحدى زوجته قد أمرت أحد أولادها أن يسرق صنم جده ، فلما خرجوا عن الشيخ اشتد عليه فراقهم ، فجاء إلى صنمه ليستأنس به فلم يجده ، فركب في أثر يعقوب حتى لحقه ، وقال : يا يعقوب ، ما كافأتني ولا وصلت رحمك ، فقال : وما ذاك ؟ قال : سرقت إلهي ، قال : يا خالي ، وما تفعل بإله يسرق ؟ يا خالي ، ألا أدلك على ما هو خير لك ؟ تعبد الله الذي لا إله إلا هو ، وأنا أعطيك جميع ما حملته من عندك سوى أهلي وولدي ، وقيل :

أَتَرَكُ مَنْ يَقْضِي الْقَضَاءَ وَيَخْلُقُ وَيُعْطِي عَطَايَاهُ الْعِبَادَ وَيَرْزُقُ
وَتَعْبُدُ عَوْداً قَدْ تَبَيَّنَ عَجْزُهُ أَلَسْتُ تَرَاهُ كَيْفَ يُؤْذَى وَيُسْرَقُ
وَقَدْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ مِنْ فِعْلِهِ مَعِيَ دَلَائِلَ كَالشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ تُشْرِقُ
فَدَيْتُكَ فَارْجِعْ لِلَّذِي أَنْتَ عَبْدُهُ فَإِنَّ رُجُوعَ الْعَبْدِ لِلْحَقِّ أَلْيَقُ
فَخُذْ كُلَّ مَا عِنْدِي وَوَحِّدْهُ سَاعَةً لَعَلَّكَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تُلْحَقُ

فقال الشيخ : يا يعقوب ، اردده عليّ ، ولا حاجة لي فيما ذكرت ، فردّه إليه وسار بماله وأهله وولده وهم اثنا عشر ، وراحيل لم يكن له منها سوى ولدين يوسف وبنيامين عليهما السلام ، فلما قربوا من كنعان أخذ يعقوب أولاده ، وألبسهم أحسن الثياب وزينهم وقدمهم ، وقال : يا بني ، إذا لقيكم رجل طويل أشقر ذو سلاح وقوة ويقول لكم : من أنتم ؟ فقولوا : نحن أولاد يعقوب عبد عيص اشتاق إلى رؤية سيده ، فأتاه برفيقه وأولاده وأهله وماله ، وكان عيص قد سمع بوصول أخيه ، فتنكب قوسه وسلاحه وخرج فاستقبله الأولاد ، فلما نظر إليهم أقبل عليهم وسألهم ، فأخبروه بما أوصاهم به أبوهم ، فرق قلبه ودمعت عيناه ، وقيل في المعنى :

وَأُرْمِيتُ رُشْدًا بَيْنَ تِلْكَ الْمَضَارِبِ	خَضَعْتُ ذَلِيلًا حِينَ عَزَّتْ مَطَالِي
سَأَقْضِي وَمَا قَضَيْتُ مِنْهُ مَا رِي	وَلِي أَرْبٌ بِالْجَزَعِ إِنْ لَمْ أَقْضِهِ
تَلَقَّيْتُهَا بِالرَّحْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ	إِذَا قَدِمْتَ مِنْ سَفَرَةِ الْبَيْنِ عَيْسُكُمْ
لَمَّا قَدْ عَلَاهَا مِنْ تُرَابِ الْحَبَابِ	وَقَبْلْتُ أَخْفَافَ الْمَطِيِّ كَرَامَةً
لَأَنَّ سُرُورِي أَنْ أَرَاكَ مُعَاتِبِي	وَأَقْصِدُ ذَنْبًا لِي تُعَاتِبَنِي بِهِ

قال فرمى عيص سلاحه وقال : أخي وابن أُمي يعترف لي بالعبودية ، وأنا أجد فعله ، وأنكر فضله ، وأريد قتله ، فتلاقيا وتعانقا ، فقال يعقوب : يغفر الله تعالى لك يا أخي كل ما بين يدي تحكم فيه بما شئت ^(١) ، وقيل في المعنى :

وَأَنْتُمْ مُنَى قَلْبِي وَإِنْ وَقَعَ الْبُعْدُ	أَتَيْتُكُمْ وَالشَّوْقُ نَحْوَكُمْ يَحْدُو
فَمَا بَرَحَ الْحُبُّ الصَّحِيحُ وَلَا الْوُدُّ	لَئِنْ بَرَحَتْ دَارِي وَشَطَّ مَزَارُنَا
كَحَنَّةٍ صَادٍ مِنْهُ قَدْ قَرُبَ الْوَرْدُ	وَلِي حَنَّةٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ إِلَيْكُمْ
وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى فَقَدْ سَلِمَ الْعَبْدُ	فَإِنْ تَصَلُّوْني تَسْمَحُوا لِي بِبُعْثِي
دَعُوا مَا مَضَى إِنَّا مِنْ الْيَوْمِ نَسْتَبْدُوا	وَلَا أَذْكَرُ الْمَاضِي الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا

(١) القصة التي أوردها المصنف بطولها ، ذكرها الطبري في التاريخ (١٩٢/١ ، ١٩٣) ، وفيها من الغرابة ما يؤكد أنها من الإسرائيليات .

قال : فبقيا في غبطة وسرور ونعمة ، وسُرَّ الوالدان بهما برهة من الدهر ، ولقد قيل : إن يعقوب عليه السلام وعيصا ماتا في يوم واحد ودفنا في قبر واحد ؛ كما كانا في أول حالهما في بطن واحد ، فسبحان مَنْ لا مطلع لعلمه ، ولا معقب لحكمه ، وهذه القصة شاهدة لما يهبه الله تعالى من بر الوالدين ، فتيا من ببقائهما واستكثر من لقائهما ، فالموت آت عن قريب ، وكم فرَّق بين محب وحبيب ، وما أسرع فرقة الصاحبين ، إذا صاح بَيْنٌ ، وقيل في المعنى :

وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلسَّلَامِ تَبَادَرْتُ دُمُوعِي إِلَى أَنْ كِدْتُ بِالدَّمْعِ أَغْرُقُ
فَقُلْتُ لِعَيْنِي هَلْ مَعَ الْوَصْلِ عِبْرَةٌ ؟ فَقَالَتْ : أَلَسْنَا بَعْدَ ذَا تَنْفَرَقُ ؟

قال أبو إسحاق الصعلوكي رحمه الله تعالى : خرجت مرة إلى الحج ، فبينما أنا أتية في البداية إذ جنَّ الليل عليّ ، وكانت ليلة مقمرة ، إذ سمعتُ صوت شخصٍ ضعيف يقول : يا أبا إسحاق ، قد انتظرْتُك من الغداة ، فدنوت منه فإذا هو شابٌ نحيل الجسم قد أشرف على الموت ، وحوله رياحين كثيرة ؛ منها ما أعرف ، ومنها ما لا أعرف ، فقلت له : من أين أنت ؟ قال : من مدينة شمشاط ، كنت في عز ورفعة ، فطالبتني نفسي بالعزلة ، فخرجتُ وقد أشرفتُ على الموت ، فدعوت الله تعالى أن يقيض لي وليا من أوليائه ، وأرجو أن يكون أنت ، فقلت : ألك أهل ؟ قال : نعم ، لي والدة وإخوة وأخوات ، فقلت : هل اشتقت إليهم قط ؟ قال : لا ، إلا اليوم ، فإني استنشقتُ ريحهم ، فاحتوشتني السباع والبهائم والهوام ، وبكين معي ، وحملن إلي هذه الرياحين ، قال : فبينما أنا كذلك ، وقد رقَّ له قلبي ، وإذا بحجة قد أتته وفي فمها باقة نرجس كبيرة ، وقال : دع شرك عني ، فإن الله تعالى يغارُ على أوليائه ، قال : فغشي عليّ ، فما أفقتُ إلا وقد خرجتُ روحه ، رحمه الله تعالى ، وقيل في المعنى :

مَاتَ الْغَرِيبُ بِأَرْضٍ لَا أُنِيسَ بِهَا
لَهُ لِبَانَاتُ نَفْسٍ لَيْسَ يَبْلُغُهَا
شَاقُ الْفُؤَادِ إِلَى اسْتِنْشَاقِ رِيحِهِمْ
فَأَرْسَلَ الْوَحْشَ بِالْأَزْهَارِ يَقْصِدُهُ
فَعِنْدَمَا مَدَّ لِاسْتِنْشَاقِ رِيحِهِمْ
إِلَّا الْهَوَامُ وَوَحْشُ الْفَقْرِ وَالْأَسَدُ
أَلَامَ قَصْدَ وَشَمْشَاطُ هِيَ الْبَلَدُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَلْقَى وَمَا يَجِدُ
لَيْسْتَ رِيحَ فُؤَادٍ شَفَهُ الْكَمَدُ
مِقْدَارَ بَاعٍ خَلَا مِنْ رُوحِهِ الْجَسَدُ

قال : ثم وقع عليَّ سبات ، فانتبهتُ وأنا على الجادة ، فدخلتُ مدينة شمشاط بعد ما حججتُ ، فاستقبلتني امرأة ويدها ركوة ما رأيتُ أشبه بالشاب منها ، فلما رأيتني قالت : يا أبا إسحاق ، ما فعل الشاب الغريب فإني انتظرتك منذ كذا وكذا ؟ فذكرتُ لها قصته إلى أن قلتُ لها : قال : أردت أن أشمهم ، فقالت : آه ، بلغ الشم السم ، وخرجت نفسها ، وقيل في المعنى :

بَلَغَ الشَّمُّ فُؤَادِي فَأَنَا	رَهَنٌ بَيْنَ غَرَامٍ وَضَنَى
آه مِنْ مَوْتِ غَرِيبٍ لَمْ يَجِدْ	مُؤْنَسًا يَشْكُو إِلَيْهِ الشَّحَنَا
قُرَّةُ الْعَيْنِ حَبِيبِي وَلَدِي	فَرَّقَ الدَّهْرُ كَذَا مَا بَيْنَنَا
بَعْدَ بُعْدِي مِنْكُمْ نُورَ الْحَشَا	مَا رَأَتْ عَيْنَايَ شَيْئًا حَسَنًا
حَكَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا بِالنَّوَى	فَلَهُ الْحَمْدُ جَهَارًا عَلَنًا
لَوْ تَرَى أُمَّكَ مَا قَدْ نَالَهَا	جُدَّتْ بِالذَّمْعِ عَلَيْهَا حَزَنًا
وَلَقَدْ أَرْجُوَ الَّذِي فَرَّقَنَا	فِي جَنَانِ الْخُلْدِ أَنْ يَجْمَعَنَا

قال : فخرجتُ أترابٌ عليهن المرقعات والقوطُ ، فتكفلن أمرها ، وتولين دفنها ، رحمة الله تعالى عليها .

المجلس الثاني

في قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٤] .

الحمد لله الذي ضرب بسيف الختوف رقاب الجبابرة ، وصلب بيلام إرغام جوازم الانتقام تعزز الأكابر والأكاسرة ، فأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور ، وقذفهم في ظلمات الحافرة ، وبدد أموالهم ، وأحال أحوالهم ، وصيرهم أمثالا عابرة ، فأصبحوا عظة للألباب الحاضرة ، وعبرة للعيون الناضرة ، فسبحان من زين وجه سماء قلوب المحبين العارفين بنجوم التوحيد النائرة ، وأطلع فيها شمس التحقيق وأقمار التصديق فهممهم إليه نائرة ، وأجاب سؤالهم وأراهم حالهم فكأنهم في أرض الساهرة ، إن قاموا قاموا لأوامره ، وإن ناموا أتتهم البشائر المتواترة ، ووصفهم مولاهم في آياته الباهرة ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٤] أحمده علي نعمه الباطنة والظاهرة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أكفر بها ما سلف من الأفعال الفاجرة ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المؤيد بالمعجزات الباهرة ، والمخصوص بالسجاي العليا والرتب السنية الفاخرة ، صلى الله عليه وعلى آله أولى الأعمال الزكية والنفوس الطاهرة ، صلاة تدوم وتقوم ما اكتحلت بالنام جفون ساهرة ، وذكرت بالحمى قبور دائرة ، وسلم تسليما كثيرا ، وقيل في المعنى :

وَنَكَّسَ الرَّأْسَ رَأْسَ الذِّلِّ وَالْفِرَقِ	كَحَلِّ جُفُونِكَ كَحَلِّ الشُّهْدِ وَالْأَرْقِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْمَرَ الْبَوَّابُ بِالْعَلَقِ	وَقَفَّ عَلَى الْبَابِ يَا مَسْكِينَ مُحْتَجِدًا
فَالسَّبْقَ تَعْرِفُهُ فِي آخِرِ الطَّلُقِ	وَلَتُخْبِرَنَّ قَلْبَكَ الْمَصْدُودَ يَا بَطِرًا
وَأَنَّهُ بِالظَّمَا يَشْكُو مِنَ الْحَرَقِ	عَجِبْتُ مِنْ وَاقِفٍ بِالْمَاءِ يُبْصِرُهُ
بِزِينَةِ ثَوْرُهَا يَزْهُو عَلَى الشَّقَقِ	وَاللَّهِ رِجَالٌ مِنْهُ أَتَحَفَّهُمْ
وَبِالْمَسَاءِ بُدُورُ اللَّيْلِ وَالْعَسَقِ	فِيالْتَّهَارِ شُمُوسٌ إِنْ نَظَرْتَ لَهُمْ
وَقَدْ جَهَلْتَ سَبِيلَ السَّيْرِ وَالطَّرْقِ	قُلْ كَيْفَ يَطْمَعُ يَا ذَا بِاللَّحَاقِ بِهِمْ
فَقَدْ يُفِيدُ النَّدَا مَنْ ظَلَّ فِي غَرَقِ	قِفْ فِي فَيَافِي التَّنَادِي خَاضِعًا لَهُمْ
وَرُمْتُ تَخْلِصَهَا مِنْهُ فَلَمْ أَطِقِ	يَا مَنْ وَهَبَتْ لَهُ رُوحِي فَعَذَّبَهَا

أَصْبَحْتُ عِنْدَكَ بَعْدَ الْعَزِّ مَنْطَرِحاً وَطَالَمَا كُنْتُ مَحْمُولاً عَلَى الْحَدَقِ
فَارْحَمْ حُشَّاشَةَ نَفْسٍ فِيكَ قَدْ تَلَفْتُ قَبْلَ الْمَمَاتِ فَهَذَا آخِرُ الرَّمَقِ
فَلَوْ مَضَى الْكُلُّ مِنِّي لَمْ يَكُنْ عَجَباً وَإِنَّمَا عَجَبِي فِي الْبَعْضِ كَيْفَ بَقِيَ

قوله تعالى : ﴿ لَّهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٤] .

تكلم الناس في هذه الآية ، فقال مجاهد : هو الرجل المؤمن يرى الرؤيا الصالحة ، وهي من أعمال الأنبياء جزء من سبعين جزءاً من النبوة ، وسأل رجل من أهل مصر ابن عباس عن هذه الآية ، فقال : ما سألتني أحدٌ عنها منذ سألت رسول الله ﷺ إلا رجل واحد سأل النبي ﷺ ، فقال : ما سألتني أحدٌ عنها منذ نزلت إلا رجل واحد : هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المؤمن أو تُرى له . وفي الصحيحين من حديث سمرة بن جندب قال : كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة الصبح أقبل علينا بوجهه ، فقال : مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا ؟ فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَيْهِ ، فيقول ما شاء الله ، فسألنا يوماً وقال : هل رأى أحدٌ منكم رؤيا ؟ فقلنا : لا ، قال : لكنني رأيتُ الليلةَ رجلين أتياني فأخذاني بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة ؛ فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوبٌ من حديد يدخله في شذقه حتى يبلغ قفاه ، ثم يفعل بشذقه الآخر كذلك ، ويلتئم شذقه الأول فيعود فيصنع به مثله ، فقلت : ما هذا ؟ قالاً : انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهرٍ أو بصخرة يشدخ بها رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر ، فينطلق إليه فيأخذه ، فلا يرجع حتى يلتئم رأسه ، ويعود كما كان ، فيعود إليه فيضربه ، فقلت : ما هذا ؟ فقالاً : انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا إلى ثقب مثل التور أعلاه ضيقٌ وأسفله واسع ، يتوقد تحته نار وفيه ناس ؛ فإذا قربت منهم النار ، ارتفعوا حتى كادوا يخرجون منها ، فإذا خمدت رجعوا فيها وهم رجال ونساء عراة ، فقلت : ما هذا ؟ قالاً : انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم ورجل قائم على شاطئ النهر ، ورجل بين يديه حجارة ، فيقبل الرجل الذي في النهر إذا أراد أن يخرج ، رمى الرجل بحجر في فيه ، فيرجع كما كان ، قلت : ما هذا ؟ قالاً : انطلق ، فانطلقنا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان ، وإذا برجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها ، فصعدا بي إلى الشجرة ، وأدخلاني داراً لم أر قط مثلها ولا أحسنَ منها ، فيها رجال وشيوخ وشبان ونساء وصبيان ، ثم أخرجاني منها ، وصعدا بي الشجرة فأدخلاني داراً هي أحسنُ من الأولى وفيها شيوخ وشبان ، فقلت لهما : إنكما طوفتما في الليلة فأخبراني

عما رأيتُ ، قالوا : نعم ، أما الرجل الذي رأيته يشق شذقيه فكذاب يحدث بالكذبة ، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به كما ترى إلى يوم القيامة ، والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ، ولم يعمل بما فيه في النهار يفعل به ما رأيته إلى يوم القيامة ، والذين رأيتهم في الثقب فهم الزناة ، والذي رأيته في النهر أكل الربا ، والشيخ الذي رأيته في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام ، والصبيان الذين حوله أولاد المؤمنين ، والذي يوقد النار مالك خازن النار ، والدار الأولى التي دخلتها دار عامة الناس ، وأما هذه الدار فدار الشهداء ، وأنا جبريل ، وهذا ميكائيل ، ارفع رأسك ، فرفعت رأسي ، فإذا فوقي مثل السحاب ، وفي طريق آخر مثل الذبابة البيضاء ، فقالوا : هذا مترلك ، فقلت : دعاني أدخل مترلي ، قالوا : إنه بقي لك عمرٌ لم تستكمله ؛ فلو استكملته أتيت مترلك ^(١) .

وذكر أبو داود عن عبد الرحمن بن سمرة قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في مسجد المدينة فقال : لقد رأيْتُ البارحة عجباً ، رأيْتُ رجلاً من أمي سلط عليه عذاب القبر ، فجاءه وضوءه فردّه عنه ، قال : ورأيْتُ رجلاً من أمي احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله تعالى فخلصه من أيديهم ، قال : ورأيْتُ رجلاً من أمي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، قال : ورأيْتُ رجلاً من أمي يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً مُنع ، فجاءه صيام شهر رمضان فسقاه ، قال : ورأيْتُ رجلاً من أمي والنبیون قعودٌ حلقاً حلقاً كلما دنا من حلقة طرد ، فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده وأجلسه إلى جانبي ، قال : ورأيْتُ رجلاً من أمي فوقه ظلمة وتحت ظلمة ، وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ، ومن بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة ، فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور ، قال : ورأيْتُ رجلاً من أمي مُتّقياً بوجهه وهج النار وشررها ، فجاءته صدقته فصارت على وجهه ستراً وظللت على رأسه ، قال : ورأيْتُ رجلاً من أمي يكلم الناس ولا يكلمونه ، فجاءته صلة الرحم ، فقالت : يا معشر المسلمين ، كان هذا واصلًا للرحم فكلموه ، فكلموه وصافحوه ، قال : ورأيْتُ رجلاً من أمي قُربٌ للميزان فخف ميزانه ، فجاءته أقراضه فثقلت ميزانه ، قال : ورأيْتُ رجلاً من أمي أخذته الزبانية من كل مكان ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيهِ عن المنكر فاستنقذه وأدخلاه منزل الرحمة ، قال : ورأيْتُ رجلاً من أمي يهوي في النار ، فجاءه بكاءه من خشية الله تعالى فاستخرجه ، قال : ورأيْتُ رجلاً من أمي على الصراط يزحف أحياناً فجاءته صلاته عليّ فأقامته على قدميه ، قال : ورأيْتُ

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٧٧٥ ، والبخاري في صحيحه ١ / ٥٢ .

زادك الجد شيئاً في المنام لردناك في اليقظة ، وقيل :

شَوَاهِدُ أَهْلِ الصَّدَقِ فِي الْحُبِّ تُعْرِفُ فَلَيْتَكَ مِنْهُمْ أَيُّهَا الْمُتَخَلِّفُ
جُسُومُهُمْ تَنَأَى وَإِنْ قُلُوبُهُمْ لَهَا أَعْيُنٌ أَجْفَائُهَا لَيْسَ تَطْرَفُ
لَنْ كَانَتْ الْأَشْخَاصُ مِنْهُمْ تَبَاعَدَتْ فَأَرْوَاحُهُمْ عِنْدَ الْكَرَى تَتَأَلَّفُ
وَقَدْ سَمِعْتَ أَذْنَاكَ قِصَّةَ سَيِّدٍ لَهُ رُتْبَةٌ بَيْنَ الْأَنْامِ تُشْرَفُ
أَتَاهُ صَدِيقٌ فِي الْمَرَاثِي مُعْرِفًا فَالْفَأْهُ بِالرُّؤْيَا الْكَرِيمَةِ يُعْرِفُ
تَوَاصَلُ أَرْبَابُ الْقُلُوبِ تَحَدُّدًا إِذَا زَالَتِ الْأَجْسَامُ زَالَ التَّعَسُّفُ
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الرُّوحُ تَأَلَّفُ جِسْمَهَا وَتَسْرَحُ فِي رَوْضِ الرِّضَا ثُمَّ تُشْرَفُ
وَيُبْصِرُ مَوْلَاهَا بِلا رَفْعِ حَاجِبِهِ فَيُتَحَفُّهَا بِالْقُرْبِ مِنْهُ وَيُزِلِفُ

وقيل : إن أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء فكان مع خديجة حتى كمل له من العمر أربعون سنة ، وكان يقول : يا خديجة ، دعيني أتحنث ، فكانت تصنع له الكعك والزبيب ، ثم يخرج إلى جيات الأصغر ، وقيل : إلى غار حراء فخرج إليه يوماً ، فهتف به جبريل عليه السلام ولم يبدُ له ، فعُشي عليه ، فحمله المشركون إليها ، وقالوا : دونك يا خديجة ، قد تزوجت مجنوناً ، فوثبت خديجة من السرير ، وضمته إلى صدرها ، ووضعت رأسه في حجرها ، وقبّلت بين عينيه ، وقالت : تزوجت نبياً مرسلًا ، فلما أفاق قالت : بأبي أنت وأمي ، جعلني الله فداك ، ما الذي أصابك ؟ هل رأيت شيئاً أنكرته ؟ قال : ما أصابني إلا الخيرُ غير أني سمعتُ صوتاً أفرغني ، ففرحتُ خديجة واستبشرتُ ثم قالت له : إذا كان من الغد فعُدْ إلى الموضع الذي كنتَ فيه بالأمس ، فإن يكن ملكاً فسيرجع ، وإن يكن شيطاناً فليس براجع ، قال فلما كان اليوم الآخر خرج ﷺ إلى موضعه فهتف به جبريل عليه السلام ولم يبدُ له ، فعُشي عليه وحملوه ، وفرحت قريش بذلك ، وقالوا : زوج خديجة يتخبطه الشيطان ، فحملوه إليها ، وقالوا مثل القول الأول ، وعملت به مثلي عملها الأول ، فلما أفاق سأله وقالت : بأبي أنت وأمي ، هل رأيت اليوم شيئاً ؟ فقَصَّ عليها القصة ، وفرحت وقالت : إذا كان من الغد فارجع ، فرجع من الغد إلى موضعه ، فبدا له جبريل عليه السلام في أحسن صورة وأطيب رائحة ، فقال : يا محمد ، إن الله تبارك وتعالى يُقرئك السلام ، ويقول لك : أنت رسولي إلى الثقلين الإنس والجن ،

فادعهم إلى قول لا إله إلا الله ، ثم قال : ألا تعرفني ؟ قال : لا ، قال : أنا أخوك جبريل ، وأنت محمد ، ولا نبي بعدك ، ثم ضرب جبريل عليه السلام الأرض برجله فنبعت عين ماء ، فأمره أن يتوضأ ، وقام جبريل عليه السلام يصلي ، وأمره أن يصلي معه ، فعلمه الوضوء والصلاة ، وعلمه (اقرأ باسم ربك الذي خلق) إلى آخرها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأتهم بجبريل ، وعرج جبريل إلى السماء ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من جباد الأصغر ، فكان لا يمر بحجر ولا مدر ولا شجر إلا سلم عليه وهو ينادي : السلام عليك يا رسول الله ، حتى أتى إلى خديجة ، فأخبرها بالكرامة التي أكرمها الله تعالى بها من الرسالة والنبوة ، فغشي عليها من الفرح ، فنضح عليها الماء حتى أفافت ، فأمنت بالله ورسوله ، وقيل :

رَمَوْا بِالْجُنُونِ نَبِيَّ الْوَرَى	وَتَاجَ الْكَرَامِ وَمُزْنَ الْأَوَامِ
وَقَالُوا : خَدِيجَةُ هَذَا الَّذِي	مَلَأَتْ بِهِ قَلْبَكَ الْمُسْتَهَامِ
أَصَابَتْهُ مَا بَيْنَنَا غَشِيَةٌ	فَمَا هُوَ مَا إِنْ يَبِينُ الْكَلَامِ
فَقَالَتْ لَهُمْ أَنْتُمْ بِالَّذِي	تَقُولُونَ أُخْرَى وَرَبَّ الْأَنَامِ
فَخَلُّوا حَبِيبِي وَسِيرُوا فَمَا	يُؤْتَرُ عِنْدِي فِيهِ الْمَلَامِ
فَضَمَّتْهُ شَوْقًا إِلَى صَدْرِهَا	وَقَالَتْ : مُحَمَّدٌ مَاذَا الْهِيَامِ
فَقَالَ : لَهَا جَاءَنِي هَاتِفٌ	مِنْ اللَّهِ جِبْرِيلُ يُقْرِئُ السَّلَامِ
عَلَيَّ وَيُخْبِرُنِي أَنَّي	رَسُولُ الْإِلَهِ لِهَذَا الْأَنَامِ
أَلَا فَاسْلِمِي تَسْلِمِي مِنْ لَطَى	فَإِنَّكَ أَوْلَى بِهِذَا الْمَقَامِ
فَقَالَتْ لَهُ : إِنِّي قَدْ شَهِدْتُ	بِأَنَّ الْإِلَهَ قَدِيمُ الدَّوَامِ
فَصَلُّوا عَلَيْهِ أَيَا إِخْوَتِي	وَقُولُوا جَمِيعًا : عَلَيْهِ السَّلَامِ

وقيل : إن ثلاثة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رأوا ثلاث مرءٍ ، وكانت في ظاهرها امتحاناً ، وفي باطنها امتناناً :

أولهم : إبراهيم الخليل عليه السلام : مال قلبه إلى ابنه فأمر بذبحه ، فقال ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فقال : يا أبت ، هذا جزاء من نام عن حبيبه ، لو لم تنم ما أمرت بذبحي ، فلما تله للجبين ، ورجع بقلبه إلى الحق

المبين ، فرج كربه العظيم ، وفدى الولدَ بذبحٍ عظيم ، وقيل له : ليس المراد ذبحه لدينا ، إنما المراد تصفية قلبك إلينا ، فلما فرغتَ إلينا قلبك وجلدك ، رددنا عليك ولذلك .

الثاني : رسول الله ﷺ : رأى أنه يدخل مكة معتمراً ، فأخبر أصحابه ، وخرج في سبعمائة ، فصده المشركون عن البيت ، فجمّ النفاق من أهله ، وقالوا : إنه أخبرنا برؤيا ، ووجب أن تكون حقاً ، حتى كان يأمرهم بالنحر فلا ينحرون ، وبالخلق فلا يخلقون ، فدخل على أم سلمة وشكا إليها ذلك ، فقالت : اخرج واحلق وانحر ، فإذا رأوك حلقوا ونحروا ، فخرج فنحر وحلق ، فنحروا وحلقوا ، ودخل عمر على أبي بكر الصديق ، وقال له : فرج عني هذه النازلة ، فقال له أبو بكر : هل أخبركم بدخولها هذا العام ؟ قال : لا ، قال : فذلك كذلك ، فقال : عمر : فرج الله كربك كما فرجت كربى ، فوقع الصلح ورجع عامه ذلك ، فخالط المسلمون المشركين ، ورأوا حسن الدين ومكارم الأخلاق ، فما زال الإسلام يكثر حتى دخلها - أعني مكة - في عشرة آلاف .

والثالث : يوسف عليه السلام : قيل : إنه رأى ثلاث مرأى :

أحدها : أنه كان نائماً في حجر أبيه ، فرأى كأنه خرج مع إخوته إلى البرية ، فاحتطبوا واحترم كل واحد منهم حزمة ، واحترم يوسف حزمة ، فإذا حُزِمَ إخوته تسجدُ لحزمته ، فانتبه فزعاً مرعوباً ، وأخبر أباه بذلك ، فقال : يا بني ، إني أخاف عليك منها ، ولم يأمره بكتماها ، فقصّها على إخوته ، فاغتاظوا لذلك ، وتأمروا في شأنه ، فلما كان بعد سنة من هذه الرؤيا ، نام في حجر أبيه ؛ لأن يعقوب كان يحبه ؛ لأن أمه ماتت في نفاس أخيه بنيامين^(١) ، وكان الله تعالى قد أعطاه نصف الجمال ، وأعطى الخلق كلهم نصفه كما ورد في الخبر ، فانتبه مرعوباً ، وقال : يا أبت ، إني رأيت الشمس والقمر قد نزلا من السماء ، فتمثلا بين يديّ ، ثم رأيتُ أحدَ عشر كوكباً قد نزلتْ ، فسجدوا لي جميعاً ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤] ، فالرؤيا الأولى : رؤية الأشخاص ، والثانية : رؤية الأفعال ، فعلم أبوه أن الأحد عشر كوكباً إخوته ، والشمس والقمر أبوه وخالته ؛ لأنها مقامُ الأم ، فعبر له

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٩ / ١١٦) ، أن أسماء إخوة يوسف عليه السلام هي : روبيل ، وشعمون ، ولاوى ، ويهوذا ، وزيالون ، ويشجر ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وآشر ، وبنيامين . ولم أقف على سند يُعَوَّل عليه ، كما لم نجد حديثاً صحيحاً في ذلك .

الرؤيا ، ونهاه أن يذكرها لإخوته ، فقال : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف: هـ] ، وقيل في المعنى :

ظُهُورُ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ وَبَدْءُ الْأَنْجُمِ الزُّهْرِ
دَلِيلُ أَتْكَ السَّامِي عَلَى الْأَخَوَاتِ فَلْتَدْرِ
فَلَا تُخْبِرُهُمْ شَيْئًا وَلَا تُطْلِعْ عَلَى السِّرِّ
فَإِنِّي خَائِفٌ مِنْهُمْ وَخَوْفُ الْعَبْدِ لَا يُبْرِئِي
مِنَ الْمَقْدُورِ إِنْ وَافَى لِمَنْ فِي قَبْضَةِ الْقَهْرِ

قال : ففرح يوسف عليه السلام بتعبير رؤياه ، وأنساه الشيطان نصيحة أبيه ، فذكر ما حذره أبوه لإخوته ، فزاد همهم بأمره ، وتشاوروا في شأنه .

ثم بعد ذلك رأى رؤيا **ثالثة** : وذلك أنه كان لكل واحد من الأسباط قضيبٌ ، وكان ليوسف عليه السلام قضيبٌ ، وكان يوسف عليه السلام نائما في حجر بعض إخوته فانتبه وقال : يا إخوتي ، رأيتُ رؤيا كأن قضيسي غرس بينكم وغرستُ قضبانكم حوله ، فعلا قضيسي وأثمر ، وتلاشت قضبانكم حتى كأنها لم تكن ، فزاد غيظهم ، وتأكدت عداوتهم ، وكان ذلك منهم قبل أن يؤتيهم الله تعالى النبوة ، فقال بعضهم لبعض : لا بد لابن راحيل أن يقول : أنتم عبيدي وأنا سيدكم ؛ ألا تنظرون لأبيكم كيف يخصه بالقرب ويحاييه بالتحف ، وأنتم تكابدون رعي الأغنام وتحصيل المعيشة وملاقة الشدائد ؟ فانظروا في شأنكم قبل أن يتفاقم أمره عليكم ، ويتعاضم خطره لديكم ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف: ٩] ، انظروا إلى رتبة النبوة كيف فزعوا إلى التوبة ، ووعدوا بها قبل الوقوع في الذنب ؛ فقالوا : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف: ٩] ، أي تائبين ، فمتى تلحق رتبة من يتوب بعد الذنب ممن يتوب قبل الذنب ؟ فصلوات الله عليهم أجمعين . ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

[يوسف: ١٠] ، قيل : إن القائل لهذه يهودا ، فتشاوروا في البطش به ، وعلموا أن ذلك لا يكون بحضرة الشيخ يعقوب ، ولم يهتدوا إلى حيلة يدخلون عليه بها ، فأتوا يوسف عليه السلام وشوقوه إلى الترهة ، وقالوا : هذا أوان درُّ الألبان ونتاج الأغنام ، وأتوا

يعقوب عليه السلام ، وقالوا : يا أبانا ، أرسل معنا أخانا يوسف يتفرج ويتزّه ويتنعم ويترفه ، فقال : لا أقدر على ذلك ؛ لأنني لا أستغني عنه ساعة واحدة ، ولا صبر لي دونه ، وأيضاً فإنّي رأيتُ رؤيا كأني على ذروة جبل ويوسف في بطن الوادي وأنا أنظر إليه إذ احتوشته عشرة من الذئاب يريدون قتله ، وأنا أريد حمايته فلا أجد إلى ذلك سبيلاً ، فحماه أحد الذئاب ، ثم انشقت الأرض فتواري عني فيها ثلاث ليال ، و﴿ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف : ١٣] قال ابن عباس : العشرة الذئاب إخوته ، والذي حماه هو أخوه يهودا ، وشق الأرض : هو الجب الذي أُلقي فيه ، والثلاث ليال التي تواري فيها هي الثلاثة أيام ، ف ﴿ قَالُوا لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَّاسِرُونَ ﴾ [يوسف : ١٤] ، ثم عمدوا إلى أخيه يوسف ، وشوقوه وتوقوه حتى جاء معهم إليه ، وصار يتملق بين يديه حتى رق الشيخ لحاله ، وقال له : يا حبيبي ، إذا أردتَ أنتَ ذلك ، فنعم إذا كان في غد تمشي معهم ، فسرّ الإخوة بذلك ، وباتوا بأغبط ليلة ، وبات يوسف مغتبطاً يقول : ما أطولها من ليلة ، ويعقوب عليه السلام يقول : ما أقصرها من ليلة ، وقيل في المعنى :

يَخْطُ الشَّوْقُ شَخْصَكَ فِي ضَمِيرِي	عَلَى بُعْدِ التَّرَاوُرِ خَطٌّ زُورٍ
وَتُدْنِيكَ الْأَمَانِي مِنْ فَوَادِي	دُنُوَّ الْبَرَقِ مِنْ لَمَحِ الْبَصِيرِ
فَلَا تَبْعُدْ فَإِنَّكَ تُورُ عَيْنِي	إِذَا مَا غَبْتَ لَمْ تَطْرَفْ بُنُورِ
إِذَا مَا كُنْتَ مَسْرُورًا يَبْعُدِي	فَإِنِّي مِنْ سُرُورِكَ فِي شُرُورِ

فلما أصبح قمّصه بقميصه ، وعمّمه بعمامته ، وأرسل في عنقه وشاحاً ، وأتى بشن صغير ، فملأه لبناً وبإداوة صغيرة ، فملأها ماء ، وبمزود فجعل فيه تمرًا وطعاماً ، ووثق بقولهم ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف : ١٢] ، وجعل يوصيهم ويقول : يا بني ، إنكم تعلمون حبي له وكلفني به ، وإنه إن غاب عني ساعة لم يقرّ لي قرار ، ولا يطيب لي عيش ، فإن جاع فأطعموه ، وإن عطش فأسقوه ، وإن أعيأ فأحملوه ، ولا تهملوه ، وعجلوا برده عليّ ، قال : فجعل يشيعهم ميلاً بعد ميل وهم يحملونه على أعناقهم ، ثم عزموا على الشيخ أن يرجع ، فعانقه وقبل بين عينيه وجعل ينظر إليهم وإليه ، وقيل في المعنى :

كَمْ قَطَعَ الْبَيْنُ أَحْشَائِي وَأَوْصَالِي كَأَنَّمَا الدَّهْرُ بِالتَّفْرِيقِ أَوْصَى لِي

وَحِلْتُ فِي وَحْلِ أَوْحَالِي لِيَبِينَكُمْ
أَحْبَابَ قَلْبِي وَمَا الْأَحْبَابُ غَيْرُكُمْ
كَأَنِّي طَائِرٌ قُصِّتْ قَوَادِمُهُ
يَا رَاحِلِينَ وَمَا لِي عَنْهُمْ عَوْضٌ
أَهْ لِفَقْدِكُمْ أَهْ لِبُعْدِكُمْ
إِنْ تَسْأَلُوا كَيْفَ حَالِي بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ
فَمُرْسَلُ الْبَيْنِ بِالْأَوْصَابِ أَوْصَى لِي
مَنْ ذَا الَّذِي بَعْدَكُمْ أَرْجُو لَأَمَالِي
فَبَاتَ فِي فَخٍّ أَوْصَابٍ وَبِلْبَالٍ
هَلْ نَظَرَةٌ تُرْتَجَى لِي عِنْدَ تَرْحَالِي
عَزَّ الْعَزَاءُ فَلَيْسَ الصَّبْرُ يَهْنَأُ لِي
فَلَسْتُ أَدْرِي وَأَيْمَ اللَّهِ مَا حَالِي

قال : فتقدموا وصعد الشيخ على جبل عال مرتفع ينظر إليهم ، فما داموا يرونه حملوه علي الأعناق ، فلما غاب الشيخ وانقطع النظر رماه الذي حملة على عنقه رمياً عنيفاً كاد أن تنكسر أضلاعه ، فقال : يا أخي ، ما حملك على ما فعلت ؟ فاستغاث بالآخرين فوجد من كل واحد منهم أشد ما وجده من الآخرين ، ومضوا عنه ، وتركوه فجعل يقفوا آثارهم ، وينادي كل واحد منهم باسمه ، وهم لا يلتفتون إليه ، واشتد حر الشمس عليه وأخذ العطش ، فقال : يا أخي ، يا روبيل ، اسقني ، فإن العطش قد أضربني ، فعمد إلى الماء واللبن فأراقهما ، وقال : يا صاحب الأحلام الكاذبة ، ادعُ الشمس والقمر والكواكب تسقيك وتطعمك ، فلما أن علم حقدهم من أجل رؤياه ، جعل يقبل أقدامهم ، ويتعلق بأذيالهم ، ويقول : يا إخوتي ، ارحموا حادثة سني ، وقلة حيلتي ، وارحموا أباكم ، فما أسرع ما نسيتم وصيته ، وأضعتم حرمة ، فقالوا له : اليوم آخر أيامك من الدنيا ، فقال : لا تفعلوا ذلك ، لأكونن لكم عبداً ما عشت ، ولا أخبرُ والدي بصنيعكم ، وقيل في المعنى :

أَغْدَرُ يَا أَحْبَابَ قَلْبِي وَهَكَذَا
فَدَيْتُكُمْ مَا تَعْلَمُونَ بَأْسِي
أَهَانَ بِلا ذَنْبٍ وَأُقْتَلُ بِالْوَهْمِ
بِعَيْنِ الَّذِي يَنْهَى عَنِ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ
فَيَا سَامِعَ النَّجْوَى وَيَا رَاحِمَ الْبُكَاءِ
وَيَا مُنْقِذَ الْعَرْقَى أَجْرِنِي مِنَ الْعَمِّ

فاستغاث بروبيل ، وقال : يا أخي ، أنت ابن خالتي ، والموصى علي من أبي ، فارحم ذلي ، وأجبرني مما نزل بي ، فلطمه لطمه خر مغشياً عليه ، وقال : لا قرابة بيني وبينك ، فتعلق بأذيال يهودا ، وقال له : يا أخي ، أنت الكبير ، وأنت الشفيق ، وقد ترى ما نزل بي ، فارحم ذلي ، ولو قتلت لكنت أنت الآخذ بثأري

في قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾

والطالب لدمي ، وجعل ييكي ، ويُقبَل قدميه ، فألقي يهودا نفسه عليه ، وقال : والله ، لا يصلون إليك ، ولا إلى قتلِكَ ما دمت حيا ، ثم قال : يا إخواني ، أما تعلمون أن سفك الدماء من أعظم الخطايا عند الله تعالى ؟ فردوا هذا الصبي إلى أبيه ، فقالوا : إنما تريد أن تزداد حُظوةً عند أئينا ، ولئن لم تخلُ بيننا وبينه ، وإلا قتلناك معه ، فقال لهم : فإذا أبيتم ، فالرأي عندي أن تلقوه في الحبِّ الموحش ، فإن أصابه شيء من الأفاعي والحيات فهو المراد ، وإن نجح فلتقطعه سيارة ، فتذهب به إلى أقصى البلاد ، ويخلو لكم وجه أبيكم بعده ، فاتفقت آراؤهم على ذلك ، فقام يهودا عنه ، وأوثقوه بالحبال ، ونزعوا عنه قميصه ، فتعلق يوسف بكم القميص وقال : يا إخواني ، اتركوه لي ، إن عشتُ وارتيتُ به سوائي ، وإن متُّ كان كفني ، فلم يلتفتوا إلى قوله ، ونزعوا القميص عنه ، وأدلوهُ فعمد أحدهم إلى سكين ، وتقدم إلى الحبل الذي أدلي به ليقطعه ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام أن أدركه قبل أن يهلك ، فترل جبريل عليه السلام إلى صخرة كانت في قعر الحب ، فرفعها إليه وأنزله عليها سالماً ، وقال : يا يوسف ، إن ربك يُقرئك السلام ، ويقول لك : لا تجزع ، فوعزتي ، لئن قطعوا الحبل الذي بينك وبينهم ، فإني لا أقطع الحبل الذي بيني وبينك^(١) ، وقيل في المعنى :

لَئِنْ قَطَعُوا بِرْغَمِهِمْ حَبَالًا	فَمَا قَطَعُوكَ عَمَّنْ قَدْ تَعَالَى
وإن رَأَمُوا بِعَادِكَ مِنْ أَبِيهِمْ	فَأَقْدَارُ الْإِلَهِ تَقُولُ : لا لا
سَتَلْقَاهُ عَلَى رَغَمِ الْأَعَادِي	وإن بَعْدَ الْمَدَى بِكُمْ وَطَالَا
وَيَأْتِي الْكُلُّ نَحْوَكَ فِي خُضُوعٍ	وَيَسْأَلُكَ التَّفَضُّلَ وَالنَّوَالَا
فَلَا تَحْزَنْ لِمَا قَدْ حَلَّ وَاعْلَمْ	بأنَّ الصَّبْرَ يُعْقِبُهُ نَوَالَا

يا مَنْ رماه الأمل في حب الدنيا ، استيقظ من غفلتك ، فإن سيارة القدر تبعث في كل ليلة وارداً : هل مِنْ سائل ؟ فكن مستيقظاً للوارد إذا أدلى دلو التخليص ، فقم على أقدام ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] ، وامدّد أنامل ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [السجدة : ١٦] ، ولا تتشبث بأرجاء بثر الهوى ، فإنها رمل

(١) قال الإمام الآلوسي - رحمه الله تعالى - في روح المعاني (٢٩٧/١٢) : « والروايات في كيفية إلقائه وما قال وما قيل له كثيرة ، وقد تضمنت ما يلين له الصخر ، لكن ليس فيها ما له سند يعول عليه ، والله تعالى أعلم » .

تنهار عليك ، الحبيب محبوب ، وعين الحاسد ترى العيوب ، والعشق عند العقلاء من أشد الذنوب ، انظر إلى إخوة يوسف أجمعين كيف قالوا : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : ٨] ، كان حب يوسف عند الإخوة ضللاً ، وعند يعقوب جمالاً ، وكان عند الإخوة غير مباح ، وعند يعقوب رشاداً وصلاح ، كان عند الإخوة تعباً وعنا ، وعند يعقوب سبباً وغنى ، وقيل :

وَقَائِلَةٌ : دَعُ وَصَلَ عَزَّةً وَاتَّبِعْ هَوَى غَيْرَهَا ثُمَّ ارْتَقِبْ كَيْفَ تَصْنَعُ
أَرَاكَ عَلَيْهَا مُسْتَهَامًا وَبَاكِيًا وَمَا نَلْتَ مِنْهَا وَيْكَ مَا كُنْتَ تَطْمَعُ
فَقُلْتُ ذَرِينِي بِسَمَاءٍ قُلْتُ إِنِّي عَلَى الْبُخْلِ مِنْهَا لَا عَلَى الْجُودِ أَتَّبِعُ

حكاية : كان في بني إسرائيل قاض من قضاتهم ، وكانت له زوجة حسناء زائدة في الجمال ، بدبعة الصورة والاحتمال ، فأراد القاضي النهوض إلى حج بيت المقدس ، فاستخلف أخاً كان له على القضاء ، وأوصاه بزوجه ، وكان أخوه كلف حباً بها ، فلما سار أخوه توجه إليها ، وراودها عن نفسها ، فاعتصمت بالورع ، فلما يئس منها ، خاف أن تخبر أخاه بصنيعه معها ، فأشهد عليها شهود زور بالزنا ، ورفع مسألتها إلى ملك ذلك الزمان فأمر برجمها ، فحُفرت لها حفرة وأُعدت فيها ، ورُجمت حتى غطيت بالحجارة ، وقال : تكون الحفرة قبرها ، فلما جن عليها الليل صارت تنن لشدة ما نالها ، فمر رجل يريد قرية ، فلما سمع أنينها قصدها وأخرجها واحتملها إلى زوجته ، وأمرها بمعالجتها فعاالجتها حتى شفيت ، وكان للمرأة ولدٌ فدفعته إليها فصارت تكفله ، وتبيت به في بيت ثان ، فرآها أحد الشطار ، فطمع فيها ، وراودها عن نفسها ، فاعتصمت منه بالورع ، فعزم على قتلها ، وجاء في الليل ، ودخل عليها البيت وهي نائمة ، فأهوى بالسكين إليها فوافق الصبي فذبحه ، فلما علم بذبح الصبي أدركه الخوف وخرج من البيت ، وعصمها الله منه ، فأصبحت المرأة وإذا الصبي مذبوح ، فجاءت أمه ، وقالت لها : أنت ذبحت ولدي ، وضربتُها ضرباً وجيعاً ، وجاء الرجل فقال لزوجته : إنما والله لا تفعل ذلك ، فأنقذها الله منها ، وخرجت المرأة فارّةً بنفسها ، لا تدري أين تتوجه ، وكان عندها بعض ذريهمات ، فمرت بقرية من القرى ، فإذا الناس مجتمعون ، ورجل مصلوب على جذع إلا أنه فيه الحياة لم يقتل ، فقالت : يا قوم ، ما هذا ؟ فقالوا لها : أصاب ذنباً لا يكفره إلا قتله أو صدقة كذا وكذا من الدراهم ، فقالت : خذوها مني وسرحوه ، فتاب على يديها ، وآلى على نفسه أن يخدمها لله تعالى حتى يتوفاه الموت ، فابتنى لها صومعة ، وأسكنها فيها ، وصار

يحتطب ويأتيها بقوتها ، واجتهدت في العبادة حتى كان لا يأتيها مريض أو مصاب أو ذو عاهة فتدعو له إلا شفاه الله تعالى ، وكان الله تعالى قد أنزل بأخي زوجها الذي عمل على رجمها عاهةً بوجهه ، وأنزل بالمرأة التي ضربتها برصاً ، وامتنح الشاطر بأن أقعده من قدميه ، قال : وجاء القاضي زوجها من الحج ، وسأل أخاه عنها ، فقال له : اتفق لها كذا وكذا وقد ماتت ، فأسف عليها ، واحتسبها عند الله تعالى ، قال : وتسامع الناس بالمرأة ، فكانوا يأتونها من أطراف البلاد ، فقال القاضي لأخيه : لو قصدت هذه المرأة الصالحة ، لعل الله تعالى أن يجعل لك على يديها شفاءً ، فقال : يا أخي ، احملني إليها ، قال : وسمع زوج المرأة التي نزل بها البرص فحملها إليها ، وسمع بها اللص المقعد ، فسار إليها واجتمع الجميع عند بابها أمام الصومعة ، وكانت ترى جميع من يأتيها إلى صومعتها ولا يراها أحد ، فانتظروا خديمها حتى وصل ، ورجعوا إليه أن يستأذنها ففعل ، فتنقبت ووقفت عند الباب تنظر إلى زوجها ، وأخيه ، واللس ، والمرأة ، وهي تعرفهم وهم لا يعرفونها ، فقالت : يا هؤلاء ، إنكم لا تستريحون مما نزل بكم ، إلا أن تعترفوا بذنوبكم السالفة ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه تاب الله عليه ، وأعطاه ما قصد فيه إليه ، فقال القاضي لأخيه : تُب إلى الله تعالى ، ولا تصرّ على عصيانك ، وقيل في المعنى :

الْيَوْمَ يُجْمَعُ مَظْلُومٌ وَمَنْ ظَلَمَ	وَيُظْهِرُ اللَّهُ سِرًّا كَانَ قَدْ كَتَمَ
هَذَا مُقَامٌ يُذَلُّ الْمَذْنُبُونَ بِهِ	وَيَرْفَعُ اللَّهُ مَنْ طَاعَاتِهِ لَزَمَ
يَا وَيْحَ مَنْ جَاهَرَ الْمَوْلَى وَأَسْخَطَهُ	كَأَنَّهُ بِعِقَابِ اللَّهِ مَا عَلِمَا
وَيُظْهِرُ الْحَقُّ مَوْلَانَا وَسَيِّدَنَا	هَذَا وَإِنْ سَخِطَ النَّاسُ وَإِنْ زَعَمَا

فقال الرجل ، أخو القاضي : الآن يا أخي أقول الحق : فعلتُ بزوجتك ما صنعت . وقالت المرأة أم المذبح : كانت عندي امرأة ، فنسبتُ إليها ما لم تفعل فضربتها عمداً ، ونفيتُها تعدياً . وقال الشاطر : دخلت على امرأة لأقتلها بعد مراودتها على الزنا ، فاعتصمت بالنور ، فذبحتُ صبياً كان بين يديها ، ففتحت لهم باب صومعتها ، وأبدتُ لهم وجهها ، فعرفوها وخضعوا بين يديها ، فقالت : اللهم رب هذه الصومعة ، أريتهم ذل المعصية ، فأرهم عز الطاعة ، فشفاهم الله عز وجل ، ورجع إليها زوجها ، ولزم الجميع خدمتها حتى أتاهم الموت ، وقيل في المعنى :

تَوَكَّلْ عَلَى مَوْلَاكَ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ فَالْطَّافَةُ تَأْتِيكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي

وَلَا تُرِينَ النَّاسَ إِلَّا تَحْمُلًا
 وَكُلُّهُمْ بِالْعَجَزِ ذُلُّوا لِخَالِقِ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُنْفِذُ حُكْمَهُ
 فَلَنْدُ بِحِمَاهُ سَائِلًا فَيُضِ فَضْلَهُ
 عَسَى عَظْفَةٌ مِنْهُ يَمُنُّ بِنِيلِهَا
 وَصَبْرًا عَلَى مَا نَالَ فَلَا أَجْرُ فِي الصَّبْرِ
 تَفَرَّدَ بِالْإِنْشَاءِ وَالْمُلْكِ وَالْقَهْرِ
 وَيُجْرِيهِ فِي كُلِّ الْعِبَادِ بِمَا يَجْرِي
 وَقُلْ عَبْدُكَ الْمَكْسُورُ يَرْغَبُ فِي الْأَجْرِ
 فَيَنْقُلَ مِنْ عُسْرِ أَلَمٍ إِلَى يُسْرِ
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَعَلَى آلِهِ
 وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

المجلس الثالث

في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ١] .

الحمد لله المتفرد بالإنشاء والتصوير والاختراع ، المتزه عن الحدود والقيام والقعود والحركة والسكون والظهور والكمون والهبوط والانحطاط والارتفاع ، الموصوف بالعلم والحلم والحكم والشهود والاطلاع ، الفعال لا بأدوات ؛ المتكلم لا بلسان ولا بلهوات ؛ ولا صوت يكون فيه المد والقصر والرخامة والانقطاع ، العزيز الذي تعالى عن الإخوان والأخوات والأصهار والأنصار والقهارمة والأتباع ، العظيم الذي لا تحويه الأقطار ؛ ولا تدركه الأبصار ؛ ولا تحيط به الجهات ولا البقاع ، القديم الذي جلت ذاته عن السمع والبصر والطول والقصر والضيق والسعة والشير والذراع ، ووضع الأرض على غير مهاد^(١) ، وأعلى قبة السماء بلا عماد ، وحفظها من التزلزل والتخلخل والانصداع ، وجعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثني وثلاث ورباع ، أحمده على ما أولى من المنن وأباح من الاصطناع ، وأشكره شكراً يخرج من العسر إلى اليسر ومن الضيق إلى الاتساع ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أجد بركتها في يوم ينكشف فيه القناع ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي انشق له القمر ؛ وكلمه الحجر ؛ فأفحم أهل الكفر والزور والابتداع ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين مهدوا رسومهم ، وبذلوا لله نفوسهم ، فلم يكن لهم فيها ارتجاع ، صلاة تدوم وتقوم ما عز مطاع وهز القلب سماع ، وسلم تسليماً كثيراً . وقيل في المعنى :

سُبْحَانَ مَنْ ذَلَّتِ الْأَشْيَاءُ أَجْمَعُهَا إِلَيْهِ فَهُوَ الَّذِي يَلْتَأَحُ فِي الْأَثَرِ
قَدْ جَلَّ قَدْرًا فَلَا خَلْقَ يُمَاتِلُهُ وَلَا غِنَى عَنْهُ فِي وَرْدٍ وَلَا صَدَرٍ
وَلَا يُحِيطُ بِهِ عَقْلٌ فَيُذَرِكُهُ حَرَصُ الْفَتَى جَلَّ عَنْ إِدْرَاكِ مُفْتَقِرٍ
تَاهَتْ عُقُولُ أُولِي الْأَلْبَابِ فِيهِ وَقَدْ كَلَّتْ وَضَلَّتْ مَجَارِي الْعُقُولِ وَالْفِكْرِ

(١) حاشاه أن ينفي السمع والبصر عن الله عز وجل ، فهذا لا يكون من أصحاب الفطر السليمة ، ومراد المصنف عدم مماثلة الحق سبحانه لسمع وبصر المخلوقات ، ويدل عليه بقية الكلام . انظر مقدمة المجلس الرابع ، فهو يقول فيه : البصير الذي يصير ديب النمل على كتيان الرمل ... ، والسميع الذي يسمع صوت البعوضة إذا رجت بالتلحين ... إلخ . فمراده تنزيه سبحانه عن مماثلة الحوادث والمخلوقات .

كَفَاكَ عِلْمًا بِهِ أَنَّ الْوُجُودَ وَمَا
وَمِنْ كَوَاكِبَ تَسْرِي لَا قَرَارَ لَهَا
وَمِنْ سَمَاءٍ أَظْلَتْ مَا حَوَتْ وَبَدَتْ
فِيهَا مَلَائِكَةٌ مِنْ نُورِهِ خَلِقُوا
الذِّكْرُ قُوتِهِمْ فِي كُلِّ آوْنَةٍ
وَكُلُّهُمْ خَاضِعٌ لِلَّهِ مُعْتَكِفٌ
وَمِنْ تَمْهَدِ أَرْضٍ فَهِيَ مُمَسَكَةٌ
وَمِنْ تَرَدَّدِ أَثْهَارٍ يُسَابِقُهَا
وَمِنْ هَوَاءٍ وَنَارٍ فِيهِمَا فِكْرٌ
وَمِنْ هُبُوبِ رِيَّاحٍ سُخِرَتْ فَجَرَتْ
وَمِنْ تَمَائِلِ أَزْهَارٍ مُكَلَّلَةٌ
وَمِنْ أَغَارِيدِ أَطْيَارٍ مُرَدَّدَةٌ
وَمِنْ بُكَاءٍ غَمَامٍ مِنْهُ قَدْ ضَحَكَتْ
وَمِنْ حَيَاةٍ بِأَجْسَامٍ مُنَوَّعَةٍ
وَمِنْ جُسُومٍ وَأَعْرَاضٍ بِهَا اشْتَبَكَتْ
الْكُلُّ يُخْبِرُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ
فَعَظُمُوهُ وَلَا تَنْسُوا تَذَكُّرَهُ
يَحْوِيهِ مِنْ فَلَكَ جَارٍ عَلَى قَدَرٍ
شَرْقًا وَغَرْبًا وَمِنْ شَمْسٍ وَمِنْ قَمَرٍ
دَهْرًا مُكَلَّلَةً بِالْأَنْجُمِ الزُّهَرِ
وَصُورُوا فِي وَجُودِ الْخَلْقِ وَالصُّورِ
لَا يَفْتُرُونَ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْخَبَرِ
عَلَى الْعِبَادَةِ لَا يَلُوي عَلَى وَطَرٍ
بِالْأَمْنِ مَحْفُوظَةً مِنْ طَارِقِ الْغَيْرِ
تَجْرِي بِمَاءٍ مِنَ الْأَكْوَانِ مُنْهَمِرٍ
لِعَارِفٍ مُذْمِنِ الْأَفْكَارِ مُعْتَبِرٍ
وَمِنْ بَوَارِقِ ثُرُجِي صَيْبِ الْمَطَرِ
حَافَاتُهَا بِأَفَانِينَ مِنَ الزُّهَرِ
أَصْوَاتُهَا عِنْدَ إِقْبَالِ مِنَ السَّحَرِ
سُوحُ الْبَطَاحِ بِرَوْضٍ مُوْتَقٍ عَطِرٍ
مَا شَفَتْ مِنْ نَاطِقٍ مِنْهَا وَمِنْ حَصِرٍ
تَحْرِيكُهَا كُلُّهَا بِالْأَمْرِ وَالْقَدَرِ
وَأَنَّهُ خَالِقٌ لِلنَّفْعِ وَالضَّرَرِ
يَقِيكُمُ فِي نَهَارِ الْحَشْرِ مِنْ سَقَرٍ

قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١] ، معنى الحمد : الشناء على الله تعالى ، قال رسول الله ﷺ :
خَمْسٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ : مَنْ كَانَتْ عَصِمَتُهُ بِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ ،
وَمَنْ إِذَا أُعْطِيَ نِعْمَةَ اللَّهِ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَمَنْ إِذَا بَدَأَ بِالْعَمَلِ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ،

وَمَنْ إِذَا أَذْنِبَ ذَنْبًا قَالَ : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، وَمَنْ إِذَا أَصَابَتْهُ مَصِيبَةٌ قَالَ : إنا لله .
وقيل : إن الله تعالى أثنى على سبعة نفر قالوا : الحمد لله :

أولهم : آدم عليه السلام لما نُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ عَطَسَ ، فقال : الحمد لله ، فقال الله له :
يرحمك ربك يا آدم لهذا خلقتك .

الثاني : نوح عليه السلام : قال : الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ، فأورثه
الله السلامة ، وقيل له : ﴿ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ
مَعَكَ ﴾ [هود: ٤٨] .

الثالث : إبراهيم الخليل عليه السلام ، قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ
إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ، فأعطاه الله الفداء بقوله تعالى : ﴿ وَقَدَرْنَا
بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠٧] .

الرابع والخامس : داود وسليمان عليهما السلام ، قالا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا
عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١٥] ، فأعطاهما الله تعالى الحكم والعلم ،
وذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٩] .

السادس والسابع : محمد صلى الله عليه وسلم وأُمته ، قال صلى الله عليه وسلم : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ
وَلَدًا ﴾ [الإسراء: ١١١] ، فأعطاه الله الرفعة بقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾

[الشرح: ٤] ، وقالت أُمته : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] ،
فأعطاهم الله تعالى الرفعة بقوله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾

[المجادلة: ١١] ، والفاطر : الخالق ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ [فاطر: ١] ؛ وذلك

أن الله تعالى أعلى السموات رفعا ، وجعلها طباقا سبعا ، وملاها ملائكة ، وأعلى
كل صنف منهم على العبادة السالكة ، فإسرافيل مقصور على النفخ في الصور ،
وميكائيل يُخْزِنُ الْأَمْطَارَ ، ويرسلها بوزن معلوم ومقدار ، وجبريل يترل إلى الأنبياء
بالوحي ، ويأتيهم بالأمر والنهي ، وعزرائيل يقبض الأرواح ، وينتهبها في كل
مساء وصباح ، ومنهم المتصرفون في الأقوات والأسباب ، والمتصفحون في
الوجوه ، والواقفون بالأبواب ، ومنهم الذين يحملون العرش ، ويسبحون حوله
ويعبدون الله ، ويستمعون قوله ، ويُعِثُّونَ أَصْحَابَ الْخَنِّ وَالْكُرُوبِ ، ويستغفرون
لأرباب الأوزار والذنوب ، وليس في السموات موضع أربع أصابع إلا فيه ملك
ساجد لله خاضع يسلمون لما حكم الله به وقضى ، ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ

ارْتَضَى ﴿ [الأنبياء: ٢٨] ، قال أبو ذر : قال رسول الله ﷺ : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أُطَّت السماء ، وحق لها أن تئطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملكٌ واضع جبهته ساجد لله » ، ذكره الترمذي . وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « خلق الله الملائكة من نور ، والجان من نار ، وآدم مما ذكر لكم » ، ذكره مسلم . وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : قال رسول الله ﷺ : « أذن لي أن أُحدِّث عن ملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة ألف عام » ، وفي حديث : « سبعمائة سنة » ، ذكره الترمذي . وقالت عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ : « هل أتى عليك يوم أشد عليك من يوم أحد فيما لقيته من قومك ؟ فقال : عرضت نفسي يوم العقبة على عبد ياليل بن عبد كلاب ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا سحابة قد أظلتني ، فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فقال لي : إن الله تعالى قد سمع قول قومك وما ردوا عليك ، وقد بعثني إلى ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فداده ملك الجبال وقال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك ، وقد بعثني إليك لتأمرني بأمرك ، فإن شئت أطبقت عليهم الأخشبين أبا قبيس والذي يقابله ، فقال رسول الله ﷺ : أرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً » ، ذكره مسلم . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : « قال أبو جهل - لعنه الله - يعفر محمد وجهه بينكم ؟ قالوا : نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ، فذهب ليفعل ما قد قال ، فإذا به قد رجع يمشي على عقبه ويتقي بيديه ، فقليل له : مالك ؟! فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله ﷺ : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » ، ذكره مسلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله ﷺ يوم بدر : C هذا جبريل آخذ بعنان فرسي ، عليه أداة الحرب » ، ذكره مسلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوتا يقول : أقدم حيزوم ، فإذا المشرك خر أمامه مستلقياً ، فنظر إليه فإذا به قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط ، فاخضر من ذلك وجهه ، فجاء الرجل إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك ، فقال : صدقت ، كان ذلك من مدد ملائكة السماء الثالثة » ، ذكره مسلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام : « إني أحب أن أراك في الصورة التي تكون فيها في السماء ، قال :

إِنَّكَ لَا تَقْوَى عَلَى ذَلِكَ ، قال : لا بد ، قال : فأين تريد أن أبدؤ لك ؟ قال : بالأبطح ، قال : لا يسعني ، قال : فبمئي ، قال : لا يسعني ، قال : فبعرفات ، قال : ذاك عسى أن يسعني ، قال : فواعده ، قال : وخرج رسول الله ﷺ للموقف فإذا هو بجبريل عليه السلام قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ، رأسه في السماء ورجلاه في الأرض ، فلما رآه النبي ﷺ خر مغشياً عليه ، فتحول جبريل عليه السلام إلى صورته وضمه في صدره ، وقال : يا محمد ، لا تخف ، أنا أخوك جبريل ، فلما أفاق قال : يا جبريل ، ما ظننت أن الله في السماء خلقاً يشبهك ، فقال : يا محمد ، كيف لو رأيت أخي إسرافيل ؟ إن رأسه تحت العرش ؛ ورجلاه في تخوم الأرض السابعة ، وإن العرش على كاهله واللوح المحفوظ بين عينيه ، وإنه ليتضاءل من هيبة الله حتى يصير كالوصع - وهو العصفور الصغير - وما يحمل العرش إلا عظمة ربك ، ذكره صاحب كتاب الغرائب وإظهار العجائب ، وفيه عن أبي بكر الهذلي وغيره ، قال : « إن جبريل عليه السلام أجلى الجبين ، مُعَقَّدُ الشَّعْرِ ، كَانَ شَعْرُهُ الْمَرْجَانِ ، لَهُ جَنَاحَانِ أَخْضِرَانِ ، قَدَمَاهُ فِي خَضْرَاءَ ، وَلَوْنُهُ كَالثَّلْجِ ، مُوشِحٌ بِالْدَّرِ ، رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّتَيْنِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [النجم : ١١] ، وَلَقَدْ رَأَاهُ نُزُلَةً أُخْرَى عِنْدَ

سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » [النجم : ١٣ و ١٤] ، وهي شجرة ، الورقة منها تُظِلُّ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ ، وَنَبَقُهَا مِثْلُ الْقَلَالِ لَا عَجَمَ لَهُ ، إِلَيْهِ يَنْتَهِي عِلْمُ الدُّنْيَا . وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ عليه السلام : « وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتَكَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا فِي السَّمَاءِ ، قَالَ : وَتَحَبُّ ذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : مَوْعِدُكَ بِبَقِيعِ الْغَرَقَدِ لَكَذَا وَكَذَا مِنَ اللَّيْلِ ، فَلَقِيَهُ لِمَوْعِدِهِ فَنَشَرَ جَنَاحَهُ مِنْ أَجْنَحَتِهِ ، فَسَدَّ أَفْقَ السَّمَاءِ حَتَّى صَارَ لَا يَرَى مِنَ الشَّمْسِ شَيْئاً » ، ذَكَرَهُ ابْنُ سِيرِينَ فِي كِتَابِ الْعِظَمَةِ ، وَفِيهِ أَنَّ حِمْرَةَ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُرِيهَ جِبْرِيلَ عليه السلام ، قَالَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ ، فَأُلْحَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : اقْعُدْ مَكَانَكَ ، فَتَرَلْ جِبْرِيلَ عليه السلام عَلَى خَشْبَةٍ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَضَعُونَ ثِيَابَهُمْ عَلَيْهَا إِذَا طَافُوا بِالْبَيْتِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ارْفَعْ بَصْرَكَ ، فَرَفَعَ بَصْرَهُ فَإِذَا قَدَمَاهُ كَالزَّبْرِجَدِ الْأَخْضَرِ ، فَخَرَّ حِمْرَةَ مَغْشِياً عَلَيْهِ هَيْبَةً مِنْهُ . وَفِيهِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا قَالُوا ؛ هَبَطَ جِبْرِيلُ عليه السلام فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا فِي السَّمَاءِ لَوْنُهُ كَالثَّلْجِ ، وَشَعْرُهُ كَالْمَرْجَانِ ، وَلَهُ جَنَاحَانِ أَخْضِرَانِ ، وَقَدَمَاهُ مَغْمُوسَتَانِ فِي خَضْرَاءَ ، وَعَلَيْهِ وَشَاحٌ مِنْ دَرٍ مَنْظُومٍ ، بَرَّاقُ الثَّنَائِيَا ، أَرْجُ الْجَبِينِ ، شَعْرُهُ حَبْكٌ حَبْكٌ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَتُرِيدُ أَنْ أُرِيكَ بَعْضَ حَظِّكَ مِنَ الْجَنَانِ فِي الْآخِرَةِ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَكَشَفَ عَنْ جَنَاحٍ لَهُ أَخْضَرَ ،

فإذا بنهر عليه ألف قصر من ذهب مبني . وسئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَأَوْهُ نَزْلَةً أُخْرَى ، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ [النجم : ١٣ و ١٤] فقال : قال رسول الله ﷺ : رأيتُ جبريلَ عليه السلام عند سدرَةِ المنتهى له ستمائة جناح يتناثر من ريشه قهاويل الدر والياقوت ، ذكره وثيمة في مصنفه . وقال رجل لبعض الشيوخ المتصوفة : أخبرني عن عظمة الله تعالى ، قال : يا بني ، ما أقول فيمن له عبد اسمه جبريلُ له ستمائة جناح ، لو أمره أن يأخذ الأرض كلها على خافقة من جناحه لفعل ، ولكانت عليه أخفُّ من الريشة . وقيل : لما أراد الله تعالى هلاك قوم لوط ، وكانت ست مدائن ، في كل مدينة منها مائة ألف مقاتل ، أمر جبريلَ عليه السلام أن ييطشَ بهم ، فرفع المدائن من أصولها من الأرض بمن فيها من الخلق عند السحر على خافقة من جناحه ، حتى كان أهل سماء الدنيا يسمعون رُغاء البعير ونهاق الحمير وصياح الديكة ، ولم ينكسر في وقت الرفع إناء ولا أهرق ماء ، ثم قلبها بمن فيها وأتبعهم الحجارة ، وقيل :

أَيَا هَائِمًا فِي مَهْمَةِ الشَّكِّ وَالْفِكْرِ	تَبَّهَ فَكَمْ ذَا أَنتَ وَيَحْكُ فِي سُكْرِ
إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلٌ خَلَقِي وَبَطَشُهُ	فَمَا فِعْلُ خَلَاقٍ تَفَرَّدَ بِالْأَمْرِ ؟
لَجَبْرِيلُ وَالْأَمْلَاكُ طَرًّا جَمِيعُهُمْ	وَأَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي قَبْضَةِ الْقَهْرِ
يَخَافُونَهُ كَلَّا وَيَرْجُونَ فَضْلَهُ	وَلَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ النَّفْعِ وَالضَّرِّ
وَمَا الْحُكْمُ وَالسُّلْطَانُ إِلَّا لِوَاحِدٍ	أَوْامِرُهُ تَقْضِي وَأَقْدَارُهُ تَجْرِي
غَنِيٌّ عَنِ الْأَكْوَانِ مُتَّصِلُ الْبَقَا	قَدِيمٌ عَلِيمٌ بِالَّذِي حَلَّ فِي السَّرِّ
فَعَوْلٌ عَلَيْهِ فِي الشَّدَائِدِ كُلِّهَا	فَالْطَّافَةُ تَأْتِيكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي

قال رسول الله ﷺ لجبريلَ عليه السلام : يا جبريل ، أنتَ مع قوتك هل عيّتَ

قط ؟ قال : نعم يا محمد ، ثلاث مرات :

أحداها : يوم أُلقي إبراهيمُ في النار ، فأوحى الله إليَّ : أدركهُ ، فوعزتي وجلالي ، لن سبقك إلى النار ، لأحون اسمك من ديوان الملائكة ، فترلت إليه بسرعة ، فأدركته بين النار والهواء وقد عيّتُ ، فقلت له : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا .

والثانية : حين أمر إبراهيم بذبح ولده ، وأوحى الله تعالى إليَّ أن أدركه ، فوعزتي وجلالي ، لئن سبقك السكين إلى حلقه ، لأمحون اسمك من ديوان الملائكة ، فترلتُ إليه وقد عييت ، وحولتُ السكين من يده وأتيتُه بفداء ولده .

والثالثة : حين رُمي يوسف عليه السلام في الجُبِّ ، فأوحى الله إليَّ أن أدركه ، فوعزتي وجلالي ، لئن سبقك إلى قعر الجُبِّ ، لأمحون اسمك من ديوان الملائكة ، فترلتُ إليه بسرعة ، فأدركته في الفضاء ، فرفعت له صخرة كانت في قعر الجُبِّ ، وأنزلته عليها سالماً ، وكان الجُبُّ مأوى الحيات والأفاعي ، فلما أحسسن به قالت كل واحدة منهن لصاحبتها ، إياكن أن تتحركن ، فإن نبياً كريماً نزل بجوارنا ، فلم تخرج واحدة من جحرها ، إلا الأفاعي ، فإنها خرجتُ إليه وقصدتُ لدغه ؛ فصحتُ بمن صيحة صمّتْ أذانهنَّ ، فهن صمَّ إلى يوم القيامة » .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما استقر يوسف في قعر الجب سالماً ، وحُوصِر من الأفاعي والمؤذيات جعل ينادي إخوته ، ويقول : يا إخواني ، إن لكل ميت وصية ؛ ووصيتي إليكم : إذا اجتمعتم فاذكروا وحدتي ، وإذا شربتم فاذكروا عطشي ، وإذا طعمتم فاذكروا جوعي ، وإذا أنسستم فاذكروا وحشتي ، وإذا رأيتم شاباً ذا صورة حسنة فاذكروا شبابي وصورتي ، فقال له جبريل عليه السلام : يا يوسف ، أمسك عن هذا ، واشتغل بالدعاء فإن الدعاء من الله تعالى بمكان ، وعَلِّمه هذا الدعاء وهو هذا : " اللهم ، يا مؤنس كل وحيد ، ويا كاشف كل كربة ، ويا مجيب كل دعوة ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا دافع كل بلوى ، ويا جابر كل كسير ، ويا صاحب كل غريب ، لا إله إلا أنت سبحانك ، أسألك أن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً ، وأن تقذف في قلبي حبك حتى لا يكون لي هم ولا شغل سواك ، وأن ترحمني يا أرحم الراحمين " (١) ، فقالت الملائكة : يا ربنا ، نسمع صوتاً ودعاءً ، أما الصوتُ فصوت صبي ، وأما الدعاء فدعاء نبي ، فأوحى الله تعالى إليهم هو نبي يوسف عليه السلام ، وأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام أن قل له : ﴿ لَتُبْنِيَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف : ١٥] ، ثوقفهم بين يديك أذلاء كالعبيد ،

(١) قال الإمام الآلوسي - رحمه الله تعالى - في روح المعاني (٢٩٧/١٢) : « والروايات في كيفية إلقائه وما قال وما قيل له كثيرة ، وقد تضمنت ما يلين له الصخر ، لكن ليس فيها ما له سند يعول عليه ، والله تعالى أعلم » .

تحكم فيهم بما تريد ، وقيل في المعنى :

تَعْلَقُ بِأَذْيَالِ الضَّرَاعَةِ فِي الْكَرْبِ وَلَذْ بِحِمَى مَوْلَاكَ فِي الْجَهْرِ وَالْعَيْبِ
وَلَا تَلْتَفِتْ نَحْوَ الْخَلَائِقِ إِنَّهُمْ لِأَهْلٍ لِنَقْضِ الْعَهْدِ وَالرَّفْضِ وَالْعَيْبِ
أَتَسْأَلُ مَخْلُوقًا وَتَتْرُكُ خَالِقًا لَأَنْتَ كَظَمَانَ يُدَادُ عَنْ الشَّرْبِ
لَأَنْتَ الَّذِي قَدْ شِئْتَ إِعْلَاءَ أَمْرِهِ وَمِنْ قَبْلِ كَوْنِ الْكَوْنِ خُصِّصْتَ بِالْحُبِّ
فَسَلِّمْ لِأَحْكَامِي وَسَلِّني لِأَنْنِي سَأُعْلِيكَ فَوْقَ الْكُلِّ يَا سَاكِنَ الْجُبِّ

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : لما تأخر أبناء يعقوب عليه السلام عن الوقت الذي كانوا يرجعون إليه فيه فأحسَّ قلبه بالشر ، فقام ليستقبلهم فلم يُطق النهوض ، فتوَكَّأ على جارية له يقال لها : صفرا ، وجعل يمشي حتى رمى بنفسه على شفير الوادي ينتظرهم ، فلما أشرفوا على الوادي شقوا مدارعهم ، وحثوا التراب على رءوسهم ، وجعلوا يدعون بالويل والثبور ، وجعلوا يصيحون : يا أخاهم ، يا يوسفاهم ؛ فلما سمع الشيخ أصواتهم لم يتمالك حتى خرَّ مغشياً عليه ، قال : فوصلوا إلى أبيهم واحتشوه ، وسلَّمُوا عليه سلاماً ضعيفاً ، فأفاق وقال : يا بَنِيَّ ، ما لي أسمع عويلكم شديداً وسلامكم ضعيفاً ، ولا أرى قرة عيني بينكم ؟ فقالوا : كما أخبر الله تعالى عنهم : ﴿ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ [يوسف: ١٧] ، فقال : ألم يُتِّقِ الذِّئْبُ عضواً من أعضائه تأتوني به أستأنس به إليه وأشم ريحه عليه ؟ فقالوا : هذا قميصه ملطخ بدمه ، وكانوا قد ذبحوا شاة ولطخوا قميصه بدمها ، قال : فقلبه يعقوب فلم ير فيه شقاً ولا تمزيقاً ، وشمه فلم يجد ريحه عليه ، فقال : سبحان الله ! ما كان أشفق وأرأف هذا الذئب حيث أكله ولم يمزق له ثوباً ، ولم يُتِّقِ منه عضواً ، وأحس في نفسه أن الذئب لم يأكله ، وإنما أمسى مظلوماً ، فجعل ينوح ويقول : قرة عيني ليت شعري في أي بئر طرحوك ؟ ليت شعري لأي سبع عرضوك ؟ ليت شعري في أي نهر وضعوك ؟ ليت شعري أطرید أم جريح أم قتيل أم طريح ؟ معشر أولادي دلوني على ولدي ، فإن كان حياً رددته ، وإن كان ميتاً كفنته ودفنته ، وقيل : في المعنى :

وَنَعْمُونِي بِلَحْظٍ مِنْهُ أَلْمَحُهُ مِنْ قَبْلِ قَتْلِ نُزُولِ الْمَوْتِ أَوْلَادِي

أَلَمْ تَرَوْا فَرَطَ مَا أَلْفَاهُ مِنْ كَلْفِي وَمِنْ شُجُونٍ وَأَوْصَابٍ وَأُنْكَادٍ
كَأَنَّمَا أَنَا حُوتٌ جَفَّ مَوْرِدُهُ فَعَادَ مِنْ بَعْدِ رِيٍّ رِيحُهُ صَادِي
يَجُودُ بِالنَّفْسِ وَالصِّيَادُ يَضْحَكُ مِنْ فَرَطِ السُرُورِ لِمَا قَدْ جَفَّ بِالْوَادِي

فقال بعضهم لبعض : ألا ترون أبانا يكذبنا ولا يصدق مقاتلنا ، تعالوا نصطد ذئباً ونلطحه بالدم ، ونأتي به إليه ، ونقول : هذا الذي أكله ، فعله أن يسليه ذلك عما هو فيه ، قالوا : نعم ، فاصطادوا ذئباً ، وأوثقوه بالحبال ، وأتوا به يعقوب ، فلما مثلوه بين يديه نظر يعقوب إليهم وإليه ، وقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا الذئب الذي يغشى أغنامنا ويحل بساحتنا ، ولا شك أنه الذي قتل أحنانا وأفجعنا فيه ، فقال لهم : أطلقوه ، فأطلقوه ، فجعل الذئب يبصص بذنبه ، ويدنو إليه ، ويعقوب عليه السلام يقول له : ادنُ مني ، فجعل يدنو حتى ألصق خده بخده ، ورفع يعقوب عليه السلام بصره إلى السماء ، وقال : اللهم ، إن كنت أجبت لي دعوة ، أو رحمت لي عبدة ، فأنطق لي هذا الذئب بقدرتك ، إنك على كل شيء قدير ، فأطلق الله لسان الذئب من عقاله ، وقال : السلام عليك يا نبي الله ، فقال : وعليك السلام أيها الذئب ، بأي جرم أفجعتني في ولدي ، وأورثتني غماً طويلاً ، وقيل في المعنى :

هَلَا تَرَكْتَ لَهُ عُضْوًا يُؤَانِسُنِي يَا ذئْبُ أَوْ قِطْعَةً مِنْ ذَلِكَ الْجَسَدِ
أَبْقَيْتَنِي بَعْدَهُ حَيْرَانَ مُكْتَنِبًا تَرَكْتَنِي كَأَسِيرِ الْقَيْدِ فِي صَفَدِي
يَا رَبُّ أَنْتَ تَرَى مَا قَدْ بُلِيْتُ بِهِ فَارْحَمْ بُكَائِي وَخُذْ يَا سَيِّدِي بِيَدِي

فقال الذئب : لا وحقك ، ما أكلتُ له لحماً ، ولا شربتُ دمه ، ولا نتفتُ شعره ، وما لي بولدك عهد ، وإني لذئبٌ غريبٌ بنواحيكم أقبلتُ من ناحية مصر في طلب أخ لي غاب عني منذ سنين ، ولا أدري أحى هو فأرجوه أم ميتٌ فأحتسبه ؟ وإن لحوم الأنبياء محرمة على جميع السباع ، وإني أخبرتُ أن ملك هذه القرية اصطاده ، فقال يعقوب : أنا أشفع في أخيك ، فقال الذئب : وأنا أشفع في ولدك ، وأسأل الله أن يرده عليك ، فقال : هل عندك خبرٌ من ولدي ، قال : نعم ، قال : فأخبرني قال : أحشى أن يسموني غمازاً ، والغماز آيسٌ من رحمة الله تعالى ، قال عليه السلام :

« شر الناس المشاعون بين الناس بالنميمة ، والغمازون بين الإخوة » ^(١) ، وفي حديث : « حُرِّمَتْ شَفَاعَتِي عَلَى الْعَاقِّ وَبَائِعِ الْخَمْرِ وَالْغِمَارِ » ، فقال يعقوب : لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم ، هذا خرج ليقفوا دم أخيه ، وأنتم ضيعتم أحاكم ، ولقد علمت أن الذئب بريء مما نسبتم إليه ^(٢) ، « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » [يوسف : ١٨] ، وقيل في المعنى :

هَلْ مِنْ طَبِيبٍ لِمَا أَلْقَى وَمَا أَجِدُ عَزَّ الْعَزَاءُ وَبَانَ الصَّبْرُ وَالْجِلْدُ
ضِدَانٍ فِي الْجِسْمِ صَرَفُ الدَّهْرِ الْفُهْمَا الْعَيْنُ تَذْمَعُ وَالْأَحْشَاءُ تَتَقَدُّ
يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ يَا أُنْسَ الْفُؤَادِ لَقَدْ لَقِيتُ بَعْدَكَ مَا لَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ

يا من رمى يوسف قلبه في جُبِّ حُبِّ الهوى ، يا مريضاً قد أعرض عن الدوا ، تشاغلته باللهو واللعب ، وجئت على قميص الإنابة بدم كذب ، إن كنت تتلبسُ بظواهر أحوالك ، فذئب التصنع يخبر يعقوب الفراسة بخفي أفعالك ، إخواني ، الدنيا دار فرقة ، كم في جرع لذاتها من شرقة ، سرورها كلمح برقة ، العيش فيها يومئذ حُرقة ، والمسافر عنها متزود بحرقة ، فكم آلت بالفراق ، وكم عذبت من مشتاق ، لا يطيبُ فيها عيش ، ولا ينتصر فيها على الهموم جيش ، سكون آفاقها عين الطيش ، عاش فيها آدمُ باكياً ، وقام نوحٌ نائحاً ، وصار داود صائحاً ، وقام فيها موسى صعقاً ، وبات يعقوب للحبيب مفارقاً ، لما صفا نعيق ضفادع الجسد في نقاء قلوب إخوة يوسف ، أعربت الألسن عن مضمرات القلوب « إِنْ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » [يوسف : ٨] ، فأرى المظلوم مآل الظالم في مرآة « إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » [يوسف : ٤] ، فخلا به يعقوب في بيت الحذر يتلو عليه منشور « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ » [يوسف : ٥] ، فحام حمام إخوته حول حلة الحيلة ، وشجعهم شجاع الطمع

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١ / ١١٩ ، وأحمد في المسند ٤ / ٢٢٧ ، وابن ماجه في سننه ١ / ٢٥٦ ، والطبراني في الأوسط ٧ / ٣٥٠ .

(٢) وذكر هذه القصة الثعلبي في تفسيره (٤ / ٢١) . وليس لها أصل من الكتب المعتمدة ، ومن العجيب أن يذكرها الإمام السيوطي في تفسيره ، من غير سند .

﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف : ٩] ، فانعكس مقصودهم ، وهوى هواهم ؛ لأنهم أبعدوا أخاهم ليؤلفوا أباهم فأباهم ، فاحتالوا على يعقوب في سلب ما تمنى بكف ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا ﴾ ، وشوقوا يوسف إلى رياض ﴿ يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ ﴾ ، فنطق منطقاً حوى جواب يعقوب المخزون ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف : ١٣] ، فتلقفت عذر الخطيئة بهذا العذر ، فلما أصبحوا أظهروا المقت له ، ورموا بسهم العدوان مقتله ، فعادت فيهم المقتلة ، فنسخ نهار رفقهم به ليل انتهارهم له ، فصاح يهودا من وراء شفق الشفقة وأغباش غيابة الجب ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ [يوسف : ١٠] ، فلما رموه ، وقالوا : هلك ، جاء من عند الملك مَلَكٌ ، وقال له : ستبلغ أملك ﴿ لَتَبْنَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف : ١٥] ، فعادوا عَمَّنْ عادوا كالأعشاء ﴿ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : ١٦] ، ولطخوا قميصه الصحيح بدم كذب ، فأظهرت سلامة الثوب كمين كيدهم ، فقال لهم حاكم الفراسة : ﴿ بَلْ سَوَّيْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً ﴾ [يوسف : ١٨] : فحصل لهم من ذلك الحاكم قهراً ، وأحدث في ذلك أمراً ، وقيل في المعنى :

رَاخُوا فَرَاخَتْ رَاخَتِي مِنْ رَاخَتِي صِفْراً وَأَضْحَى حُبُّهُمْ لِي رَاخَا
خَتَمُوا عَلَى قَلْبِي الْهُمُومَ وَأَغْلَقُوا بَابَ الشُّرُورِ وَضَيَّعُوا الْمِفْتَاحَا

كان للصديق عليه السلام ثلاثة أقمص : قميص العلامة ، وقميص الشهادة ، وقميص البشارة ، ففي قميص العلامة ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : ١٨] ، وقميص الشهادة بريء من الدعوة ، وفي قميص البشارة جمع بينه وبين من يهوى ، وكان لرسول الله ﷺ ثلاثة أقمص : قميص العطية حين سأله المرأة فأعطاه قميصاً لم يكن له سواه ، وجاء وقت الصلاة فلم يجد ما يخرج به ، فأنزل الله عليه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] الآية ، وقميص الهداية ، وذلك أن عبد الله بن سلول كان رأس المنافقين ، فلما جاءه الموت قال : سيروا إلى محمد ، ورغبوه في أن يعطيني قميصه

فادفنه معي في القبر ، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك ، فقال : خذوا قميصي ، فإنه لن يغيثني عنه من الله شيئاً ، فلما رأى المنافقون ذلك ، قالوا : إذا كان سيدنا يتبرك بثوبه فنحن أولى أن نتبرك بنفسه ، فأخلص في ذلك اليوم ألف منافق ، وقميص المعجزة وهو أنه ما لبس قط ثوباً طال ولا قصر إلا وكأنه خيط عليه ، وفي كل قميص رزق وفائدة ، ففي قميص العطية وقع التعليم ، وفي قميص الهداية بان قدره العظيم ، وفي قميص المعجزة ظهر الحق لمن كان في بحر الشرك يهيم ، وكذلك المؤمن له ثلاثة أقمصه :

قميص الخدمة ، قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

وقميص العفة قال الله تعالى : ﴿ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ [الأعراف : ٢٦] .
وقميص الكرامة قال الله تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الكهف : ٣١] .

وفي كل قميص فائدة ، ففي قميص الخدمة ينجي مولاه ، وفي قميص العفة يغلب شهوته وهواه ، وفي قميص الكرامة يرى مَنْ جَلَّ عن الأشباه ، وقيل في المعنى :

ولا أَشْتَهِي دَارَ الْجِنَانِ لِأَنِّي أُمْتَعُ فِيهَا بِالْمَاكِِلِ وَالشُّرْبِ
وَأَلْبَسُ أَلْوَانَ الْحَرِيرِ تَبَخُّرًا وَأَخْلُو بِذَاتِ الْحُسْنِ وَالْخَالِ وَالْقَلْبِ
وَلَكِنِّي أَشْتَاقُهَا لِأَرَى الَّذِي تَحَجَّبَ عَنْ عَيْنِي وَمَسْكَنُهُ قَلْبِي
خُذُوا كُلَّ مَا تَهْوَوْنَهُ مِنْ نَعِيمِكُمْ وَخَلُّوا الَّذِي أَهْوَى فَذَلِكُمْ حَسْبِي

إذا أفضيت الخلع على الحب ، ورأى الخلائق عراة رفل فرحاً بها ، كما مال من صرف المدامة شاربها ، فيصبح به تقليب القلوب : احذر السلب ، فتقلب الهزة رعدة ، كما انتفض العصفور من بلل القطر ، فيبقى في يد الحذر أسيراً كطائر جو علقته الحبال ، يبالغ في كتمان حاله ، وما يخفى ثكل الثكلاء ؛ لما علم القوم أنه لا ينظر إلى صورهم غابوا عن معانيهم ، فلباسهم ما ستر ، وأكلهم ما حضر ، ذلوا له ليرضى ، فإذا رأيتهم قلت : مرضى . كان أويس القرني يلتقط الرقع من المزابل ،

فيغسلها في الفرات ، ويجعل بعضها على بعض فيلبسها ، لما عري من لباس الهوى كُسي حُلّة يشفع في مثل ربيعة ومضر . لبس رسول الله ﷺ جبة شامية لم يقدر أن يخرج ذراعيه من كُمّيها عند الوضوء حتى أخرجهما من أسفلها . وكان موسى^(١) عليه السلام يلبس جبة من خرق المزابيل ، وكانت إبرته من ريش حواصل الطيور ، وكانوا يقولون : لو اتخذت إبرة من حديد ؟ فيقول : أخاف أن تشغلني عن الله ، فدخل جبريل الجنة وأخرج ثوباً من أثواب العافية فكساه إياه ، فكان يلقي فرعون وجنوده فلا يقدرّون له على مكيدة ، فلما مات الكليم عليه السلام كساه الله عز وجل عين الشمس ، فلذلك تحف آلام المريض عند طلوعها ، وتهيج عند غروبها ، وما ذلك إلا لقرب النسيم بالنهار وبعده بالليل ، وقيل :

وَمِنَ الْعَبَاوَةِ أَنْ تُعْظَمَ جَاهِلًا لَصِقَالِ مَلْبَسِهِ وَرَوْتِ رَفْشِهِ
وَأَعْلَمَ بِأَنَّ التَّيْرَ فِي عِرْقِ الثَّرَى خَافَ عَلَى أَنْ يَسْتَبِينَ بَنِيهِ
وَكَذَلِكَ الدِّينَارُ يَظْهَرُ سِرُّهُ مِنْ حَكِّهِ لَا مِنْ مَلَاخَةِ نَفْسِهِ
أَوْ أَنْ تُهِنَ مُهَذَّبًا فِي نَفْسِهِ لِدُرُوسِ بَزَّتِهِ وَرَثَةِ فَرْشِهِ
وَإِذَا الْفَتَى لَمْ يَخْشَ عَارًا لَمْ يَكُنْ أَسْمَى لَهُ إِلَّا مَرَاقِي عَرْشِهِ
مَا إِنْ يَضُرُّ الْعَضْبُ كَوْنُ قِرَابِهِ خَلَقًا وَلَا الْبَازِي حَقَارَةَ عُشِّهِ

(حكاية) قال مالك بن دينار : أتيت القبور يوماً لأنظر في الموتى ، وأعتبر وأزدجر وأتفكر ، فجعلت أجول بين المقابر ، وأنشد بذهن حاضر :

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَتَادَيْتُهَا أَيَّنَ الْمُعْظَمُ وَالْمُحْتَقَرُ ؟
وَأَيَّنَ الْمَلْبَى إِذَا مَا دَعَا وَأَيَّنَ الْمَرْكَى إِذَا مَا افْتَحَرَ ؟
وَأَيَّنَ الْمَذِلُّ بِسُلْطَانِهِ وَأَيَّنَ الْعَزِيزُ إِذَا مَا قَدَرَ ؟

وإذا بصوت يجيبي ، وينشد فيقول :

تَفَانُوا جَمِيعًا فَلَا مُخْبِرَ وَمَاتُوا جَمِيعًا وَهَذَا الْخَبَرُ

(١) لم نقف على سند يعول عليه .

تَنُوحُ عَلَيْهِمْ بَنَاتُ الثَّرَى وَتَمَحُّو مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّورِ
لَقَدْ قَلَّدَ الْقَوْمُ أَعْمَالَهُمْ فَإِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا سَقَرٌ
وَسَارُوا إِلَى مَلِكٍ قَادِرٍ عَزِيزٍ مُطَاعٍ إِذَا مَا أَمَرَ
فَيَا سَائِلِي عَنْ أَنَاسٍ مَضَوْا أَمَا لَكَ فِيمَنْ مَضَى مُعْتَبَرٌ ؟

قال : فنظرت فإذا يبهلول المجنون جالسٌ بين قبرين ، وهو ينظر إلى السماء فيبتهل ، وإلى الأرض فيعتبر ، وعن يمينه فيضحك ، وعن يساره فيبكي ، فسلمتُ عليه فردَّ عليَّ السلام ، فقلتُ له : يا بُهلُولُ ، أراك قعدتَ بين القبور ، فقال : نعم ، قعدتُ بين قوم لا يؤذوني ، وإن غبتُ عنهم لا يغتابوني ، فقلتُ له : أراك تنظرُ إلى السماء فتبتهل ، وإلى الأرض فتعتبر ، وعن يمينك فتضحك ، وعن شمالك فتبكي ، قال : إذا نظرتُ إلى السماء ذكرتُ قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢] ، فحقُّ لمن سمع هذه الآية أن يبتهل ، وإذا نظرتُ إلى الأرض ذكرتُ ، قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه : ٥٥] ، فحقُّ لمن سمع هذه الآية أن يعتبر ، وإذا نظرتُ إلى اليمين ذكرتُ قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٢٧] ، فحقُّ لمن سمع هذه الآية أن يضحك ، وإذا نظرتُ إلى الشمال ذكرتُ قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ [الواقعة: ٤١] ، فحقُّ لمن سمع هذه الآية أن يبكي ، فقلتُ : يا بُهلُولُ ، والله إنك لحكيم ، فهل لك من حاجة ؟ قال : نعم ، أريد أن تشتري لي قميصاً نظيفاً ، قلتُ : نعم إن شاء الله تعالى ، ثم ذهبتُ إلى السوق ، وقد ملئتُ سروراً ، واشتريتُ قميصاً جديداً ، وأتيتُ به إليه ، فقبله ورماه إليَّ ، وقال : لست أريدُ مثل هذا ، فقلتُ : صفهُ لي يا بهلُولُ ، قال : نعم ، أريدُ قميصاً من قُمصِ أهل الإخلاص وذوي البصيرة والاختصاص ، محفوظاً من الدنس والانتقاص ، زُرْعَ قَطْنِهِ في حديقة مشرقة بأنوار الحقائق ، محروسة من الاعتراضات والبوائق ، يُسْقَى بماء السلسيل ، وحُفَظ من العطش بجرييل ، فأينع بهاءً وحسناً ، وأثمر فأنبَتَ قطناً ، ثم لُقط بأنامل الكرام البررة التالين لسورة البقرة ، ثم

حُلج بأكف الوفاء على دَفِّ الصفاء ، بحرَكَاتِ العزم من غير خفاء ، ثم تحللتَه الأوتار المتصلة بنور الأنوار ، ثم غزلته بنات طاهرات ونساء خيرات ، بمغازل الحمد والثناء والمحبة السابقة والاعتناء ؛ فجعلت الجنة على نسجه ثوباً ، وكان بين لابسِه وبين النار حجاباً ، ثم قصر الثوب بماء معين غدق ، وطلعت عليه شمسُ الشوق والقلق ، فسطع بياضه ، وزال اعتراضه ، وامتاز بحسن الرقعة ، والطرار ، وأعجب كل تاجر وبزاز ، فدفع إلى خياط مطبوع في صنعتِه ، بعيد المدى في همته ، صادق البكاء من عبرته ؛ فنظر إلى الثوب بفكره ، وقاسه بشيره ، وميز ما عاب من قَدْرِه ، وأوقع فيه المقرضَ بلا شكٍّ ولا اعتراض ، فجعل بدنه من حقائق الإخلاص ، وقدر الكُميينَ كاملين بلا انتقاص ، ثم علق البنائِق ، وأوصل بهما النياقِ اتصال الحقيقة بالحقائق ، وكان الخياط بربه واثقاً ، فأتى القميص موافقاً ، وللشك مفارقاً ، ثم قصص التدوير ، وخاطه بلطائف التدبير ، ثم فتح الجيب ، وأمدَه بشواهد الغيب ، وأزال عنه النقص والعيب ، ثم صور الطوق وزينه بلواعج الشوق ، فاعتدل القميص من أسفل إلى فوق ، فهل تقدرُ يا مالكُ على مثل ذلك ؟ فقلتُ : يقدرُ عليه مَنْ حصَّكَ بوصفه ، وألمك لمعانيه وكشفه ، فصِف لي لابسُه يرحمك الله ، فقال : يلبسُه قوم خصهم الله بأنواره ، وكتبهم في ديوان أبراره ، وحامهم في أزل الأزل بالسابقة ، وقَوَّاهم بالعزائم الصادقة ، فأجسادهم بين أهل الأرض تسعى ، وقلوبهم في غياض رياض الملكوت ترعى ، لا يتكلمون في غير ذكره بلفظة ، ولا ينظرون إلى غيره لحظة ، فهم شمس الناظرين وأقمار الساهرين ، بهم يقصم الله الجبابرة ويسلمهم ، ويرزق عباده ويرحمهم ، ثم قام وقال : إليك فرُّ الهاربون ، ونحوك قصد الطالبون ، وببابك أناخ التائبون ، ثم سار وتركني ، وقيل في المعنى تخميساً :

نَدِمِي الشَّوْقُ فِي الظَّلَمَا أَجَالِسُهُ يَا وَحْشَةَ الصَّبِّ مَذْ أَقْوَى مُؤَانِسُهُ
هَلْ فِي الْوَرَى مَنْ لَهُ وَصْفٌ يُجَانِسُهُ قَالُوا : غَدَا الْعِيدُ مَاذَا أَنْتَ لَابِسُهُ
فَقُلْتُ : خَلَعَةَ سَاقِ حُبِّهِ جَرَعَا

فَنِيْتُ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ فِي الْهَوَى حَرُمَا فَرِيزِنِي أَنْ أَرَى بِالْعَهْدِ مُعْتَصِمَا
طَمَرَانِ فِيكَ لِبَاسِي لَا عَدِمْتُهُمَا فَقَرُّ وَصِرُّ هُمَا ثَوْبَانِ تَحْتَهُمَا

قَلْبٌ يَرَى إِلْفَهُ الْأَعْيَادَ وَالْجُمُعَا

يَا مَنْ غَدَا سَابِحًا فِي أَبْحُرِ الْوَلَهِ وَسَائِحًا فِي قِفَارِ اللَّبْسِ وَالشُّبْهِ
وَمَدَّعٍ فِي حَبِيبٍ جَلَّ عَنْ شِبْهِهِ أَسْنَى الْمَلَابِسِ أَنْ تَلْقَى الْحَبِيبَ بِهِ
يَوْمَ الزِّيَارَةِ فِي الثُّوبِ الَّذِي خَلَعَا

خَلَعْتُ ثُوبَ اعْتِرَاضِي فِي مُرَادِكَ لِي وَقَدْ تَبَرَّأْتُ مِنْ حَوْلِي وَمِنْ حِيلِي
فَمَوْسِمِي لَحِظَةً تُبْرِئِي بَهَا عَلَلِي الدَّهْرُ لِي مَأْتَمٌّ إِنْ غَبَتْ يَا أَمَلِي
وَالْعِيدُ مَا كُنْتُ لِي مَرَأًى وَمُسْتَمَعَا

يَا وَاحِدًا فِي الْعُلَا قَدْ جَلَّ عَنْ تَائِي نَفْسِي جَعَلْتُ إِلَيْكَ الْيَوْمَ قُرْبَانِي
وَجِئْتُ أَرْفُلُ فِي ذُلِّي وَإِذْعَانِي فَاْمَنْنُ بَعْفُو وَلَا تَنْظُرْ لِعَصْيَانِي
إِنَّ الْكَرِيمَ يُنِيلُ الْعَفْوَ مَنْ خَضَعَا

المجلس الرابع

في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي أوضح لعباده وأهل حبه ووداده سبيلاً ، وأقام لهم من الآيات الصحيحة والبراهين الفصيحة دليلاً ، وتجلّى لأبصار بصائرهم وتبدى لمرآة سرائرهم فلم يتخذوا غيره وكياً ، التقدير الذي يقضي بما يشاء فيذل عزيزاً ويعز ذليلاً ، البصير الذي يبصر ديب النمل على كثران الرمل ويؤيدها بالإلهام فتلتبس قوتاً وتؤم مقيلاً ، السميع الذي يسمع صوت البعوضة إذا رجعت بالتلحين وأخذت في الترنين بكرة وأصيلاً ، البديع الذي أتقن كل شيء خلقه فستر قبيحاً وأظهر جميلاً ، رفع قبة السماء اللازوردية وكللها بالنجوم الزواهر تكليلاً ، وبسط فراش الأرض وذلّلها للأقدام تذليلاً ، وأظهر طرائقها وبين مغارها ومشارقها يمشى الآدمي في مناكبها متى رام رحيلاً ، ولذلك أشار في كتابه الذي نزله تزيلاً ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، أحمده حمداً كثيراً طويلاً ، وأشكره شكرًا يكون بزيادة نعمه كفيلاً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من برئ من التقليد وشرب من كؤوس التوحيد سلسيلاً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وحببيه الذي اتخذ نبياً ورسولاً وخليلاً ، فانشق له القمر المنير وكلمه الظبي الغرير وجاء إليه البعير مستجيراً به ودخياً ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين كسروا الصلبان ورتلوا القرآن ترتيلاً ، صلاة تدوم وتقوم ما شكا محبّ عليلاً ، وشفى بنسيم غليلاً ، وسلم تسليماً كثيراً عظيماً طويلاً ، وقيل في المعنى :

رَحِيلُكَ شَرَطُ أَتْفَذْنُهُ الْمَقَادِرُ فَأَنْتَ مُقِيمٌ لَوْ تَرَى وَمُسَافِرُ

وَدُنْيَاكَ لَوْ تَدْرِي طَرِيقٌ وَمَعِيرُ وَسَائِرُ هَذَا الْخَلْقِ وَيَحْكُ سَائِرُ

تُمْهَدُ لِلنَّوْمِ الْفِرَاشَ وَأَنْتَ عَنْ قَرِيبٍ لِّبَيْتِ الدُّودِ وَالتُّرْبُ زَائِرُ

وَمِنْهُ أَحْيَىٰ أَيْضًا تَسَافَرُ سُفْرَةً إِلَى مَوْقِفٍ فِيهِ تَبِينُ السَّرَائِرِ
فَمَاذَا يَكُونُ الْعَذْرُ يَوْمَ لِقَائِهِ إِذَا جِئْتَهُ فَرْدًا وَمَا لَكَ نَاصِرُ
وَعُلِّقَ مِيزَانٌ وَطَارَتْ صَحَائِفُ وَمُدَّ صِرَاطٌ وَاضْمَحَلَّتْ مَعَاذِرُ
وَجَاءَتْ بِقَاعُ الْأَرْضِ تَشْهَدُ بِالَّذِي فَعَلْتَ وَلَا سِتْرَ مِنْ اللَّهِ سَاتِرُ
فَقَدَّمَ أَحْيَىٰ زَادًا لَدَيْكَ مِنَ التَّقَىٰ فَشِيبِكَ عَنْ عَصِيَّانِ رَبِّكَ زَاجِرُ
وَتُبَّ لِلَّذِي مَازَلْتَ تَعْرِفُ فَضْلُهُ وَلَيْسَ سِوَاهُ لِلْجَرَائِمِ غَافِرُ
وَصَلَّ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ نَبِيٍّ لَهُ فَوْقَ السَّمَاءِ مَنَابِرُ

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠] .
سَمَّى اللَّهُ تعالى خمسة أشياء كريمة :

الأول : نفسه ، قوله تعالى : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانشطار: ٦] .

الثاني : جبريل ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة: ٤٠] .

الثالث : نبيه ﷺ ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١] .

الرابع : الجنة ، قوله تعالى : ﴿ وَنُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١] .

الخامس : كلامه ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧] .

وفي التكريم سبعة أقوال :

الأول : ولقد كرّمنا بني آدم بسجود الملائكة لأبيهم .

الثاني : ولقد كرّمنا بني آدم بخلق أبيهم بأيدينا .

الثالث : ولقد كرّمنا بني آدم بالقدر والقامة والصورة الحسنة .

الرابع : ولقد كرّمنا بني آدم بستر العورة وأخذ الزينة .

الخامس : ولقد كرّمنا بني آدم بالعقل والعلم .

السادس : ولقد كرّمنا بني آدم بالأكل بأيديهم ، والبهايم تأكل بأفواهها .

السابع : ولقد كرّمنا بني آدم الرجال باللّحي ، والنساء بالذوائب ، ثم قال :

﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [الإسراء : ٧٠] . الإشارة في ذلك إلى السفر ،

وهو على وجهين : سفر بالظاهر في البر والبحر ، وسفر بالباطن وهو الانتقال إلى الأفعال الحسنة ؛ فسفر الظاهر مَنْ يسافر من بقعة إلى بقعة ، وسفر الباطن مَنْ ينتقل من صفة إلى صفة ، فكثير مَنْ يسافر بجسده ، وقليل مَنْ يسافر بقلبه . وفي الإسرائيليات أن الله تعالى يقول : من أين يجد ابن آدم مثلي ؟! إن سافر في البر كلاًته ، وإن سافر في البحر حفظته ، وإن نام حرسه بعيني ، وإن قام مددته بعوني ، وقال ابن عمر : « كان رسول الله ﷺ إذا استوى على بعيره خارجاً يريد سفرًا كبر ثلاثاً ثم قال : سبحان الله ، الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل والولد ، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا ، واطوّل لنا البعيد ، اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد ، فإذا رجع قاهن وزاد عليهن : آيئون تائبون ، لربنا حامدون » ^(١) ، ذكره مسلم . وقال ﷺ : « لا تصحبُ الملائكةُ رفقةً فيها كلب ولا جرس » ^(٢) ، ذكره مسلم . وقال ﷺ : « إذا سافرتُم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض ، وإذا سافرتُم في الجذب فأسرعوا عليها السير ، وإذا أعرستم في الليل فاجتنبوا الطريق ، فإنها طرق الدوابِّ ومأوى الهوام بالليل » ^(٣) ، ذكره مسلم ، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : « بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجلٌ على رحلة له يركض بها يميناً وشمالاً ، فقال ﷺ : مَنْ كان معه فضلٌ ظهر فليعد على مَنْ لا ظهر له ، وَمَنْ كان معه فضل زاد فليعد على مَنْ لا زاد له ، وذكر من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لا حقَّ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٩٧٨ / ٢ ، وابن حبان في صحيحه ٤١٣ / ٦ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٦٧٢ / ٣ ، وابن حبان في صحيحه ٥٥٤ / ١٠ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ١٥٢٥ / ٣ .

لأحد منا في فضل» ^(١) . وقال رسول الله ﷺ « السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نهمته من توجهه ، فليعجل إلى أهله » ^(٢) ، ذكره البخاري ، وقال عبد الله بن جعفر رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفره تلقى بصبيان أهل بيته ، وإنه قدم من سفر فجيء بي إليه ، فحملني بين يديه ، ثم جيء بأحد بني فاطمة فأردفه خلفه ، فدخلنا المدينة ثلاثاً على دابة» ، ذكره مسلم ، وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً » ^(٣) ، ذكره مسلم ، وقال كعب بن مالك رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ لا يقدم من سفر إلا نهاراً في الضحى ، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس » ^(٤) ، أخرجه في الصحيحين . وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل » ، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ « إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم واحداً » ^(٥) ذكره أبو داود . وقال أبو ثعلبة : « كان الناس إذا نزلوا متراً تفرقوا في الشعاب والأودية ، فقال رسول الله ﷺ : إن تفرقكم في الشعاب والأودية من الشيطان ، فلم يزلوا بعد ذلك متراً إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى لو بسط عليهم ثوبٌ واحد لعمَّهم » ^(٦) ، ذكره النسائي ، وقال ابن عمر : « كان رسول الله ﷺ إذا ودع أحداً أخذ بيده فلا يدعها النبي ﷺ حتى يكون الرجل هو الذي يدعها ، ثم يقول ﷺ أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك » ^(٧) ، ذكره الترمذي وأبو داود . وقال أنس رضي الله عنه : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أريد سفرًا فزوّدني ، فقال : زودك الله التقوى ، فقال زدني ، قال : وغفر ذنبك ، فقال : زدني بأي

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٣٨ / ١٢ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٦٣٩ / ٢ ، ومسلم في صحيحه ١٥٢٦ / ٣ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٠٠٨ / ٥ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١٧٠ / ١ ، ومسلم في صحيحه ٤٩٦ / ١ .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ٣٦ / ٣ .

(٦) أخرجه أبو داود في سننه ٤١ / ٣ ، وابن حبان في صحيحه ٤٠٨ / ٦ .

(٧) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ١٣٧ / ٤ ، والحاكم في المستدرک ١ / ٦١٠ .

وأُمي ، قال : ويسرّ لك الخير حيث كنت » ، ذكره الترمذي . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إني أريد أن أسافر فأوصني ، قال : عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف ، فلما ولّى الرجل قال : اللهم ، اطو له البعيد ، وهون عليه السفر » ^(١) ، ذكره الترمذي . وقال عبد الله بن عمر : قال رسول الله ﷺ : « لا يركب أحدكم البحر إلا حاجاً أو معتمراً أو غازياً في سبيل الله ، فإن تحت البحر ناراً ، وتحت النار بحراً » ^(٢) . ذكره أبو داود . وقالت أم حرام : قال رسول الله ﷺ : « في المائد في البحر الذي يصيبه القيء له أجر شهيد ، والغريق الذي يموت فيه له أجر شهيدين » ^(٣) ، وقيل في المعنى :

رَكِبْتُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ بَحْرَ شُجُونِي	وَصَيَّرْتُ ذِكْرِي مُؤْنِسِي وَسَفِينِي
وَتُهُتُ عَنْ الْأَكْوَانِ أَرْهُو بِحَبِّهِ	فَعَايَنْتُ فِيمَا قَدْ رَأَيْتُ مَعِينِي
وَلَمَّا تَجَلَّى لِي بِسَرِّ جَمَالِهِ	جُنْتُ فَأَذْنَانِي لِفَرْطِ جُنُونِي
وَلَا طَفَنِي لُطْفَ الْمَوَالِي وَقَالَ لِي :	رُويْدَكَ إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ ذُبُونِي
فَأَبْشِرْ بِرِضْوَانِي وَقُرْبِي وَمِنْحَتِي	فَمَا خَابَ عَبْدٌ جَاءَنِي بَيِّقِينَ
فَطَاطَأْتُ إِجْلَالَ لَهُ وَمَهَابَةً	وَمَلَكْتُ مَنْ أَهْوَى جَمِيعَ رُهُونِ
وَمَازِلْتُ أَرْجُو مِنْهُ مَا هُوَ أَهْلُهُ	فَحَقَّقَ لِي عِنْدَ الْقُدُومِ ظُنُونِي

وفي السفر ثلاث فوائد : إحداها تجديد الرزق ، وفي التوراة مكتوب : يقول الله تعالى : عبدي ، أحدثُ سفرًا أحدثُ لك رزقاً . والثانية رؤية العبر ، وفي الإسرائيليات : إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد ، ثم سحّ في الأرض حتى تنكسر العصا وتنخرق النعلان . والثالثة اكتساب الفوائد ؛ ألا ترى أن السيارة من أجل سفرهم لقوا أجمل الناس وجهاً

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢ / ٣٣١ .

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ١ / ٥٨ ، والحاكم في المستدرک ٤ / ٦٣٨ .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ٣ / ٧ ، والبيهقي في الكبرى ٤ / ٣٣٥ .

وأكرمهم منزلة وأعلاهم عند الله مرتبة ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ﴾ [يوسف : ١٩] ، وذلك أن يوسف عليه السلام لما أتى عليه في الحب ثلاثة أيام ، نزل عليه جبريل عليه السلام ، وكان القميص الذي أنزله الله على إبراهيم يوم رُمي في النار من ثياب الجنة ورثه من إسحاق ، وورثه من إسحاق يعقوب ، وجعله في قصبة في وسط قلادة ، وعلقها في عنق يوسف عليه السلام فأخرجه جبريل عليه السلام من القصبة ^(١) ، وكساه إياه ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : كسوة الجنة توارى من الجن والملائكة ، ولا توارى من الناس ، فأرأوه غريباً وهو مكتس بكسوة الجنة ، فأوحى الله تعالى إليه : إني مخرجك من الحب ومرسلك إلى مصر ، وجاعل أهل مصر عبداً لك ، تخدمك الجبابرة ، وتذل لك الملوك ، وتكون لك اليد العليا على إخوانك تحكم فيهم بمرادك ، قال : وقدمت قافلة من قوافل الشام تريد مصر ، وأهلها ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، وكان رئيس القافلة عربياً بدوياً يسمى مالك بن دعر الخزاعي ، فلما قربوا من المكان قال لهم مقدمهم : عهدي بهذا المكان وفيه بئر نستقى منها فانزلوا ، قال : فتزلوا ودعا بغلامين له يقال لأحدهما : بشراي ، والآخر : بشار ، فقال لهما : انطلقا إلى هذا البئر واتيانى بماء ، فانطلقا بالدلو والرشا ، فلما قربوا من البئر إذا بالطير عاكفة عليه ، فاشتغل بشراي بقضاء الحاجة ، وانطلق بشار إلى البئر ليأتي بماء ، فإذا نور استطع فتعجب بشار من ذلك وأدلى دلوه ، فتعلق يوسف بالدلو ، وكان يوسف جسيماً وسيماً ، فأراد أن يرفعه فتقل عليه ، فنظر إلى البئر فرأى وجهاً يُخجل الشمس جماله ، والبدن كماله كما قيل :

أَشْهَلُ الْعَيْنِ كَحِيلِ الْحَدَقَةِ	عُنُقُ الرَّيِّمِ يُضَاهِي عُنُقَهُ
لَوْ تَرَاهُ حِينَ يَمْشِي نَشِطاً	كَقَضِيبِ الْأَسِ يُكْسَى وَرَقَةً
وَتَرَى النَّحْلَ مُحِيطَاتٍ بِهِ	يَشْرَبُونَ الشَّهْدَ مِمَّا بَصَقَهُ
فَازَ بِالْجَنَّةِ مَنْ أَبْصَرَهُ	ثُمَّ بِالْفِرْدَوْسِ مَنْ قَدْ رَمَقَهُ

(١) وهذه الأخبار التي أوردها المصنف لم نجد لها.

فلما أبصر الغلام بدرَ التَّمام داخلته الدهشة والهيام ، ومنعه الثقل من رفعه من ذلك المقام ، وصاح : يا بشراي ، هذا غلام ، وقيل في المعنى :

وَاطْرَبًا مِنْ نَشْرِ رِيحِ الْخُزَامِ يُحْيِي فُوَادَ الشَّيْنِ الْمُسْتَهَامِ
كَأَنَّمَا نَفَحَتْهُ عَنَبْرٌ أَوْ مِسْكُ دَارِينَ وَزَهْرُ الْكِمَامِ
شَمَمْتُهُ مِنْ نَحْوِ مَنْ قَدْ نَأَى وَفِي فُوَادِي وَالْحَشَا قَدْ أَقَامَ
أَحْبَابَنَا هَلْ عَطْفَةً تُرْتَجَى أَوْ لَمَحَةً مِنْكُمْ تُرَى فِي الْمَنَامِ
لَوْ شَاهَدْتَ عَيْنَايَ مَرَاكُمُ مَا كُنْتُ أَلْوِي نَحْوَ بَدْرِ التَّمَامِ
وَكُنْتُ أَشْدُو طَرِبًا مِثْلَمَا يَشْدُو مُنَادِي الْحُبِّ بَيْنَ الْأَنَامِ
أَبْصَرَ شَمْسَ الْحُسْنِ فِي يُوسُفَ فَقَالَ : يَا بُشْرَايَ ، هَذَا غُلَامٌ

قال : فتعاوننا عليه حتى رفعاه ، فلما نظرا إليه تحيرا ، ثم احتملاه إلى سيدهما ، فلما نظر إليه مالك بن دعر أعجب به ، وبُهِت من جماله ، وجعلوا يكلمونه بالسريانية ، وهو يكلمهم بالعبرانية ، وكان إخوة يوسف قد جعلوا مراعيهم حول البئر يتجسسون أخباره ، فلما نظروا إليه وقد أخرجوه أقبلوا وقالوا : هذا مملوكنا أبق منا منذ ثلاثة أيام ، وتوارى منا في هذا الجُبِّ ، ثم قالوا له بالعبرانية : إن أقررت لنا بالعبودية سلمت ، وإلا انتزعناك من أيديهم ، وقتلناك شر قتلة ، فتوقف في الجواب فتقدم إليه يهودا ، وقال له : يا أخي ، إنا قد أخبرنا أباك أن الذئب قد أكلك ، فإن أقررت لهم بالعبودية باعوك ، وسلمت من القتل ، ولعل الله أن يأتيك بالفرج منه ، فتقدموا إلى رئيس القافلة ، وقالوا : هذا عبدنا أبق منا ، فقال الرئيس : ما هذه والله سيمة العبودية ، إن هي إلا سيمةُ الأحرار المكرمين ، فقالوا : نعم ، إن أبانا اشترى جارية تسمى راحيل ، وكان هذا رضيعاً منها ، فربِّي في أحجارنا ، وتخلق بأخلاقنا ، فقال التاجر : ما تقول يا غلام ؟ قال : نعم ، ربيتُ في أحجارهم ، وتخلقت بأخلاقهم ، فقالوا : اشتراه منا نبعه منك ، فقال : ما بقي عندي من الدراهم إلا مقدار عشرين درهماً ؛ لأننا صرفناها في أنواع المتاجر ، فقالوا : نبيعه منك بذلك ، لكن على شرط أن تُوثقه بأشدِّ الوثاق ، وتقيده وتغله وتوكل به من يحفظه حتى يأتي مصر ، فإنه لص آبق ، وإنما خافوا أن ينفلت منهم ويرجع إلى

أبيهم ، فقال التاجر : لكم عليّ ذلك ، ولكن اكتبوا لي كتاباً ، فقدم روبيل قرطاساً ودواة ، وكتب : بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، هذا ما اشترى مالك بن دعر الخزاعي من أولاد يعقوب ، وهم فلان وفلان وفلان مملوكهم يوسف بعشرين درهماً بعهد الله وميثاقه أن يقيده ويغله ويوكل به من يحفظه حتى يأتي مصر ، فأعطاهم مالك بن دعر تلك العشرين درهماً ، تقسموها بينهم درهمين درهمين ، فالتفت يوسف إلى أخيه يهودا ، وقال : يا أخي ، سألتك بالله لا تأخذ من ثمني شيئاً فإنه حرام ، فقال يهودا : والله ، لا أكل لأخي يوسف ثمناً ، وقيل في المعنى :

يُحَرِّكُنِي إِلَيْكَ هَوًى مُطَاعٌ	فَأَحْمِلْ فِيكَ مَا لَا يُسْتَطَاعُ
وَأَرْكَبُ مَرْكَبًا لِلْحُبِّ صَعْبًا	تَضَيِّقُ بِهِ الْأَمَاكِنَ وَالْبِقَاعُ
فَلِلْعَبْرَاتِ بِالْخَدِّ ائْتِفَاعُ	وَلِلزَّفَرَاتِ بِالصَّدْرِ ارْتِفَاعُ
وَفِي هَذَا رُمِيَتْ بِكُلِّ بَلَوَى	تَدَاوُلُ زَوْرُهَا الْهُوْجُ الرَّعَاعُ
وَبَلَوَى الدَّهْرِ تَنْزِلُ كُلِّ يَوْمٍ	بِكُلِّ فَتًى لَهُ فِي السَّبْقِ بَاغُ
تَطَاوُلُ فِي الْمَكَارِهِ مِنْهُ قَوْلٌ	لَهُ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ اِطْلَاعُ
وَمَا ذَنْبِي سِوَى أَبِي مُحِبُّ	وَفِي كَيْدِي مِنَ الْحُبِّ انْصِدَاعُ
أَبِغْتَ مَوَدَّتِي وَنَسِيتَ عَهْدِي	عَلَى أَنْ الْمَوَدَّةَ لَا تُبَاغُ
وَكُنْتُ قَنِعْتُ بِالْكَثْمَانِ فِيكُمْ	فَأَمَّا الْيَوْمَ فَانْحَلَّ الْقِنَاعُ
وَكُنْتُ رَضَعْتُ نَدَى الْقُرْبِ مِنْكُمْ	وَأَمَّا الْيَوْمَ قَدْ فُطِمَ الرِّضَاعُ
وَكُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ لَكُمْ حَدِيثًا	يُحَرِّكُنِي مِنَ الْوَجْدِ السَّمَاعُ
وَطَلَّقْتُ السُّرُورَ بِكُمْ ثَلَاثًا	طَلَاقًا لَيْسَ لِي فِيهِ ارْتِجَاعُ
فَإِنْ تَعْطِيفٌ عَلَى عَبْدٍ مُطَاعٍ	فَإِنِّي ذَلِكُ الْعَبْدُ الْمُطَاعُ
عَلَى أَنِّي سَأُشْهِدُ عِنْدَ بَيْعِي	أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتًى أَضَاعُوا
وَبَاعُونِي بِبَحْسٍ يَا لِقَوْمِي	وَمِثْلِي فِي الْحَقِيقَةِ لَا يُبَاغُ

قال : فدعا التاجر بقيد فقيده ، وبُعِلُ فَعَلَهُ في عنقه ، فقال يوسف عليه السلام : لا تَغْلُوا عنقي ، فإني إذا رأيتُ ذلكَ ذكرتُ أغلالَ أهل النار ، فقال له التاجر : يا يوسف ، قد أعطيتُ مواليكَ عهداً وميثاقاً أن أغلِّك وأقيدك حتى آتي مصر ، وإذا وصلتُ مصر حللتُ عنك قيودك وأغلالك وأنزلتك منزلة الأحرار لا منزلة العبيد ، وقيل في المعنى :

أَيَا قَيْدُكُمْ مَزَقْتَ مِنْ جِلْدِ مُسْلِمٍ	تَرَفَّقْ بِحُرِّ فِي وَثَاقِكَ مِنْهُمْ
تَعَطَّفْتَ فِي وَثْقِي تَعَطَّفَ أَرْقَمٍ	فَطُعْمُكَ مِنْ لَحْمِي وَشَرْبُكَ مِنْ دَمِي
وَلَوْ أَنَّكَ مُسَوِّدٌ كَيَوْمِ فِرَاقِنَا	وَجِرْمُكَ مُشْتَدُّ كَصَخَرٍ مُلْمَمٍ
لَكَ الْوَيْلُ لِيَّيْنِي قَدْ حَسِبْتُكَ حَاصِرًا	لِسَاقِي وَمُفْنٍ لَوْ أَنَّ جِلْدِي وَأَعْظَمِي
سَأَشْكُو إِلَى مَوْلَايَ مَا أَنَا وَاجِدٌ	فَمَا زَالَ مَنَانًا كَثِيرَ التَّرْحُمِ

قال : فلما جاء وقت ارتحالم ونظر يوسف إلى الجمال شدوا عليها الرحال بكى ، فقال التاجر : من الباكي عند مسيرنا ؟ فقالوا له : الغلام العبراني ، قال : عليَّ به ، فأوقفوه بين يديه ، فقال : يا غلام ، ما لك ؟ قال : أريد أن أصل إلى موالي الذين باعوني ، فأسلم عليهم سلام من لا يرجع إليهم ، فقال التاجر لأسود قد وكله التاجر بحفظه : يا غلام ، اذهب بهذا إلى مواليه ليودعهم ، فما رأيت غلاماً أبر منه بمواليه ، ولا قوماً أجفى منهم له ، وقيل في المعنى :

تَنَفَّسْتُ الْغَدَاةَ وَقَدْ تَوَلَّوْا	وَعَيْسُهُمْ مَعَارِضَةُ الطَّرِيقِ
فَصَاحُوا بِالْحَرِيقِ فَظَلْتُ أَبْكِي	فَصَاحُوا بِالْحَرِيقِ وَبِالْعَرِيقِ

ثم قال التاجر للأسود : إذا فرغ من وداعهم فألحقه بالقافلة ، فتقدم الأسود بيوسف عليه السلام يقوده بسلسلة ، وكانت الليالي بين أولاد يعقوب نوباً يحرس كل واحد منهم ليلة ، ويدود السباع عن أغنامهم ، وكانت تلك الليلة ليلة يهودا ، فلما سمع صلصلة الحديد تقدم فإذا هو بيوسف يعثر في قيده وسلسلته ، فانكب عليه يبكي ويقول : عز عليَّ مسيرك هذا فلماذا جئت ؟ قال : أتيت لأودعكم وأسلم عليكم سلام من لا يرجو أن يراكم أبداً ، فصاح يهودا لإخوته وقال : قوموا إلى من أتاكم مقيداً ليسلم عليكم سلام من لا يرجو أن يراكم أبداً ، فويل لكم من هذا الوداع ،

فأقبلوا ، فجعل يوسف ينكب على كل واحد منهم ويقبله ويعانقه بيده وصدره
ويقول : حفظكم الله وإن ضيعتموني ، آواكم الله وإن طردتموني ، رحمكم الله وإن
لم ترحموني ، قال : فألقت الأغنام الحوامل ما في بطونها من هول ذلك التوديع ،
وقيل في المعنى تخميساً :

وَالدَّمْعُ مُزْنٌ وَالضُّلُوعُ جَحِيمٌ الشَّوْقُ خَذَنٌ وَالْغَرَامُ نَدِيمٌ
أَزِفَ الْفِرَاقُ وَفِي الْفُؤَادِ كُلُّهُمُ سَبَقَ الْقَضَاءُ فَمَنْ عَلَيْهِ أَلُومٌ
وَدَنَا التَّرْحُلُ وَالْحِمَامُ يَحُومُ

جِسْمِي مَعِيَ وَالْقَلْبُ أَضْحَى عِنْدَهُمْ عَجَبًا لَهُمْ صَارَ التَّفَرُّقُ قَصْدَهُمْ
قُلْ لِلْأَحِبَّةِ : كَيْفَ أَبْقَى بَعْدَهُمْ نَادَيْتُهُمْ أَشْكُو إِلَيْهِمْ بَعْدَهُمْ
وَأَنَا الْمُسَافِرُ وَالْفُؤَادُ مُقِيمٌ

وَحَكَتْ جُفُونِي بِالْبُكَاءِ سَحَابَةٌ بُدِّلَتْ مِنْ بَعْدِ السُّرُورِ كَابَةٌ
قَالُوا : الْوَدَاعُ يَهِيْجُ مِنْكَ صَبَابَةٌ وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْوَدَاعِ صُبَابَةً
وَيُثِيرُ مَا هُوَ فِي الْحَشَا مَكْتُومٌ

وَسَقَوْا مُعْنَاهُمْ بِكَأْسٍ مُرَّةٍ حَمَلُوا الْبُدُورَ عَلَى الْخُدُورِ بِسُحْرَةٍ
قُلْتُ : اسْمَحُوا لِي أَنْ أَفُوزَ بِنَظَرَةٍ فَنَشَدْتُهُمْ وَأَنَا مُصْعَدٌ زَفَرَةٍ
وَدَعُوا الْقِيَامَةَ بَعْدَ ذَلِكَ تَقُومُ

قال : فاحتمله الأسود على ظهر بعير بلا غطاء ولا وطاء حتى ألحقه
بالقافلة ، قال : فمر به على قبر أمه راحيل ، وكانت بمقابر آل كنعان ، فلما أبصر
القبر لم يملك نفسه من كثرة الشوق أن رمى نفسه على قبر أمه ، فاعتنقه وجعل
ييكى ويضطرب ، ويقول : يا أماه ، ارفعي رأسك من التراب تري ولدك مقيداً
مغلولاً ، يا أماه إخواني في الحب طرحتوني ، وعن أبي فرقوني ، وبأبخس الأثمان
باعوني ، ولم يرقوا لصغر سني ، ولم يرحموني ، وأنا أسأل الله أن يجمع بيني وبين
والدي في مستقر رحمته ، إنه أرحم الراحمين ، وقيل في المعنى :

أَيَا أُمَاهُ لَوْ أَبْصَرْتَ ذُلِّي وَمَا أَلْقَاهُ مِنْ قَيْدِي وَعَلِي
 وَيَبْعِي كَالْعَبِيدِ وَكُنْتُ حُرًّا وَحَمَلِي كَالْأَسِيرِ بِغَيْرِ مَهْلٍ
 وَمَا فِي إِخْوَتِي لِي مِنْ رَحِيمٍ لَقَدْ قَطَعُوا عُرَى رَحِمِي وَحَبْلِي
 وَأَعْلَمُ أَنَّ الدِّنَا لِهَذَا رَهِينُ إِسَاءَةٍ وَحَزِينُ وَيْلٍ
 فَيَا مَوْلَايَ فَرِّجْ كَرْبَ عَبْدٍ يُؤْمَلُ مِنْكَ فِي عَقْدٍ وَحَلٍّ
 بِنَائِكَ الَّذِي مَا زَالَ يُرْجَى وَعَفْوًا شَامِلًا عَنْ قُبْحِ فِعْلِي

قال : فالتفت الأسود إلى البعير فلم يجده وكان يقوده فرجع يقفوه أثره ،
 فإذا به على قبر أمه راحيل يبكي ، فقال : والله ، لقد صدق مواليك ، إنك لص
 آبق ، تدعو أمك مرة ، وأباك مرة أخرى ، هلا كان ذلك وأنت بينهم ؟ ثم لطمه
 لطمه شديدة في حر وجهه ، فتغفر وجهه في التراب ، فغشي عليه ثم أفاق ، وقال :
 لا تؤاخذ علي ، فإني لما مررتُ بقبر أُمِّي لم أتمالك أن رميتُ نفسي كما ترى ، ولا
 أعود إلى ما تكرهونه إن شاء الله ، ثم رفع طَرْفَهُ إلى السماء وقد تمرغ بالدموع
 والتراب وجهه ، فقال : اللهم ، إن كانت لي خطيئةٌ أخلقتُ وجهي عندك ،
 فأسألك بحق آبائي الكرام إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن تغفروني وترحمني وتغفر لي
 يا أرحم الراحمين ، فضجت الملائكة إلى الله تعالى ضحيجاً بلغ العرش ، فقال الله
 تعالى : يا ملائكتي ، هو نبيي وابن أنبيائي ، وقد استغاث بي وأنا مُغيثه وغياث
 المستغيثين ، يا جبريل ، أدركه فترل جبريل ، وقال : إن الله تعالى يُقرئك السلام
 ويقول لك : يا صديقُ ، مهلاً فقد أبكيت ملائكة السبع سموات ، أتريد أن أقلب
 السماء على الأرض ، فقال : لا يا جبريل ، ارفق بخلق الله ، فإنه حلیم لا يعجل ،
 فضرب جبريلُ الأرضَ بجناحه ، وجعل يضرب بأجنحته بعضها على بعض ، ففي
 الساعة هبت ريحٌ حمراءُ ، وكسفت الشمس ، وأظلمت الغبراء ، وصار النهار
 ليلاً ، وانسدلت الظلمة ، فلم ير أهل القافلة بعضهم بعضاً ، فقال رئيس القافلة :
 انزلوا قبل أن تهلکوا يا قوم ، لي منذ كذا وكذا سنة أمرٌ بهذا الطريق فما رأيتُ
 كاليوم ، فمن أصاب منكم ذنباً فليتب منه ، فما أصابنا ما أصابنا إلا بذنب
 اقترفناه ، فتقدم إليه الأسود وقال : يا سيدي ، الذنب مني ، ضربتُ عبدك

العبراني ؛ لأنني لم أجده على البعير ، فرأيتُه قد رفع عينيه إلى السماء وحرك شفتيه ، فقال رئيس القافلة : ويحك ، أهلكتنا وأهلكَت نفسك ، ثم تقدم إليه التاجر ، وقال : يا غلام ، لقد ظلمناكَ إذ ضربناكَ ، فإن شئتَ أن تقتصَّ منا فهذا نحن بين يديكَ^(١) ، فقال : ما أنا من قوم إذا ظلموا يقتصون ، إنما أنا من قوم إذا ظلموا عفوا وغفورا ، ولقد عفوتُ عنكم رجاء أن يعفو الله عني ، فأنجلت الظلمة ، وسكنتُ الريح ، وعاد الوقت كما كان ، وأشرقت الشمس ، فأضاءت مشارق الأرض ومغارها^(٢) ، وقيل في المعنى :

أَخَذَ الْوَلِيُّ بِثَارِ مَظْلُومٍ دَعَا وَأَتَى الْعَذَابُ إِلَى الْجَمِيعِ وَأَسْرَعَا
وَبَكَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ لِأَجْلِهِ طُرًّا وَأَجَرَتْ لِلصَّبَابَةِ أَدْمَعَا
وَأَتَاهُ جَبْرِيلُ الْأَمِينُ وَقَالَ : مَهْ أَتْرِيدُ قَلْبَ الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِيِّ مَعَا
فَأَجَابَهُ مَهْلًا عَلَى مَنْ قَدْ عَصَى فَلَعَلَّ عَفْوَ اللَّهِ يَأْتِي مُسْرِعَا
هَذِي شَمَائِلُ مَنْ رَضَاهُ إِلَهُهُ يَهَبُ الْجَرِيمَةَ مَنْ أَتَى مُتَضَرِّعَا

إخواني : السفر مكتوب علينا فما لنا نطلب الإقامة بدار ليست إلينا ، السنون منازل ، والشهور مراحل ، والأيام أميال ، والأنفاس خطوات ، والمعاصي قُطَاع الطريق ، والربح الجنة ، والخسران النار ، خلقنا ننتقل في ستة أسفار إلى أن يستقر بنا المنزل :

فالسفر الأول : سفر السَّلالة من الطين إلى الصُّلب .

والثاني : من الصُّلب إلى الرحم .

والثالث : من الرحم إلى ظهر الأرض .

والرابع : من ظهر الأرض إلى القبر .

(١) وهذه القصة ذكرها الإمام الآلوسي في تفسيره ، وفيها من الغرابة ما يؤكد أنها من الإسرائيليات .

(٢) ذكرت هذه القصة في روح المعاني (١٢ / ٣٠٩ - ٣١٠) من أول قوله : ما أنا من قوم إذا ظلموا يقتصون ... إلخ .

والخامس : من القبر إلى موقف العرض .

والسادس : من موقف العرض إلى دار الإقامة ، وإما إلى الجنة وإما إلى النار ، وقد قطعنا نصف الطريق وبقي الأصعب ، ولهذا الخَطْبُ شمر المتقون عن ساق الجدِّ في سوق المعاملة ، كلما مر مركب الحياة يخطرُ في بحر العمر ، شغلهم هول ما هم فيه عن التتره في عجائب البحر ، فلم يكن إلا القليل حتى قدموا من سهر السفر واعتنقهم الراحة في طريق التلقي ، فدخلوا بلاد الوصل وقد حازوا عز الدهر ، خذ حديث القوم جملة واقنع بالعنوان .

عُوتِبَ بعضهم في إمساك العصا ، فقال :

وَلَمْ يُمَسِّكِ الْكَفُّ الْعَصَا عَنْ مَهَانَةٍ وَلَا لَاعْتِلَالٍ نَالَنِي لَا وَلَا قِصْرَ
وَلَكِنِّي فِي حَقِّ نَفْسِي مَلَكْتُهَا لِأَعْلِمَهَا أَنَّ الْمُقِيمَ عَلَى سَفَرٍ

الدنيا بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، والناس فيها على طبقات : فقوم غرقى وهم العوامُّ ، وقوم في السفن وهم العلماء ، وقوم على الشط وهم الزهاد ، نفسُك على الحقيقة هي السفينة ، وهي (بما كسبت رهينة) ، أحضر قلبك لديك لأقصَّ كلام أهل المعرفة عليك ، يا رئيس السياسة ، إذا وليت فلك الرئاسة ، واستويت على سرير سير التدبير في فراسة الضمير ، فافتقدت قرايبس الأقدار وطوارم الأطوار وصواري الاغترار وتوليس الاختيار ومراسي الأسرار وأنكليه ترك الإنكار التي هي مجمع لمياه بحار الأقدار ، ونحذ من سوسن الوسن ، وقلقط خروق الفتن بكتاب الكتمان وقار الوقار ومسمار المسامرة وقادوم تقدم المشاورة وقدم عشاري الانتعاش بين يدي سفينة تدبيرك إذا عاد البحر كالفرش ، وخط بإبرة الارتباط ، وخيوط الاختياط ما انفتق من أوصال طباع عقالك ، وأبرم حبال ترك احتيالك بيد الخروج من أحوالك ، واشتر مسمار مسامرتك من أكام إرادتك ، فإذا تقوى نسيم الأنين نفس المسكين ، وإذا هبت رياح الشرق نفس البرق ، وإذا كثرت رياح الإشارة حل عن نفس الإبرة ، وإذا دامت رياح الاستدلال ، ثبتت الحبال ، وإذا اختلف عليك في ذلك المحال ثبتت الأوصال ، وإذا ترعزعت الأركان دبر السكان ، وإذا خفت عليك المجاري حمل العشاري ، وإذا غابت عنك الدراري حط السواري ، وإذا هالت عليك البحار شد

الإزار ، واصطحب الزوار بقلة الأوزار ، وإذا تفتحت أوصال الفلك فأبشر بالهلك ، وإذا حملت ثقل الصرمان فقل ما يقال في الصدمات ؛ فأنت الرئيس وإن حفظت ما أوصيتك على الحقيقة ، وفي تدبيرك يجب الحج على أهل الطريقة إذا بان لك منار الأنوار ، ومرسى الأسرار ، ومعالم المجاهدات ، وبر الميراث ، ومصر المصبرات ، وإسكندرية المكاشفات ، وكعبة المشاهدات ، وقصر القصور المشرفات ، وركبت قلزم لزوم الواجبات ، ونزلت بجدة الوجد عشية الوفاء بالعهد ، فشدد الإزار ، واصحب الزوار بقلة الأوزار ، والبس إحرام قطع الحرام وخط الذنوب العظام بتلك المشاهد العظام ، واخجل بإخوان الصفا عند الصفا ، واصدق في النجوى عند التضرع والشكوى ، وشدد مقام القوام بوصايا الأقوام ، وطف ببيت الألفاف ، وقف بعربات الاعتراف ، واعرف من المشاهد في تلك المشاهد ، ومن المعاهد في تلك المعاهد ، فإذا رجعت قافلاً ، وأصبحت في أثواب القبول رافلاً ، وجئت من مشرق اقترابك إلى مغرب اغترابك ، فاحمل إلى إخوانك من كتاب كتمانك وماء ورد اتمانك ، ولك توكلك ، ومندل تدلك ، وعنبر عباتك ، وشراب إشارتك ، وكتم أماراتك ، وكافور كفارتك وعود سعادتك ، وسكر شكر عبادتك ، وسنبل لطائفك ، وقرفة وظائفك ، فهذه سلع مشرق الإشراف اللائقة بمغرب الأشواق ، فما أحوجك إلى هذا الحج ، وما أغفلك عن هذا الفج ، وما أعماك عن هذه الدفائن ، وما أجهلك بهذه السفائن ، وما أقل أموالك في هذه الخزائن ! سفينتك اعتقادك ، وسلعك اجتهادك ، ورئيسها عقلك ، ومرساها فعلك ، وصاريها سرّك ، وانكليتها صدرك ، ومسينها إمساكك ، ودفوفها إدراكك ، ورياحها نشاطك ، وحبالها ارتباطك ، وطريقها صراطك ، وسبب نجاحها رباطك ، وطريق هلاكها انبساطك ، وعشاريها إشارتك ، وقرورها شهادتك ، وأياديها براءتك ، والعمال فيها خطراتك ، والمقدمون عليها نظراؤك ، وسيمتها دينك ، وقرينها يقينك ، وقطونها قلبك ، وشراعها شوقك ، فإذا سلم الاعتقاد من الشك ، والسلامة من الإفك ، والرئيس من الفتور ، والمرسى من الهدور ، والصارى من الاضطراب ، والانكليّة من الحقد ، والمسين من البؤس ، والدفوف من البلادة ، والرياح من الحبال ، والحبال من الاختبال ، والطريق من العدو ، والبحار من الأمن ، والأعراض والعشاري من الالتفات إلى الأغيار ،

والقرون من الغفلة ، والإبارة من نفس العبارة ، والعمال من العجب ، والمقدمون من النوم ، والسمار من غيم الشهوات ، والسمية من خبث الطوية ، والقرية من سوس سوء النية ، والقطوفونات من الكذب ، والشراع من شرك القصد ، فأبشر بنيل الوطر وتمام السفر ، فهناك تبين المعاهد للمعاهد ، وتظهر المشاهد للمشاهد ، وتلوح المنازل للنازل ، ويطيب الورد ويدوم السعد ، وتنفد السلاح ويرتفع التراع ، ويعظم قدر العقود بنية نيل لمقصود ، فإذا كانت الشروط مختلفة والعقود منحلة ، فأقرب ما لهذه السفينة أن تتكسر برياح (لا يكلمهم الله) في بحار (ولا يركبهم) في أمواج (ولا ينظر إليهم) في قيود (ولهم عذاب أليم) ، فاستيقظ من نوم اغترارك إن أردت الفوز بأوطارك ، وإن شئتَ ظهور آثارك ، فلا تغفل عن إيثارك ، وإن رُمّتَ الحلول بدارك فدارك ، وإن شئتَ السفر في هذه السفائن ، فاسترزق الله مما في هذه الخزائن ، وقيل في المعنى :

رَكِبَ الْمُحِبُّ إِلَى الْحَبِيبِ سَفِينَةً	تَجْرِي مِنَ الْخَطَرَاتِ فِي أَمْوَاجِ
فِي سِرِّ سِرِّ السَّرِّ سِرًّا أَقْلَعَتْ	فِي جُنْحٍ لَيْلٍ مُذْلَهُمْ دَاجِي
فِيهَا أَنْاسٌ طَهَّرَتْ أَسْرَارَهُمْ	وَحُبُّوا بِقُرْبٍ لَيْسَ ذَا إِدْلَاجِ
نَظَرَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى مَوْلَاهُمْ	بِالنُّورِ يُمَسِّكُهَا بِغَيْرِ سِرَاجِ
وَسَقُوا مِنَ الصَّافِي الرَّحِيقِ مُدَامَةً	مِنْ دُونِ كَأْسٍ لَا وَلَا إِمْرَاجِ
يَا حُسْنَهَا تَجْرِي بِهِ مُتَفَرِّغًا	بِهِمُومِهِ فِي جُنْحٍ لَيْلٍ دَاجِي
فَالْقَلْبُ مَشْكَاةٌ وَفِيهِ زُجَاجَةٌ	قَدْ عُلِّقَتْ بِسَلْسِلِ الْمِنْهَاجِ
مُتَوَقِّدٌ بِالنُّورِ مِنْ زَيْتُونَةٍ	فَاقَتْ بِيَهْجَتِهَا لِكُلِّ سِرَاجِ
هِيَ هَاتِ إِثْنُكَ مِنْهُمْ يَا ذَا الْوَفَا	لَيْسَ الْغِنَى هِيَ هَاتِ كَالْمُحْتَاجِ

(حكاية) قال بعض السادة : بينما أنا أطوف بالكعبة في ليلة مظلمة إذ سمعت صوت حنين ينطق من قلب حزين وهو يقول : يا كريم ، لطفك القديم ، إن قلبي على العهد مقيم . قال : فتطايير قلبي لسماع ذلك الصوت تطايراً أشرفت منه على الموت ، فقصدتُ نحوه فإذا هي امرأة ، فقلتُ : السلام عليك يا أمة الله ، فقالت :

وعليك السلام يا عبد الله ، فقلتُ : أسألك بالله العظيم ما العهد القديم الذي قلبك عليه مقيم ؟ فقالت : لولا قسمُك بالجبار لما أطلعتك على الأسرار ، انظر إلى هذا الصبي النائم بين يدي ، فإذا صبيٌّ يغطُّ في نومه ، قالت : خرجتُ وأنا حاملة به لأحج هذا البيت ، فركبتُ البحر في سفينة فهاجت الأمواج علينا واختلفت الرياح وتكسرت السفينة ، فنجوتُ على لوح منها ، فوضعتُ هذا الصبي وأنا على ذلك اللوح ، فبينما أنا به في حجري والأمواج تضربني ، وإذا بملاح من خَدَمَة السفينة قد وصل إليَّ وحصل معي على ذلك اللوح ، وقال لي : ما زلتُ أهواك وأنا في السفينة وقد حصلتُ معك ، فمكثتُ من نفسك وإلا رميتُك عن هذا اللوح ، فقلتُ له : ويحك ، أما كان لك فيما رأيتَ تذكرةً ومعتبر ، فقال لي : قد رأيتُ مثل هذا مراراً ولا أبالي ، ثم ألح عليَّ فخفتُ منه ، وأردتُ أن أصادمه ، فقلت : مهلاً حتى ينأى هذا الصبي ، فأخذه من حجري ورماه في البحر ، فلما رأيتُ جراته وما فعل بالصبي طار قلبي وزاد كربى ، فرفعت بصري إلى السماء وقلت : اللهم ، يا مَنْ يحولُ بين المرء وقلبه ، اللهم ، خلُ بيني وبين هذا الشيطان ، فوعزته ، ما فرغتُ من الكلام إلا ودأبَةً قد خرجت من البحر فاخطفته ، فبقيت وحدي وزاد إشفاقى على الصبي ووجدى ، وقيل في المعنى :

قُرَّةُ الْعَيْنِ حَبِيبِي وَلَدِي ضَاعَ مِنْهُ لِلتَّائِي جَلَدِي
 إِنْ يَكُنْ جِسْمِي غَرِيقًا فَلَقَدْ صِرْتُ أَشْكُو بِاخْتِرَاقِ الْكَيْدِ
 يَا إِلَهِي قَدْ تَرَى مَا حَلَّ بِي مِنْ غَرَامِي بِفِرَاقِ الْوَلَدِ
 فَاجْمَعْ الشَّمْلَ وَكُنْ لِي رَاحِمًا فَرَجَائِي فِيكَ أَقْوَى عُدَدِي

قالت : فبقيتُ يومي ذلك إلى الليل ، فلما أصبح الصباح عليَّ إذا بقلاع بيض تلوح في البحر فما زالت الأمواج تقذفه والرياح تسوقه حتى وصلت السفينة إليَّ ، فأخذوني عن اللوح ووضعوني بينهم ، فنظرتُ فإذا الصبيُّ بينهم فتراميتُ عليه وقلت : يا قوم ، من أين لكم هذا الصبي ؟ فقالوا : بينما نحن نسير إذ حبست السفينة بنا فنظرنا فإذا دأبَةً كأنها مدينة عظيمة وعلى ظهرها هذا الصبي يحصُ إهمامه ، فحدثتهم بقصتي ، وشكرتُ ربي على ما أولاني ، وعاهدته أن لا أبرح عن بيته ، ولا أنثني عن خدمته ، وما سألته بعد ذلك شيئاً إلا أعطاني ، قال : فمددتُ

يأتي إلى نفقة أعطيها ، فقالت : إليك عني ، يا بطلأ أحدثك بأفضاله وكرم
فعاله ، وأخذ الدراهم على يد غيره ؟ قال : فلما لم أقدر على أن تأخذ مني شيئاً
تركها وانصرفت وأنا أنشد هذه الأبيات :

وَكَمْ لِّلّٰهِ مِنْ لُّطْفٍ خَفِيٍّ	يَدِقُّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذِّكْرِ
وَكَمْ عُسْرٍ أَعَادَهُ اللّٰهُ يُسْرًا	وَفَرَجَ لَوْعَةَ الْقَلْبِ الشَّجِي
وَكَمْ هُمْ تُعَانِيهِ صَبَاحًا	وَتُعَقِّبُهُ الْمَسْرَّةُ بِالْعَشِيِّ
إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الْأَسْبَابُ يَوْمًا	فَتَثِقُ بِالْوَاحِدِ الصِّمْدِ الْعَلِيِّ

تاب الله علينا وهدانا وعصمنا ووقانا وأصلح لنا ديننا ودنيانا ، وصلى الله على
سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس الخامس

في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] .

الحمد لله الذي عَرَّفَ بِعَرَفٍ مندل رياح الروح قلوب المحزونين ، ونفس بأنامل التأمل في أسرار الألفاظ خناق المكرويين ، وقَرَّبَ الإجابة بوجيب لواعج الأوصاب في ساعة الاضطراب فأجاب دعوة المضطرين ، وأطلع غرر البراهين في أطباق آفاق الدلائل بسر تبيان البيان آيات للمعتبرين ، حامل السموات على كف كُنْ بلا عمد من تحتها ولا علائق من فوقها ، وممسكها بلا ظهير ولا معين ، ورصَّعها بدرر الدراري ويواقيت الأنوار آيات للناظرين ، فلما نظر والرسوم رقوم رجوم النجوم فكوا رموز الأسرار من تلك الأسطار المرموزات ، ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦] ، الملك الحي الذي تتره عن كل شيء ، وتقْدَسُ عن الصاحب والصاحبة والقرين ، العزيز الجبار الذي قصم عنق كل جبار ، القهار الذي أعجز كل قهار ، القادر الذي أعجز كل قادر ، الظاهر الذي لا يخفى عليه باطن ولا ظاهر ، الشهيد الذي لا يغيب عنه غائب ولا حاضر ، المعين الذي لا يستظهر بمعين ، السميع الذي يسمع حنين ترنين البعوضة ولا يخفى عليه فَرْحٌ ولا حزين ، البصير الذي يبصر ديبب النمل على كثران الرمل تحت حلك فلك الليل وهي تعلن بالتسبيح وترجّع بالتلحين ، يغضب إذا ترك العبد سؤاله ، ويهبه إحسانه ونواله ، كما قال وهو أصدق القائلين : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] ، أحمدده حمد صبَّ حزين ، وأسأله سؤال مستعطف مهين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مسكين مستكين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين وإمام المتقين ، صلى الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين صلاة تدوم وتقوم إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل في المعنى :

صَبَّ بِبَابِكَ وَأَقِفْ يَتَمَلَّمُ أَضْلَاعُهُ خَوْفَ الْقَطِيعَةِ تُشْعَلُ
قَدْ كَادَ يَذْهَبُ فِيكَ لَوْلَا أَنَّهُ بَنَسِيمِ رُوحٍ وَصَالِكُمْ يَتَعَلَّلُ

عَذَابَ الْعَذَابِ لَهُ فَلَيْسَ يُحِسُّهُ فَالْفَقْدُ وَجَدٌ وَالْمَصَاعِبُ تَسْهَلُ
مَا ضَرَّهُ مَنْ كُنْتَ غَايَةَ قَصْدِهِ مَاذَا يُلَاقِي فِيكَ أَوْ يَتَحَمَّلُ
أَفْ لِيذِي وَدُّ يُذِيعُ بِوُدِّهِ وَيُضِيعُ وَدَّكَ دَائِمًا وَيُؤَمِّلُ
أَحَدًا سِوَاكَ وَكُلُّ شَيْءٍ ذَاهِبٌ وَلَكَ الْبَقَاءُ وَأَنْتَ أَنْتَ الْأَوَّلُ
يَا ظَاهِرِي يَا بَاطِنِي يَا حِيلَتِي يَا مَنْ عَلَيْهِ فِي الْأُمُورِ أَعْوَلُ
مَا شِئْتَ فَافْعَلْ أَنْتَ فِي مُحْكَمٍ وَلِسَانُ حَالِي فِي الْهَوَى يَتَمَثَّلُ
أَمْعَذِبِي هَذَا الْحُسَامَ وَهَذِهِ أَعْضَاءُ جِسْمِي كُلُّهَا لَكَ مِفْصَلُ
فَاضْرِبْ بِهِ حَيْثُ اشْتَهَيْتَ وَلَا تَخَفْ ثَأْرِي فَإِنَّكَ عَنْ دَمِي لَا تُسْأَلُ
فَلَرُبَّمَا كَانَتْ هُنَاكَ مَنِيَّتِي فَارْتَأَحْ جِسْمِي وَاسْتَرَأَحِ الْعَذْلُ

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ، ذكر
الله تعالى على سبع طاعات سبع كرامات ، ذكروا في السجود : القربة في قوله
تعالى ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [العلق : ١٩] .

وفي الصيام : التيسير في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .
وفي الزكاة : الفلاح في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [الأعلى : ١٤] .
وفي الحج : الأمن من النار في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾
[آل عمران : ٩٧] .

وفي الجهاد : الجنة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

وفي الصدقة : التضعيف في قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
فَيُضَاعِفُهُ لَهُ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

وفي الدعاء : الإجابة في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾
[غافر : ٦٠] .

والناس في الدعاء على خمسة أصناف : فقوم قالوا : الدعاء تحكم ،
 والتحكم عليه لا يجوز ، وقال آخرون : يدعى بالحمد والثناء ، ولا تذكر له
 الحوائج ؛ لأنه عالم بما قال الخليل عليه السلام : حسبي من سؤالي علمه بحالي . وقوم
 قالوا : لا ندعوه حياء من معصيته ، وقوم قالوا : ندعوه في حال الضرورة ونشكره
 في حال النعمة . وقوم قالوا : ندعوه في حال الرخاء والشدة والضرورة والنعمة ؛
 لأنه أمرنا بذلك ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] ،
 وفي قوله تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] عشرة أقوال :

الأول : ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة .

الثاني : ادعوني بقلوب خالية أستجب لكم بالدرجات العالية .

الثالث : ادعوني بشفاه ذابلة أستجب لكم بكرامات كاملة .

الرابع : ادعوني أستجب لكم في حال الضراء .

الخامس : ادعوني بقلوب صافية أستجب لكم بدوام العافية .

السادس : ادعوني بالقلوب والجوارح أستجب لكم بالنجاة من الحوائج .

السابع : ادعوني بالإخلاص والتقوى أستجب لكم بمحنة المأوى .

الثامن : ادعوني بالخوف والرجاء أجعل لكم من كل هم فرجاً ومخرجاً .

التاسع : ادعوني بأسمائي الحسنی أستجب لكم ببلوغ المطلب الأسنى .

العاشر : ادعوني في دار الخراب أستجب لكم في دار البقاء والثواب . قيل : فما

الحكمة في أن الله تعالى قال : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] ونحن ندعوه

فلا يستجيب لنا ؟ قالوا : لثلاثة أشياء :

أحدها : ليقبى الرجاء عندنا متصلاً ؛ لأنه إن لم يُعطِ اليوم فقد يُعطي غداً .

الثاني : لو سأله فأعطاك منك لم تسأله بعد ذلك .

الثالث : لعلك تسأله ما فيه فسادك فيعطيك ما فيه صلاحك .

وفي بعض الكتب : إن الله تبارك وتعالى يقول : يا عبدي ، ادعوني لأسمع

دعائك ، فإن كان سؤالك صالحاً أعطيتك لك ، وإن كان فساداً صرفته عنك ،

فمنعنا هو العطاء ، وقيل في المعنى :

قِفْ عَلَى الْبَابِ قَلِيلًا وَاجْعَلِ الذِّكْرَ سَبِيلًا
 وَالْتَزِمْ ذِكْرِي نَهَارًا وَغُدُّوا وَأَصْبَحُوا
 هَلْ تَرَى أَكْرَمَ مِنِّي فَارْضَ بِي عَبْدِي وَكِيلًا
 لَا وَلَا أَوْفَى بِعَهْدِي لَا وَلَا أَقْوَمَ قِيَلًا
 بِشَّرِّ الْمُسْرِفِ بِالذُّبِّ إِنَّ لِي عَفْوًا جَمِيلًا
 وَأَبَارِيقًا وَظِلًّا فِي الْفَرَادِيسِ ظَلِيلًا
 أَوْلِيَّائِي أَصْفِيَّائِي لَا تُرِيدُوا بِي بَدِيلًا
 أَخْلِصُوا نِيَّاتِكُمْ لِي وَاطْلُبُوا مِنِّي الْقَبُولَا
 وَأَتَعَبُوا الْيَوْمَ قَلِيلًا تَنَعَّمُوا دَهْرًا طَوِيلًا

واعلم أن إجابة الدعاء معجزة الأنبياء وكرامة الأولياء إذا أصابتهم النوازل
 رفعوا إلى الله المسائل ، فمنحهم الهدى وأراهم الأمل في العدا . « لما أكثر قريش
 الأذية لرسول الله ﷺ واستعانوا عليه بالأموال والعدد قال : اللهم أجذب لهم
 بلادهم ، وأدخل الفقر بيوتهم ، وسلط عليهم سنين كسني يوسف ، اللهم اشد
 وطأتك على مضر ، فأمسك الله عنهم القطر حتى يبس الشجر وذهب الثمر وماتت
 المواشي ، فبعثوا زُرارة إلى كسرى يستأذنه في رعي إبلهم عنده فرماه بقوسه ، فما
 زال حالهم على ذلك حتى أكلوا العظام والميتة ، وكان الرجل ينظر إلى السماء
 فيحال بينه وبينها بدخان من شدة خلو رأسه وتفرغ أعضائه ، وأكلوا العلهز ،
 وبعثوا وفداهم إلى رسول الله ﷺ يسألونه بالرحم ، فرحمهم ودعا لهم ، فأرسل الله
 عليهم المطر ، وأزال الجذب حتى تهدمت بيوتهم ، وانقطعت معاشهم ، فشكروا إليه
 ﷺ ذلك ، فدعا الله عز وجل فرفعه عنهم ، ونحر أبو جهل - لعنه الله - يومئذ
 جزوراً ، ثم أخذ سلاها ، ورسول الله ﷺ ساجد فوضعه بين كتفيه ، فجاءت فاطمة
 رضي الله عنها بعد ساعة فطرحته عنه ، فقال عند ذلك : اللهم ، عليك بأبي جهل
 ابن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن
 أبي معيط ، قال ابن مسعود : فلقد رأيتهم قتلى في قليب بدر ، وجاء عمر بن وهب
 ليقتله ، وكان قد استأجره على ذلك صفوان بن أمية ، فملاً سيفه سُمًا ، ثم أتى إلى

المدينة ، فلما أناخ راحلته بباب المسجد ، قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، هذا عدو الله عمر بن وهب ، فقال : دعه يا عمر ، ودخل فقال : انعموا صباحاً ، فقال رسول الله ﷺ : يا عمر ، إن الله تعالى أكرمنا بتحية الإسلام ، فقيم جئت ؟ قال : جئت لتفادوني أسراي ، ورام أن يضرب رسول الله ﷺ بالسيف فلم يستطع ، فقال رسول الله ﷺ : ويحك ، إنما جئت لتقتلني ، والله يمنعني منك ، وفي طريق أخرى أن رسول الله ﷺ قال : « ما جاء بك يا عمر ؟ قال : جئت إلى هذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا إليه ، وكان ابنه قد أُسر في يوم بدر ، قال : فما بال سيفك في عنقك ، قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : اصدقني ، ما الذي جاء بك ؟ قال : ما جئت إلا لذلك ، قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر ، فذكرتما أصحاب القلب من قريش ، ثم قلت : لولا دين عليّ وعيال عندي أخاف عليهم الضيعة بعدي لخرجت إلى محمد لأقتله ، فتحمل صفوان دينك وعيالك على أن تقتلني والله حائل بيني وبينك ، فقال عمر : أشهد أنك رسول الله » ، والقصة أطول من هذا . ذكره ابن إسحاق . « وقدم عامر بن الطفيل على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به ، فقال لأربد بن قيس : إذا قدمنا على الرجل ، فإني أشغل وجهه عنك ، فإذا فعلت ذلك فاعلّمه بالسيف ، فلما وقفا على رسول الله ﷺ قال عامر : يا محمد ، حابيني ، قال : لا والله ، حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له ، قال : فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال : والله يا محمد لأملأها عليك خيلاً ورجالاً ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم ، اكفنا عامر بن الطفيل بغدة كغدة البعير ، فأصابه ذلك ، فأوى إلى بيت سلولية ، فصار يقول : أغدّة كغدة البعير ، ومكث في بيت سلولية حتى مات . » ودعا على الأسود بن عبد المطلب ، فقال : اللهم ، أعمّ بصره وأتكله إلى ولده ، فكان كما قال . ودعا على أبي نزوان ، وكان راعياً في إبل عمرو بن تميم ، وذلك أن رسول الله ﷺ خاف من قريش مرة فخرج فارّاً يطلب موضعاً يخفي نفسه فيه ، فنظر إلى سواد الإبل فقصدها ودخل بين أرجلها وجلس ، فنفرت الإبل ، فقام أبو نزوان وطاف بإبله فرأى رسول الله ﷺ جالساً فقال له : من أنت ؟ قال : أنا رسول الله ، فقال له : اخرج ، فإنه لن تفلح إبل أنت فيها ، فدعا عليه فقال : اللهم أطل عمره وأكثر فقره فقبل ، ولقد رُوي بعد شيخاً كبيراً فقيراً شقيماً يتمنى الموت ، ودعا على أبي قتادة ابن أبي لهب ، وذلك أنه قال لرسول الله ﷺ يوماً : كفرت بالذي دنا فتدلى ثم تفل في وجهه ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ، وكان أبو

طالب حاضراً ففرع لها ، وقال : ما كان أغناك عن دعوة ابن أخي ، فرجع إلى أبيه وأخبره بذلك ، قال : وخرجوا إلى الشام تجاراً ، فترلوا متزلاً من الأرض ، فأشرف عليهم راهب من دير ، وقال لهم : هذه أرض مسبعة ، فقال لهم أبو لهب : يا معشر قريش ، كونوا حولي ، فإني أخاف على ولدي دعوة محمد ، قال : فجمعوا أحماهم وصفوا جمالهم ثم جعلوا أبا قتادة في أعلاها ، وناموا حوله يحرسونه ، فأرسل الله عليهم النوم ، فما أفاقوا إلا على صياحه من ضربة الأسد ، فضربه ضربة واحدة فقتله » ^(١) ، وقيل في المعنى :

سَهَرَتْ عِيُونُهُمْ بِدَاجٍ غَاسِقٍ	خَوْفًا عَلَيْهِ مِنَ الدُّعَاءِ السَّابِقِ
رَأَمُوا حِمَايَتَهُ وَظَنُوا حِفْظَهُ	مِنْ غَائِبٍ يَأْتِي لَهُ أَوْ طَارِقٍ
فَإِذَا الْقَضَاءُ أَتَى بِضِدِّ مُرَادِهِمْ	أَبْرَدُ مَخْلُوقٍ قَضَاءَ الْخَالِقِ
فَأَصَابَهُمْ يَوْمٌ أَضَلَّ جَمِيعَهُمْ	لَيِّبِينَ فِي الْمَطْرُودِ صِدْقُ الصَّادِقِ
مَا اسْتَيْقَظُوا إِلَّا لَصِيحَّتِهِ وَقَدْ	وَأَفَتْ مَنِيَّتُهُ كَسَهُمْ رَاشِقٍ
صَلُّوا عَلَى خَيْرِ الْأَنَامِ فَإِنَّهَا	أَسْنَى الْوَسَائِلِ عِنْدَ رَبِّ رَازِقٍ

وكذلك دعا نبي الله يوسف عليه السلام حين ضربه العبد الأسود ، فأراه الله الاعتناء به ، وأرسل إليه جبريل عليه السلام في تخيره بين هلاكهم والرفق بهم ، فأبى طبعه الكريم إلا الرفق بهم ، وخيره في القصاص أو العفو فاختر العفو ، وكان الجو قد اسود والظلام قد امتد ، فأزال الله عنهم ما نزل بهم ، وأمر التاجر غلامه أن يأتيه بيوسف في كل يوم بالغداة والعشى يزوره ويراه ، فكان يفعل ذلك حتى غاب بيوسف عن التاجر ثلاثة أيام ، فدعا الغلام فسأله عنه ، فأخبره أنه مريض ، فدعا التاجر بيوسف وقال له : ما الذي حدث بك حتى حبسك عني ، فقال له : إن القيد قد أضربني وجرح ساقي والغُل في عنقي ، فقال التاجر : إنما بقيت لك ليلة واحدة ، وتصبح على مصر ، ونخل عنك قيدك وغللك ، وتخرج من العهد الذي كان بيني وبين موابلك ، فلما أصبحوا إذا هم على مصر ، فضرب التاجر فسطاطا على النيل وحل عنه قيوده وأزال غله وقال : يا يوسف ، ادخل النيل واغتسل ، فإني أريد أن أزينك بزينة العبيد ، قال : فدخل النيل واغتسل ، وزالت عنه كآبة السفر ، ورد الله تعالى

عليه حسنه وجماله وخرج كالقدر إذا انقشعت عنه السحابة ، أو الشمس إذا زال عنها الغيم ، وقيل في المعنى :

فَسَبَا الْعُقُولَ بِحُسْنِهِ وَبِظَرْفِهِ	شَخْصٌ يُصَرِّفُ شَكْلَهُ فِي طَرَفِهِ
وَالْحُورُ تَأْخُذُ وَصْفَهَا مِنْ وَصْفِهِ	فَالشَّمْسُ تُقَبِّسُ نُورَهَا مِنْ نُورِهِ
فَجَمَعْنَ أَرْوَاحَ الْعِبَادِ بِكَفِّهِ	جُمِعَتْ مَحَاسِنُهُ بِصَفْحَةِ خَدِّهِ
قَمَرًا يُعَابُ بِنَقْصِهِ وَبِكُسْفَاهُ	حَاشَا حَبِيبِي أَنْ يُشَبَّهَ وَجْهُهُ
فَسَبَا الْأَنْامَ بِحُسْنِهِ وَبِلُطْفِهِ	جَلَّتْ مَحَاسِنُ يَوْسُفَ وَتَلَاظَمَتْ
وَالْإِلْفُ لَيْسَ بِصَابِرٍ عَنِ الْفَقْدِ	لَا صَبْرَ لِي عَنْ أُنْسِهِ وَحَدِيثِهِ
وَكَذَا أَعِيشُ بِوَصْلِهِ وَبِعَطْفِهِ	إِنِّي أَمُوتُ بِهَجْرِهِ وَبِصَدِّهِ

فألْبسه الديباج والحرير ورصع ذوائبه بالدر والياقوت ، وكان ليوسف عليه السلام شعر ينعقد على جبينه كالخواتيم ، ثم حمّله على أحسن بعير ، وأوطأ له أحسن الوطاء ودخل البلد به نهاراً ، وكان نهار غيم فوقع نوره على الجدران والحيطان ، فلما نظر الناس إلى ذلك تخيلوا أن الشمس قد ظهرت ، ثم نظروا إلى الغيم وحجاب السحب ، فقال بعضهم لبعض : ما هذا النور ؟ فقالوا : هو من وجه غلام قدم به مالك بن دعر الخزاعي ، فتسابقوا إليه وجعلوا يترامون عليه ، فقالوا للتاجر : هذا الغلام إنسي أم جني أم ملك ؟ قال : هو عبد أريد أن أبيعه في غد على باب الملك الريان بن الوليد ، ففترقوا عنه وقد أعجبوا من حسنه ، وشاع الخبر في مصر ، ودخل إلى الديار ، ووصل إلى البوادي الغربية ، فلما كان من الغد ألْبسه التاجر قراطق الحرير ، وزينه بأحسن زينة ، وقلده بقلائد العجم ، وأشخصه للناس على باب الملك الريان بن الوليد ، فامتألت الطرق وضائق المجانح وحملت الزماني والمرضى في المحفات ، ولم يبق بمصر صغير ولا كبير ولا حر ولا عبد إلا خرج لينظره ، ونودي لا حجاب اليوم على مخدرة ، وكانت امرأة العزيز زليخا قد كثر شحمها ولحمها فركبت أفره الدواب ، وخرجت بين الخدم والأتراب ، وقيل في المعنى :

إِلَى حُبِّي مَشَى قَدَمِي	أَرَى قَدَمِي أَرَأَقَ دَمِي
فَمَا أَنْفَكُ مِنْ نَدَمِي	وَهَانَ دَمِي فَهَانَ نَدَمِي

فأجلس الصديق على كرسي ، ورفع البرقع عن وجهه ، ونادى الدلال : مَنْ يشتري ويزيد في العبد العاقل اللبيب الجميل الظريف النبيل ، فقال يوسف عليه السلام : لا تقل هذا ، ولكن قل : مَنْ يشتري العبد الذليل الحقير الغريب الفقير ، وقيل في المعنى :

أَوْقَفَنِي أَمْرُكَ يَا سَيِّدِي فِي مَوْقِفِ الذُّلِّ وَنَعْتِ الْعَبِيدِ
شَتَّتْ شَمْلِي بَعْدَ تَأْلِيْفِهِ صَيَّرْتَنِي عَبْدًا ذَلِيلًا طَرِيدًا
فَرَّقْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الَّذِي أَصْبَحَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ شَدِيدٍ
إِنْ كَانَ يُرْضِيكَ الَّذِي شَفَّنِي فَزِدْ نِعِمِّي فِي عَذَابِي يَزِيدُ
قَدْ حَضَرَ الْبَائِعُ وَالْمُشْتَرِي وَالْعَبْدُ مَوْقُوفٌ فَمَاذَا تُرِيدُ ؟

فقال الدلال : إذا لا تُشتري ، قال : فبلغ وزنه ورقاً ، ثم زاد فبلغ وزنه ذهباً ، ثم زاد فبلغ وزنه مسكاً وعنباً ، ثم زاد فبلغ وزنه لؤلؤاً وجوهرًا ، ثم بيع بشيء لا يعلم قيمته إلا الله تعالى ، فاشتراه العزيز وهو قهرمان الملك ، وصاحب جيوشه ، والمتولي على خزائنه ، فقال يوسف للدلال : عندما رأى تلك الحالة ، قل مَنْ يشتري نبي الله ، صفى الله ، ابن ذبيح ^(١) الله ، ابن خليل الله ، فلما سمع التاجر مقالته عاد إليه

(١) القول بأن إسحاق عليه السلام هو الذبيح من أقوال أهل الكتاب الفاسدة التي أرادوا بها إبطال نبوة سيدنا محمد ﷺ ، وللأسف قد تلقف هذا الكلام منهم بعض مَنْ تكلم في التفسير من أهل العلم مثل : الطبري ، وابن جرير ، والبغوي ، وصاحب الدر ، وقالوا في هذا روايات كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل نسبوا بعض الأحاديث إلى الرسول ﷺ . قال الإمام العلامة الشنقيطي - رحمه الله تعالى - : « اعلم - وفقني الله وإياك - أن القرآن العظيم قد دل في موضعين ، على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق : أحدهما في : (الصفافات)، والثاني في (هود) .

أما دلالة آيات الصفافات على هذا فواضحة جداً من سياق الآيات ، وإيضاح ذلك أنه تعالى قال عن نبيه إبراهيم : « وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهْدِنِ ، رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ، وَقَدَيْنَاهُ بِذَنْبٍ عَظِيمٍ ، وَتَوَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ، سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، =

ووقف بين يديه ، وقال : أعد عليّ كلامك ، فأعاده عليه ، فقال : أسألك بالله إلا ما عرفتني بجميع أحوالك : مَنْ أنت ؟ وابن مَنْ أنت ؟ وبأي سبب طرحت في الحب ؟ فقال يوسف عليه السلام : اعلم أي يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله ، وإخوتي حسدوني وطرحوني في الحب ، وباعوني منك ، فلما فرغ من كلامه ، جعل التاجر يبكي ويقبل قدميه ، ويقول : العفو العفو مما كان مني إليك ، فقال : عفا الله عنك ، وقيل في المعنى :

إِنِّي وَهَبْتُ لظَلَمِي ظَلْمِي وَغَفَرْتُ ذَلَّتَهُ عَلَى عِلْمِي
وَرَأَيْتُهُ أَسْدَى إِلَيَّ يَدًا لَمَّا أَبَانَ بَجْهَلِهِ حِلْمِي
مَا زَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحَمُهُ حَتَّى بَكَيتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

ثم تقدم التاجر إلى العزيز ، وقال له : اردد عليّ غلامي ، وأردد عليك أموالك ، فقال له العزيز : لئن فعلت ذلك لأمرن بالغارة على جميع أموالك ، ولأنك لنكنا نكالا تملك به ، فقال التاجر : إذا لم أقدر على رده ، فأنا أقدر على رد ثمنه ، فرد التاجر جميع ما كان أخذه في يوسف إلا القدر الذي دفعه إلى إخوته ، فقال يوسف

= كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [الصافات: ٩٩ و ١١٠]. قال بعد ذلك عاطفاً على البشارة الأولى : « وَبَشِّرْنَاهُ بِاسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ » [الصافات: ١١٢]. فدل ذلك على أن البشارة الأولى شيء غير المبشر به في الثانية ؛ لأنه لا يجوز حمل كتاب الله على أن معناه : فبشرناه بإسحاق ، ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضاً : وبشرناه بإسحاق فهو تكرار لا فائدة فيه يتره عنه كلام الله ، وهو واضح في أن الغلام المبشر به أولاً الذي فُدي بالذبح العظيم ، هو إسماعيل ، وأن البشارة بإسحاق نص الله عليها مستقلة بعد ذلك .

أما الموضع الثاني الدال على ذلك الذي ذكرنا في سورة (هود) ، فهو قوله تعالى : « وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشِّرْنَاَهَا بِاسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ اسْحَاقَ يَعْقُوبُ » [هود: ٧١]. لأن رسل الله من الملائكة بشرتها بإسحاق ، وأن إسحاق يلد يعقوب ، فكيف يُعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه ، وهو صغير ، وهو عنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب . فهذه الآية - أيضاً - دليل واضح على ما ذكرنا ، فلا ينبغي للمصنف الخلاف في ذلك بعد دلالة هذه الأدلة القرآنية على ذلك . والعلم عند الله تعالى . انظر الموضوعات والإسرائيليات في كتب التفاسير قديماً وحديثاً ، ص ١٢٧ ، للأستاذ / سعد يوسف محمود ، المكتبة التوفيقية. المصنف ذكر أن إسحاق هو الذبيح في مواضع عديدة من الكتاب ، فانتبه إلى ذلك .

للتاجر : هل لك من حاجة أدعو الله لك في قضائها ؟ قال : نعم يا يوسف ، إن لي اثنتي عشرة جارية لم تلد قط واحدة منهن شيئاً ، وأريد أن تدعو الله أن يرزقني غلاماً ذكراً ، قال : فدعا له يوسف عليه السلام بطول العمر وكثرة البنين ، فحملت كل واحدة من جواريه في السنة بولدين توأمين ، فولد له في العام الواحد أربعة وعشرون ولداً ذكراً ، وبارك الله له في أمواله ، ومنَّ عليه بصلاح أحواله ، وقيل في المعنى :

رَفَعَ الدُّعَاءَ إِلَى الْإِلَهِ الْوَاحِدِ لَمَّا أَلَحَّ بِهِ لِسَانُ الْمَاجِدِ
وَبَدَتْ عَلَى مَا قَدْ رَأَاهُ شَوَاهِدُ أَنْوَارُهَا تَبْدُو لِعَيْنِ مُشَاهِدِ
أَعْطَاهُ مَوْلَاهُ الْبَنِينَ تَفَضُّلاً عَشْرِينَ وَارْبَعَةَ بَغَيْرِ تَزَايِدِ
فَكَأَنَّ أَجْمَعَهُمْ لَالِي فَتَحَتْ أَصْدَافُهَا عَنْهَا بِوَقْتِ وَاحِدِ
وَكَاَنَّ وَالِدَهُمْ مَرِيضٌ مُدْتَفٍ زَمِنًا وَيُوسُفَ كَالطَّبِيبِ الْعَائِدِ
يَشْفِي السَّقِيمَ بِإِلَاحِ ظَاهِرٍ بَلْ كَانَ لَحْظًا مِنْ بَصِيرِ نَاقِدِ

فقل ليوسف : إن كنت لا ترضى من ثمنك بهذا المقدار يا يوسف ، هلا ذكرت ذلك في أول الأمر ، ولا أتعبت المشتري كل هذا التعب ؟ فقال : خفت أن يرغب في كل سفلة ، ولذلك وضع الله الكعبة بين المفاوز حتى لا يصل إليها إلا من سمح بنفسه وماله ، قال : فاحتمله العزيز إلى منزله ، وسر به سروراً عظيماً ، وغبطه به رؤساء مصر وملوكها ، وقالوا : قد ملك العزيز مملوكاً ما ملكه أحد قبل ، فدخل به على زوجته زليخا ، وقال لها : ما أخبر الله عنه (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا) في ضياعنا (أو نتخذه ولداً) ؛ لأننا ليس لنا ولد تقرر به أعيننا ، ونجده في وقت كربنا ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف: ٢١] ، يعني أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٢١] ، يعني علم الرؤيا ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ [يوسف: ٢١] ، وذلك أن يعقوب عليه السلام قال لابنه : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ [يوسف: ٥] . فغلب أمر الله عليهم : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ [يوسف: ٢١] ، وحذره كيدهم ، فغلب أمر الله فكادوه والله غالب على أمره ، وتشاوروا على أن يطرحوه في الحب ، فيصير منسياً ، فغلب أمر

الله فصار مذكوراً ، والله غالب على أمره ، ودبروا أن يترلوه مترلة العبيد ، فغلب أمر الله فترل مترلة الملوك ، والله غالب على أمره ، وظنوا أن يكونوا تائبين من بعده ، فغلب أمر الله فلم يكونوا تائبين إلا معه حين قالوا ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٩٧] . والله غالب على أمره ، وقالوا ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف: ٩٠] ، فغلب أمر الله فزادوا لغيابه بعداً ، والله غالب على أمره ، وقالوا : نخدع أبانا بالبكاء والقميص ، فغلب أمر الله فلم ينخدع به ، فقال لهم ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ [يوسف: ١٨] ، والله غالب على أمره ، ودبروا أن يزيلوا محبته من قلب يعقوب ، فغلب أمر الله ، فزاد حباً ، وصار بعد سبعين سنة يقول : يا أسفا على يوسف ، والله غالب على أمره ، وحرصت زليخا على أن تزيل التهمة عنها بقولها : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٥] ، فغلب أمر الله ، فشهد شاهد من أهلها ، والله غالب على أمره ، وطمع يوسف في أن يذكره الساقى عند الملك ، فغلب أمر الله ، فنسي إلى أن خلصه الله بمنه وفضله ، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١] . يتعلقون بالأسباب دون المسبب ، وبالحلائق دون الخالق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أني أنا المنجي ، وأنا المهلك ، وأنا المعز ، وأنا المذل ، وقيل في المعنى :

قَدَرِ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْعِبَادِ مَا لِمَخْلُوقٍ مَعَ الْحَقِّ مُرَادٌ
قَدَرُ الْجَبَّارِ مَا قَدْ شَاءَهُ قَبْلَ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّبْعِ الشَّدَادُ
فَهُوَ يَجْرِي شَاءَ عَبْدٍ أَوْ أَبِي صَحَّ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ خَيْرِ الْعِبَادِ

قال : فكانت زليخا تلبسه الديباج وقراطق الحرير ، وتوقفه على رأسها ، وتأمره بما تريد من أمرها ، وكان كلما فرغ من خدمتها خرج يتجسس الأخبار ، فبينما هو يمشي ذات يوم في أزقة مصر إذ هو بأعرابي بدوي راكب على قعود له وهو ينشد ويقول :

حَمِدْتُ رَبِّي وَهُوَ الْمَجِيدُ بِالْخَيْرِ يُبْدِي وَبِهِ يُعِيدُ
لَيْسَ لَهُ ضِدٌّ وَلَا عِنْدُ يَفْعَلُ فِي الْأَشْيَاءِ مَا يُرِيدُ

في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾

فلما سمع يوسف مقالته علم أنه غريب فأقبل عليه وقال : يا أعرابي ، ما سمعت بهذا الكلام في هذه البلاد إلا منك كأنك لست منها ، قال الأعرابي : نعم ، لست منها ، قال : فمن أين أنت ؟ قال : من وادي كنعان ، قال : من أيها ؟ قال : من وادي الأردن ، قال : من أيها ؟ قال : من مراعي آل يعقوب ، فلما سمع يوسف باسم يعقوب صاح صيحة ، وخر مغشياً عليه ، وقيل في المعنى :

شَوْقِي وَإِنْ بَعْدَ الْمَدَى فَيَطُولُ وَجَوَانِحِي لَكَ مَرْتَعٌ وَمَقِيلُ
وَلَيْتَ نَأَيْتَ عَنِ الْعِيَانِ وَلَحْظِهِ فَلَأُتَّيْتُ فِي الْقَلْبِ الْمَشُوقِ تَجُولُ
أَشْتَاقُ لِلذِّكْرِ وَأَصْبُو نَحْوَهَا وَأَصِيحُ مِنْ طَرَبٍ بِهَا وَأَمِيلُ
فَكَأَنَّ أَعْضَائِي نَدَامَى جُمُعُوا وَكَأَنَّ ذِكْرَهُمُ اللَّذِيذِ شَمُولُ
أَوْ مَا عَلِمْتُ بِأَنْ تَكُونَ مُجَالِسِي وَأَنَا لِمَا أَلْقَاهُ عَنْكَ سَمُولُ
وَأُحِبُّ عَذْلِي لِكثَرَةِ ذِكْرِهِمْ وَمِنْ الْعَجَائِبِ أَنْ يُحَبَّ عَذُولُ

فلما رأى الأعرابي ما ناله رق لحاله ونزل عن قعوده ، وجعل يمسح العرق عن وجهه ، وجعل رأسه في حجره حتى أفاق وقال له : ما بالك يا غلام ؟ فقال : ذكرت بلاداً أودعني وإلى الغربة رمتني ، فلم أتمالك أن حل بي ما ترى ، فهل تعرف الشيخ يعقوب ؟ قال : ومن لا يعرفه وهو نبي الله ابن ذبيح الله ابن خليل الله به تنوسل إلى ربنا وبجرمته نستسقي إلى قحطنا ؟^(١) قال : فأسألك بالله إلا ما

(١) الولي كل من آمن بالله واتفقه ففعل ما أمره سبحانه به وانتهى عما نهاه عنه ، وعلى رأسهم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢ و٦٣] ، والتوسل إلى الله بأوليائه أنواع : الأول : أن يطلب الإنسان من الولي الحي أن يدعو الله له بسعة رزق ، أو شفاء من مرض ، أو هداية وتوفيق ونحو ذلك ، فهذا جائز ؛ ومنه طلب بعض الصحابة من النبي ﷺ حينما تأخر عنهم المطر أن يستسقي لهم ، فسأل ﷺ ربه أن يترل المطر ، فاستجاب دعاءه وأنزل عليهم المطر ، ومنه استسقاء الصحابة بالعباس في خلافة عمر ﷺ وطلبهم منه أن يدعو الله بترول المطر فدعا العباس ربه ، وأمن الصحابة على دعائه ، إلى غير هذا مما حصل زمن النبي ﷺ وبعده من طلب مسلم من أخيه المسلم أن يدعو له ربه لجلب نفع ، أو كشف ضرر . والثاني : أن ينادي الله متوسلاً إليه بحب نبيه واتباعه إياه وبجبه لأوليائه الله بأن يقول اللهم =

أخبرتني كيف تركته ؟ قال : تركته وقد انحنى صُلبه ، وتقوس ظهره ، وتضعضع ركنه ، وكابده الشيب قبل أوانه ، وقد ترك أهله ، وهجر أولاده ، وبني على تل كنعان بيتاً سماه بيتَ الأحزان ييكى فيه وينوح على قرة عين له يُسمى يوسف اختلس من بين يديه ، وقيل في المعنى :

قَالَتْ لَزَائِرِهَا لَمَّا أَلَمَ بِهَا : بِاللَّهِ صِفُهُ وَلَا تَنْقُصْ وَلَا تَزِدِ
فَقَالَ : خَلَّفْتُهُ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمًا وَقُلْتُ : قِفْ عَنْ وُرُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدِ
قَالَتْ صَدَقْتَ الْوَفَا فِي الْحُبِّ شِمِئْتُهُ يَا بَرْدَ ذَاكَ الَّذِي قَالَتْ عَلَى كِبْدِي

فلما سمع يوسف ذلك زاد بكأوه ونحيبه ، وعلا عويله ووجيبه ، وقال : يا ليت أُمِّي لم تلدن وليت السباع أكلت لحمي ورَضَّتْ عظمي ، ولا يصيب حبيب قلبي ما أصابه من أجلي ، فرق له الأعرابي ، وجعل ييكى معه ، فقال له يوسف عليه السلام : إني محمُلك رسالة وهي رسالة الأمانة والبركة والدعوة ، وقيل في المعنى :

بِاللَّهِ عَلَيْكَ يَا فَتَى الْأَعْرَابِي إِنْ جُرْتَ عَلَى مَوَاطِنِ الْأَحْبَابِ
بَلِّغْ أَشْوَاقِي وَقُلْ لَهُمْ عَمَّا بِي ذَاكَ الضَّنْيُ يَمُوتُ بِالْأَوْصَابِ

= إني أسألك بحبي لنبيك واتباعي له وبحبي لأوليائك أن تعطيني كذا ، فهذا جائز ؛ لأنه توسل العبد إلى ربه بعمله الصالح ، ومن هذا ما ثبت من توسل أصحاب الغار الثلاثة بأعمالهم الصالحة . والثالث : أن يسأل الله بجاه أنبيائه ، أو ولي من أوليائه بأن يقول : اللهم ، إني أسألك بجاه نبيك ، أو بجاه الحسين مثلاً ، فهذا لا يجوز ؛ لأن جاه أولياء الله وإن كان عظيماً عند الله وخاصة حبيبنا محمد ﷺ إلا أنه ليس سبباً شرعياً ولا عادياً لاستجابة الدعاء ، ولهذا عدل الصحابة حينما أجدبوا عن التوسل بجاهه ﷺ في دعاء الاستسقاء إلى التوسل بدعاء عمه العباس ، مع أن جاهه ﷺ فوق كل جاه ، ولم يُعرف عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم توسلوا به ﷺ بعد وفاته ، وهم خير القرون وأعرف الناس بحقه وأحبهم إليه . والرابع : أن يسأل العبد ربه حاجته مقسماً بوليّه ، أو نبيه ، أو بحق نبيه ، أو أوليائه بأن يقول : « اللهم ، إني أسألك كذا بوليكَ فلان ، أو بحق نبيكَ فلان » ، فهذا لا يجوز ؛ فإن القسم بال مخلوق على المخلوق ممنوع ، وهو على الله الخالق أشد منعاً ، ثم لا حق لمخلوق على الخالق بمجرد طاعته له سبحانه حتى يقسم به على الله ، أو يتوسل به . هذا هو الذي تشهد له الأدلة ، وهو الذي تصان به العقيدة الإسلامية ، وتُسد به ذرائع الشرك . انظر فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١/ ٣٣٤ - ٣٣٥) . واعلم أنه سيأتي ذكر ذلك كثيراً في مواضع مختلفة من الكتاب فانتبه لذلك جيداً.

فقال الأعرابي : كيف ذلك ؟ قال : أما الأمانة فأن تؤديها إلى آل يعقوب دون أحد من الناس ، وأما البركة فتصيبك بركة آل يعقوب ، وأما الدعوة فإني أدعو الله أن يكثر مالك وولدك ويطيل عمرك ، فقال الأعرابي : فاذكرها إذا ، فقال يوسف : إذا وصلت إلى كنعان وقد سألت الله أن يبلغك سالماً ، فأت باب يعقوب إذا أتى هدوء من الليل ، وجاء وقت قيام الأنبياء لرب الأرض والسما ، ثم قف واستمع صوت يعقوب ومناجاته وتسبيحه ودعائه وبكائه ، فناد بأعلى صوتك وقل : السلام عليك أيها المكظوم المغموم ، يُقرئ عليك السلام المهموم المغموم الذي يبيع العبيد وصير حيران طريد ، ويقول لك : إني حرمتُ على نفسي أن أنام على فراش واطئ حتى أراك ، وأن أتوسد وساداً حتى ألقاك ، فكن أنت كذلك ، وقيل في المعنى :

يَا صَاحِ إِنَّ جُرْتَ بَوَادِ الْأَرَاكِ	فَانْشُدْ فَوَادًا ضَاعَ مِنِّي هَنَّاكَ
وَقِفْ عَلَى الْوَادِي وَلُذْ بِالْحِمَى	وَأَسْتَنْشِقِ الرِّيحَ وَعَجَلْ سَرَكَ
وَأَبْلِغْ إِلَيَّ وَفْدَهُمْ قِصَّتِي	وَقُلْ لَهُ : ذَاكَ الْمُعْنَى فِدَاكَ
حَاشَاكَ أَنْ تُخْرِبَ قَلْبَ امْرِئٍ	مَا حَلَّهُ قَطُ حَبِيبٍ سَوَاكَ
إِنْ يَحْجُبُوا شَخْصَكَ عَنْ نَاطِرِي	لِي نَاطِرٌ فِي الْقَلْبِ دَابَّا يَرَاكَ
عَذَبٌ بِمَا شِئْتُ فَلِئَلِّي بِهِ	أَرْضَى إِذَا كَانَ عَذَابِي رِضَاكَ
وَكُلُّ مَا يَفْعَلُ مِنْ ذِلَّةٍ	مَعْفُورَةٌ فِي الْحُبِّ إِلَّا جَفَاكَ
وَأَلِّسِي أَقْنَعُ فِي غُرْبَتِي	بَأَنْ أَرَى مَنْ قَدْ رَأَى مَنْ رَاكَ

فقال الأعرابي : سبحان الله ، ومن يطيق أن يؤدي هذه الرسالة ؟ قال : من يريد الأجر والبركة ، فركب الأعرابي قعوده ، ودخل الطريق حتى أتى كنعان ليلاً ، ففرح به أهله فرحاً شديداً ، وخط رحله ، فقال له : انزل واسترح ، فقال : والله لا نزلت ، ولا رأيتُ أحداً منكم ، ولا عملتُ عملاً حتى أؤدي رسالة المغموم إلى المكظوم ، ثم أتى البيت فقعده عنده ينتظر الوقت الذي وقته له يوسف ، فلما سمع حركة الشيخ ونحيبه رفع صوته ونادى : السلام عليك أيها المكظوم ، يقرأ عليك السلام المهموم المغموم ، وكان ليوسف أختٌ من أبيه وأمه ، وقد بنت لها بيتاً بإزاء

بيت أبيها ، وآلت على نفسها أن لا تضحك حتى تراه ضاحكاً ، فلما سمعت النداء أسرعته إلى المنادي ، وقالت له : مه يا هذا ، فإني أخشى أن ينفطر قلب الشيخ ، فإن كنت حملت رسالة فأدها إليّ أدها إليه في حينها ، فقال : والله ، لا أؤديها إليك ، ولا أؤديها إلا لمن أرسلتُ بها إليه ، فتقدمتُ إلى الباب وقالت : السلام عليك يا أبت ، فلما سمع صوتها عرفها ، فقال : وعليك السلام يا بنية ، ما الذي جاء بك في هذا الوقت ؟ فقالت : البشارة ، قال : أما المال فلا حاجة لي به ، وأما الأولاد فلا سبيل لي إليهم ، فقالت : بل البشارة بقرّة عينك وحبیب قلبك ، قال : يوسف ؟ قالت : نعم ، فقام وخرج يسقط مرة ، ويقع أخرى حتى أتى الباب ، وقيل في هذا المعنى :

أَهْلَ وَدِّيْ وَلَوْ عَلِمْتُمْ بِحَالِي لَرِثْتُمْ لِعُرْبَتِي وَاعْتِلَالِي
مَرَضٌ لَّازِمٌ وَسُقْمٌ شَدِيدٌ حَمْلَانِي مَا لَا يُطِيقُ احْتِمَالِي
وَاللَّيَالِي تَجِدُ فِي نَثْرِ شَمْلِي ضَاقَ ذَرْعِي بِحَادِثَاتِ اللَّيَالِي
كُلَّ يَوْمٍ تَغْرُبُ وَأَنْزِعَاجُ لَيْتَ شِعْرِي مَا لِلزَّمَانِ وَمَالِي
إِنْ قَضَى اللَّهُ بَيْنَنَا بِاجْتِمَاعِ بَعْدَ نَأْيٍ فَمَا بِشَيْءٍ أَبَالِي

فوصل باب البيت ، وخر صعقاً ، كأنه ميت ، فلما أفاق أدى الأعرابي الرسالة على نص ما تقدم ، فقال له يعقوب عليه السلام : أيها الأعرابي ، صفه لي ، فقال : يا بني الله ، قد أراي بنانه وساقيه والشفة التي ظهرت من كثرة تقبيلك عليها ، قال : فما بالك لا تصف لي الحال الذي كان على خده ؟ فقال : يا بني الله ، قال لي : إذا سألك عن ذلك فقل له : محته الدموع لكثرة بكائه عليك ، فقال يعقوب عليه السلام : وأنا أيضاً عيناى قد فقدتهما لكثرة بكائي عليه ، وقيل في المعنى :

لَنْ فَقَدَ الْخَالَ الَّذِي كَانَ زِينَةً فَمَدَمْعُ عَيْنِي فَوْقَ حَدْدِي يَنْهَلُ
وَقَدْ فَقَدْتُ عَيْنِي عَلَيْكَ مِنَ الْبُكَاءِ ضِيَاهَا فَعُمِّرِي كُلَّهُ بِالْأَسَى لَيْلُ
وَأَفْرَدْتُ بَعْدَ الْأُنْسِ حَتَّى كَأَنِّي غُرَابٌ بِغُصْنٍ مَالَهُ فِي الْوَرَى أَهْلُ

ثم قال يعقوب عليه السلام : يا أعرابي ، لا أجد ما أكافئك به ، فهل أبصرت قرّة عيني بعينك ؟ قال نعم ، قال : قدمهما إليّ لأقبلهما ، فجعل يقبل عيني الأعرابي ويقول :

إن العينين اللتين رأتا وجه حبيبي يوسف لا تمسهما النار ، ثم قال : أيها الأعرابي ، سل ما شئت من أمر الدنيا والآخرة أجمعهما لك ، فقال : يا نبي الله ، سل الله أن يهون علي سكرات الموت ، وأن يجعلني رفيقك في الجنة ، وأن يكثر مالي وولدي ، فإن بني عمي يعيروني بالفقر وقلة الأولاد ، فادع الله أن يكثر لي الأولاد ، قال : فرفع يعقوب عليه السلام يديه وقال : اللهم ، إن كنت رحمت لي عبرة ، وأجبت لي دعوة ، فاجعل هذا الأعرابي رفيقي في الجنة ، وهون عليه سكرات الموت ، وكثر ماله وولده ، وقيل في المعنى :

كَتَبْتُ وَلِي قَلْبُ إِلَيْكَ يَمِيلُ وَدَمَعُ كَمَا شَاءَ الْغَرَامُ يَسِيلُ
وَأِنْ يَسْأَلُوا عَمَّا أَلاَقِي مِنَ الْأَسَى فَشَرَحُ غَرَامِي وَالْحَدِيثُ يَطُولُ
يُرَوِّعُنِي مَرُّ التَّسِيمِ إِذَا سَرَى وَيَهْتِنُنِي يَنْزَعُ عَلَيَّ يَصُولُ
وَأَرْجُو مِنَ الْأَيَّامِ تَمَنُّحٌ وَصَلَكُمُ فَتَمْنَعُ عَمَّا رُمْتُهُ وَتَحُولُ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إِلَيْكَ مَعَ التَّوَى سَبِيلٌ وَهَلْ لِي فِي ذُرَاكَ مَقِيلُ
وَقَدْ ضَعُضَعَ الْإِبْعَادُ رُكْنَ تَصْبِيرِي عَلَى أَنْ ظَنَّنِي بِالْحَبِيبِ جَمِيلُ

إخواني ، إذا انقطعت رسائل المحبين ، ووقع النسيان فاذكروني أذكركم ، لو بعثت الرسائل مع من يريد هل من سائل ، لرجع الرسول إليك بقبول الوسائل ، في كل يوم يبعث إليك مولاك رسالة وأنت على أولئك في الإعراض والبطالة . قيل لأحدهم : أهنا شيء نستأنس به ؟ قال : نعم ، ومد يده إلى كتاب بإزائه ، وقال هذا ، وقيل في المعنى :

وَكُنْتُكَ عِنْدِي لَا تُفَارِقُ مَضْجَعِي وَفِيهَا شِفَاءٌ لِلَّذِي أَنَا كَاتِمُ

ذكر صاحب كتاب اللؤلؤة يرويه عن أبي عمر بن عبد البر ، قال : إن الله تعالى أنزل كتاباً في صحف إبراهيم عليه السلام فيه مكتوب : من العزيز الحميد إلى من أبق من العبيد ، سلام عليكم ، هذه رسالتي إليكم بما خصصتكم به من نور العلم وذكاء الفهم ، فأول ذلك أني اخترعت لكم الحدود ، وأخرجتكم من العدم إلى الوجود ، وأنشأت لكم الأبصار فأبصرتم ، والأسماع فسمعتهم ، والألسن فناطقتم ، والقلوب فعلمتم ، والعقول ففهمتم ، وخطبتكم بالسنة العبر ففهمتم ، وأشهدتكم على أنفسكم بالإقرار لي بالوحدانية فشهد ، ثم بعد الإقبال أدبرتم ، وبعد الإقرار

أنكرتم ، ونقضتم عهدنا وغدرتم ، فلا يوحشكم ذلك منا ، فإنكم إن عدتم عدنا ، وزدنا في الكرم وجُدُنَا ، فمن عثر أَقْلُنَا ، ومن انقطع وصلنا ، ومن تاب قبلنا ، ومن نسي ذكرنا ، ومن عصى سترنا ، ومن عمل قليلاً شكرنا ، ونعطي وننح ، ونجود ونسمح ، ونعفو ونصفح ، كرمنا مبذول ، وسترنا مسدول ، عبدي ، انظر إلى السماء وارتفاعها ، والشمس وشعاعها ، والنجوم وأنوارها ، والبدور وأسرارها ، والرياح وهبوبها ، والأمطار وسكونها ، والأضداد واختلافها ، والسحاب واختلفها ، والرعد وصولته ، والبرق ومخافته ، والبسيطة والفلك ، والنور والحلك ، والليل والنهار ، والمساء والإبكار ، والذباب والأطيار ، والأرض وأقطارها ، والأمواج وبحارها ، والأودية ووضعها ، والعيون ونبعها ، والحيتان وسبحها ، والأزهار ونفحها ، والفصول وأزمانها ، والأوقات وإتيانها ، والأشجار وثمراتها ، والأغصان ونضرتها ، والأنعام ولحومها ، والوحوش وهجومها ، والفواكه ومذاقها ، والكمائمش وانشقاقها ، وما هو ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن ، ورطب ويابس ، وواقف وجالس ، ومتحرك وجامد ، ومستيقظ وراكد ، وراكد وساجد ، وما قرب وما بعد ، وما هو بائن وما هو كائن ، وما غاب وما حضر ، وما خفي وما ظهر ؛ الكل يشهد بجلالي ، ويقر بكما لي ، ويسبح بحمدي ، ويشكر إحساني ورفدي ، ويعلن ذكري ، ولا يغفل عن شكري ، عبدي ، أرايت حين بارزتي بهواك ، واختفيت من أصحابك وأخلاك ألم تكن عيني تراك ؟ عبدي ، أذكرك وتنساني ، وأسترك ولا ترعاني ، لو أذنتُ للسموات لوقعتُ عليك ، ولو أذنتُ للجبال لجاءتُ إليك ، ولو استطاعتُ الأرضُ لابتلعتك من حينها ، ولو قدرتُ البحار لأغرقتك في معيها ، ولكني أحملك بقدرتي ، وأمدك بقوتي ، وأؤخرك إلى أجل مسمى أجَلْتُهُ ، ووقت وقته ، فلا بد لك من الورد عليّ ، والوقوف بين يديّ ، أعدد عليك أعمالك ، وأذكرك أفعالك ؛ فإذا أيقنتُ بالبوار ، وقلت : لا محالة لا بد لي من النار ، أوليتك غفراني ، ومنحتك رضواني ، وأحللتك دار جنتي وأماني ، وغفرتُ لك الذنوبَ والأوزارَ ، وقلتُ : لا تحزن ، فلاجلك سميتُ نفسي الغفارَ ، وقيل في المعنى :

أَغْرَضْنَا عَنَّا وَالْجَنَابُ فَسِيحُ وَتَهَرَّبُ مِنَّا إِنْ ذَا لَقِيحُ
وَيَبْدُو لَنَا مِنْ نَحْوِكَ الصَّدُّ وَالْجَفَا وَمِنْ نَحْوِنَا وَدُّ إِلَيْكَ صَحِيحُ
وَتَدْعُوكَ لِلْحُسْنَى وَتَمْنَحُكَ الرِّضَا وَأَنْتَ لَأَسْبَابِ الْعَادِ طَمُوحُ

وَكَمْ مَرَّةً جَاءَتْكَ مِنَّا رَسَائِلٌ وَفِيهَا خِطَابٌ لَوْ سَمِعْتَ فَصِيحٌ
فَيَا أَيُّهَا السِّرُّ الْمَصُونُ حِجَابُهُ وَفِيهِ لَنَا سِرٌّ يُصَانُ وَرُوحٌ
إِلَيْكَ أَشْرْنَا بِالْوِدَادِ فَكَلَّمَا يُعَدُّ قَبِيحًا فَهُوَ مِنْكَ مَلِيحٌ

(حكاية) قال السبي : قال بعض السادة : كنتُ أسكن بغداد ، وكانت لي بها دويرةٌ خراب احتجتُ لبناء حائط سقط منها ، قال : فجزتُ إلى موقف البنائين لأنظر رجلاً يعمل فيه ، قال : فوقعتُ عيني على شابٍ نحيف ، ذي وجه نظيف ، فجمتُ إليه ، ووقفتُ عليه ، وقلتُ : حبيبي ، أتريد الخدمة ؟ قال : نعم ، قلتُ : قم ، قال لي : بشروط أشرطها عليك ، قلتُ : حبيبي ، وما هي ؟ قال : الأجرة درهم ودانق ، قلتُ : نعم ، قال : وإذا أذن المؤذن تتركني حتى أصلي مع الجماعة ، قلتُ : نعم ، قال : فحملته إلى المنزل ، فخدم خدمةً لم أرَ مثلاً ، وذكرتُ له الغداء ، فقال : لا ، فعلمتُ أنه صائم ، فلما سمع المؤذن قال لي : الشرط ، قلتُ : نعم ، قال : فخرج ، وحل حزامه ، وتفرغ للوضوء ، وتوضأ وضوءاً ما رأيتُ أحسن منه ، ثم خرج للصلاة ، وصلى مع الجماعة ، ثم عاد فخدم خدمة كثيرة إلى العصر ، فلما سمع أذان العصر قال لي : الشرط ، قلتُ : نعم ، فحل حزامه ، وخرج ، فصلى مع الجماعة ، ثم عاد إلى خدمته ، فقلتُ : حبيبي ، إنما خدمة البناء إلى العصر ، فقال : سبحان الله ، إنما كانت خدمتي إلى الليل ، قال : فخدم إلى المغرب ، وأعطيته درهمين ، فقال لي : ما هذا ؟ قلتُ : والله ، بعض أجرتك لاجتهادك في خدمتي ، فرمى بهما إلي ، وقال : لا أزيد على ما كان بيني وبينك شيئاً ، فرغبته فلم أقدرُ عليه ، فأعطيته درهماً ودانقاً ، وسار ، فلما كان من الغد أتيتُ الموقف فلم أجده ، فسألتُ عنه ، فقيل لي : إنه لا يجيء هنا إلا من السبت إلى السبت ، قال : فتعلق به قلبي ، وقلتُ : لا أعمل شيئاً إلى يوم السبت ، فلما كان يوم السبت الثاني أتيتُ الموقف فوجدته ، فقلتُ له : باسم الله ، فقال لي : الشرط ، قلتُ : نعم ، قال : فحملته ، فخدم يومه ذلك ، وزاد على ما تقدم ، فلما كان الليل دفعتُ له أجرته ، فأخذها وسار ، فلما كان يوم السبت الثالث ، أتيتُ الموقف ، فلم أجده ، فسألتُ عنه ، فقيل لي : إنه مريض في خيمة فلانة ، وكانت المذكورة عجوزاً لها خيمةٌ من قصب بالجبانة ، تشتهر بالصلاح ، قال : فسرتُ إلى الخيمة ، ودخلتُ عليه ، فإذا هو مضطجعٌ على الأرض ، وليس تحته

شيء ، وتحت رأسه لبنة ، ووجهه يبدو قهلاً ، فسلمتُ عليه ، فرد عليّ السلام ،
 وقعدتُ عند رأسه أبكي لغرْبته ، وصغر سنه ، وما ناله ، ثم قلتُ له : ألك حاجة ؟
 قال : نعم ، قلتُ : ما هي ؟ قال : إذا كان في غد فتعال إليّ عند الضحى تجدني
 ميتاً ، فغسلني واحفر قبري ، ولا تعلم بذلك أحداً ، وكفّني في هذه الجبة التي عليّ
 بعد ما تشقُ جيبيها ، وتخرج ما فيه ، وتمسكه عندك ، فإذا صليتَ عليّ وواريتني في
 التراب ، تصل إلى هارون الرشيد ، وتدفع له ما تجد في الجيب ، وتقرأ عليه مني
 السلام ، وقيل في المعنى :

بَلِّغْ أَمَانَةً مَنْ وَافَتْ مَنِيَّتُهُ إِلَى الرَّشِيدِ فَإِنَّ الْأَجَرَ فِي ذَاكَ
 وَقُلْ غَرِيبٌ لَهُ شَوْقٌ لِرُؤُوسِكُمْ عَلَى تَمَادِي الْهَوَى وَالْبُعْدِ لَبَّاكَ
 مَا صَدَّهُ عَنْكَ كُرْهٌ لَا وَلَا مَلْلٌ لِأَنَّ قُرْبَتَهُ فِي لَثَمٍ يُمْنَاكَ
 وَإِنَّمَا أَبْعَدْتَنِي عَنْكَ يَا أَبَتِي نَفْسٌ لَهَا عِفَّةٌ عَنْ تَيْلِ دُنْيَاكَ
 إِنْ فَاتَنِي الْجَمْعُ فِي دَارِ الدُّنَا بِكُمْ فَإِنَّا نَلْتَقِي فِي يَوْمٍ أُخْرَاكَ

قال : فلما كان من الغد ، وصلتُ إلى الخيمة فوجدته ميتاً رحمه الله تعالى ،
 فحفرت قبره بيدي ، وغسلته ، ثم شققتُ الجيبَ الذي للجبة ، فإذا ياقوتة تساوي
 ألفاً من الدنانير ، فقلتُ : لقد زهد هذا في الدنيا ، قال : ثم دفنته ، وصرتُ أترقب
 خروج هارون الرشيد إلى أن خرج ، فتعرضتُ له ببعض الطريق ، ودفعْتُ له
 الياقوتة ، فلما رآها خر مغشياً عليه ، قال : فاحتوشني الخدم ، فلما أفاق قال :
 خلّوا عنه ، فخلّوا سبيلي ، فقال لي بعد ما حملني إلى قصره وأدخلني بيته : يا
 أخي ، ما فعل صاحب هذه الياقوتة ؟ فقلتُ له : إنه قد مات ، ووصفتُ له حاله ،
 فجعل الرشيد يبكي ويصيح : فاز الولد ، وخاب الوالد ، ثم نادى : يا فلانة ،
 فخرجتُ امرأة ، فلما رأته أرادت الرجوع ، فقال : لا عليك منه ، فسلمتُ
 ودخلتُ ، فرمى لها الياقوتة ، فلما رآها صاحت صيحةً غُشيَ عليها ، وقالت : يا
 أمير المؤمنين ، ما فعل ولدي ؟ فقالت : صف لي حاله ، فوصفتُ لها قصته ،
 فجعلت تبكي وتصيح : ما أشوقني إلى لقائك يا قرة عيني ، ليتني كنتُ أسقيك إذا
 لم تجد ساقياً ، أو أوانسك إذا لم تجد مؤنساً ، وقيل في المعنى :

أَبْكَى غَرِيبًا أَنَّهُ الْمَوْتُ مُتَفَرِّدًا لَمْ يَلْقَ إِلْفًا لَهُ يَشْكُو الَّذِي وَجَدَا

مِنْ بَعْدِ عِزٍّ وَشَمْلٍ كَانَ مُجْتَمِعًا أَضْحَى فَرِيدًا وَحِيدًا لَا يَرَى أَحَدًا
 نَبْنِي إِلَى النَّاسِ مَا الْيَّامُ تُخْلِقُهُ وَالرَّبُّ يَبْنِي الَّذِي يَبْقَى لَهُ أَبَدًا
 يَا غَائِبًا قَدْ قَضَى رَبِّي بِفُرْقَتِهِ فَصَارَ مِنِّي بَعْدَ الْقُرْبِ مُبْتَعَدًا
 إِنْ أَيْئَسَ الْمَوْتُ مِنْ لُقْيَاكَ يَا وَلَدِي فَإِنَّا نَلْتَقِي يَوْمَ الْحِسَابِ غَدًا

فقال أمير المؤمنين : يا أخي ، كان هذا ولدي ، وكان معي قبل ولايتي هذا الأمر يزور العلماء ويجالس الصلحاء ، فلما وليتُ هذا الأمر نفر مني ، وباعد نفسه عني ، فقلتُ لأمه : هذا ولد منقطع إلى الله تعالى ، ولا بد أن تصيبه الشدائد ، ويكابد الحن ، فادفعني إليه هذه الياقوتة ليحدها في وقت الاحتياج ، فدفعتها إليه ، وعزمتُ عليه أن يمسكها ، ثم غاب عنا حديثه إلى أن رمى إلينا بدينانا ولقي الله نقيًا ، ثم قال : يا أخي ، أريني قبره ، فخرجتُ معه إليه ، فبات عنده يبكي عليه طويلاً ، ثم سألتني الصعبة ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، لي في ولدك عظةٌ وعبرة ، وقيل :

أَنَا الْغَرِيبُ فَلَا آوِي إِلَّا إِلَى أَحَدٍ أَنَا الْغَرِيبُ وَإِنْ أُمْسَيْتُ فِي بَلَدِي
 أَنَا الْغَرِيبُ وَلَا أَهْلٌ لِي وَلَا وَلَدٌ وَلَيْسَ لِي قَلْبٌ يَأْوِي إِلَيَّ أَحَدٍ
 ضَيْفُ الْمَسَاجِدِ آوِيهَا وَأَعْمُرُهَا فَلَنْ يُفَارِقَهَا قَلْبِي وَلَا جَسَدِي
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى إِفْضَالِهِ بَقَاءِ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ

ونحن نسأل الله عز وعلا أن يرزقنا العافية والمعافة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة .

المجلس السادس

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [التوبة: ١١١] .

الحمد لله المعروف بإبداء الدلائل والبرهان ، الموصوف بإسداء الفضائل والإحسان ، الخبير بما يخطر في الضمائر ويختلج في الجنان ، الرحيم الذي يتزل الغيث بعد قنوط الإنسان ، وينشر رحمته فيعم الإنس والجان ، أبكى السحاب بمزن الغمام فسالت دموعها من غير حدقة ولا أجفان ، وأضحك الأرض بالأزهار المختلفة الألوان ، فتشوقت عن كمائم الورد والبنوفر وشقائق النعمان ، والبنفسج والأفاح والياسمين والسوسن والأقحوان ، وأخرجت حبوبها وثمارها وفواكهها وأزهارها فرقرقت الظلال وتمايلت الأغصان ، وقامت خطباء الطييار على منابر أغصان الأشجار تثني على مولاهما بأصوات حسان ، فكان الجداول عبد قد لبس معصفراً ومدثراً ومدبجاً ومدملجاً ومخلخلاً ومسرولاً ومبيضاً ومصفصفاً ، وجلس على كراسي الأكوان ، وكان الفلاة عنبر أُلقي في بحمرة المشيئة فسطع وفاح بكل مكان ، وكان السماء قبة لازوردية ضربت على هذا البساط فقامت دون عمد ولا أركان ، وكان النجوم مصابيح في أيدي المقتبسین يبصر بها المفارق رفيقه والمسافر طريقه في كل مكان ، وكان الشمس والقمر فرسان يتسابقان في ميدان التسخير يجريان ، الكل يدل من نظره على من فطره ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢] والأذهان ، وصبروا نفوسكم على ما اعتراها وسلموها لمن اشتراها على علمه بما فيها من العيوب الكامنة والخذلان ؛ أما سمعتم قوله إذ يقول سبحانه في محكم القرآن: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ [التوبة: ١١١] . أحمده حمداً لا يعتريه النسيان ، وأشكره شكراً يثقل الميزان ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك المنان ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وخليفه الداعي إلى الإيمان ، الغني بعصمة ربه عن الحجاب والحراس والأعوان ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام البررة الشجعان ، صلاة تدوم وتقوم ما تأوّه لطفان ، واشتاق لورود الماء ظمآن ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل في

المعنى :

هَوْنٌ عَلَيْكَ الَّذِي تَلَقَى مِنَ الزَّمَنِ فَكُلُّ مَا أَتَتْ فِيهِ الْمَوْتُ يَقْطَعُهُ
وَمَنْ يُرِيدُ مِنَ الدُّنْيَا مُسَالَمَةً أَلَيْسَ قَدْ خُلِقَ الْإِنْسَانُ فِي كِبَدٍ
وَقِيلَ دُنْيَاهُ سِجْنٌ فِيهِ مَحْبِسُهُ وَكُلُّ أَرْزَائِهِ فِيهَا تَطَهَّرُهُ
وَالْتَّبَرُّ فِي السَّبَكِ يَبْدُو مِنْهُ جَوْهَرُهُ وَالضَّعْفُ فِي الشَّاةِ فِي إِنْقَائِهَا سَبَبُ
خَلِّ الْمُدَبِّرِ يَقْضِي مَا يَشَاءُ فَمَا قَدْ اشْتَرَاكَ فَعَبْدٌ أَنْتَ يَا بَطْرُ
سُكْنَاهُ فِي الْقَلْبِ لَكِنْ أَنْتَ تَتْرُكُهُ لِلَّهِ دَرُّ أَدِيبٍ قَالَ مُرْتَجِلًا
لَيْسَ التَّعَرُّبُ أَنْ تَشْكُو نَوَى سَفَرٍ

وَاصْبِرْ لِمَا نَالَ مِنْ ضُرٍّ وَمِنْ مِحَنِ حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي تَشْكُوهُ لَمْ يَكُنْ
فَرَأْيُهُ رَأْيُ مَجْنُونٍ وَمُقْتَتِنٍ نَعَمْ وَعُرِّضَ لِلْآفَاتِ وَالْمِحَنِ
فَكَيْفَ يَسْلُمُ مَحْبُوسٌ مِنَ السَّجْنِ نَعَمْ وَتَثْقِيهِ مِنْ وَزْرِ وَمِنْ دَرَنِ
بِقَدْرِ تَخْلِيصِهِ يَزْدَادُ فِي الثَّمَنِ وَرُبَّمَا غُولِحَتْ لِلذَّبْحِ لِلسَّمَنِ
يُفِيدُكَ الْحِرْصُ فِي مَالٍ وَلَا بَدَنِ فَافْخَرْ بِهِ فَشِرَاهُ أَعْظَمُ الْمَنَنِ
وَتَأَلَّفُ الْغَيْرَ هَذَا غَايَةُ الْغَيْنِ فِي مِثْلِ حَالِكَ يَا ذَا اللَّبِّ وَالْفِطَنِ
وَإِنَّمَا ذَاكَ فَقَدْ الْحُبَّ وَالْوَطْنَ

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾

[التوبة: ١١١] . قيل : ما الحكمة في أن الله اشترى المؤمن وهو عبده ؟ قيل ذلك :

على معنى التكرم والانبساط كسيد يقول لعبده : أقرضني كذا وكذا ، وبع مني كذا وكذا ، والعبد وماله إنما هو لسيده حقيقة ، لكن يقول له ذلك على معنى المؤانسة والانبساط ، وقيل : إنما قال ذلك ليعلمه الله أنه لا يفارقه ؛ لأنه اشتراه وهو غير محتاج إليه ولا إلى ثمنه ، وقيل : إنما قال ذلك ليكون له الفخر على من سواه ؛ لأنه ليس العجب أن تكون عبده ؛ لأن عبيده كثيرة ، وإنما العجب والفخر أن يكون مولاك ، وقيل : إنما اشتراه ليعلمه أنه يحبه ويرضاه ؛ لأن السيد لا يشتري عبداً يكرهه ، وقيل : إنما قال ذلك ليشعره أنه لا يخدم سواه ولا يأوي لغيره ولا يشكو ضره ؛ لأن المولى لا يريد ذلك من عبده ، وقيل : إنما قال ذلك ليؤمنه من الرد ؛

لأنه اشتراه وهو يعلم عيوبه ، ومن اشترى عبداً على عيوب يعلمها ، لم يكن له الرد ، قالوا : فما الحكمة في أنه اشترى النفوس ولم يذكر القلوب ؟ قيل : النفوس معيبة والقلوب حبيبة ، فاشترى المعيب ليصلحه ؛ لأنه قادر على إصلاح العيوب وإذهاب أمراض القلوب ، وقيل : إنما اشترى نفس المؤمن ليأس منها إبليس ، فإن ادعى فيها دعوى صارت دعواه باطلة ؛ لأن المشتري الأول أحق بسلخته ممن سواه ولا شيء أنفس من نفس المؤمن ، وإذا كان المشتري جليلاً ، والدلال نبياً ، والتمن جزياً ؛ كانت السلعة نفيسة لا قيمة لها ، وهذه صفة نفس المؤمن : الله مشتريها ، ومحمد ﷺ دلالها ، والجنة ثمنها . واعلم أن من سلم المبيع لمولاه وشكره على ما أولاه ، رفع بالأمة والمملوك والضعيف والصعلوك . قالت أم سلمة : كان رسول الله ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » ^(١) ، ذكره النسائي ، وقال أبو مسعود : كنت أضرب غلاماً لي إذ سمعت صوتاً من خلفي يقول : « اعلم أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ، قال : فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، هو حر لوجه الله تعالى ، فقال : أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار يوم القيامة » ^(٢) ، ذكره مسلم . وقال رافع بن مكيت : إن رسول الله ﷺ قال : « حسن الملكة نماء ، وسوء الخلق شؤم ، والصدقة تدفع ميتة السوء ، والبر زيادة في العمر » ^(٣) ، ذكره أبو داود ، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن قهرماناً له أتاه ، فقال له : أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا ، قال : انطلق ، فأعطهم ، قد قال رسول الله ﷺ : « كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته » ^(٤) ، ذكره مسلم ، وعن علي رضي الله عنه قال : « وهب لي رسول الله ﷺ غلامين أخوين فبعت أحدهما ، فقال لي رسول الله ﷺ : ما فعل غلاماك ؟ فأخبرته ، فقال : رُدَّه رُدَّه » ، ذكره الترمذي ، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه كان في ستر الله وكنفه وأدخله الجنة : رفع بالضعيف ، وشفقة في آل الدين ، وإحسان إلى المملوك » ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣ / ١١٧ ، والنسائي في الكبرى ٤ / ٢٥٨ ، وابن ماجه في سننه ١ / ٥١٩ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٣ / ١٢٨١ .

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨ / ٢٢ .

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٠ / ٥٢ ، وليس في صحيح مسلم .

ذكره الترمذي في الغريب . وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وهب علياً غلاماً ، وقال : لا تضربه ، فإني نهيْتُ عن ضرب المصلين ، وقد رأيته يصلي » ^(١) ، ذكره النسائي ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، كم نغفو عن الخادم ؟ فصمت ، فأعاد عليه ثانياً وثالثاً ، فقال رسول الله ﷺ : اعفُ عنه في كل يوم سبعين مرة » ، ذكره أبو داود والترمذي ، وعن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « مَنْ لاءمكم من ممالككم ، فأطعموه مما تأكلون ، وألبسوه مما تلبسون ، وَمَنْ لا يلاءمكم فبيعوه ، ولا تعذبوا خلق الله » ^(٢) ، ذكره أبو داود . وقال رسول الله ﷺ : « للمملوك طعامه وشرابه وكسوته ، ولا يُكلف من العمل ما لا يطيق » ^(٣) ، ذكره مسلم ، وقال رسول الله ﷺ : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه ، فليعنه عليه » ^(٤) ، ذكره البخاري ومسلم ، وقال رسول الله ﷺ : « إذا صنع لأحدكم خادمه طعاماً ثم جاء به ، وقد ولي حره ودخانه ، فليُقعده فليأكل معه ، فإن كان الطعام نزرأً — أي قليلاً — فليضع منه في يده أكلة أو أكلتين » ^(٥) ، يعني لقمة أو لقمتين ، ذكره في الصحيحين ، وقال ﷺ : « مَنْ قذف مملوكه وهو بريء جلد يوم القيامة ، إلا أن يكون كما قال » ، ذكره في الصحيحين . وقال رسول الله ﷺ : « من فرق بين أمة وولدها ، فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » ، ذكره أبو داود . وقيل في المعنى :

تَرَفَّقَ عَلَى الْمَمْلُوكِ رَفَقَ الَّذِي يَجْرِي لِمَا وَعَدَ الْمَوْلَى مِنَ الْفَوْزِ وَالْأَجْرِ
تَحَمَّلُهُ مَا لَا يُطِيقُ تَعَدِّيَا وَتَظَلَّمُهُ مَا ذَاكَ فِعْلُ أُولِي الْبِرِّ
أَخْ هُوَ فِي الْإِسْلَامِ وَالْأَبُ وَاحِدٌ وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْعَبْدِ فِي الْأُمِّ وَالْحُرِّ

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٧ / ١٦٨ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣ / ١٠٩٤ ، ومسلم في صحيحه ٤ / ١٩٧٥ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٣ / ١٢٤٨ ، وأبو عوانة في مسنده ٤ / ٧٣ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢٢٤٨ ، ومسلم في صحيحه ٣ / ١٢٨٣ .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢٠٧٨ ، وأبو عوانة في مسنده ٤ / ٧٥ .

تَمَلَّكَتُهُ تَقْضِي عَلَيْهِ بِمَا تَشَاءُ وَتَحْكُمُ فِي الْأَمْثَالِ بِالْجَوْرِ وَالْقَهْرِ
وَقَدْ كَانَ خَيْرَ الْخَلْقِ طَرًّا يُعِينُهُ وَيُوزِعُهُ الرَّفْقَ الْمَدِيدَ لَدَى عُسْرِ
وَيُوصِي بِهِ رَبًّا وَصِيَّةً مُشْفِقٍ رَحِيمٍ بِخَلْقِ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ
فَرِيقًا بِهِ فَالْرفقُ أَكْرَمُ خَصْلَةً تَجِدُهُ غَدًا ثَوْرًا لَدَى ظُلْمَةِ الْقَبْرِ
وَشُكْرًا لِفَضْلِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فَإِنَّ مَزِيدَ الْخَيْرِ يَحْصُلُ بِالشُّكْرِ
فَكَمْ بَيْنَ عَبْدٍ رَقَّةٍ عِنْدَ غَيْرِهِ وَبَيْنَ مُعَافَى لَا يُيَالِي مِنَ الْغَيْرِ
فَهَذَا عَتِيقُ أَمْرِهِ فِي يَمِينِهِ وَهَذَا طَلِيقٌ مِثْلُ مَنْ هُوَ فِي الْأَسْرِ

تزوج حارثة امرأة في الجاهلية من آل طيئ ، فأولدها جيلة وأسماء وزيدا ، فتوفيت أمهم ، وبقوا في حجر جدهم لأمهم ، فأراد حارثة حملهم فأبى الجد ، وقال : عندنا خير لهم ، ففرضوا بذلك ، فحمل الأب جيلة وأسماء ، وخلف زيدا ، فجاءت خيل من تهامة ، وأغارت على طيئ ، وسبت زيدا ، وساروا به إلى سوق عكاظ ، وعرضوه للبيع ، فرآه رسول الله ﷺ من قبل أن يبعث ، فأتى خديجة رضي الله عنها وقال : رأيت في السوق غلاما وضيا ، له عقل وأدب ، ولو كان لي مال لا اشتريته ، فبعثت خديجة ورقة بن نوفل ، فاشتراه بماله ، فقال رسول الله ﷺ : يا خديجة ، هي لي هذا الغلام بطيبة من نفسك ، فإني أريد أن أتبناه ، فقالت : قد وهبته لك ، فأخذه رسول الله ﷺ وتبناه حتى كان يُدعى : زيد بن محمد ، فجاء رجل من حي طيئ ، فرأى زيدا ، فقال له : أنت زيد بن حارثة ، وأنت تشبه أخاك وأباك وعمك ، وإني قد أنفقوا الأموال في طلبك ، وإني قد أتعبوا عليك الجياد ، ثم إن الرجل سار إلى حارثة فأخبره ، فأتى حارثة بأخيه وابنه قاصداً إلى مكة ، فإذا النبي ﷺ في فناء الكعبة مع نفر من أصحابه وزيد بينهم ، فلما نظروا إليه عرفوه وعرفهم ، ودعوه فلم يجبهم انتظارا منه لرأي رسول الله ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : يا زيد من هؤلاء ؟ فقال : يا رسول الله ، هذا أبي ، وهذا عمي ، وهذا أخي ، وهذه عشيرتي ، فقال له رسول الله ﷺ : سر إليهم ، وسلم عليهم ، فقام وسلم عليهم ، وسلموا عليه ، وقالوا : امض معنا يا زيد ، فقال : ما أبتغي برسول الله ﷺ بدلا ، ولا أوتر عليه أحدا ، فقالوا : يا محمد ، إنا معطوك في هذا الغلام ديات ، فساومنا فيه بما شئت ، فإنا نأخذه منك ، فقال لهم : أسألكم فيه أن

تشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، فأبوا ونكلوا وتلجلجوا وقالوا : اسأل منا غير هذا يا محمد ، فقال : قد بقيت خصلة واحدة إن شاء أقيم معي ، وإن شاء سار معكم ، فقالوا : يا محمد ، ما بقي شيء ، ولقد قضيت الذي عليك ، وظنوا أنهم وصلوا إلى حاجتهم ، وقالوا : يا زيد ، سر معنا ، فلقد أذن لك محمد في ذلك ، فقال : ما أبغي برسول الله ﷺ بدلاً ، ولا أوتر عليه أحداً ولا أهلاً ولا ولداً ولا ولداً ، فطافوا به واستعطفوه فلم يقدرُوا عليه ، وقيل في المعنى :

أَتَرَكُ مَحْبُوبِي وَأَصْبَوُ إِلَيْكُمْ وَصَدَرِي لَهُ مَثْوَى وَقَلْبِي لَهُ مَأْوَى
فَنَظَرْتُ عَيْنِي لَمَحَّةً مِنْ حَبِيبِهَا أَلَذُّ وَأَشْهَى لِي مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى
لَقَدْ صَبَرْتُ نَفْسِي عَلَى كُلِّ شِدَّةٍ وَلَكِنْ عَلَى وَقَعِ التَّفَرُّقِ لَا تَقْوَى
جَمِيعُ الْوَرَى جِسْمٌ وَأَحْمَدُ رُوحُهُ وَأَفْضَلُهُمْ طَرًّا لِذِي السَّرِّ وَالنَّجْوَى
فَسِيرُوا جَمِيعًا وَاتْرُكُونِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ فَإِنِّي قَدْ فَخَرْتُ بِهِ زَهْوَا

فقال حارثة : أما أنا يا بُنَيَّ ، فإنني أواسيك بنفسي ، وأسلم كما أسلمت ، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فأمن حارثة ، وأبى الباقر ، ورجعوا إلى البرية ، ثم إن جبلة جاء فأسلم ، وأول لواء عقده النبي ﷺ لواء زيد ، وأول شهيد كان بالشام زيد ، ثم جعفر الطيار ، ثم عبد الله بن رواحة ، وآخر لواء عقده رسول الله ﷺ لواء أسامة بن زيد ، وأمره على اثني عشر ألفاً ، وكان يُدعى : الحب بن الحب ؛ لحبة رسول الله ﷺ له ولأبيه .

وقيل : لما تفرس العزيز في يوسف الخير والصلاح ، لم يُزله منزلة العبيد ، بل قال لامرأته : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يوسف : ٢١] ، كذلك قال الله تعالى لما رأى من عبده المؤمن إثارة لطاعته وتركه لمناهيه ، سماه ولياً ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] ، وذلك أن الملك ساق يوسف لأهله ، وهو يومئذ ابن سبع سنين .

قيل : إن يوسف عليه السلام لما فارق أهله كان ابن سبع سنين فيما قاله ابن عباس . وقال الحسن : أُلقي يوسف في الحب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وجمع الله شمله بأبيه وهو ابن ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة . وقال مجاهد : إن يوسف عليه السلام خرج من عند أبيه وهو ابن ست سنين ، وجمع الله بينه وبين أبيه وهو ابن

أربعين سنة ، والله أعلم أيّ ذلك كان ، فكانت زليخا تمشطُ شعره بيدها ، وتخدمه بنفسها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [يوسف : ٢٢] ، قال ابن عباس : أشده ثمانية عشرة سنة . قال وهب بن منبه : مكث يوسف في دار العزيز ثلاث سنين ، وحينئذ بلغ الحلم ، وقال أبو سعيد الخدري : ما زالت زليخا في كل يوم تحسن إلى يوسف ، وتتولى أمره ، حتى مال قلبها إليه ، وتكاثر وجدها عليه ، وهو مع ذلك لا يلتفت إليها بعينه حياء من ربّه ، ولا ينظر إليها حتى تكاثرهما ودق عظمها ، وكابدها الشجون ، وواصلها النحول ، وقيل في المعنى :

وَقَائِلَةٌ مَاذَا التُّحُولُ وَذَا الضَّنَا فَقُلْتُ لَهَا قَلْبُ الْمَشُوقِ الْمُتِمِّمِ
هَوَاكَ أَتَانِي وَهُوَ ضَيْفٌ أَجَلُهُ فَأَطَعَمْتُهُ لَحْمِي وَأَسْقَيْتُهُ دَمِي

فلما عيل صبرها ، وضاق صدرها ، دخلت حاضنتها ، فقالت لها : يا سيدي ، أرى غصنك ذابلاً ، وجسدك ناحلاً ، وقلبك مائلاً ، فقالت لها : وكيف لا أكون كذلك وأنا أخدم هذا الغلام العبراني منذ سبع سنين لأطفه بلساني ، وأتجب إليه بإحساني ، فكلما زدت ميلاً إليه ، زاد إعراضاً عني ، وكلما قربت منه ، تباعد مني ، وقيل في المعنى :

تَعَشَّقْتُهُ وَاهِي الْمَوَاتِقِ بِالْعُلَا يُرِي كُلَّ يَوْمٍ فِي الْهَوَى مِنْهُ أَخْلَاقًا
شَدِيدُ التَّحَنِّي كُلَّمَا زَادَ قَسْوَةً عَلَى عَاشِقِيهِ زَادَهُ الْحُسْنُ عُشَاقًا
تَحَلَّى عَلَى خَدَّيْهِ سُودُ غَدَائِرٍ كَمَا انْتَفَضَ الْأَغْصَانُ لِلرِّيحِ أَوْرَاقًا
وَفِي خَدِّهِ لِلْحُسْنِ نَارٌ تَضَرَّمَتْ يُخَالِطُهُ مَاءُ الشَّيْبَةِ رَقَرَا
أَجِيرَانَنَا بِالْفُوزِ لَوْ أَنْصَفَ الْهَوَى جَزَيْنَاكُمْ فِيهِ دُمُوعًا وَأَشْوَاقًا
عَلَيَّ لَكُمْ أَنْ يَنْحَلِي الرَّبُّعُ بَعْدَكُمْ بِدَمْعِي إِنْ أَبْقَى لِي الدَّمْعُ أَمَاقًا
وَلَا غَرَوْ أَنْ تَجْرِيَ بِلُجَّةِ أَدْمُعِي غَرَامٌ بَوَجْهِ يُظْهِرُ الشَّمْسَ إِشْرَاقًا
إِذَا مَا تَعَشَّقْتَ الْحَسَانَ وَلَمْ تَكُنْ صَبُورًا عَلَى الْبُلُوى فَلَا تَكُ عَشَاقًا

فقالت لها الحاضنة : يا سيدي ، لو نظر إليك لكان أسرع إليك منك إليه ، ولو نظر إلى حسنك وجمالك وصفاء لونك ، لما قرّ له قرارٌ دونك ، فقالت : وكيف لي

به ؟ قالت : مكنتني من الأموال ، فقالت : ها خزائني بين يديك ، خذي منها ما شئت ، ودعي ما شئت ، لا حسابَ عليك في ذلك ، فتمكنتُ من الأموال ، ودعتُ أهل البناء والهندسة ، وقالت : أريد بيتاً ترى الوجوه في سقفه وحائطه كما ترى في المرأة المصقولة ، فقالوا : نعم ، ثم بنوا لها بيتاً سمته : القيظوم ، فلما تم بناؤه وتكامل إتقانه ، دعت بمصور حاذق ، فصور صورة يوسف وزليخا متعانقين ، ولم تدع من صورتها شيئاً إلا صورته ، وأمرت بسرير من ذهب مرصع بالدر والياقوت واللائي ، فوضعتة في صدر البيت وجعلت عليه أفرشة الديباج وأنواع ألوان الحرير ، ثم فرشت البيت ، وأرخت الستور ، ثم ألبست زليخا من أنواع الحلل غير قليل ، وحللتها بالحلي الكثير ، وأجلستُها على مرتبة عظيمة مما يليق بمثلها ، ثم خرجتُ إلى يوسف وهي مستعجلة ، فقالت : يا يوسف ، أجبُ سيدتك زليخا ، فإنها تدعوك في بيتها القيظوم ، وكان سامعاً لها مطيعاً ، وكان في يده قضيب من ذهب يلعب به ، فرمى القضيب من يده ، وأسرع إلى باب البيت ليدخل ، فنادته مستعجلة بالدخول ، فظن ذلك في نفسه ، وأراد الرجوع بعد أن وضع رجله داخل العتبة ، فتوقف عند ذلك ، فكأن قلبه أحس بالشر ، فأراد الرجوع ، فأسرعتُ إليه ، وجذبتة إلى السرير ، وقالت : هيت لك ، فأغمض عينيه ، وكف يديه ، وولى رأسه ، ونكسها حياءً من الله تعالى ، وقيل :

كَأَنَّ رَقِيئًا مِنْكَ يَرَعَىٰ خَوَاطِرِي	وَأَخْرُ يَرَعَىٰ نَاطِرِي وَلِسَانِي
فَمَا نَظَرْتُ عَيْنِي لِعَيْرِكَ مَنظَرًا	يَسُوءُكَ إِلَّا قُلْتُ : قَدْ رَمَقَانِي
وَلَا بَدَرْتُ مِنْ فِي دُونِكَ لَفْظَةً	لِعَيْرِكَ إِلَّا عَرَجًا بَعْنَانِي
وَإِخْوَانُ صِدْقٍ قَدْ عَهَدْتُ حَدِيثَهُمْ	وَأَلْهَيْتُ عَنْهُمْ نَاطِرِي وَلِسَانِي
وَمَا الْبُعْدُ أَلْهَىٰ عَنْهُمْ غَيْرَ أَنِّي	وَجَدْتُكَ مَشْهُودًا بِكُلِّ مَكَانٍ
فَخَاطَبْتُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ	وَلَا حَظْتُ مَعْلُومًا بِغَيْرِ عِيَانٍ

قالت : يا يوسف ، ما أحسن وجهك ! قال : الله صورّه في الأرحام ، قالت : ما أحسن عينيك ! قال : هما أول ما يسقطان مني في قبري ، قالت : ما أحسن شعرك ! قال : هو أول ما ييلى مني ، قالت : يا يوسف ، ما أطيب ريحك ! قال : لو شممت رائحتي بعد ثلاث لفررت مني ، قالت : يا يوسف ، أتقرب إليك وتتباعد

مني ؟ قال لها : أرجو بذلك التقرب من ربي ، قالت : انظر إلي نظرة واحدة ، قال لها : أخشى العemy من ربي في آخرتي ، قالت : ضع يدك على فؤادي ، قال لها : إذا تُعلُّ في النار يدي ، قالت : اشتريتك بمالي وتخالفي ؟ فقال : الذنب لإخوتي إذ باعوني حتى ملكتيني ، قالت : اصبر معي ساعة واحدة في البيت ، قال لها : ليس فيه شيء يسترتني من ربي ، وقيل في المعنى :

وَمَا عَرَضْتُ لِي لَحْظَةً مَدُّ عَرَفْتُهُ فَأَنْظُرُ إِلَّا كَانَ لِي حَيْثُ أَنْظُرُ
أَغَارُ عَلَى طَرْفِي لَهُ فَكَأَنِّي إِذَا رَامَ طَرْفِي غَيْرَهُ لَسْتُ أَبْصُرُ
فَيَا مَنْ هَوَاهُ مِلُّ سَمْعِي وَنَاطِرِي وَدَاذُكَ فِي قَلْبِي إِلَى يَوْمٍ أُحْشَرُ

قالت : يا يوسف ، بأي وجه تخالفي ، وبأي حكم ترجع عن مرادي ولا ترعى صنعى ؟ قال لها : حكم إلهي الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه وبطشه ، وإكراماً لسيدي الذي أكرم مثواي ، وأنزلي منزلة الأولاد ، فقالت : أما إهلك الذي في السماء ، فإني أفتح بيوت الأموال ، وأتصدق عنك بها ، وأهديها إليه حتى يرضى عنك ويغفر لك ، ولا أبالي أنا بما يفعل في حقي لمرادي وقضاء حاجتي ، وأما سيدك الذي أكرم مثواك ، فأنا أطعمه السم حتى ينتثر لحمه ، ويسقط عظمه ويموت جهداً وكمداً ، وأكون أنا وأموالي وما ملكت يدي ملكك وطوع يمينك ، قال لها : إذا فما يكون عذري يوم القيامة بين يدي ربي ؟ وقيل في المعنى :

هَبِ السِّتْرَ مَرْخِيًا وَبَابُكَ مُعْلَقُ أَلَيْسَ مَعِيَ رَبِّي يَجُودُ وَيَرْزُقُ
وَيُعْطِي عَطَايَاهُ وَيَمْنَحُ جُودَهُ وَيُجْرِي قَضَايَاهُ عَلَيْنَا وَيَخْلُقُ
أَيَحْمِلُ أَنْ أَرْضِي الْخَلَائِقَ دُونَهُ وَأُسْخِطُهُ وَهُوَ الَّذِي بِي يَرْفُقُ
دَعِينِي فَإِنِّي لَا أُخَالِفُ سَيِّدِي فَعَصِيَانُ مَنْ يَفْنَى وَيَذْهَبُ أَلِيقُ

فقام وبادر الباب من غير أن يكون بينه وبينها سبب من الأسباب ، وقد شهد الحق له بذلك في محكم الكتاب العزيز فقال عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَخَلِّصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] . السوء : السبب المؤدي إلى الفحشاء ، والفحشاء : المعصية المؤدية إلى سخط الله تعالى ، ولا يجوز ذلك على

ني من الأنبياء وحسن الظن بالصالحين أمر مندوب إليه وسنن معول عليه ، فكيف بني من الأنبياء ، وهو ابن صفي الله ، ابن ذبيح الله ، ابن خليل الله ؟ وقد أجمع العلماء قاطبة على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الكبائر ، واختلفوا في الصغائر ، وليس الأمر كما يقوله القصاص والمختلقون والكذابون والمتشدقون إنه حل العقدة لكنه همّ بها وهمت به حتى صرفه الله عنها بالبرهان . قال بعض أهل العلم : المهم ههنا : هم فكرة وهي مغفورة ، وهم إرادة وهي غير مغفورة ، فهمة الفكرة ليوسف ، وهمة الإرادة لزيخا ، وقال الحسين بن الفضل : في الكلام تقديم وتأخير ، ومعناه : لقد همت به ، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، قال ابن عمر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله » ، ذكره مسلم ، وقال أبو هريرة : « سئل رسول الله ﷺ أيُّ الناس أكرم ؟ قال أكرمهم عند الله أتقاهم ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ؟ قال : فأكرم الناس نبي الله يوسف عليه السلام ابن نبي الله يعقوب ابن نبي الله إسحاق ابن إبراهيم خليل الله صلوات الله عليهم أجمعين » ، وذكر الحديث بطوله ذكره البخاري ، وقيل :

أَلَا عَظَّمُوا قَدْرَ النَّبِيِّ الْمُكْرَمِ	فَتَعْظِيمُهُ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ
فَمَنْ مِثْلُهُ أَصْلًا وَفَرْعًا وَمَحْتَدًا	وَمَنْ ذَا يُضَاهِي فِي الْعُلَا وَالتَّقَدُّمِ
لَهُ ثَبَتَ الْفَخْرُ الْمُؤْتَلُّ أَنَّهُ	لِمَنْ فَرَعَ بَرَاهِمَ الْخَلِيلِ الْمُعْظَمِ
وَلِلْأَنْبِيَاءِ الْمُكْرَمِينَ مَرَاتِبٌ	يُفَوْقُ سَنَاهَا كُلِّ بَدْرِ مُتَمِّمٍ
حَبَاهُمْ إِلَهُ الْعَرْشِ مِنْهُ بَعْصَمَةٌ	وَبَاعَدَهُمْ مِنْ كُلِّ فِعْلٍ مُدْمِمٍ
فَطَنُّوا بِهِ خَيْرًا وَحَبُّوا جَمِيعَهُمْ	فَحُبُّهُمْ يُنْجِي غَدًا مِنْ جَهَنَّمَ

واختلف الناس في البرهان ، فقال قوم : البرهان عصمة الله له من الفحشاء ، وصرف السوء عنه ، فلولا أن عصمه الله لم يكن معصوماً ، ولولا أن رحمه الله لم يكن مرحوماً . وقال قوم : البرهان كف من غير ذراع بدا بينهما فيه مكتوب ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس : ٦١] . وقيل : البرهان أن الحائط فرج له فرأى صورة يعقوب عاضاً على إبهامه يقول : يوسف ، يوسف ، وقيل : البرهان أن هاتفاً هتف به يقول : يا يوسف ، لا تعمل

عمل السفهاء ، وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء ، وقيل : البرهان أن صنماً كان لها في ركن البيت ، فأرخت ستراً لها تغطيه به ، فسألها يوسف عن ذلك ؟ فقالت : أستحي منه أن يراني على هذه الصفة ، فقال لها : أنت تستحين من حماد لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، فكيف لا أستحي أنا من رب يراني ويرى مكاني ، ومطلع عليّ ؟ فبادر الباب هارباً ، وإليه ذهب من قال : همت زليخا بالقرار وهم يوسف بالفرار ، فلما رآته يريد الباب جذبت قميصه من خلفه فتمزق القميص^(١) ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ [يوسف : ٢٥] ، وقيل في المعنى :

خَرَسَ اللِّسَانُ وَلِي دُمُوعٌ تَنْطِقُ	إِنَّ الْهَوَى بِحُشَاشَتِي مُتَعَلِّقُ
لَمَّا رَأَيْتُ أَحَبَّتِي يَوْمَ التَّوَى	شَدُّوا الرُّكَّابَ لِبَيْنِهِمْ وَتَفَرَّقُوا
سَلَطْتُ طُوفَانَ الدُّمُوعِ عَلَيْهِمْ	وَبَعَثْتُ أَنْفَاسِي مَخَافَةَ أَغْرِقُ
فَتَأَوَّهَ الْبَحَادِي وَقَالَ لَهُمْ : قِفُوا	فَبِظَعْنِكُمْ لَا شَكَّ مَنْ يَتَعَشَّقُ
فَأَجَبْتُهُمْ مَا بَيْنَ صَوْتٍ خَاشِعٍ	قَامَتْ قِيَامَةُ عَبْدِكُمْ فَتَفَرَّقُوا
رُدُّوا الضُّيَاءَ لِنَازِرِيٍّ فَلَا أَرَى	إِلَّا سُيُوفَ الْبَيْنِ حَوْلِي تَبْرُقُ
فَكَانَ مَا امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تَعَلَّقَتْ	بِقَمِيصِ يُوسُفَ وَالْقَمِيصُ يُمَزَّقُ

ووافق ذلك الوقت أن العزيز مر بالباب في بعض حوائجه ، فإذا الوجبة فالتفت العزيز ، فإذا الباب يحمل ويساق فدفع الباب وقال : مه ، فإذا يوسف مقدود

(١) قال الإمام العلامة الفخر - رحمه الله - : « إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستتكتف منه ، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول ﷺ المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة ! ... » ، ثم أردف قائلاً : « إن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة ، استعظموها ذلك ، وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والتواضع ، ولو كان يوسف عليه السلام أقدمها هنا على هذه الكبيرة المنكرة ، لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ، ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها ، كما في سائر المواضع ، وحيث لم يوجد شيء من ذلك ، علمنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنب ولا معصية » . انظر الموضوعات والإسرائيليات في كتب التفاسير قديماً وحديثاً المكتبة التوفيقية ، (ص : ١٤٠) .

الثوب ، باكى العين ، وإذا زليخا ناشرة الشعر محمرة الوجه باكية العين ، قال العزيز : فيم أنتما ؟ فقالت زليخا : يا سيدي ، غلامك العبراني الذي ائتمنته على أهلك ، ومننت عليه بفضلك ، وأحللته محل ولدك يريد أهلك بالسوء ، فأقبل العزيز على يوسف بوجهه وقال : يا يوسف : ما هذا جزائي منك ، ائتمنتك على أهلي ، وأحللتك محل الأولاد المكرمين ، ورجوت الخير والانتفاع بك ، فصرت تخونني في أهلي ؟ فقال يوسف : معاذ الله أن أخونك في أهلك ، وأرضى بذلك بل هي راودتني عن نفسي ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ﴿ [يوسف : ٢٥ و ٢٦] ، فوقف العزيز متحيراً ينظر إليها تارة ، وإليه تارة أخرى ، فقال يوسف عليه السلام : لي شاهد يشهد ببراءتي ، فقال : من الشاهد وليس معكما في البيت ثالث إلا هذا الطفل ؟ وكان في البيت طفل معلق في الركن في مهده ، وهو رضيع لبعض قرابة لزليخا ؛ لأنها كانت لا ولد لها ، وكانت تحب الأولاد ، ويساقون إليها على وجه الأنس ونظر السرور ، فرفع يوسف طرفه إلى السماء ، وقال : إلهي وسيدي ، ترى مكاني ، ولا يخفى عليك حالي ، وأنت أرحم الراحمين ، وقيل في المعنى :

إِلَيْكَ مَدَدْتُ الْكَفَّ فِي كُلِّ شِدَّةٍ	وَمِنْكَ وَجَدْتُ اللَّطْفَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
وَأَنْتَ مَلَاذِي وَالْأَنَامَ بِمَعَزَلٍ	وَهَلْ مُسْتَحِيلٌ فِي الرَّجَاءِ كَوَاجِبِ
وَأِنِّي لَأَرْجُو مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ	وَإِنْ كُنْتُ خَطَّاءٌ كَثِيرَ الْمَعَائِبِ
رَجَاءُكَ رَأْسُ الْمَالِ عِنْدِي وَرَبْحُهُ	وَزُهْدِي فِي الْمَخْلُوقِ أَسْتَى مَنَاقِبِ
فَحَقِّقْ رَجَائِي فِيكَ يَا رَبِّ وَاكْفِنِي	شِمَاءَةً خَبٍّ أَوْ إِسَاءَةً صَاحِبِ
وَمَنْ أَيْنَ أَخْشَى مِنْ عَدُوِّي إِسَاءَةً	وَسِتْرُكَ ضَافٍ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ
فِيَا مُحْسِنًا فِيمَا مَضَى أَنْتَ قَادِرٌ	عَلَى اللَّطْفِ مِنِّي فِي حُلُولِ الْعَوَاقِبِ

فأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام : أن اهبط إلى هذا الطفل ، وشق لسانه حتى يشهد بالبراءة لنبيي يوسف ، فترل جبريل عليه السلام على الطفل وشق لسانه ، وأبلغه أمر ربه ، فنادى الطفل من المهد : أيها العزيز ، إن لك مما أنت فيه فرجاً ومخرجاً ، فلما سمع العزيز كلام الصبي ، لهاً عن جميع ما كان فيه ، وأقبل على الطفل متعجباً منه ،

فقال : انظر إلى شق قميص الغلام ، فإن كان قد من قُبِلَ فصَدَقَتْ وهو من الكاذبين ، وإن كان قد من دُبِرَ فكذبت وهو من الصادقين ، وختم الله على فيه إلى وقت كلامه ، وقيل في المعنى :

مَا إِنْ يَضِيعُ لَدَى الْإِلَهِ وَسِيلَةٌ جَلَّ الْمُهَيْمِنُ أَنْ يُخَيَّبَ رَاجِيَا
لَمَّا دَعَاهُ بِقَلْبِهِ صَدِيقُهُ أَلْفَاهُ رَبًّا لَا يَرُدُّ الدَّاعِيَا
شَهِدَ الرُّضِيعُ لَهُ وَأَنْطَقَهُ الَّذِي يُجْرِي مَشِيَّتَهُ وَيُظْهِرُ خَافِيَا
أَوْحَى إِلَى جِبْرِيلَ أَنْزِلْ مُسْرِعًا فَمَنْ الصَّيِّ يُكُونُ بَدْءَ قَضَائِيَا
شَقَّ اللِّسَانَ لِيَسْتَبِينَ كَلَامُهُ وَيُلُوحَ لِلصِّدِّيقِ صِدْقُ بَادِيَا
فَإِذَا بِهِ يَدْعُوهُ عِنْدِي رَاحَةً مِمَّنْ دَهَاكَ فَكُنْ لِقَوْلِي وَاعِيَا
لَكَ فِي الْقَمِيصِ دَلَالَةٌ وَعَلَامَةٌ فَانْظُرْ إِلَيْهِ تَرَى دَلِيلًا شَافِيَا
إِنْ كَانَ مِنْ دُبِرٍ فَيُوسُفُ صَادِقٌ أَوْ كَانَ مِنْ قُبُلٍ تَبَيَّنَ بَاغِيَا
سُبْحَانَ مَنْ يَقْضِي وَيَحْكُمُ مَا يَشَاءُ فَيُعِزُّ مَقْهُورًا وَيَقْهَرُ طَاغِيَا

إخواني ، الدنيا تشبه قصر مصر ، فاستبق الباب فيها يوسف الصبر وزليخا الهوى ، وقميص الأعمال يعرض على يعقوب الشفاعة ، فمن رأى قميصه قد من قبل قال : سحقاً سحقاً ، ومن رأى قميصه قد من دبر قال : ادخرت شفاعتي يا عبد شهوته ، يا مملوك لذته ، ويا أسير غفلته ، يا قتيل بطالته ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩] . يا عبد الطبع ، طالع دستور الأحرار ، والمملوك لا يعترض الأحكام ، والمذنب لا يختصم الحكام ، كيف يصيب قلبه خشوع ورقة من ملكت الدنيا رقه ، تضرب عبدك إن عصاك ، وتعصي مولاك مرارا ، فإذا نزلت بكم نازلة قلت : آئى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم . اشترى إبراهيم بن أدهم غلاماً فلما وقف بين يديه قال : ما اسمك ؟ قال : ما سميتني ، قال : ما شغلك ؟ قال ما شغلتنى ، قال : ما لباسك ؟ قال : ما ألبستني ، قال : فما اختيارك ؟ قال : وكيف للمملوك مع مالكه اختيار ، فكان ذلك سبب توبته ، وقيل في المعنى :

لَا تَغْضَبَنَّ عَلَى قَوْمٍ تُحِبُّهُمْ فَلَيْسَ يُدْنِيكَ مِنْ أَحْبَابِكَ الْغَضَبُ
وَلَا تُخَاصِمُهُمْ يَوْمًا إِذَا حَكَمُوا إِنَّ الْقُضَاةَ إِذَا مَا خُوصِمُوا غَلَبُوا

ادعى أحد المحبين حب شخص ، ورغب أن يكون مملوكه ، فقال المحبوب : قد قبلتك على أن تعقد لي عقداً يخصمك بين يدي قاضى المحبين ، فساروا إلى أديب ماهر ، وموثق قاهر ، فكتب بينهما عقد يقول فيه : بسم الله الذي جعل الحب وسيلة لأهل القلوب ، وصلواته على سيدنا محمد شفيع أهل الذنوب ، هذا ما اشترى فلان بن فلان الفلاني ، اشترى منه في عقد واحد وصفقة واحدة جميع المحبة المعروفة بمودة القلب من مدينة الإخلاص ، بالمحبة المعروفة الدائمة إلى الممات بمحملتها وكليتها من حدودها وحقوقها ومجاري مياه الرعاية ، والكأ فيها ، وكل حق هو لها داخل فيها أو خارج عنها من المراعاة والملاحظة والذب والنظر ، فالحد الأول ينتهي إلى الخلّة والصفاء ، والحد الثاني ينتهي إلى المراعاة والوفاء ، والحد الثالث ينتهي إلى المساعدة والولاء ، والحد الرابع ينتهي إلى المشاهدة واللقاء ، وإليه يشرع باهما ، اشترى منه في عقد واحد وصفقة واحدة شراءً جائزاً عند أهل الحب ، ماضياً في شرع الإخلاص ، تاماً عند أهل الإخاء والمودة بألف ألف في ألف مدى الأنفاس والأرواح في الأجسام والأشباح والأنفس والرعوس ، وشرط كل واحد منهما لصاحبه بذل قلبه وصفاء حبه وفداء نفسه وماله وحسه ورد التهمة والعدل ، ثم تعاهدا على ذلك بينهما ، ونقد كل واحد منهما لصاحبه هذا الثمن ، ووقع التسليم لما وقع العقد عليه ، واعترفا بالبراءة على ما يشترطان لأنفسهما ، ولا يقبل السوء والشناعات ، وقبض كل واحد منهما لصاحبه ، واعترف بالبراءة ، وكل واحد منهما لصاحبه الدرك والرجوع عليه على ما يوجبه حكم الإخلاص والصفاء ، ويقتضيه موجب الشرع والوفاء ، فمضى ادعيا أو ادعى أحدهما ما يخالف هذه الوثيقة ظاهراً وباطناً في سرائر سره وخفي ضمائره أو مضمون هواجس إحساس نفسه وهيته ، فروح صفائهما نقية من الغش وقلوب وفائهما بريئة من الخيانة ، ومحبتهما محروسة بعين المحافظة ، ومعرفتهما مصقولة بمهم المحافظة والملاحظة ، لا تدنس بوهم ولا خوف فكر - فدعوى ذلك زور وبهتان وظلم وعدوان ، والمخالف لهذه الوثيقة خارج عن ذمام التحقيق ، داخل في زمرة أهل الدعاوى والتحقيق ، مخالف لأهل المعرفة والفتوة ، بجانب لأهل المحبة والمروءة والحق والصدق ، ما تضمنته هذه الوثيقة ، ووقعت عليه شهادة سادات الطريقة ، وإلى ذلك ترافعا في صحته إلى

حاكم من حكام المسلمين المحققين ، جائر بسائر الحكم عند أهل المعرفة والدين ، فوقف على تلك الشروط فأثبتها وأمضاها وحدها ، وأجراها في مجلس حكمه وقضائه ، وولائه ورضائه ، وأشهدا على أنفسهما طوعاً في يوم اللقاء من شهر المواصله والبقاء سنة تحسين الأعمال وبلوغ الآمال ، أشهد عليهما بذلك الألفة والميل ، والمساعدة والنيل ، وزوال الملق وحسن الخلق ، وكتب في التاريخ أعلاه ، وقيل :

كَتَبُوا عَلَيْكَ وَدَقَّقُوا مَا قَدْ مَضَى وَجَرَى عَلَيْكَ الْحُكْمُ فِيهِ بِمَا قَضَى
وَزَعَمْتَ أَنَّكَ مُعْرِضٌ عَنْ بَابِهِمْ مَنْ غَلَقَ الْأَبْوَابَ كَانَ الْمُعْرِضَا
أَرَفَضْتَ عَهْدَهُمْ وَخُنْتَ وَدَادَهُمْ حَاشَا لِرَبْطٍ وَفَائِهِمْ أَنْ يُنْقَضَا
قِفْ عِنْدَ بَابِهِمْ وَلَدْ بِحِمَاهُمْ فَعَسَى هُمْ أَنْ يَسْمَحُوا لَكَ بِالرِّضَا
مَا لِلْعَلِيلِ إِذَا تَعَلَّلَ بِرُؤُهُ إِلَّا بِأَنْ يَأْتِيَ الطَّيِّبَ الْمُمْرِضَا

(حكاية) قال مالك بن دينار رضي الله عنه : احتبس عنا المطر بالبصرة ، فخرجنا نستسقي مراراً فلم نر أثر الإجابة ، فخرجت أنا وعطاء السلمي وثابت البناني ويحيى البكائي ومحمد بن واسع وأبو محمد السخيتاني وحبيب الفارسي وحسان بن أبي سنان وعتبة الغلام وصالح المري ، حتى صرنا إلى المصلى بالبصرة ، وخرج الصبيان من المكاتب ، واستسقيننا فلم نر أثر الإجابة ، فانتصف النهار ، وانصرف الناس ، وبقيت أنا وثابت البناني بالمصلى ، فلما أظلم الليل إذا بأسود مليح الوجه ، رقيق الساقين ، عظيم البطن ، عليه مئزر صوف ، قومٌ جميع ما عليه بدرهمين ، فجاء بماء فتوضاً ، ثم جاء إلى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين ، كان قيامه وركوعه وسجوده سواء ، ثم رفع طرفه إلى السماء ، فقال : سيدي ، إلى كم ترى عبادك فيما لا ينقصك ، أنفذ ما عندك أم نقصت خزائن ملكك ؟ أقسمت عليك بحبك لي إلا ما سقيتنا غيثك الساعة ، فما تم الكلام حتى تغيمت السماء ، وجاءت بمطر كأفواه القرب ، ولم نخرج من المصلى إلا ونحن نخوض في الماء إلى الركب ، وبقيت أتعجب من الأسود ، قال مالك : ثم رحت له ، وقلت : يا أسود ، أما تستحي مما قلت ؟ قال : وماذا قلت ؟ قال : قولك : بحبك لي ، وما يدريك أنه يحبك ؟ فقال : تنح عني يا من اشتغل عنه بنفسه ، أين كنت أنا حين خصني بالتوحيد بمعرفته ؟ أفتراه بدأني بذلك إلا لمحبهته ، ثم قال : محبته لي على قدره ، ومحبي له على قدرى ، فقلت

له : يرحمك الله ، ارفق قليلاً ، قال : أنا مملوك ، وعليّ فرض من طاعة مالكي الصغير ، قال : فجعلنا نقفو أثره على البعد حتى دخل دار نخاس ، وقد مضى من الليل نصفه ، فطال علينا النصف الثاني ، فلما أصبحنا أتينا النخاس ، فقلت له : عندك غلام تبيعه منا للخدمة ، فقال : نعم ، غلام ومائة كلهم للبيع ، قال : فجعل يعرض عليّ واحداً بعد واحد ، حتى عرض على سبعين غلاماً ، ولم أرَ صاحبي فيهم ، فقال : ما عندي غير هؤلاء ، فلما أردنا الخروج دخلنا حجرة خربة خلف داره ، فإذا أنا بالأسود قائم يصلي ، فقلت : صاحبنا ، ورب الكعبة ، فخرجت إلى النخاس ، وقلت له : بعني هذا الغلام ، فقال : يا أبا يحيى ، هذا غلام شؤم ونكد ، ليس له في الليل همة إلا البكاء ولا بالنهار إلا الصلاة والنوم ، قلت : لذلك أردته ، قال : فدعاه فخرج وهو يتنازع ، فقال لي : خذه بما شئتَ بعد أن تبرئني من عيوبه كلها ، فاشتريته منه بعشرين ديناراً ، وقلتُ له : ما اسمه ؟ قال : ميمون ، قال : فأخذتُ بيده ، أريد المنزل ، فالتفتُ إليّ ، وقال : يا مولاي الصغير ، لماذا اشتريتي ، وأنا لا أصلح للخدمة المخلوقين ؟ فقلتُ له : إنما اشتريتك لأخدمك بنفسي وعلى رأسي ، قال : ولم ذلك ؟ فقلتُ : أأست صاحبنا البارحة بالمصلي ، فقال : وقد اطلعتُ عليّ ؟ قلتُ : أنا الذي اعترضتك البارحة في الكلام ، قال : فجعل يمشي حتى أتى مسجداً ، فدخله ، وصلى فيه ركعتين ، وقال : إلهي وسيدي سرُّ كان بيني وبينك أطلعتُ عليه المخلوقين ، وفضحتني به بين العالمين ؛ فكيف يطيب الآن عيشي ، وقد وقف على ما كان بيني وبينك غيرك ؟ أقسمتُ عليك إلا ما قبضتُ روحي الساعة ، ثم سجد فانتظرته ساعة ، فلم يرفع رأسه ، وحركته ، فإذا هو ميت ، قال : فمددتُ يديه ورجليه ، فإذا وجهه ضاحك وقد غلب البياض السود ، وصار الوجه كالقمر ، قال : وإذا شابُّ قد أقبل من الباب فقال : السلام عليكم ، أعظم الله أجرنا وأجركم في أخينا ميمون ، هاكم الكفن فكفونوه فيه ، فناولني ثوبين ما رأيتُ مثليهما فكفنته فيهما ، قال مالك : بقره إلى الآن نستسقي ، ونطلب الحوائج من الله تعالى ، وقيل في المعنى :

مَجَالُ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ بِرَوْضَةٍ	سَمَاوِيَّةٍ مِنْ دُونِهَا حُجُبُ الرَّبِّ
فَعَسَّكَرُهَا فِيهَا وَمَجْنَى ثِمَارِهَا	تَنْسُمُ رُوحُ الْأُنْسِ بِاللَّهِ مِنْ قُرْبٍ
تُكَفِّفُهَا مِنْ عَالَمِ السَّرِّ قُرْبَةً	فَلَوْلَا مَدَى الْأَجَالِ ذَابَتْ مِنَ الْقُرْبِ
وَأَرَوَى صَدَاهَا صِرْفُ كَاسَاتِ حُبِّهِ	وَبَرْدُ نَسِيمِ جَلٍّ عَنْ مُنْتَهَى الْخُطْبِ

فَيَا لِقُلُوبٍ قُرِّبَتْ فَتَقَرَّبَتْ لَدَى الْعَرْشِ مِمَّنْ زَيْنَ الْمُلْكِ بِالْقُرْبِ
لَهَا مِنْ لَطِيفِ الْعَزْمِ عَزَمَ سَرَتْ بِهِ وَيُهْتَكُ بِالْأَسْتَارِ مِنْ دَاخِلِ الْحُجْبِ
رَضَاهَا فَأَرْضَاهَا فَحَارَتْ يَدُ الْعُلَا وَحَلَّتْ مِنَ الْمَحْبُوبِ بِالْمَنْزِلِ الرَّحْبِ
فَإِنْ فَقَدَتْ خَوْفَ الْفِرَاقِ لِإِلْفِهَا أَدَامَتْ حِينًا تَطْلُبُ الْأُنْسَ بِالْقُرْبِ
سَرَى سِرُّهَا بَيْنَ الْحَبِيبِ وَبَيْنَهَا فَأَضْحَى مَصُونًا عَنْ سَوَى الْحُبِّ فِي الْقَلْبِ

نسأل الله عز و علا أن يرزقنا العافية والمعافة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة ،
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

المجلس السابع

في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥].

الحمد لله مطلع آقمار البراهين من قعر بحر ظلمات الغيوب في طباق آفاق قلوب العارفين ، ومُنبت أزهار أنوار المكاشفات في روضات جنات أفئدة أفهام المتأملين بإدراج مدرار ما رُوي عن المختار « إن من أمتي لمحدثين » ، باعث رياح ركبان الارتياح في ضحضاح بطاح صدور سدرة الأسرار ، نشرًا بين يدي غيب غيبة ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ٢١ و٢٢] ، مطهر ورود الأوراد وأقاح الحق ونسرين السر وسوسن الأجر ، يُعجب الزُّرَّاع ليغيط بذلك قلوب الكافرين ، مُنطق أطيّار الأوطار على أفنان أبيان بيان البيان بألحان الشهادة له بالجلال والعظمة والكبرياء والعلم واليقين والريحان ، يترنح من سُلاف مُدام الغمام والنعمان ، يتمايل من خندريس الواردات في مدرسة الأوام على الدوام ، والرعد يُسبحه ويُسعد تسيبحة نوح الحمام ، ويسري بركائب النجائب في ميدان المسبحين ، فانظر أيها المعتبر إلى ازدحام ركائب نجائب العجائب ، وكل تسيبح في تيار قدرته ، ويقول بلسان فطرته : لا إله إلا الله ، الملك الحق المبين ، خلق آدم من ماء وطين ، وجعله أبا البشر أجمعين ، وصور عيسى بكلمته ، ونفخ فيه من روحه ، فإذا به من جيبها يتحرك في بطن أمه ويستبين ، وجعله ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ، وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥ و٤٦]. أحمدده حمد الشاكرين وأسأله ثواب الذاكرين ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الذي تبرأ من الآباء والأبناء والأزواج والأصهار ، والأعوان والأنصار ، والحدود والأقطار ، والحلول والقرار ، والصاحبة والقرين ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله وحبيه وخليله النبي العربي المكي الأبطحي الزمزمي القرشي سيد المرسلين ، وإمام الملائكة المقربين ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وقيل في المعنى :

وَحَدَّ إِلَهَكَ أَيُّهَا الْمُتَوَانِي فَهُوَ الْمُنَزَّهُ فِي الْعُلَا عَنْ ثَانِي
وَأَذْكُرُهُ ذِكْرَ مُعْظَمٍ لِحَلَالِهِ وَأَشْكُرُهُ فِي الْإِسْرَارِ وَالْإِعْلَانِ
وَأَنْظُرْ بَعَيْنِ الْقَلْبِ فِي آيَاتِهِ وَمِنَ الْعَجَائِبِ خَلْقَةُ الْإِنْسَانِ
فَلَكُمْ لَهُ مِنْ آيَةٍ وَدَلَالَةٍ وَمِنَ الْعَجَلِبِ خَلْقَةُ الْإِنْسَانِ
سَوَاهُ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ خَائِرٍ وَغَنِي بِقَوْلَةٍ : كُنْ ، عَنِ الْأَعْوَانِ
قُلْ كَيْفَ يُحْدِثُ مَنْ عَوَارِفُ فَضْلِهِ تَبْدُو رَوَائِحُهَا بِكُلِّ مَكَانٍ
أَبَدًا تُخَالِفُهُ وَتَعْصِي أَمْرَهُ وَمَعَ الْخِلَافِ يَمُدُّ بِالْإِحْسَانِ
هَذَا الدَّلِيلُ عَلَى كَمَالِ إِلَهِنَا وَتَذَلُّ فَعَلْتُنَا عَلَى التَّقْصَانِ

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥]. وهب الله لعيسى عليه السلام عشرة أشياء :

أولها : الولادة بغير أب ، قيل : إن جبريل عليه السلام نزل على مريم فنفخ في جيبها، فلم يصل برد النفخة إلى الجلد إلا والجنين يتحرك في البطن .
الثاني : تكليمه للناس في المهد ، كما كان يكلمهم كهلاً ، قال الله تعالى :
﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ [آل عمران: ٤٦] .

الثالث : آتاه الكتاب فحفظه في بطن أمه ، وكان يدرس القرآن في بطنها ، وهي تسمع قراءته .

الرابع : يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ .

الخامس : يحيي الموتى بإذن الله .

السادس : يخلق من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .
قيل : إنه كان مع الصبيان ، فقال : ما تشتهون أن أصور لكم من الطين ؟ قالوا : الخفاش ؛ لأنه أعجب الخلق ؛ لأنه لا عَظْمَ له ، فأخذ تراباً جعله في يده ، وبصق عليه ، ثم قال : كن طيراً بإذن الله ، فإذا به خفاش يطير كما عَنَوَهُ .

السابع : الزهادة في الدنيا ، فإنه كان يلبس الشعر ، ويتوسد الحجر ، ويستنير بالقمر ، كان له قدح يشرب فيه الماء ويتوضأ ، فرأى رجلاً يشرب في الوادي بيده ، فقال عيسى عليه السلام : هذا أزهد مني ، فرمى القدح فكسره ، ولقد ساح يوماً في بعض البراري ، فلحقته الشمس ، واشتد عليه الحر ، وإذا بخيمة عجوز ، فجاء إليها ، واستظل بظلها ، فخرجت العجوز إليه ، وطردته ، فقام وهو يضحك ، وقال : يا مسكينة ، ما أنت التي أقمتني ، بل أقامي الذي لم يُرد أن يجعل لي نعيماً في الدنيا .

الثامن : الخط كما جاء في الخبر : « إن الله تعالى قسم الخط إلى عشرة أجزاء فأعطى الخلق كلهم جزءاً واحداً ، وأعطى عيسى عليه السلام تسعة أجزاء » .

التاسع : رفعه إلى السماء قوله تعالى : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨] .

العاشر : نزوله إلى الأرض في آخر الزمان ، قال النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله تعالى عنه : « ذكر رسول الله ﷺ عيسى عليه السلام ونزولُهُ في آخر الزمان عند انفجار الصبح ما بين مهرودتين ، وهما ثوبان مصبوغان بالزعفران ، أبيض الجسم ، أصهب الرأس ، أفرق الشعر ، كأن رأسه يقطر منه الدهن ، عليه بُرنس وبيده حربة ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويهلك الله على يديه المسيح الدجال ، ويفيض المال فيضاً ، وترتفع حمة كل ذي حمة ، ويعيث الله أهل الكهف فيغزون معه ، ويحجون معه ، ويسيطر الأمن في المشرق والمغرب حتى يرتع الأسد مع الإبل ، والنمر مع البقر ، والذئب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات ، ويتزوج عيسى عليه السلام امرأة من غسان حتى يعلم مَنْ كان يقول فيه البهتان أنه من ولد آدم يأكل مما يأكلون ، وينكح كما ينكحون ، ويحج ويعتمر في سبعين ألفاً منهم أصحاب الكهف ، ويستخرج الكتب من غار أنطاكية حتى يحكم بين أهل التوراة بالتوراة ، وبين أهل الإنجيل بالإنجيل ، وبين أهل الزبور بالزبور ، وبين أهل الفرقان بالفرقان ، ويكشف الله له عن مدينة كانت الجن بنتها لسليمان بن داود عليهما السلام لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، فلما مات سلط الله الريح على الرمل حتى سترها ، فيقسمها عيسى عليه السلام بين المسلمين ، ويخرج الله عز وجل الثابوت الذي أمر أرميائه

أن يرميه في بحيرة طبرية فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون ورضاضة الألواح وعصا موسى وبقاء هارون ، وعشرة آصع من المن ، وشرائح السلوى ادخرتها بنو إسرائيل لمن بعدهم ، فيستفتح بالتابوت على عدوه ، كما كان يستفتح مَنْ قبله ، وينشر الإسلام في المشرق والمغرب والجنوب والقبلة ، ويُعمّر عيسى عليه السلام أربعين سنة ، السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة كالיום ، واليوم كالساعة ، ثم تقبل ريح باردة ، ألين من الحرير ، وأفيح من المسك ، فتقبض روح عيسى عليه السلام ومن معه من المسلمين حتى لا يبقى على وجه الأرض مسلم ، ثم تطلع الشمس من مغربها ، ويُغلق باب التوبة « (١) » ، هذا من كتاب العجائب وإظهار الغرائب ، وقيل : إن مريم عليها السلام حين حملت بعيسى عليه السلام دخلت عليها أختها لتزورها في محرابها ، وكانت أختها زوجة زكريا ، وكانت حاملاً بيجي ، فقالت : يا مريم ، أفي بطنك شيء ؟ قالت : وما سؤالك عن ذلك ؟ قالت : إني أجد هذا الجنين الذي في بطني يسجد للجنين الذي في بطنك (٢) ، وقيل في المعنى :

أَظُنُّكَ حُبْلَى أَمْ بِيْطْنِكَ آيَةٌ أَلَا فَاخْبِرِينِي وَأَصْدُقِي فِي التَّكْلَمِ
أُحِسُّ جَنِينِي سَاجِدًا لِلَّذِي ثَوَى بِيْطْنِكَ فَاصْغِي قَوْلِي وَتَفَهَّضِي
فَنَادَى لِسَانُ الْحَالِ هَذَا نَبِيُّكُمْ وَرُوحُ إِلَهِ الْعَرْشِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
فَكَمْ مَيِّتًا يُحْيِي وَيُرِي أَكْمَهَا وَكَمْ حِكْمَةً يُبْدِي بَغَيْرِ تَعْلَمِ

وقيل : لما أرادت وضعه صعب نفاسها عليها ، فبقيت أياماً في طلقها ، ولم يزل بأحد من النساء بعد حواء ما نزل بها ، فلما وضعته تفكرت في لوم قومها واختلاف أقوالهم : « قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مَتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا » [مريم: ٢٣] ، وإذا به يناديها « أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ، وَهَزَي

(١) الحديث به فقرات صحيحة جاءت بها الأحاديث المتواترة ، كتزول المسيح عليه السلام ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، والريح التي تقبض روح المؤمنين ، ولكنه غريب بهذا السياق .

(٢) لم نقف على سند يُعَوَّل عليه .

إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ، فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿ [مریم: ۲۴-۲۶] . قال : فهزت النخلة ، وكانت تلك النخلة لم تثمر شيئاً ، فطلع جريدها وأثمرت وأطعمت من ساعتها ، وتحصرت أوراقها عليها ، فأظلت وجرى عليها عين ماء بارد ، فأكلت من الثمر ، وشربت من الماء ، وغسلت جنينها ، فأثاها قومها يُهرعون إليها ، ويسطون أسنة الملامة إليها ، فإذا بالولد قد توکأ على يمينه ، وقال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ [مریم: ۳۰-۳۱] ، أي نفّاعاً للخلق ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مریم: ۳۱-۳۳] ، وقيل في المعنى :

أَتَوْهَا وَقَدْ رَاشُوا سِهَامَ مَلَامِهِمْ	وَفَوْقَ كُلِّ مِنْهُمْ نَحْوَهَا سَهْمًا
وَوَطَّنُوا ظُنُونًا وَالظُّنُونُ كَوَادِبُ	بِهَا اسْتَوْجَبُوا الْإِبْعَادَ وَالطَّرْدَ وَاللُّومًا
فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهَا أَشَارَتْ إِلَى ابْنِهَا	وَقَالَتْ : سَلُوهُ إِنَّهُ قَدْ بَدَأَ خَصَمًا
فَنَادَاهُمْ فِي الْمَهْدِ مِنْ بَعْدِ مَا أَتَكَأَ	أَلَا إِنَّنِي عَلِمْتُ لِمَنْ عَلِمَ الْأَسْمَا
هَذَا نِي وَأَهْدَانِي سَبِيلَ رَشَادِهِ	وَأَنْطَقْنِي فِي الْمَهْدِ مِنْ أَمْرِهِ حَتْمًا
وَخَصَّصَنِي بِالتَّفْعِ مِنْهُ فَهِيَ أَنَا	بِقُدْرَةِ رَبِّي أُبْرِئُ الْأَبْرَصَ الْأَعْمَى

وهو أحد السبعة الذين تكلموا في المهد في أوان رضاعهم ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جُريج ، وكان رجلاً عابداً ، فاتخذ صومعة ، وكان فيها فجاءته أمه وهو يصلي فقالت : يا جُريج ، فقال : يا رب ، أمي وصلاتي ! وأقبل على صلاته فانصرف ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي ، فقالت : يا جُريج ، فقال : يا رب ، أمي وصلاتي ! وأقبل على صلاته ، فقالت : اللهم ، لا تُثمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات ، فتذاكر بنو إسرائيل جُريجاً وعبادته ، وكانت هناك امرأة بغية

فقالت : لئن شئتُمْ فتنّتهُ لكم ، قال : فتعرضتْ له ، فلم يلتفتْ إليها ، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته ، فمكثتْهُ من نفسها ، فوقع عليها فحملتْ ، فلما وضعتهُ قالت : هو من جُريج ، فأتوا إليه واستزلوه ، وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : زنيتَ بهذه البغي ، وقد ولدتْ منك ، فقال : أين الولد ؟ فجاءوا به ، فقال : دعوني حتى أصلي فصلي ، فلما فرغ من صلاته أتى الصبي ، فطعن في بطنه بأصبعه ، فقال : يا غلام ، مَنْ أبوك ؟ قال : فلان الراعي ، فأقبلوا على جُريج يُقبَلُونه ، ويتمسّحُون به ، وقالوا له : نبي صومعتك من ذهب قال : لا ، بل أعيدها من طين كما كانت ، ففعلوا . وبينما صبي يرضع من أمه ، فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة ، فقالت أمه : اللهم ، اجعل ابني مثل هذا ، فترك الثدي ، وأقبل عليه ينظر إليه ، وقال : اللهم ، لا تجعلني مثله ، ثم أقبل على ثديه ؛ فكأنّ أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي رضاعه بأصبعه السبابة في فمه ويمصها ، قال : ومر بجارية وهم يضربونها ويقولون : زنيت وسرقت ، وهي تقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقالت أمه : اللهم ، لا تجعل ابني مثلها ، فترك الرضاع ونظر إليها ، وقال : اللهم ، اجعلي مثلها ، فهناك تراجع الحديث ، فقالت أمه : مر بي رجل حسن الهيئة ، فقلت : اللهم ، اجعل ابني مثله ، فقلت : اللهم ، لا تجعلني مثله ، ومر بهذه الأمة وهم يضربونها ، ويقولون : زنيت وسرقت ، فقلت : اللهم ، لا تجعل ابني مثلها : فقلت : اللهم ، اجعلي مثلها ، فقال : إن الرجل كان جباراً ، فقلت : اللهم ، لا تجعلني مثله ، وإن هذه الأمة يقولون لها : زنيت وسرقت ، ولم تزن ولم تسرق ، فقلت : اللهم ، اجعلي مثلها^(١) ، ذكره مسلم .

الرابع : صاحب الأخدود « بينما رسول الله ﷺ جالس ذات يوم إذ رفع رأسه إلى السماء ، ثم أرسل عينيه بالبكاء ، وقال : ماذا نزل ، ثم تلا عليهم ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ [البروج : ١] إلى قوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴾ [البروج : ٤ ، ٣] ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : أخبرني جبريل عليه السلام أن ملكاً جباراً كان صاحب سحر ونجوم وكهانة ، وكان له شيخٌ ساحرٌ كاهنٌ لا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣ / ١٢٦٨ ، ومسلم في صحيحه ٤ / ١٩٧٧ .

يصدر الملك إلا عن رأيه ، فقال الشيخ : أيها الملك ، قد كبر سني ودق عظمي ، وأرى أن تنظر إلي غلاماً أديباً ، أعلمه العلم ، فيكون خلفاً بعدي ، فأرسل الملك إليه غلاماً كان عنده ، فصار يختلف إلى الكاهن ، فمر ذات يوم فنظر بكاء من تحت الأرض ، فنظر فإذا هو بسرب تحت الأرض ، فدخل فإذا هو برجل راهب عليه ثوبان من شعر ، فقال له : من أدخلك عليّ ؟ فأخبره بخبره فرغبه في الخير ، فأقام عنده يومه إلى الليل ، فقال له الراهب : أعطني مَوْثِقاً أن لا تدلّ عليّ أحداً وإن قُلتَ وإن حُرقتَ بالنار ، فأعطاه مَوْثِقَهُ ، وانصرف إلى الملك ، فسأله عن حاله وغيبته ، فخشى أن يُفشي على صاحبه ، وكره أن يكذب ، فضربوه وأوجعوه ، ثم وجهوه إلى الكاهن ، فدخل على الراهب ، وأخبره بخبره ، وخبر ما لقي ، فقال له : إذا سرتَ إلى الكاهن ، فقل له : كنت عند أهلي ، وإذا سرتَ إلى أهلك ، فقل لهم : كنت عند الكاهن ، فمكثَ على ذلك زماناً إلى أن استفرغ علم الكاهن ، وفاق فيه ، فمر يوماً ببعض وزراء الملك ، وكان قد عمي ، فقال له الصبي : أرايتَ إن ردَّ الله بصرَكَ ، أتؤمن بالله ؟ قال : نعم ، فمر الصبي على عينيه فعادت كما كانتا ، فأمن بالله تعالى ، ثم دخل على الملك ، فقال : من أبرأك ؟ قال : مولاي ، قال : ومن مولاك ؟ قال : الله تعالى ، فاغتاظ الملك ، وعرض عليه أن يرجع إلى دينه فأبى ، فقال : من ذلك على هذا ؟ قال : الشابُّ ، فأمر بإحضاره ، وقال له عندما رآه : ويحك ، ما يقول هذا ؟ قال : يقول الحقُّ ، الله الذي أبرأه ، وهو على كل شيء قدير ، فأمر بصَلْبِهِ ، وطعنه بالرماح ، فلم يقدر عليه ، فأمر بحرقه وهو على خشبة فلم يُحرق ، فأمر يومئذ بجعله في خندق ، وأن يرموه بالسهام فلم تصل السهام إليه ، وقيل في المعنى :

لَسِّنْ أَضْرَمَ الْأَعْدَاءُ نَارَ عِنَادِهِمْ	وَجَاءُوا جَمِيعًا بِالْمَضَرَّةِ وَالْكَيدِ
وَأِنْ عَقَدُوا عَقْدَ الْخِلَافِ بِزَعْمِهِمْ	وَرَأَشُوا سِهَامَ الْبَغْيِ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ
فَلَسْتُ أَبَالِي بِالَّذِي يَفْعَلُونَهُ	إِذَا كُنْتُ مَوْلَايَ غَلَبْتُهُمْ وَحَدِي
وَأِنْ غَرَامِي فِيكَ عَذْبٌ مَذَاقُهُ	وَمَطْعُمُهُ فِي الْقَلْبِ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ
وَمَا فَقَدْتُ نَفْسِي فِيكَ صَعْبٌ لَأَنْتِي	وَجَدْتُ لَذِيذَ الْوَصْلِ يَحْصُلُ بِالْفَقْدِ

« فمكثَ كذلك سبعة أيام ، ثم قال : أيها الملك : إنك لا تقتلني حتى تأخذ سهماً من كنانتك ، ثم تقول : اللهم ربَّ هذا الغلام ، اقتله ، فأخذ الملك السهم ، وقال :

اللهم ربَّ هذا الغلام ، اقتله ، وضرب بالسهم نحوه ، فسال دمه ، والناس ينظرون إليه ومات ، فقال الناس : آمنا برب هذا الغلام ، فخذ في الأرض أهدوداً ، وأضرم النار فدعا بالناس ، فكل من آمن بالله أحرقه ، ومن رجع عن الإسلام تركه ، فجاء بامرأة معها صبي رضيع ، فعرض عليها الكفر فأبت ، فأمر بها إلى الأهدود ، فلما نظرت إلى النار ، أشفقت على الصبي ، وهمت أن ترجع ، فأنطق الله الصبي وقال : يا أماء ، لا تكفري بعد إيمانك ، فإن الله يجعلها عليك برداً وسلاماً ، فرمت بنفسها مع ولدها في النار » ^(١) ، ذكره مسلم والبخاري بهذا اللفظ .

والخامس : صبي ماشطة بنت فرعون ، لعنه الله تعالى ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « كان لفرعون خازن من بني إسرائيل اسمه حزقيل ، وكان مؤمناً يكتُم إيمانه مائة سنة ، وكان قد لقي ما لقي من أصحاب موسى عليه السلام وكانت امرأته ماشطة ابنة فرعون ، فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها ، فقالت : تعس من كفر بالله ، فقالت لها بنت فرعون : وهل لك إله غير أبي ، فقالت : إلهي وإله أبيك ، وإله من في السموات والأرض واحد لا شريك له ، فقامت فدخلت على أبيها وهي تبكي ، فقالت : يا إلهي ، إن الماشطة زوجة حزقيل تزعم أن إلهك وإلهها واحد ، فأرسل إليها وأوقفها بين يديه وسأها عن ذلك ؟ فقالت : صدقت ، فقال لها : ويحك ، ارجعي إلى عبادتي ، فقالت : لا أفعل ، فأمر بأربعة أوتاد من حديد فسمرت يداها ورجلاها ، وأرسل عليها الحيات والعقارب وقال لها ، لا أزيل عنك ما نزل بك من العذاب حتى ترجعي إلى عبادتي ، فقالت : والله ، لو عذبتني مدة الدنيا ما رجعت عن ديني ، وكان لها ابنان ، فأتى بالكبير فقال : إن لم ترجعي عن دينك وإلا ذبحتك ، فقالت : لا أفارق ديني ، فذبحه على صدرها ، ثم أتى بضيع لها فوضعه على صدرها ، وقال : إن لم ترجعي عن دينك وإلا ذبحتك ، فنظرت إلى الصبي ، وأدركها الإشفاق عليه فسكتت ، وقيل في المعنى :

بِعَيْنِكَ مَا أَشْكُو مِنَ الْبَثِّ وَالْبَلَوَى فَعَلِمْتُكَ أَغْنَانِي عَنِ الشَّرْحِ وَالشُّكْوَى
وَقَدْ أَتَفَدَ الْبَيْنُ الْمُسْتَتُّ مُقْلَتِي وَصَيَّرَنِي مَا قَدْ بُلِيتُ بِهِ نَضْوَى
أَقْلَبُ طَرْفِي فِي الْوُجُودِ فَلَا أَرَى سِوَى مَنْ يَرَى قَتْلِي أَلَدُّ مِنَ السَّلْوَى

وَحَقِّكَ مَا أَعْيَا بِمَا فِيكَ نَالِي إِذَا كُنْتَ تَرْضَانِي فَقَدْ صَحَّتِ الدَّعْوَى
وَمَا الشَّهْدُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ شَهِيدَةً عَسَى نَاطِرِي يَوْمًا يُشَاهِدُ مَنْ يَهْوَى
فأنطق الله الصبي ، وقال : يا أماء ، لا تحزني ، واصبري على ما نالك ، فإله قد بنى
لك بيتاً في الجنة » ، ذكره وثيمة .

والسادس : مبارك اليمامة ، قال أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه : « كان
رسول الله ﷺ قاعداً يوماً إذ دخلت امرأة على يديها صبي رضيع ، وكانت من أهل
اليمامة ، فجعل الصبي ينظر إلى رسول الله ﷺ ، فأقبل عليه النبي ﷺ وقال : يا
غلام ، من أنا ؟ فقال الصبي بلسان فصيح : أنت رسول الله وخاتم النبيين ، فقال له
النبي ﷺ : أحسنت أيها الصبي ، بارك الله فيك ، وأمسك الله على لسانه إلى وقت
كلامه » ، قال أنس رضي الله عنه : فكان الصبي بعد ذلك لا يدخل بيتاً ولا يقصد
موضعاً إلا ظهرت بركته في أهل ذلك الموضع حتى سُمي : مبارك اليمامة ، ذكره
صاحب كتاب الغرائب في إظهار العجائب ، وقيل :

نَطَقَ الصَّبِيُّ وَنُطِقَهُ بُرْهَانٌ وَبَدَأَ الدَّلِيلُ لِمَنْ لَهُ إِنْسَانٌ
نَادَاهُ خَيْرُ الْخَلْقِ قُلْ لِي مَنْ أَنَا فَالصَّدْقُ مِنْ وَقَعِ الْعَذَابِ أَمَانٌ
فَأَجَابَهُ أَنْتَ الرَّسُولُ الْمُرْتَضَى أَنْتَ الْخِتَامُ وَحُبُّكَ الْقُرْبَانُ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَأَسْمِعُونِي ذِكْرَهُ فَلَهُ لَدَى رَبِّ الْبَرِيَّةِ شَانُ

والسابع : شاهد يوسف عليه السلام حين شهد براءة يوسف ، ودله على تمزيق
القميص ، ولما رأى العزيز القميص قد من دُبر ، قال لها ما أخبر الله تعالى عنه :
﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨] . قال أبو هريرة رضي الله
عنه : قال رسول الله ﷺ : « إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان ، ثم تلا قوله
تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [يوسف: ٢٨] . وقوله تعالى
﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ » ثم أقبل على يوسف ، فقال : يا « يُوسُفُ أَعْرَضُ عَنْ
هَذَا » [يوسف: ٢٩] ، أي اكتمه ، ثم قال لها : « وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنْتَ
مِنَ الْخَاطِئِينَ » [يوسف: ٢٩] ، فقالت له : يا يوسف فضحتني ، والله ، لأسلمنك

للمعذنين يعذبونك حتى ينسل جسمك كما سللت جسمي ، فقال لها : إن كنت احتقرتني لغريتي ، فالله حسي ونعم الوكيل ، فاشتغلت عن ذلك بكلفها به ، فشاع الخبر بمصر أن امرأة العزيز راودت فتاها عن نفسه قد شغفها حباً ، كان الحسن يقول : لو شغفها لماتت ؛ لأن الشغاف الحجاب ، وهو سويداء القلب ، فلو وصل الحب شغافها لماتت ، يقال : إن الشغاف الجلدة الملاصقة للكبد ، وهي جلدة بيضاء ، فلصق حبها بقلبها كالتصاق الجلدة بالكبد . وقال عكرمة ومجاهد : قد شغفها ، دخل حبه شغاف قلبها . وقال الضحاك : معناه هلكت عليه حباً . وقال السدي : الشغاف جلدة على القلب ، يقال لها : شغاف القلب ، ويقال : المحبة على ضربين : محبة تزيد بالقرب وتنقص بالبعد ، وصاحبها يملك أمره ويحكم سره . ومحبة خرقت حجاب الشغاف ، واستولت على عرش القلب ، وسرت في سر سويدائه ، فالعين تدمع ، والقلب يخشع ، والكبد يمزق ، والقدم يشطح ، واللسان ييوح ، وربما باح لسانه في موقف الحياء ، فيقتل بسيف الغيرة ، وقيل في المعنى :

مَنْ لَمْ تَكُنْ أَغْلَامُهُ وَأَضِيحُهُ فَلَوْعَةُ الْحُبِّ لَهُ فَاضِحُهُ
إِذَا الْهَوَى لَاحَ عَلَى عَارِفٍ قَطَعَهُ جَارِحَةٌ جَارِحُهُ

فاجتمعت نساء الملوك والقادة في مجلس فتذاكرن أمرها ، وأشعن خبرها ، وقلن ما أخبر الله عنهن : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٠] . أي في تيه وحيرة ، فبلغ ذلك زليخا ، وعظم عليها ، فأرادت أن تبين عذرها لهن به ، وقيل في المعنى :

أَحْبَابُ قَلْبِي مَا الْأَحْبَابُ غَيْرُكُمْ إِذَا اسْتَحَالَتْ مِنَ الْأَحْبَابِ أَحْوَالُ
كَمْ تَهْجُرُونَا بِلا ذَنْبٍ وَلَا سَبَبٍ وَتَزْعُمُونَ بِأَنَّ النَّاسَ قَدْ قَالُوا
لَا خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ سَكَنُوا مَا لَذَّةُ الْحُبِّ إِلَّا الْقِيلُ وَالْقَالَ

فصنعت صنيعاً ، وأرسلت إليهن رسلاً يدعوهن إلى ضيافتهما ، وهيات لهن مجلساً ، وقيل : دعت عشرة نسوة ذوات أزواج على هيئات الملوك ، وعشرة عذارى من بنات الملوك ، وجعلت بين يدي كل واحدة صفحة من عسل وأترجة وسكينا حاداً ، وقيل : دعت أربعين نسوة من بنات الملوك ، وهو قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا

سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأً ﴿يوسف: ٣١﴾ أي طعاماً وشراباً . وقال السدي : متكأ اتكأ عليه . وقال معمر بن المثنى : هي النمارق . وقال الضحاك : المتكأ كل شيء يقطع بالسكين مثل الموز والخيار ونحوه . وقال زيد : آتت كل واحدة منهن سكيناً وأترجة ، وجعلت بين أيديهن عسلاً ، فكنَّ يقطعن الأترج بأيديهن ، ويأكلن بالعسل ، فقالت لهن : ما حقي عليكم ؟ فقلن لها : أنت سيدتنا وكبيرتنا والمطاعة فينا نسمع لك ونطيع ، قالت : بحقي عليكم إذا خرج عليكم فتاي يوسف إلا ما قطعتن له مما في أيديكن ، وأعطيتهن يأكل ، فقلن لها : حباً وكرامة ، فأقبلت على يوسف ، وقالت : يا يوسف ، أطني اليوم واعصني أبداً ، قال : أما ما لم يكن فيه سخط ربي فلا أبالي ، فقالت له : دعني حتى أزينك وإن كنت مُزِيناً ، قال : اصنعي ما بدا لك ، فرصعت ذوائبه بالدر والياقوت ، وكللت جبينه بالجوهر ، وألبسته قباء أخضر ، ومنطقته بمنطقة من ذهب أحمر ، ووضعت على عاتقه منديلاً من السندس ، وكأساً من ذهب في يده ، وقالت : اخرج عليهن ، فلو رأين منك ما رأيت لذهلن عن أنفسهن ، ولتركن الطعام والشراب ولُمن أنفسهن كما لُمتني ، وقيل في المعنى :

يَا عَاذِلِينَ وَلَمْ يَرَوْا مَحْبُوبِي	رِقُوا لِقَلْبٍ وَإِلِهِ مَغْلُوبٌ
مَا عَذْلُكُمْ فِي الْحُبِّ عِنْدِي نَافِعٌ	لَيْسَ الْمَخْيِرُ فِيهِ كَالْمَغْلُوبِ
أَنَا قَدْ خَرَجْتُ عَنِ الْعَتَابِ وَسَمِعِهِ	وَحَلَعْتُ طَوْقَ تَعْرِضِي لِحَبِيبِي
وَلَبِسْتُ ثَوْبَ تَذَلُّلِي لِجَلَالِهِ	وَفَنَيْتُ عَنْ بُعْدِي وَعَنْ تَقَرُّبِي
فَلَوْ أَنَّكُمْ أَبْصَرْتُمُوهُ عَذْرَتُكُمْ	وَعَجَبْتُمْ لِتَثَبِّتِ الْمَكْرُوبِ
مَلَكْتَ رِقِّي قَاتِلِي مُتَعَمِّدًا	فَنَعِمُ قَلْبِي ظَلٌّ فِي التَّعْذِيبِ

قال : فخرج عليهن ، وهن قعود ، يقطعن في الأترج ، فلما رأينه ظنن أنه صنم زليخا الذي تعبده ، وكن يسمعن به ، ويتمنين أن ينظرن إليه ، فلما بدا لهن يوسف أكبرنه ، أي أجللنه ، وصرن شبه السُّكَّارَى والخيارى من كثرة تعجبهن ، والإمعان في نظرهن إليه ، ورُمن أن يقطعن ما في أيديهن ، كما شرطت زليخا عليهن ، فصرن يقطعن أيديهن ، فصارت الدماء تسيل في حجورهن ، وهن لا يجدن ألم القطع ولا حدة السكاكين ولا وقوع الدم على الأجساد ويوسف ، يقول : ويجكن

ماذا تصنعن بأنفسكن ؟ إنما أنا عبد من عبيد ربي ، وزليخا تضحك مما تراه منهن من تقطع أيديهن وذهاب عقولهن ، فلما غاب عن عيونهن رجعن إلى أنفسهن ، فقالت لهن زليخا : ويحك ، من لحظة واحدة فعلتن بأنفسكن هذا ! وأنا منذ سبع سنين أقاسي منه ما أقاسي ، وأخدمه على أطراف البنان ، وهو لا يعيرني طرفة ولا يلتفت نحوي [فقلن] لها : « حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » [يوسف: ٣١] ، يعني ما هذا من الآدميين ، إن هو إلا ملك من ملائكة السماء مر بنا ، فقالت لهن : ما هذا الذي فعلتن بأنفسكن ، فلما رأين ما نزل بهن أدركهن الخجل ، وذكرن ما لهنها به ، وهو قوله تعالى : « قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فاستَعَصَمَ وَلَمَّا لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيْسَ جَنًّا وَلَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ » [يوسف: ٣٢] قيل : أقرت بأمرها لما رأت ما رأت من عذالها ، وقيل : فاستعصم ، يعني بربه ، فقلن : إنك لمعدورة ، فمُرِينَا نكلمه في أمرك ، ونوبخه في إعراضه عنك ، وقيل في المعنى :

يَا عَذْلِي إِنْ أَطَلْتُمْ فِي الْهَوَى عَذْلِي وَلَمْ تَرَوْا مُسْعِدًا مِنِّي فَحَلُولِي
كُفُّوا إِلَيَّ أَنْ تَرَوْا مَا قَدْ بُلِيَتْ بِهِ فَإِنْ وَجَدْتُمْ إِلَيَّ لَوْمِي فَلَوْمُونِي
ظَبْيٌ كَلِفْتُ بِهِ لَكِنْ يُكَلِّفُنِي مَا لَا أُطِيقُ فَيَسِينِي وَيُضْنِي
يَمُرُّ وَالْحُسْنُ يَدْعُونِي فَأَتَّبِعُهُ فَالْحُسْنُ يُغْرِيه وَالْأَشْوَاقُ تُغْرِينِي

فأذنت لهن في الخلوة به طمعاً في أن يُملنه إليها ، فجعلت كل واحدة منهن إذا خلّت به تدعوه إلى نفسها ، وتشكو إليه وجدها ، فقال يوسف : يا رب ، كانت واحدة ، فصرن جماعة : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » [يوسف: ٣٣] . عَدَّ السجن نعمة من الله عليه إذ هو سبب البعد منهن ، وقوله : أصبُ إليهن : من الصبوة ، وهي الميل إلى الأمر المكروه ، فاخترت السجن على صحبتهن ، واستغاث بربه في صرفهن عنه وبعدهن منه ، قال الله تعالى : « فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَ جَنَّةً حَتَّى حِينٍ » [يوسف: ٣٤، ٣٥] وقيل :

رَفَعَتْ قِصَّةَ أَشْوَاقِي وَأَشْجَانِي وَجِئْتُ نَحْوَكَ يَا مَنْ جَلَّ عَنْ ثَانِي

كَمْ رُمْتُ أُبْدِي مَا قَدْ حَلَّ فِي جَلْدِي أَنْتَ الْعَزِيزُ وَلِي ذُلٌّ وَمَسْكَنَةٌ
أَنْتَ الْقَرِيبُ وَبَدَلُ الرُّوحِ قُرْبَانِي رَضِيتُ بِالسَّجْنِ فِي نَيْلِي رِضَاكَ وَمَا
أَعْيَا بِمَا نَالَنِي إِنْ كُنْتَ تَرْضَانِي قَالَ الْعَوَازِلُ أَقْلِلْ مِنْ تَذَكُّرِهِ
وَكَيْفَ أَنْسَى حَبِيبًا لَيْسَ يَنْسَانِي أَصْدُ عَنْهُ فَيُذِنِنِي عَلَى عَلَلِي
نَعَمْ وَيَمْنَحُنِي لُطْفًا وَيَرْعَانِي إِذَا سَأَلْتُ سِوَاهُ صَدَنِي وَإِذَا
نَادَيْتُهُ بِخَفِيِّ الْوَهْمِ لَبَّانِي فَكَيْفَ يَسْأَلُو فُؤَادِي عَنْ مَحَبَّتِهِ
لَهُ الْبَقَاءُ وَكُلُّ هَالِكٍ فَانِي

يا متصرفون في إطلاق الأبصار ، جاء توقيع العدل ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَنْبَارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] ، إطلاق البصر ينقش في القلب صورة المحبوب ، والقلب بيت ويسعني ، وما يرضى المعبود مزاحمة الأصنام ، واعجبا لزيحها أمكنها أن ترى محبوبها يوم ﴿ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف: ٣١] ، فكيف يصنع محب الخلق وهو لا يقدر أن يري العذال ما رأى ، ما رأى ليلي على الحقيقة إلا قيس المحبوب ، ولو رآها مَنْ عذل عذر ، وقيل في المعنى :

وَهَوَى الْأَحِبَّةِ مِنْهُ فِي سَوْدَائِهِ عَذَلَ الْعَوَازِلُ حَوْلَ قَلْبٍ تَائِهِ
إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ أَأَحِبُّهُ وَأُحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً
قَسَمًا بِهِ وَبِحُسْنِهِ وَبِهَائِهِ فَوَ مَنْ أُحِبُّ لَأَعْصِيَنَّكَ فِي الْهَوَى
وَأَحَقُّ مِنْكَ بِخَفِيهِ وَبِمَا بِهِ الْقَلْبُ أَعْلَمُ يَا عَذُولُ بِدَائِهِ
حَتَّى تَكُونَ حَشَاكَ مِثْلَ حَشَائِهِ لَا تَعْدُلِ الْمُشْتَقَّ فِي أَشْوَاقِهِ
مِثْلَ الْقَتِيلِ مُضْمَخٍ بِدُمَائِهِ إِنَّ الْمُحِبَّ مُفَرَّجٌ بِدُمُوعِهِ

لما لعبت يد الأوامر وغاص سماء فلك فلك الإدارة في أبحر المقادر ، وأطلعت بدور الإيرادات في أفلاك سماء السعادات ، أظهرت مخبات عرائس الأسرار نفودها ، وأبرزت شواهد الإرادة مقصودها ، كُورت شمس الظهور ، فبدا من كمين الغيب ما كان مسطوراً ، أظهر جمال يوسف ريان أشرف وسط ميدان كنعان ، واستبان

طمع الإخوة في إخفاء من قد ظهر ، وأراد كلهم أن يغالب القدر فما قدر ، قصدوا أن يبألغوا في غمه ، وبرز البدر من سحيف سمائه وغيمه ، باعوه بأبخس ثمن ، وكلهم لا يعرف البيع لمن ليس له ناقد بصير فيعرفه ، وآفة التبر ضعف منتقده ، فضلت السيارة تستسقى وما علمت أن الدر تنتقى ، تدلي الدلو فلقف ، كأن يوسف الدر والدلو الصدف ، حمل إلى قصر المسرات ، أجلس على كرسي المبرات ، بسطت زليخا سُفرة الملاحظة ، صنعت بيادي المعارضة ، قدمت رخ دعواها ، ظنت أنه لا يبقى معها أحد سواها ، أوقفت خيول الإحسان ، أبرزت أفيال خدمتها في ذلك الميدان ، أبدلت شاه حبها بالفرزان ، امتدت من الصديق كف الاختيار ، قدم لرحبها بيارق الأخيار ، أجرى خيول صدقه في ميدان الخروج عن رق الأغيار ، كف عن شاه عزمها بفرزان مساعدة الأقدار ، صاح لسان الغلط في المكرمات ، وكان جواب جاءكم الحق شاه مات ، يا زليخا ، لا يصل كف عدوانك إليه ؛ لأننا حفظناه من خلفه ومن بين يديه ، ليس يبلغ عندنا مراد من نوى غيرنا بالوداد ، أنت واقفة موضع صورته وحسنه ، وهو يشاهد ما حصي لدينا من تأييده وصونه ، رُمت هلكته فقد أسعدناه ، وأردت خطه وقد رفعناه ، إن كان مرادك منه الدنو والتقريب فمرادنا منه العلو والتشبيب ، يا مَنْ رام غيرنا جهلت قدرنا ، يا مَنْ نقض عهدنا كل شئ لو عرفت ، إن رمت قربنا في دار ليس لها زوال ، فافتقد نفسك وتعال ، وقيل في المعنى :

دِنْتُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِّي فَلَكُمْ قَدْ رَأَيْتَ الْبِرَّ مِنِّي وَالْوَفَا
هَلْ تَرَى دُونِي مَنْ تَقْصِدُهُ فَالْتَفِتْ نَحْوِي وَدَعْ مَا سَلَفَا
أَنَا لَا أَرْضَى شَرِيكًا فِي الْوَرَى كُلُّ خَلْقٍ بِجَلَالِي اعْتَرَفَا
وَقُلُوبُ الْخَلْقِ طُرًّا بِيَدِي مِنِّي السُّقْمُ كَمَا مِنِّي الشِّفَا

(حكاية) كان في بني إسرائيل رجل من خيارهم قد اجتهد في العبادة لربه ، وزهد في دنياه ، وأزالها عن قلبه ، وكانت له زوجة مساعدة له في شأنه ، مطيعة له في كل زمانه ، وكانا يعيشان من عمل الطباقي و المراوح ، يعملان النهار كله ، فإذا كان عشي النهار ، خرج ويده مراوحٌ يمشي بها في الأزقة والطرق يلتمس من يبيع له ذلك ، وكانا يديمان الصوم ، فأصبحا في يوم من الأيام صائمين ، فعملا يومهما ذلك ، فلما كان عشي النهار خرج ويده تلك المراوح يطلب من يشتريها ، فمر بباب من أبواب بني الدنيا وأهل الرفاهية والجاه ، وصاحب الدار غائب ، وكان

العابد وضئ الوجه وحسن الصورة ، فرأته امرأة صاحب الدار فتعشقت به ، ومال قلبها إليه ميلاً شديداً ، وكان زوجها غائباً فدعت خادمتها ، وقالت لها : لعلك أن تحيلني لي في دخول هذا الرجل عندنا هذه الليلة ، فإني قد ملتُ إليه بكلبيتي ، قال فخرجتُ الجارية إليه ودعته لأن تشتريَ منه ما بيده ، وردته من طريقه ، وقالت له : ادخل واقعد في الأسطوان ، فإن سيدي تريد أن تتخيرهُ وتنظرُ إليه ، فتخيل للرجل أنها صادقة في قولها ، ولم تُرد بذلك بأساً ، فدخل الأسطوان ، فلما دخل فيه أغلقت الجارية الباب ، وخرجت سيدها ، فجذبت الرجل بشيابه وأدخلته كرهاً ، وقالت له : إلى كم أطلب أن أخلو بك وقد عيل صبري من أجلك ، وهذا البيت متخذ ، والطعام محتضر ، وصاحب البيت غائب في هذه الليلة ، وأنا قد وهبت نفسي لك ، وكم طلبني من الملوك والرؤساء ، وأصحاب الدنانير ، فلم أملُ إلى أحد منهم ، وقالت وزادت ونقصت ، والرجل لا يرفع رأسه حياء من الله تعالى وخوفاً من عقابه ، وقيل في المعنى :

وَرُبَّ كَبِيرَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ رُكُوبِهَا إِلَّا الْحَيَاءُ
فَكَانَ هُوَ الدَّوَاءَ لَهَا وَلَكِنْ إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ فَلَا دَوَاءَ

فعالج أن ينفلت منها بنفسه فلم يقدر على ذلك ، فقال : أريد منك شيئاً ، قالت : وما هو ؟ قال : أريد ماء طاهراً ، وأصعد به إلى أعلى موضع في دارك أقضي به أمراً ، وأغسل به درناً لا يمكنني أن أطلعك عليه ، فقالت : الدار متسعة ، ولها خبايا وزوايا ، وبيت مطهرة معد ، قال ما غرضي إلا الارتفاع ، فقالت لخادمتها : اصعدي به إلى المنطرة العليا من الدار ، قال : فصعدت به إلى أعلى موضع في الدار ، ودفعت له الإناء بالماء ، ونزلت عنه ، فتوضأ وضوءاً جيداً ، وصلى ركعتين أتم ركوعهما وسجودهما ، ثم علا على سطح المنطرة ، ونظر إلى الأرض فرآها بعيدة ، فخاف أن لا يصل إلى الأرض إلا وقد تمزقت أشلاؤه ، ثم تفكر في معصية الله وعذابه وأليم عقابه ، فهانت بذلك عليه نفسه ، وسفك دمه ، وقال : إلهي وسيدي ، ترى ما نزل بي ، ولا يخفى عليك حالي ، وبذل نفسي في رضاك يسير ، وأنت على كل شيء قدير ، وقيل :

أَشَارَ الْقَلْبُ نَحْوَكَ وَالْضَّمِيرُ وَسِرُّ السِّرِّ أَتَتْ بِهِ خَبِيرُ
وَأَنِّي إِنْ نَطَقْتُ بِكُمْ أَنَادِي وَفِي وَقْتِ السُّكُونِ لَكُمْ أَشِيرُ

أَيَا مَنْ لَا يُضَافُ إِلَيْهِ ثَانٍ أَتَاكَ الْوَالَهُ الصَّبُّ الْفَقِيرُ
وَلِي أَمَلٌ تُحَقِّقُهُ ظُنُونِي وَلِي قَلْبٌ كَمَا تَدْرِي يَطِيرُ
وَبَذَلُ النَّفْسِ أَصْعَبُ مَا يُلَاقِي فَإِنْ تَرْضَى بِهَا فَهُوَ الْيَسِيرُ
وَإِنْ تُنْجِي وَتَمْنَحْنِي خَلَاصِي فَأَنْتَ عَلَيْهِ يَا أَمَلِي قَدِيرُ

قال : ثم رمى بنفسه من أعلى المنظرة ، فبعث الله ملكاً التفقه بجناحه ، وأنزله سالماً دون أن يناله شيء يؤذيه ، فلما حصل الأرض سالماً حمد الله تعالى على ما أولاه من عصمته ، وأناله من رحمته ، وسار دون شيء إلى زوجته ، وكان قد أبطأ عليها ، فلما دخل عليها ، سأله عن بطئه وعما خرج به في يده ، وما فعل به ، وكيف رجع دون شيء ، فأخبرها عما عرض له من الفتنة ، وكيف رمى بنفسه ، فأبجاه الله من ذلك الموضع ، فقالت : الحمد لله الذي صرف عنك الحنة ، وأزال عنك الفتنة ، ثم قالت : إن الجيران قد تعودوا منا أن نضرم تنورنا في كل ليلة ، فإن رأونا الليلة دون نار علموا أننا دون شيء ، ومن شكر الله تعالى كنتم ما نحن فيه من الخصاصة ، وواصل صوم هذه الليلة باليوم الماضي وقيامهما لله تعالى ، ثم قامت إلى التنور ، فأضرمت ناراً لتغالط الجيران ، وقيل في المعنى :

سَأَكْتُمُ مَا بِي مِنْ غَرَامِي وَأَشْجَانِي وَأُضْرِمُ نَارِي كَيْ أَغَالِطَ جِيرَانِي
وَأَرْضَى بِمَا أَمْضَى مِنَ الْحُكْمِ سَيِّدِي عَسَاهُ يَرَى ذُلِّي لَدَيْهِ فَيَرْضَانِي
أَبْؤُلُمْنِي جَوْعٌ وَقُوْتِي ذِكْرُهُ وَيَرْهَنُنِي ضَجْرٌ وَبِالصَّبْرِ أَوْصَانِي
فَقَمُّ لِنُؤْدِي شُكْرُ مَا قَدْ أَنَا لَنَا فَأَعْظَمُ مِنِّي لَوْ تَرَى صَرْفُ عِصْيَانِي
وَمَا يَفْعَلُ الْمَوْلَى هُوَ الْخَيْرُ كُلُّهُ وَيَا رَبِّ مَتَّعْ طَبِيحَهُ كُلَّ إِحْسَانِ

قال : فتوضأ جميعاً ، ثم قاما إلى الصلاة ؛ فإذا امرأة من جيرانها تستأذنها في أن توقد من نارها فقالت لها المرأة : شألك والتنور ، فلما دنت من التنور نادى : يا فلانة ، أدركي خبزك قبل أن يحترق ، فقالت لزوجها : أسمعت ما تقول هذه المرأة ؟ فقال : قومي وانظري ، فقامت المرأة إلى التنور ؛ فإذا به قد امتلأ خبزاً أبيض نقياً ، فأخذت الأربعة ، ودخلت إلى زوجها وهي تشكر الله تعالى على ما أولاهما من الخير العميم والمن الجسيم ، فأكلا من الخبز ، وشربا من الماء ، وشكرا الله تعالى ،

ثم قالت المرأة لزوجها : ادع ربنا أن يمن علينا بشيء نستعين به على كد العيش وتعب العمل ، ويعيننا به على عبادته والقيام بطاعته ، فقال : نعم ، ثم دعا الله عز وجل ، وأمنت المرأة على دعائه ، فإذا بسقف البيت قد انشق ، ونزلت ياقوتة أضواء لها البيت من النور ، فزاد الله تعالى ذكراً وشكراً ، وسراً بتلك الياقوتة سروراً عظيماً ، وصلياً ما شاء الله ، فلما كان في آخر الليل ناما ، فرأت المرأة كأنها دخلت الجنة ، ورأت منابر كثيرة مصفوفة وكراسي موضونة ، فقالت : ما هذه المنابر ؟ قيل لها : منابر الأنبياء ، قالت : فما هذه الكراسي ؟ قيل لها : كراسي الصديقين و الصالحين ، قالت : وأين كرسي زوجي فلان ؟ فقيل لها : هو هذا ، فنظرت فإذا هو في جانبه ثلثة ، فقالت : وما هذه الثلثة ؟ فقيل لها : هي الياقوتة التي نزلت عليكم من سقف بيتكما ، فانتبهت المرأة من نومها وهي باكية حزينة على نقص كرسي زوجها وثلثه من بين كراسي الصديقين ، فقالت : أيها الرجل ، ادع ربك أن يردها إلى موضعها ، فمكابدة الجوع والمسكة في الأيام القلائل أهون علي من ثلم كرسيك بين أصحاب الفضائل ، قال : فدعا الرجل ربه ، فإذا الياقوتة قد طارت إلى السقف وهما ينظران إليها ، وما زالا على فقرهما وكثرة عبادتهما حتى لقيا الله تعالى ، وقيل في المعنى :

يَا مُعْرِضاً عَنَّا يَصُدُّ وَيُعْرِضُ	هَلَا إِلَى نَفَحَاتِنَا تَتَعَرَّضُ
إِنْ كَانَ أَعْيَاكَ السَّقَامُ وَطَيْهُ	فَالْجَأُ إِلَيَّ أَنَا الطَّبِيبُ الْمُمْرِضُ
أَوْ لَيْسَ قَدْ رَأَيْتَ جَنَاحَكَ أَنْعَمَ	مَنَا فَمَا لَكَ نَحْوَنَا لَا تَنْهَضُ
وَلَقَدْ شَهَرْتَ بِحَلِّ نَقْضِ عُهُودِنَا	كَمْ ذَا تُعَاهِدُ بِالْوَفَاءِ وَتَنْقُضُ
أَنْزِلْ بِسَاحَتِنَا وَلُذْ بِجَنَابِنَا	فَنَزِيلُ سَاحَةِ رَبِّنَا لَا يُرْفَضُ
مَا حَلَّ سَاحَتَنَا أَنْاسٌ أَعْرَضُوا	عَنَّا وَلَا ذُوا بِالرِّضَا إِلَّا رَضُوا
سَبْقُوكَ فِيمَا تَدَّعِيهِ وَكَابَدُوا	كَدُوا الْمَطَايَا نَحْوَنَا وَتَقَوَّضُوا
وَرَضِيَتْ وَيَحْكُ حَالَةً لَا تُرْتَضَى	فَصَحِيفَةٌ سَوْدَا وَشَيْبٌ أَيْبُضُ
فَهُمُ الْكَرَامُ فَنَادِ فِي عَرَصَاتِهِمْ :	أَضْحَى بِبَابِكُمُ الْمَرِيضُ فَمَرَضُوا

تاب الله علينا أجمعين ، وجنّبنا موارد الظالمين ، وأدخلنا برحمته في عباد الصالحين ، والحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

المجلس الثامن

في قوله تبارك وتعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١] .

الحمد لله منشي أصناف الفطر ، ومحبي الأرض بوابل المطر ، مقدّر النفع والضرر ومصور الأنثى والذكر ، الذي علا فقهر ، وعبد فشكر ، وعصى فغفر ، واطلع على الذنوب والمعاصي فستر ، وأخرج جواهر الأسرار من قعر بحر ظلمات الفكر ، وجعل لكل نبأ مستقر ، الكريم الذي يقبل الجاني إذا رجع إليه واعتذر ، يتزل إلى السماء الدنيا في كل ليلة ، فيقول : هل من تائب ؟ هل من راغب ؟ كما جاء في الخبر ، ونزوله نزول من فضل وإحسان لا كترول الأجسام والصّور ، خلق آدم من تراب ، وجعله أبا البشر ، وأبرز من صُلبه النبيين والمرسلين ، وخصهم بسابقة القدر ، وصير محمداً ﷺ آخرهم في الخلق ، وأولهم في السبق ، فبان فضله بذلك وظهر ، وأرسله رحمة لمن آمن ونقمة على من كفر ، وأيّده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة والعبير ، فكلما أبدى آية قال المشركون : كذب وسحر ، ولقد قسم غنيمة فقال بعض المنافقين لمن شهدها وحضر : والله ، ما أراد بذئ القسمة وجه الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : قد أُوذِيَ أخِي موسى بأكثر من هذا فصبر ، وهم الذين وصفهم الله في كتابه العزيز الذي نهي فيه وأمر ، فقال تعالى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : ١، ٢] . أحمدته حمداً كثيراً في الورود والصدّر ، وأشكره شكراً يبدني الأمل

ويقرب الوطر ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أنجو بها من سقر ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحيبيه وخليله الذي حن له الجذع وكلمه الحجر ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه السادة الغرر ، صلاة تدوم وتقوم ما شرد ظلي ونفر ، وانصدع فجر وأسفر ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل في المعنى :

إِنَّ الْقُلُوبَ لَهَا عَيُونٌ تَنْظُرُ	فَبِهَا الْمُطِيعُ يَرَى الرَّشَادَ وَيُصِيرُ
فَإِذَا عَلَاهَا الْآنَ أَذْهَبَ نُورُهَا	وَعَدَتْ بِظُلْمَةٍ جَهْلَهَا تَنْحِيرُ
وَلَرُبَّ ذِي بَصَرٍ صَحِيحِ قَلْبُهُ	أَعْمَى فَرُبَّعِ الصَّدْرِ مِنْهُ مُقْفِرُ
فَتَرَاهُ حَيًّا إِنْ بَدَأَ وَفُؤَادُهُ	مِنْ كَثَرَةِ الْعَقَلَاتِ مَيِّتٌ مُقْبِرُ

فَالْجَذْعُ حَنَّ لِبُعْدِهِ وَفِرَاقِهِ وَشَكَا إِلَيْهِ الْجَيْشُ مِنْ فَرْطِ الظَّمَا
وَالذَّئِبُ يَنْطِقُ وَالظَّبَا تَأْتِي لَهُ وَأُولُو الضَّلَالَةِ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ
وَإِذَا تَبَدَّتْ آيَةٌ قَالُوا لِمَنْ وَيَجِيءُ سَلْمَانُ الْبَعِيدَةُ دَارُهُ
وَصُهَيْبٌ وَالثَّقَفِيُّ لَا تَنْسَاهُمَا وَالْعَمُّ يَكْفُلُهُ وَيَأْبَى دِينُهُ
وَجَدًّا وَشَقَّ لَهُ الْهَلَالُ الْمُقْمَرُ فَإِذَا الْأَصَابِعُ مَاؤُهَا يَتَفَجَّرُ
وَالْوَحْشُ وَالْأَنْعَامُ عَنْهُ تُخْبِرُ طُرًّا جَمِيعُهُمْ يَصُدُّ وَيُنْكِرُ
وَالْأَهْمُ هَذَا مُحَمَّدٌ يَسْحَرُ وَكَذَلِكَ شُقْرَانُ الْغَرِيبُ الْمُفْهَرُ
كُلُّهُ يُوَحِّدُ رَبَّهُ وَيُكَبِّرُ فَيَمُوتُ وَهُوَ بِمَنْ يَرَاهُ يَكْفُرُ

قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] الآيات ، الاقتراب في القرآن على ثمانية أقسام :

أولها : قرب الإجابة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

الثاني : قرب العصمة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

الثالث : قرب المنة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ [الواقعة : ٨٥] .

الرابع : قرب الوعد ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ [الأنبياء : ٩٧] .

الخامس : قرب السؤال ، وهو قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : ١] .

السادس : قرب الإجابة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [العلق : ١٩] .

السابع : قرب الرحمة ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

الثامن : قرب الساعة ، وهو قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾

[القمر : ١] ، بَعَثُ النبي ﷺ من علامات الساعة ، وانشقاق القمر من علامات الساعة ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : « سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يُريهم آية ، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراءَ بينهما » ، ذكره مسلم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين : فلقاً فوق الجبل ، وفلقاً دونه ، فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا » ، ذكره البخاري . وفي طريق أخرى أن المشركين لما رأوا ذلك منه ، قالوا : إن محمداً سحر أعينكم ، فاسألوا غداً من يردُ عليكم من البلاد : هل رأوا من القمر ما رأينا ، فلما كان من الغد استقبلوا الركبان ، فسألوهم عما كان ، فأخبروهم بانشقاق القمر ، فقالوا : هذا سحر مستمر ، فأنزل الله عز وجل ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : ١ ، ٢] . وقال علي كرم الله وجهه : لما

نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، قال لي رسول الله ﷺ : يا علي ، إن الله عز وجل قد أمرني أن أنذر العشيرة الأقربين ، فاصنع لنا يا علي شاة على صاع من طعام ، وأعد لي قعب لبن ، ثم اجمع لي بني عبد المطلب ، قال : ففعلت ، فاجتمعوا له وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً ، وكان فيهم عمه أبو طالب وحزرة العباس وأبو لهب ، فقدمت إليهم جفنة ، وأخذ الرسول ﷺ لحمة ففتتها بأسنانه ، ثم رماها في نواحيها ، ثم قال : كلوا باسم الله ، فأكل القوم حتى امتلأوا ، والله ، ما يرى إلا آثار أصابعهم ، وإني والله ، إن الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال : اسقهم يا علي ، فجئت بالقعب ، فشربوا منه حتى امتلأوا جميعهم ، وإني والله إن الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد النبي ﷺ الكلام بادرهم أبو لهب ، وقال : ويحكم ، أما ترون صاحبكم كيف سحركم ؟ فتفرقوا عنه قبل أن يكلمهم ؛ فلما كان من الغد قال : يا علي ، أعد لنا ما صنعت بالأمس من الطعام والشراب ، فإن هذا قد بدرني بالكلام قبل أن أكلم القوم ، قال : فجمعتهم وفعلت لهم كما فعلت بالأمس ، فأكلوا حتى امتلأوا جميعاً منه ، ثم سقيتهم فشربوا من ذلك القعب حتى امتلأوا منه جميعاً ، وإني والله ، إن الرجل ليأكل مثلها ويشرب مثلها ، ثم قال رسول الله ﷺ : « إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به من أمور الدنيا والآخرة ، قال : فتفرقوا عنه ، ولم يقبلوا منه شيئاً » . وذكر ابن إسحاق في كتابه وغيره أنه كان

بمكة رجل شديد القوة يحسن الصراع ، وكان الناس يأتونه من البلاد للمصارعة فيصرعهم ، قال : فبينما هو ذات يوم في شعب من شعاب مكة إذ لقيه رسول الله ﷺ فقال له : يا ركانة ، اتق الله ، واقبل ما أدعوك إليه ، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً يدعوهُ إلى الله تعالى ، فقال له ركانة : يا محمد ، هل من شاهد يدل على صدقك ؟ قال : أرأيت إن صرعتك أتؤمن بالله ورسوله ؟ قال : نعم يا محمد ، ثمياً للمصارعة ، قال : قد ثقيأت ، ثم دنا من رسول الله ﷺ ، فأخذه النبي ﷺ فصرعه ، فتعجب ركانة من ذلك ، ثم سأله الإقالة ولا عودة ، ففعل به ذلك ثانياً وثالثاً ، فوقف ركانة متعجباً ، وقال : يا محمد ، إن شأنك لعجيب ، فقال له النبي ﷺ : أتريد أن أريك ما هو أعجب من هذا ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : أدعو تلك الشجرة ، وأشار إلى شجرة قريبة منهما حتى تقبل إلي ، وتشهد لي بالرسالة ، قال : افعل ، فأومأ رسول الله ﷺ إلى الشجرة ، ثم قال : أيتها الشجرة ، أقبلي إلي ، قال : فجعلت الشجرة تخط الأرض خطاً مستوياً كأن سائقاً يسوقها ، وأصولها تتقطع من الأرض حتى وقفت بين يديه ، وركانة ينظر إليها ، فقال لها النبي ﷺ : أيتها الشجرة ، من أنا ؟ فقالت : أنت رسول الله ﷺ ، فلما سمع ركانة ذلك ولى مدبراً ، ثم أتى قريشاً وهم في ظل الكعبة ، وقال : يا معشر قريش ، سآحروا بصاحبكم أهل الأرض ، فما رأيت أسحر منه^(١) . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : مرض أبو طالب عم النبي ﷺ فقال : يا ابن أخي ، ادع ربك الذي تعبد أن يعافيني ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم ، اشف عمي ، فقام كأنما نشط من عقال ، فقال : يا ابن أخي ، إن إلهك الذي تعبد ليطيعك ، قال : وأنت يا عم لو أطعت الله لأطاعك . وقيل : لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم ضجت جبال الدنيا بالتسبيح حتى سمع الناس تسبيحها ، فقالت قريش سحر محمد الجبال ، وسمع رجل من ثقيف منادياً ينادي : أيها الناس ، ما قعودكم وقد بعث الله نبياً من ولد لؤي بن غالب ، اسمه محمد بن عبد الله ، فأخذ الرجل عشرة من النوق ، وأتى مكة ليدخل في الإسلام الذي سمعه ، فقالوا : وما سؤالك عنه ؟ فأخبرهم بما سمعه ، فقالوا : إنما هو صوت شيطان استهوى عليكم . والقصة معروفة ، وذكرها ابن سبع وغيره ، وفيها أن النبي ﷺ سار مع الثقيفي إلى باب أبي جهل ، وناداه : انزل إلي يا أبا جهل ، فترل إليه وقد اصفر لونه ، وتغير وجهه ، فقضى حاجته ، ودفع إليه ما

(١) وردت روايات أخرى تفيد أن ركانة هذا قد أسلم .

سأله، فلما علمت قريش بذلك ساروا إليه وعاتبوه ، فقال : والله ، إنه أتاني وأنا أنظر إليه فرأيت الأرض تُطوى له ، فقلت : هذا قليل في سحر محمد ، ثم دعاني فلم ألتفت إليه ، فإذا حسٌ خلفي ، فالتفت فإذا بثعبان قد ملأ البيت ، فقال لي : لئن لم تنزل إليه وتقضي حاجته ، وإلا ابتلعُك ، فزلتُ إليه مقهوراً ، أما واللات والعزى ، لو تأخرتُ لابتلعني . وقال جابر بن عبد الله : « قال أبو جهل في ملأ من قريش : قد شغلنا أمرُ محمد ، لو ابتغيتم رجلاً ممن يعلم السحر والكهانة يكلمه ويأتينا بأمره ، فقال عتبة بن ربيعة : والله ، لقد سمعتُ السحر والشعر والكهانة ، وعلمتُ من ذلك علماً ، وما يخفى عليّ أن أكون كذلك ، وسأتيه حتى أكلّمه ، قال : فأناه ، فلما خرج عليه النبي ﷺ قال له : يا محمد ، أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فلم تضلْ آبائنا وتشتُم أهلنا ؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك ألويتها ، فكنت رأساً ما بقيت ، وإن كان بك الباءة زوجناك عشر بنات من أي بنات قريش شئت ، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك أنت وعقبك من بعدك ، قال : ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم ، فلما فرغ عتبة من قوله ، قرأ رسول الله ﷺ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم ، تَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِلْ إِنَّا عَامِلُونَ ، قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ، قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَاتَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، فَإِنْ أَغْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾

فأمسك عتبة على فيه ، وناشده بالرحم أن يسكت فسكت ، ورجع عتبة إلى منزله فلم يخرج ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، ما نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا بنا إليه ؛ قال : فلما ساروا إليه خرج عليهم ، فقال أبو جهل : يا عتبة ، أظنك إلا قد صبوت مع محمد ، وأعجبك أمره ، قال : فغضب عتبة لذلك ، وقال : والله ، لا كلمتُ محمداً أبداً ، ولقد علمتُم نصحي ورغبتي عنه ، ولكني أتيتُه فكلمتُه ، فقرأ عليّ كلاماً ما هو والله بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة ، وقرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ حم ، تَزِيلُ مِّنَ الرِّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ إلى قوله : صَاعِقَةٌ مِّثْلُ صَاعِقَةِ عَادَ وَثُمُودَ ﴾ ، فأمسكُ على فيه ، وناشدته بالرحم أن يسكت ، ولقد علمتُم أنه ما قال شيئاً إلا صدق في قوله ، فخفتُ أن يترل بكم العذاب» ^(١) ، وقيل في المعنى :

عَمَتِ الْقُلُوبُ وَضَلَّتِ الْأَحْلَامُ	وَجَرَى الْقَضَاءُ وَحَفَّتِ الْأَقْلَامُ
وَدَعَا إِلَىٰ إِنْعَامِهِ مَوْلَاهُمْ	فَإِذَا هُمْ يَا وَيْحَهُمُ أَنْعَامُ
مَهْمَا أَتَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا : لَقَدْ	سَحَرَ الْعُيُونَ فَقَوْلُهُ أَوْهَامُ
وَلَقَدْ رَأَوْا أَنَّ الْحَقِيقَةَ قَوْلُهُ	لَكِنَّهُمْ عِنْدَ التَّيَقُّظِ نَامُوا
هِيَئَاتَ يَجْرِي الطَّرْفَ وَهُوَ مُقَيَّدٌ	إِنَّ الدُّنُوَّ عَلَى الْبَغِيضِ حَرَامُ
حَرَصَ الرَّسُولُ عَلَى هُدَاهُمْ وَالَّذِي	يَهْدِيهِمْ مِنْهُ جَرَتْ أَحْكَامُ
إِنَّ الْجَمِيعَ إِلَى الْعَذَابِ مَصِيرُهُمْ	وَلَهُمْ أُعِدَّتْ فِي السَّعِيرِ ضِرَامُ

إخواني ، سابقةُ القدر قضت لقوم بجز سبقت لهم منا الحسنى ، وعلى قوم بذل غلبت علينا شقوتنا ، نورَّت قلوب الجن فقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ [الجن : ١] ، وعميت أبصار قريش فـ ﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل : ٢٤] ، إذا هوت صوارم القدر تقلقلت رقاب المقرين ، غضب على قوم فلم تنفعهم الحسنات ، ورضي على آخرين فلم تضرهم السيئات ، ما نفعت عبادة بلعام ، ولا ضر عناد السحرة ، هبت عواصفُ الأقدار بيد الأكوان فقيدت الوجود ، فلما

ركدت الريحُ إذا أبو طالب غريقٌ في لُجَّةِ الهلاك ، وسَلَمَانُ على ساحل السلامة ، سبق التدبير ، ونفذ الحكم من القدير ، وجرت القسمة ، وفريقٌ في الجنة ، وفريقٌ في السعير ؛ لو كان الأمر أنفًا لامتدت الأطماع إلى الجبل ، وضروبُ المكاييد في العمل ، لكن الطامة الكبرى ارتبطت الأمر بمشيئة مَنْ لا يبالي « هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي » ، ميزت الجنُ القرآنَ ، وأنكرته قريش ، من أثر القعود في البيت لم يكن له حظ في الغنيمة ، إنما يعالج الرمد لا الكمد ، سبقت السعادة لسيدنا محمد ﷺ ، ومضت الشقاوة لأبي جهل قبل وجوده ، خوفُ العارفين من سوابق الأقدار ، قلقل الأرواح هيئته ، أنكرت قريش القرآن ، وكانوا نَقْدَةَ الكلام وصِيَارَفَةَ البلاغة ؛ هذا ، وقد ظهر عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله ، رضوا بقتل الأنفس وسي الذراري والخروج عن الأوطان ، ولم يقدرُوا على الإتيان بذلك ، وميزته الجن في الحين والوقت لما قررت قلوبهم الشقاوة الكبرى شقاوة لا سعادة بعدها خلود في النار ألف سنة ، من كان حظه الخيبة من الوصال طبع على أقبح الخصال ، لما طلعت الشمسُ قال الخفاش لأهله : أسرجوا القنديل ، فقد انسدت الظلمة ، فقالوا له : الآن طلعت الشمسُ ، فقالوا : ارحموا من النهار عنده ليل ، وقيل في المعنى :

وإِنَّ نَهَارِي لَيْلَةٌ مُدْلِهَةٌ وَلَيْلِي سُهَادٌ كُلُّهُ وَعَوِيلٌ
إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُرْسَلٌ فَرِيحُ الصَّبَا مِنِّي إِلَيْكَ رَسُولٌ
فَمَا كُلُّ حِينٍ لِي إِلَيْكَ تَوْصِلُ وَلَا كُلُّ وَقْتٍ لِي عَلَيْكَ دُخُولٌ

واعلم أن القلب إذا عمي لم يُفدَ نظرُ العين ؛ أما سمعت أصحاب النار حين قالوا : « لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ » [الملك: ١٠] . وكانوا يَرَوْنَ الآيات ، ويسمعون الأصوات ، ولكنهم أحياء كالأموات ؛ ألا ترى أن يوسف عليه السلام حين بدت له الآيات العظام لم يُفدَ ذلك عند اللثام ، قال تعالى : « ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُؤْنُهُ حَتَّى حِينٍ » [يوسف: ٣٥] . قيل : رؤية الآيات هي شق القميص من دُبر ، ونطق الصبي في المهد ، ومن الآيات بلوغ ثمنه في وقت البيع إلى مالا غاية له ، لكنهم أعرضوا عن هذه الآيات كلها وأبوا إلا أن يسجن مع علمهم أنه لا يستحق السجن ، وهذا دأب الآدمي : يرى

الآيات ويعرض عنها ، قال الله تعالى ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥] ؛ وذلك أن زليخا لما يئست من يوسف عليه السلام قالت لزوجها : إن هذا الغلام فضحني بين الناس ، ونكس رأسي بين نظرائي ، وقد شاع خبري وخبره في مصر ، ولا براءة لي عندهم إلا أن أحبسه في السجن ، فقال لها زوجها : لا يحبسه إلا الملك الريان بن الوليد ، وكان مراده بذلك أن يخرج أمره من يديها ؛ لأنه إذا كان أمره بيدها ، فربما حنت عليه وأخرجته ، فلبست ثيابها وجعلت تاجها على رأسها وأقبلت حتى أتت الريان بن الوليد ، وكان في بيته الأعظم ، وهو بيت من الحديد والثحاس ، مُرْصَع بالدر والجواهر ، وكان إذا أراد أحد الدخول إليه ينظر إليه الملك من الكوة قبل أن يدخل عليه ، فلما رأى زليخا مقبلة استوى جالسا وأمر الغلمان أن تفتح الأبواب ، ففتحوها لها ، وكانت ذات قَدْرٍ عظيم عنده ، وكانت مطاعة إذا أمرت ؛ لأنها كانت من بنات الملوك ، فلما دخلت على الملك خرت له ساجدة ، فقال لها الملك ارفعي رأسك ، فأنت المقربة الرضية ، وحاجتك عندي مقضية ، فرفعت رأسها إليه وأخذت في الثناء عليه ؛ لأن من آداب السؤال الثناء على المولى ، وقيل في المعنى :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُقْضَى إِلَيْكَ الْحَوَائِجُ وَتَلَسَّاحَ يَا هَذَا إِلَيْكَ الْمَنَاهِجُ
فَخُذْ فِي الثَّنَا وَاخْضَعْ إِلَى مَنْ لَهُ الْغِنَى فَمَوْلَاكَ يَا مِسْكِينَ لِلْكَرْبِ فَارْجُ
أَتُشْنِي عَلَى الْمَخْلُوقِ وَهُوَ بِضِدِّ مَا تَقُولُ لَقَدْ سُدَّتْ عَلَيْكَ الْمَخَارِجُ
وَتَتَرَكُ مَنْ أَوْلَى لَهُ الْحَمْدُ وَالثَّنَا وَتُعْرِجُ بِالشُّكْوَى إِلَيْهِ الْمَعَارِجُ

فقالت زليخا : أيها الملك ، دام لك العز والبقاء ، وألبست ثوب النعمة والرخاء ، لم تنزل لي مكرماً ، وإلى حوائجي مسرعاً ، وأن عبدي العبراني قد استعصى عليّ ، وأحب أن تأذن لي في حبسه في سجن المجرمين حتى يتأدب ولو بعد حين ، فقال لها : قد جعلت أمر السجن بيدك فانطلقني فأطلقني مَنْ شئت ، واحبسي مَنْ شئت فأخذتُ إذنه ، ورجعتُ إلى منزلها ، وأمرت بإحضار الحدادين إليها فمثلوا بين يديها ، فقالت لهم : إني أريد أن تصنعوا لي قيداً محكماً لعبدي يوسف العبراني ، فقالوا : أيتها الملكة المطاعة في أمرها ، والعظيمة في قومها ، إنا نرى بدننا ناعماً ، وساقاً رقيقاً ، ووجهاً أنيقاً ، ولا يخفى أنه ربي في نعمة شاملة ، وعافية كاملة ، وكيف يقوى هذا على ثقل الحديد ، وثقاف التقيد ، فقالت : قيدوه ولا بد ، فقال

يوسف عليه السلام للحدادين : افعلوا ما أمرتكم به ، فإنني من أهل بيت البلاء ، فقيدوه وحملوه على الأكتاف ، وانطلقوا به إلى السجن ، وتسامع الناس به ، فأقبلوا إليه من كل مكان ، وصعدوا على الجدران ، وامتألت الطرق ، فلما كثر نظر الناس إليه ، نكس رأسه ، وألقى يده على صدره ، والناس يقولون عصى سيدته الملكة ، وهو يقول : هذا خير من عصيان رب العالمين ، ومن مقاساة النيران وسراويل القطران بين حميم آن ، والناس يقولون : يا يوسف ، تركت بيت الرخاء والسرور والنعمة والحبور ، واخترت السجن ، لو اخترت القتل لكان أهون لك من هذا كله ، ويوسف يقول : اخترت ما اختاره الله لي إذا كان راضياً عني فلا أبالي ، وقيل في المعنى تخميس :

بِفِعْلِكَ عَيْنِي مَا حَيَّتْ قَرِيرَةٌ وَآيَاتُ صِدْقِي فِي هَوَاكَ شَهِيرَةٌ
وَإِحْنَاكَ ظَهْرِي وَالضُّلُوعُ مَسِيرَةٌ فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ
وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ

تَحَكَّمْ بِمَا تَرْضَى فَإِنِّي صَابِرُ وَمَالِي إِلَّا أَنْتَ مَوْلَى وَنَاصِرُ
يَهْوُونُ مَا أَلْقَاهُ أَنْتَ نَاطِرُ فَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرُ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

عَلَيَّ مَوَاتِيْقٌ تَشُدُّ وَتَاقِيَا فَكَيْفَ أَرَى بَيْنَ الْمُحِجِّينَ شَاكِيا
فَمَا أَغْدَبَ الْبُلُوى إِذَا كُنْتَ رَاضِيا وَيَا لَيْتَ شُرْبِي مِنْ وَدَادِكَ صَافِيا
وَشُرْبِي مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ سَرَابُ

بِعَيْنِكَ ذُلِّي فِي الْوُجُودِ وَغُرْبَتِي وَشَوْفِي وَتَوَفِّي وَانْفِرَادِي وَلَوْعَتِي
وَلِي مُقْلَةٌ لَوْ حَقَّقْتُ حَقَّ نَظْرَتِي لَنَلْتُ مُرَادِي فِي الْوُجُودِ وَبُعْثَتِي
وَكَيْفَ وَنَفْسِي دُونَ ذَاكَ حِجَابُ

أَخْفِي غَرَامِي وَهُوَ عِنْدَكَ بَيْنُ وَأَشْكُو سِقَامِي وَالِدَوَاءَ مُعِينُ
جَمِيعُ الْوَرَى كَوْنٌ وَأَنْتَ مُكُونُ إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيْنُ
وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ الثَّرَابِ ثُرَابُ

فلما وصلوا السجن قالوا : للسجان : خذ هذا الغلام ، واحبسه فإن سيدته غضبت عليه ، وأمرت أن يجبس في سجن المجرمين ، فأدخله السجان إلى السجن ، وأقعدته بين أهل الدعوات وأصحاب الكبائر والجنايات ، ودخل العزيز على زليخا ، فقال لها : ما فعلت بيوسف ؟ فقالت : قيدته وحبسته ، وكان مرادها أن تخرجه عن قريب ، فقال العزيز : أقسمت عليك بحرمة الملك الريان بن الوليد ورأسه إلا ما أبقيته في السجن ما دام الملك حياً ، فلم يمكنها إلا إبرار القسم ، وأدركها الندم ، ولم تجد عذراً تخرج به عن الذي فعلته ، وكانت تصعد إذا جن الليل إلى أعلى قصرها ، وتنظر إلى السجن وتبكي وتقول : حبيبي يوسف ، ليت شعري أنائم أنت أم يقظان ؟ ليت شعري أجاجع أنت أم شبعان ؟ وقيل في المعنى :

وَذُلُّ مَقَامِي فِي الْخَلِيطِ وَمَقْعَدِي	بِعَيْنِكَ يَوْمَ الْبَيْنِ عَهْدِي وَمَشْهَدِي
نَشَدْتُكُمْ فِي طَارِقٍ لَمْ يُزَوِّدْ	وَقَوْلِي وَقَدْ صَاحُوا بِهِ يَعْجَلُونَهُ
وَلَمْ يَذَرِ أَنَّ الْمَوْتَ مِنْهَا ضَحَى الْغَدِ	أَقَامَ بِكُمْ مُسْتَشْفِئًا بَعْضَ عِلَّةِ
عَلَى مُهْجَةٍ إِنْ لَمْ تَمُتْ فَكَأَنَّ قَدْ	أَعِنْدَكُمْ يَا قَائِلِينَ بَقِيَّةَ
بَقَاءِ تَهَامِي يَهِيْمُ بِمُنْجِدِ	وَيَا أَهْلَ نَجْدٍ كَيْفَ بِالْعَوْرِ عِنْدَكُمْ
عَلَى مُنْكَرٍ لَلذَّلِّ لَمْ يَتَعَوِّدْ	مَلَكْتُمْ عَزِيزًا رِقَّةً فَتَرَفُّقُوا
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا عَدِمْتُ تَجَلُّدِي	وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ الْفِرَاقَ يُرِيحُنِي
فَقُلْتُ : أَتَغْنِيْفُ وَلَمْ أَرِ مَسْعَدِي	وَعَنَّفَنِي سَعْدٌ عَلَى فَرْطٍ مَا رَأَى
فَقُلْتُ بِهَا نَفْسِي وَلَمْ أَتَعَمَّدِ	وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ عَجَلْتُ بِلَفْظَةٍ

فكانت زليخا لا تزال الليل كله تبكي وتنتحب حتى ينفجر الصباح وجداً عليه ، وشوقاً إليه ، وقد ألحها الغرام ، وخالطها الهيام ، وداخلها السقام ، وهجرها المنام ، وتعدّر على ناعتها إثباتها . وروى أنه مات من النسوة اللاتي رأين يوسف تسع نسوة شوقاً إليه ، ووجداً عليه ، فكانت زليخا لا تشكو إلا بذكره ، ولا تسأل إلا عن أمره ، وقيل :

أَضْنَى النَّوَى جَسَدِي وَالْحُبُّ أَفْئَانِي	يَا يُوسُفَ الْحُسْنِ صَلِّ يَعْقُوبَ حُزْنِكَ قَدْ
بِاللَّهِ قَصُّوا عَلَى السَّجَّانِ أَشْجَانِي	قَالَتْ زُلَيْخَا لِمَنْ قَدْ جَاءَ زَائِرُهَا

فَإِنْ وَصَلْتُمْ إِلَى مَنْ قَدْ عَلِقَتْ بِهِ فَخَبِّرُوهُ بِأَشْوَاقِي وَأَحْزَانِي
وَعَرِّفُوا قَلْبَ قَلْبِي أَنِّي دَنَفْتُ عَسَى يَرِقُّ لِقَلْبِي قَلْبِي الثَّانِي

فكان يوسف عليه السلام يطبُّ المسجونين ، ويؤنس المحزونين ، ويداوي المرضى ، ويرجّي القانطين ، حتى أحبه أهل السجن حبًّا شديدًا ، وأقبلوا عليه بكليتهم ، فلما انقضت الأربع سنين من سجنه ، أوحى الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام : انزل على عبيد يوسف بتعبير الرؤيا ، فإنني قد رحمته لغربته ، واستجبتُ دعاءه ، قال : فهبط عليه الأمين جبريل عليه السلام وقال : السلام عليك يا رأس الصديقين ، فقال : وعليك السلام يا أمين رب العالمين ، قال : افتح فاك ، وخذ ما أتخفك به مولاك ، قال : ففتح فاه ، فألقى جبريل عليه السلام في فيه لؤلؤة صفراء ، فلما استقرت في جوفه خرج من بين عينيه نور كالشمس يتشعشع^(١) ، فعلم في الوقت تعبیر الرؤيا جميعها بقدرة الله عز وجل من غير دراسة ولا تعليم ، فكان يعبر الرؤيا لأهل السجن ، فزادهم ذلك حبًّا له ، ووجدًا به ، حتى أحبه السجان ، ووسّع له في السجن ، وكان إذا خرج أحد من السجن يتمنى أن لا يكون يفارق يوسف ويعود إليه ، فقال له السجان : لقد أحبيتك حبًّا شديدًا ، فقال له يوسف : لا تفعل ، فاني أعوذ بالله من محبتك ، قد أحبني أبي ففعل بي إخواني ما فعلوا ، وأحببني سيدتي زليخا فكان من أمري ما تراه ، قال : ولم يزل في السجن حتى حبس الملك غلامين ، أحدهما طباحه ، والآخر صاحب شرابه ، فلبثا معه في السجن ، فكانا ينظران في تأدبه ، وحسن خلقه ، وتعبيره لرؤيا الناس ، فتمنى كل واحد منهما لو رأى رؤيا ، وكان كل واحد منهما يستعمل النوم لعله أن يرى شيئًا ، وقيل في المعنى :

رَأَيْتُكَ فِي الْمَنَامِ أَقَلَّ بُخْلًا وَأَجُودَ مِنْكَ فِي حَالِ الْقِيَامِ

فَأَغْمَضْتُ الْجُفُونَ عَسَى خَيَالٌ يُؤَافِي مِنْكَ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ

فَلَيْتَ الصُّبْحَ غَابَ فَلَا أَرَاهُ وَلَيْتَ الْفَجْرَ أَخَّرَ أَلْفَ عَامِ

فَلَوْ أَنَّ النَّعَاسَ يُبَاعُ بَيِّنًا لَعَلَّبْتُ النَّعَاسَ عَلَى الْأَنَامِ

فلما استحكمت المودة والمحبة ووقعت الموانسة نام الساقى ليلة ، فانتبه فرحاً

(١) هذه القصة فيها من الغرابة ما يؤكد إنها من الإسرائيليات .

مسروراً ، وقال للطباخ : يا أخي ، لقد رأيتُ رؤيا ، وأخبره بالرؤيا التي يأتي ذكرها ، فقال الطباخ : أما أنا فلم أرَ شيئاً ، لكن أبتدع رؤيا من عند نفسي ، فانطلق بنا إلى يوسف لنقصَّ عليه ما رأينا حتى يعبرها لنا ، ونعلم صدقه ، فأتياه وقعدا بين يديه ، فقال الساقى : يا يوسف ، إني رأيت في المنام كأن بين يديّ ثلاث طشوت من ذهب ، في كل طشت ثلاثة أصول من الكرم ، وعلى كل أصل ثلاثة عناقيد من العنب ، فأخذت العناقيد فعصرتها خمرًا ، وسقيت الخمر للملك الريان ابن الوليد ، وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف : ٣٦] ، فقال الآخر : وأنا أيضا رأيتُ كأن فوق رأسي ثلاثة تنانير من حديد ، مضرمة بنار ، فخبزتُ فيه خبزاً كثيراً ، وملأتُ منه ثلاث سلات ، وحملتهم على رأسي ، وكانت السلة الفوقانية مكشوفة ، والطير يسقط عليها من الهواء ، فيأكل من ذلك الخبز ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٣٦] أي بتعبير ما رأيناه من الرؤيا ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٣٦] ، يعني تحسن إلينا ، وتداوي أسقامنا ، نبئنا بتأويله ، أي بتعبير ما رأيناه من الرؤيا ؛ فلما سمع يوسف عليه السلام كلامهما طمع في إسلامهما ، فقدم من ذكر الله وشكره ما ينبه القلوب ، ويذكر العقول في الناسية ، فقال كما قال الله تعالى عنه : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ [يوسف : ٣٧] وذلك أنه أراد أن يُريهما من معجزاته ما يستدلان به على صدقه ونصحه فيما يدعوهما إليه ، فقال : لا يأتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا أَعْلَمْتُكُمَا بِهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكُمَا ، وما هو عليه من حارٍّ أو بارد ، أو حلو أو حامض ، أو قليل أو كثير ، ذلكما مما علمني ربي ، وكانا يظنان أن لا ربَّ إلا ملكهما ، فقالا : وَمَنْ رَبُّكَ ؟ وَمَنْ عَلَّمَكَ عِلْمَ الْغَيْبِ ؟ وبأيِّ شيء توصلتَ إلى هذا ؟ فقال : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [يوسف : ٣٧] أي لا يوحدون الله ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٧] ، يعني بالبعث من بعد الموت ، قالوا : وما دينك ؟ وما تعبد ؟ قال ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف : ٣٨] قالوا : أفلا عبدتَ إلها ؟ قال : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ

شَيْءٍ» [يوسف: ٣٨] أَنْ نَجْعَلَ لَهُ شَرِيكاً إِذْ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨] أي لا يهتدون إلى شكره ، ولا يؤدون حقه ، ولا يستطيعون ذلك أبداً ، وقيل في المعنى :

سَأَشْكُرُ مَا أُؤَلِّيتَ مِنْ نِعَمٍ غُرٍّ وَأَهْدَيْتَ مِنْ نِعْمَى وَأَسْدَيْتَ مِنْ بَرٍّ
وَمَنْ لِي بِأَنْ أَحْصِيَ أَيَادِيكَ سَيِّدِي وَأَنْتَ الَّذِي تُعْطِي وَتُلْهِمُ لِلشُّكْرِ
وَأَلْهَمَكَ الشُّكْرَ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ لِأَفْضَلِ مَا تُؤَلِّيه فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ

وكانت قصة الساقى أن قوماً من أهل مدين أرادوا أن يسقوا الملك سماً فيقتلوه ، وضمنوا للساقى والخباز مالاً على أن يجعل السم في طعام الملك وشرابه ، فقبلاً ذلك منهم ، فانتهى خبرهما إلى الملك ، وكان الساقى فطناً كيئساً فراجع عقله ، وقال : أنا لا أعجل بإلقاء السم ، فلعل الملك قد سمع بذلك ، فإذا قدمتُ إليه شرابه أمرني أن أشربه ، فإن لم أشربه افتضحتُ ، وإن شربته متُّ ، فجعل السم بين ظفرين من أظافره وقال : إن بلغه ذلك ، وأمرني أن أشربه شربتُ ، وإن لم يبلغه وأمرني أن أتناوله شرابه ناولته ، وجعلت السم فيه من أظافري ؛ وأما صاحب الطعام فإنه لم يتدبر شيئاً ، وألقى السم في طعام الملك قبل تقديمه إليه ، وإنما كان هذا كله ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وقيل في المعنى :

أَيَا مَنْ يُعَوِّلُ فِي الْمَشْكَلَاتِ عَلَى مَا رَأَهُ وَمَا دَبَّرَهُ
إِذَا اسْتَشْكَلَ الْأَمْرَ بَادِرٌ بِهِ إِلَى مَنْ يَرَى مِنْهُ مَا لَمْ تَرَهُ
تَكُونُ بَعِزُّ يَقِيكَ الْمَخَافَ وَفِكْرٌ يُهَوِّنُ مَا قَدَرَهُ
فَإِنْ كُنْتَ تَجْهَلُ عُقْبَى الْأُمُورِ فَمَا لَكَ حَوْلٌ وَلَا مَقْدَرَهُ
فَكَمْ ذَا الْعَمَى وَعِلَامَ الْأَسَى وَمِمَّ الْحَذَارُ وَفِيمَ الشَّرَّةِ

وكان الملك قد علم الخير ، ورُفعت له بذلك القصة ، فلما قدم الساقى الشراب قال له : اشربه ، فشربه ، ورمى السم من يده ، ولم يضره شيء ؛ ولما قدم الخباز طعامه المسموم ، قال الملك : كله ، فتغير لونه واضطربت مفاصله ، واصططكت ركبته ،

وامتنع من الأكل ، فأمر الملك بثور فأحضره ، ثم أمر بتقديم ذلك الطعام إليه ، فأكله ، فتهرأى من ساعته ، وانتفخ وتناثر لحمه ، فأمر بهما إلى السجن ليرى رأيه فيهما ، فقال يوسف : ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ ﴾ [يوسف : ٣٩] . خاطبهما بالصحبة التي بينهما في السجن ، فأعاب عليهما أصنامهما ، ومدح ربه تعالى : ﴿ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] . أي عبادة الله خير أم عبادة أصنامكم التي تعملونها بأيديكم وتتركون مَنْ هو الواحد في ألوهيته الذي خلقكم بمشيئته وقهركم بقدرته ؟ فهو أحق أن تعبدوه ، ثم ذم أصنامهم ، فقال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف : ٤٠] أي سمَّيْتُمُوهَا بأسماء الإلهية ، وهي لا تنفعكم إن عبدتموها ، ولا تضركم إن تركتموها ؛ لأنها لا حول ولا قوة ولا حكم ولا مشيئة ولا سمع ولا بصر لها ، إنما فعلتم هذا أنتم وآبائكم الكفار الذين كانوا من قبلكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، أي من دليل ولا حجة ، ولم يأمر بعبادتها ولا رضيها ، إن الحكم إلا لله يفعل في خلقه ما يشاء ، ويقضي ما يريد ، ذلك الدين القيم : يعني عبادة الله ، والدين القيم الصراط المستقيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ؛ ثم إنه بعدما استمال قلوبهما ، وذكر لهما قدرة الله تعالى ، وبين لهما خطأ الكفار في عبادة الأصنام ، فلم يرَ منهما رغبة ولا قبولاً للإسلام - اشتغل بتعبير رؤياهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ [يوسف : ٤١] ، وهو صاحب شراب الملك يقول : أما الذي رأيتَ من العناقيد الثلاثة من العنب وعصرِكُ إيها ، وسقيِكُ للملك ، فإن مكثك في السجن ثلاثة أيام بعد يومك هذا ، ويخرجك ربُّك ، ويردُّك على عملك الذي كنتَ عليه ، ويوليكُ أمر شرابه ، ويحسنُ حالك عنده ؛ وأما صاحب الرؤيا الثانية فإن السلات الثلاث التي رآها فوق رأسه مملوءة خبزاً ، فإن مكثه بعد هذا ثلاثة أيام في السجن ، ثم يخرجهُ الملك ، فيأمر بصُلْبِهِ على جذع ، فتقطع الطير لحم رأسه ، وتأكل دماغه ، فغضب الخباز ، وقال : لم نَرِ شيئاً ، إنما جئناك لنعلم العلم الذي تعلمه وتدعيه . ورُوي عن ابن مسعود ومجاهد والسدي ، أنهما قالا : لم نَرِ شيئاً ، وإنما أتينا من جهة الاختبار لِنُريْنَا علمه وحقيقته كلامه ، فقال لهما : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف : ٤١] أي مضى الحكم والتدبير في صُلْبِ أَحَدِكُمَا ، ونجاة

الآخر ، وقيل في المعنى :

مَضَى الْحُكْمَ وَالتَّدْبِيرَ لَا تُكْثِرُ عَذْلِي أَقِلَا فَمَا تَحْرِي الْمَقَادِيرُ بِالْهَزْلِ
وَكَمْ نَاطِقٍ أَبْدَى الَّذِي فِيهِ حَتْفُهُ وَظَنَّ بِأَنْ قَدْ جَاءَ بِالْمَنْظَرِ الْفَصْلُ
وَمِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْعَبْدِ قُدِّرَ أَمْرُهُ وَخُطَّ الَّذِي يُبْدِي مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ
أَيُخْرِجُ خَلْقُ اللَّهِ مِنْ تَحْتِ سَمَكِهَا وَكَيْفَ وَإِنَّ الْقَهْرَ يَلْتَاخُ فِي الْحَمْلِ
كَذَلِكَ الْقَضَا لَا يَخْرِجُ الْعَبْدَ مِنْهُ فِي صَبَاحٍ وَلَا مَمْسَى وَلَا حَنْدَسٍ اللَّيْلِ
لَأَنَّ الَّذِي يَحْرِي عَلَيْهِ قَضَاؤُهُ تَعَالَى عَنِ الْإِدْرَاكِ وَالْعَجْزِ وَالْمِثْلِ

ولما فرغ من كلامه علم الصديق أن صاحب الشراب سيعود إلى منزلته التي كان عليها من تقريب الملك إياه ، فخطر بباله ما يخطر بقلب البشر ، فظن أن الناجي يذكر براءته عند الملك من الجرم ، فقال له : أيها الفتى الجليل قدره ، البينة بنجائه ؛ إذا خلَّى الملك سبيلك ، وردَّكَ إلى عملك ، فقل له : إن في السجن غلاماً عبرانياً مظلوماً ، قد حبس منذ خمس سنين ، ونُسب إليه ما هو بريء منه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف : ٤٢] ؛ وذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يصدر منهم أمر يُسيء إلا بنسيان من الشيطان وخدعة ، قال الله تعالى مخبراً عن آدم عليه السلام : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : ١١٥] ، والنسيان عذر يُسقط العقاب ، ويغتفره الأحباب ، لكن بعد التنبيه والعتاب ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام : أن اهبط إلى عبيد يوسف ، وعاتبه فيما صدر منه ، وقل له : كيف استجرت بمخلوق دوني وعبد لا يعرفني ؟ قد وكلته إلى الملك الريان بن الوليد سبع سنين ، فهبط جبريل عليه السلام ، ونادى : السلام عليك يا أطيّب الطيبين ، يقرأ عليك السلام رب العالمين ، ويقول لك : مَنْ خلّقت ولم تك شيئاً ؟ قال : الله تعالى ، قال : وَمَنْ أُنْجَى أَبَاكَ يَعْقُوبَ مِنْ أَخِيهِ عِيسَى بَعْدَ مَا هَمَّ بِقَتْلِهِ ؟ قال : الله تعالى ، قال : وَمَنْ فَدَى عَمَّكَ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ؟ قال : الله تعالى ، قال : وَمَنْ أُنْجَى جَدُّكَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ وَصِيرَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا ؟ قال : الله تعالى ، قال : وَمَنْ خَلَصَكَ مِنْ أَيْدِي إِخْوَتِكَ حِينَ هُمَا بِقَتْلِكَ ؟ قال : الله تعالى ، قال : وَمَنْ أَخْرَجَكَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَبِّ وَجَاءَكَ بِالسَّيَارَةِ ؟ قال : الله تعالى ، قال : وَمَنْ عَظَفَ عَلَيْكَ قَلْبَ الْعَزِيزِ حَتَّى أَنْزَلَكَ مَرْثَلَةَ الْأَوْلَادِ ؟ قال : الله تعالى ، قال : وَمَنْ صَرَفَ

عنك كيد النسوة ؟ قال : الله تعالى ، قال : يا يوسف ، انظر إلى الأرض ، فنظر فانشقت الأرضون السبع ، فرأى تحت الأرض حجرا أبيض ، فضربه جبريل ، فانشق فخرج منه دودة معها في فمها ورقة خضراء ، فقال جبريل : يا يوسف ، يقول لك ربك : أنا الذي قدرتُ خلقها ، وأوصلتُ إليها رزقها ، ولم أنسها ، ولم أنس أحدًا من خلقي ، والكل يشملهم علمي ، ويقهرهم حكمي ، ولم أنسك وأنت نبِيي ، وابن صفيي ، وابن ذبيحي ، وابن خليلي ، حتى تقول لعبد لا يعرفني ، ولا يملكُ لك ولا لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ، ولا خفصًا ولا رفعا : اذكرني عند ربك ؟ بقاؤك في السجن عدد حروف كلماتك ، وقيل في المعنى :

أَمْوَالِي سِوَايَ فِي الضَّرُورَةِ يُقْصَدُ	وَتَطْلُبُ ذِكْرًا عِنْدَهُ وَتُؤَكِّدُ
وَتَتْرُكُ مَنْ أَوْلَاكَ مَنَّا نِعْمَةً	وَإِحْسَانَهُ مَا زَالَ مُذْ كُنْتَ تُعْهَدُ
وَكَمْ قَبْلَكَ الْإِخْوَانُ رَامُوا وَدَبَّرُوا	وَرَأَشُوا سِهَامَ الْمَكْرِ طُرًّا وَشَدَّدُوا
فَمَنْ ذَا الَّذِي أَتَجَاكَ مِنْ وَقَعِ كَيْدِهِمْ	أَكَانَ وَلِيٍّ دُونَنَا لَكَ تَقْصِدُ
فَأَرْسَلْتُ قَوْمًا أَخْرَجُوكَ بِدَلْوِهِمْ	وَكَانُوا عُدَاةً كُلَّهُمْ فَتَوَدَّدُوا
وَرَامَتْ زُلَيْخَا أَنْ تُخَالَفَ أَمْرَنَا	فَجَاءَكَ بُرْهَانٌ مُبِينٌ مُؤَيَّدُ
وَسَبَبَ أَسْبَابًا تَقِيكَ مِنَ الرَّدَى	وَتُذْنِكَ مِنْ إِحْسَانِنَا وَتُسَدُّ
لَأَنْتَ لِذِي سَقَمٍ نَأَى عَنْ طَبِيبِهِ	وَوَاصِلٍ مَنْ فِي رَأْيِهِ الدَّهْرُ يُجْهَدُ
فَظَاهَرُهَا ذُلٌّ وَسِجْنٌ وَغُرْبَةٌ	وَبَاطِنُهَا عِزٌّ جَدِيدٌ مُؤَيَّدُ
أَنَا مَلِكُ الْأَمْلَاكِ فَاخْضَعْ لِعِزَّتِي	فَمُلْكِي قَدِيمٌ دَائِمٌ لَيْسَ يَنْفَدُ
وَحُكْمِي جَرَى فِي الْخَلْقِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِمْ	وَإِنْفَاذُهُ أَمْرٌ لَدَيَّ مُؤَكَّدُ

يا من يعتمد على الخلائق في كل الأحيان ، هذا عتاب لفظة جرت بنسيان ، كم تشكو إلى الخلائق بالنوائب والشجون ، ويحك ، تعلق المخلوق بالمخلوق كتعلق المسجون بالمسجون . في بعض الكتب أن الله تعالى يقول : وعزتي وجلالي لأقطعنَّ أمل كل مَنْ يؤمل غيري باليأس ، وألبسنه ثوبَ المذلة بين الناس ، ولأقطعنه من قربي ، ولأبعدنه من وصلي ، أيؤمل غيري في الشدائد ، والشدائد كلها بيدي ، وأنا الحي ، ويرجى سواي ، ويُطرق باب غيري ، والأبواب كلها مغلقة ، ومفاتيحها

بيدي ، وبابي مفتوح لمن دعاني ، من ذا الذي أملني لنوائبه ، فقطعتُ به دوها ،
ومن ذا الذي رجاني لعظم جُرمه فلم يجدني عندما رجاني ، ومن ذا الذي قرع بابي
فلم أفتح له ؟ جعلتُ آمال عبيدي متضلةً فقططُتْها ، وجعلت أجورهم مدخرة
عندي فلم يرضوا بحفظي ، وملأتُ أرضي وسمواتي ثمن لا يملون من ذكري ،
وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي ، فلم تثق الآدميون بقولي ، ألم يعلم
من طرفته نائبة من نوائي أنه لا يملك أحد كشفها إلا من بعد إذني ؟ ما لي أرى
عبيدي معرضاً عني ، أعطيه مالا يسألني ، ثم أنتزعه منه فلا يسألني رده عليه ، ويسأل
غيري ، أفتراي ابتدأته بالعطية قبل المسألة ، ثم أسأل فلا أجيب ؟ يا سائلاً غيري
أبخل أنا فتتركني ؟ أليس الدنيا والآخرة لي ؟ أليس الجود والكرم لي ؟ أليس الفضل
والرحمة محل الآمال فمن يقطعها غيري ؟ وبماذا يستحسن المؤمنون أن يؤملوا غيري ،
فلو أن أهل سمواتي وأرضي أمْلُوني ، فأعطيتُ كل واحد منهم ما أمْل ما نقص ذلك
من مُلكي ، وكيف ينقص مُلكُ أنا قيومه ؟ فيا بؤساً للقائنين من رحمتي ، ويا بؤساً
لمن عصاني ولم يراقبني ، وثبت على محارمي ولم يستغفري ، وقيل في المعنى :

أَيْهَـا الْمُعْرِضُ عَنَّا	لَيْسَ بُدٌّ مِنْ لِقَائِنَا
وَيَرَى كُلَّ الَّذِي قَدْ	نَدِمَ الْمَرْءَ عِيَانَا
كَمْ تَرَكْنَاكَ وَمَا تَهْ	وَى فَخَالَفَتْ هَوَانَا
وَرَأَيْنَاكَ عَلَى الذَّنْ	بِ فَهَلْ أَنتَ تَرَانَا
وَدَعَوْنَاكَ فَلَمْ تُصْـ	غِ إِلَيْنَا وَنِدَائِنَا
فَالِإِلَى كَمْ تَتَمَادَى	وَالِإِلَى كَمْ تَتَوَانَى
يَا حَبِثَ الْفِعْلِ يَا مَنْ	نَقَضَ الْعَهْدَ وَخَانَا
فَإِذَا لَمْ تَرْضَ مِنَّنَا	فَاتَّخَذَ رَبًّا سَوَانَا

(حكاية) يُروى أنه سيق إلى الحجاج رجل من الأكابر كان يطلبه زماناً ؛ فلما
حضر بين يديه ، قال : يا عدو الله ، لقد أمكن الله منك ، احمِلوه إلى السجن ،
وقيدوه بقيد ضيق ثقيل ، وابثوا عليه بيتاً لا يخرج منه ، ولا يدخل إليه فيه أحد ،
فاحتُمِل الرجل إلى السجن ، وأحضر الحداد والقيد ، فكان الحداد كلما ضرب
بمحطرقته يرفع الرجل رأسه إلى السماء ، ويقول : ألا له الخلق والأمر ، فلما فرغ منه

بنى السجنان عليه بيتاً ، وتركه فيه وحيداً فريداً ، فداخله الوجد والذهول ، وجعل لسان حاله يقول :

يَا مُرَادَ الْمُرِيدِ أَنْتَ مُرَادِي وَعَلَى فَضْلِكَ الْعَمِيمِ اعْتِمَادِي
لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ مَا أَنَا فِيهِ لَحْظَةً مِنْكَ بُعَيْتِي واقتصادي
سَجَنُونِي وَبَالَغُوا فِي امْتِحَانِي وَنَحَ نَفْسِي لِغُرْبَتِي وانفرادي
إِنْ أَكُنْ مُفْرَدًا فَذِكْرُكَ أَتْسِي وَسَمِيرِي إِذَا مَنَعْتُ رُقَادِي
إِنْ تُكُنْ رَاضِيًا فَلَسْتُ أَبَالِي أَنْتَ تَذَرِي الَّذِي ثَوَى بِفُؤَادِي

فلما جن الليل ألقى السجنان حرسه وعسسه حتى أصبح ، فتفقد البناء فإذا القيد مطروح ، والرجل ليس له خبر ، فخاف السجنان ، وأيقن بالموت ، وسار إلى منزله ، وودع أهله ، وأخذ كفنه وحنوطه في كُمه ، ودخل على الحجاج ، فلما وقف بين يديه شمَّ الحجاج رائحة الحنوط ، فقال : ما هذا ؟ قال : يا مولاي ، أنا جئتُ به ، قال : وما حملك على هذا ؟ فأخبره بالخال ، فقال الحجاج : ويحك ، أسمعته يقول شيئاً ؟ قال : نعم ، كان إذا ضرب الحداد بالمطرقة ينظر إلى السماء ، ويقول : ألا له الخلق والأمر ، فقال الحجاج : ويحك أما علمت أن الذي ذكره وأنت حاضر سرَّحه وأنت غائب ، وقيل في المعنى :

يَا رَبُّ كَمْ مِنْ بَلَاءٍ قَدْ ذَهَبَتْ بِهِ عَنِّي وَلَوْلَاكَ لَمْ أَقْعُدْ وَلَمْ أَقْمِ
وَكَمْ وَكَمْ مِنْ أُمُورٍ لَسْتُ أَحْصُرُهَا نَجَّيْتَنِي مِنْ بَلَاهَا كَمْ وَكَمْ وَكَمْ
فَلَسْتُ أَحْصِي الَّذِي أَوْلَيْتَ مِنْ مَنِّ عِنْدِي وَلَا بِالَّذِي أَسْدَيْتَ مِنْ نِعَمٍ
إِلَّا بِفَهْمٍ خَفِيَ مِنْكَ ثُلُومُهُ يَا ذَا الْمَعَالِ وَيَا ذَا الْجُودِ وَالْكَرَمِ
يَا حَامِلَ الثَّقَلِ عَمَّنْ قَدْ تَحَمَّلَهُ وَكَاشِفَ الْكَرْبِ وَالْبَلَوَى مَعَ السَّقَمِ
جُدْ لِي بِعَفْوِكَ عَنْ جُرْمِي وَعَنْ زَلْلِي يَا مَنْ تَفَرَّدَ بِالْإِيحَادِ وَالْعَدَمِ

اللهم ، فارحْ ألهم ، وكاشفْ الكرب ، مجيبْ دعوة المضطر ، رحمنْ الدنيا والآخرة ورحيمهما ، ارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة مَنْ سواك ، يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلم تسليماً كثيراً .

المجلس التاسع

في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ
النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] الآية .

الحمد لله منور أسرار الأبرار بأنوار آثار العلم واليقين ، ومطهر أفكار
الأخيار من أقدار الإنكار والشك والترنين ، و كاتب أسطار الأقدار على صفح لوح
جبين الجنين بالسعادة أو الشقاوة والأجل والاكتساب فصارت تلوح على جبهته
وتستبين ، فلا بد من جريان حكمه على ما سبق في علمه ؛ هذا من أصحاب
الشمال ، وهذا من أصحاب اليمين ، ثبت قدمه وبقاؤه ، وجرى حكمه وقضاؤه ،
فما يفيد الجزع ولا يغني التلوين ، عجباً للعبد كيف يتحكم ويفكر ومولاه يحكم
ويقدر ؟ ! هيهات هذا بعيد في القياس ومعاب عند المتقين ، لقد لاح لنا الصراط
المستقيم وبين لنا مولانا في كتابه المبين ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ وَلَوْ
شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] ، أحمده على نعم عمت الخلائق أجمعين ، وأنزّهه عن أقوال
الفجرة والمبتدعين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، المنفرد بالإنشاء
والابتداع والخلق والاختراع والتصوير والتكوين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله
وحبيبه وخليله الذي زال له الشجر من مواضعه ونبع من بين أصابعه الماء المعين ،
صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وعترته وأحبابه الأصفياء الأتقياء الموحدين ،
الذين أظهروا منار الدين ، وجاهدوا الملحددين ، صلاةً تدوم وتقوم ما ناه قُمْرِيٌّ
وسما لعيون الناظرين ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل في المعنى :

يَا وَاحِدًا قَدْ جَلَّ عَنْ تَقْدِيرِي	إِنِّي بَرِئْتُ إِلَيْكَ مِنْ تَدْبِيرِي
وَحَلَعْتُ طَوْقَ تَعَرُّضِي وَأَزَلْتُهُ	وَفَنَيْتُ عَنْ جِدِّي وَعَنْ تَقْصِيرِي
وَبَرِئْتُ مِنْ حَوْلِي إِلَيْكَ وَقُوَّتِي	عَلِمًا بِأَنَّكَ خَالِقِي وَنَصِيرِي
هَيْهَاتَ هَلْ يَخْتَارُ عَبْدٌ عَاجِزٌ	أَوْ هَلْ يَلِيقُ تَعَزُّزٌ بِفَقِيرٍ
رَبِّي إِلَيْكَ تَزَلُّلِي وَتَخَضُّعِي	وَالْعِزُّ عِنْدِي أَنْ تَكُونَ مُجِيرِي
وَجَهْتُ كُتُبَ تَضَرُّعِي لِجَلَالِكُمْ	فَمَتَى يُوَافِي بِالْقَبُولِ بَشِيرِي

أَنْتَ الْجَلِيسُ إِذَا عَدِمْتُ مُؤَانِسِي وَلَذِيذُ ذِكْرِكَ فِي الظَّلَامِ سَمِيرِي
وَرِضَاكَ سُؤْلِي وَالتَّقَرُّبُ بُعْيَتِي وَرَجَاءُ جُودِكَ فِي الْخُطُوبِ ضَمِيرِي
لَوْ كُنْتَ تَسْمَحُ لِلْعَبِيدِ بِنَظَرَةٍ مَا كَانَ فِي هَذَا الْوُجُودِ نَظِيرِي

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ

النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] ، هذه الآية سيوفٌ وخناجرٌ على خناجر المعتزلة ؛ لأن إبليسَ جدًّا في إزلالهم حتى ادعوا خلق أفعالهم ، فلما صدر ذلك منهم صار إبليسُ خيراً منهم ؛ لأن إبليسَ قال : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الأعراف: ١٦] ، وهم يقولون : أغوينا أنفسنا ، ولقد برئ من قدرة الله وحوله مَنْ ادعى خلق فعله ؛ وذلك لأنهم احتجوا بأن الله تعالى أمر عباده بالطاعة ، وأرادها منهم ، ونهاهم عن المعصية ولم يُردها منهم ، وقالوا : هل تقولون : إن الله قادر على منع المعصية أو غير قادر ؟ فإن قلتم : إنه غير قادر فقد كفرتم ، وإن قلتم : إنه قادر فهلا منع من المعصية ، إذ هو لا يريد لها على زعمكم ؟ قيل لهم : لو جاز أن يكون الكفر والمعصية ليستا بإرادة الله تعالى لأدَّى ذلك إلى أن يكون الله تعالى عاجزاً عن أكثر المخلوقات ؛ لأن الكفر أكثر من الإيمان ، والمعصية أكثر من الطاعة ، فيؤدي إلى أن يكون في مملكته ما ليس باختياره ، وهذا مما لا يرضاه رئيس قرية ، فكيف مالك الملوك ؟ والناس في هذه المسألة على ثلاثة مذاهب : مذهب القدرية وهم الذين تقدم ذكرهم ، والجزرية وهم الذين يقولون : إن أفعال المخلوق كلها ليست له ، والإنسان إنما هو في فعله مجبورٌ كالباب يُفتح ويُغلق ، وكالخيط يُحل ويُربط . قيل لهؤلاء الآخرين : لو كان الأمر كما تزعمون ، لبطل العقاب والثواب ، إذ المجبور ليس له ثواب في الطاعة ؛ لأنه لم يفعلها بإرادته ، ولا عقاب عليه في المعصية ؛ لأنه لم يفعلها بإرادته ، وبطلان الثواب والعقاب محالٌ ، وهو تعطيل للشريعة ، ولكان إنزال الكتب وإرسال الرسل لهؤلاء لا فائدة فيه ، ولما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ، لأن إرسال الرسل وإنزال الكتب للإعذار والإنذار ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . والثالث من هذه الطوائف السنية ؛ لأنهم سلكوا طريقاً بين طريقين لا يعتقدون أن المكلفين في أفعالهم مضطرون ، ولا يقولون بأنهم مهملون ؛ لأن الإنسان لو كان مهملاً لكان سدى ، ولو كان مضطراً لكان غير معاقب ، وضربوا في ذلك مثلاً : حمل ثقل أنت قادر

على حملة ، ومعك آخر عاجز ، رفعتما الحمل جميعاً ، فينسب الرفع للقوي ، ولكن
للاخر نوع فعل ، فذلك النوع من الفعل هو كسب العبد مع خلق الحق تعالى ،
وعليه يقع الثواب والعقاب ، فقالوا : لأي شيء قدر الله المعصية على المؤمنين ؟
قيل : ليكون سبباً لمعاقبته له ؛ لأن الحب يحب طول معاقبته لحبيبه . وقيل : إن
للمؤمنين عدواً وحبيباً ، فعدوهم أشد الأعداء ، وهو إبليس ، وحبيبهم أجل
الأحباء ، وهو نبيهم ، فمراده أن يغيب العدو بمغفرته لهم ، ويطيّل سرورهم بنبيهم ؛
لأن الحب يدخل السرور على حبيبه . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله
تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات
بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء » ^(١) ذكره مسلم . وقال عمران بن حصين :
« قال رسول الله ﷺ : كان الله عز وجل ، ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه
على الماء ، وكتب في الذكر الأول كل شيء » ^(٢) ذكره البخاري . وقال عبادة بن
الصامت رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « أول ما خلق الله تعالى القلم ، فقال
له اجز ، فجزى بما هو كائن إلى يوم القيامة » ذكره البزار . وقال ابن عمر رضي
الله تعالى عنهما : قال رسول الله ﷺ : « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس »
ذكره مسلم ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « تحاج آدم
وموسى ، فقال موسى : أنت آدم الذي أغويت البشر ، وأخرجتهم من الجنة ؟
فقال آدم : وأنت موسى الذي أعطاك الله علم كل شيء ، واصطفاك على الناس
برسالته وبكلامه ، قال : نعم ، قال : أقرأت التوراة ؟ قال : نعم ، قال : فمنذ
كم وجدت ذلك مقدراً عليّ ؟ قال : من قبل أن تُخلق بأربعين عاماً ، قال :
أفتلومني على أمر قد قدره الله عليّ قبل أن أخلق ، فحج آدم موسى » ^(٣) ذكره
مسلم ، ولقد ذكر هذا الحديث يوماً بين يدي الرشيد ، فقال بعض وزرائه : كيف
لقي موسى آدم وبينهما ما بينهما من المدة ؟ فقال الرشيد : ويحك ، يحدثك النبي
ﷺ وتقابله بكيف ؟ اخرج ، فلا أراك بين يدي . وقال ابن عباس رضي الله عنه :
قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب : القدرية

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢٠٤٤ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٦ / ٢٦٩٩ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢٠٤٢ .

والمُرْجَنَةُ «^(١) ذكره الترمذي ، وقد جاء في هذا الباب من الآيات والأحاديث ما لا يُحصى ، وقد أفردتُ له مجلساً في كتابي المسمى بـ (فائدة المتعلم وبغية المتكلم) ، وقيل في المعنى :

قُلْ لِلْمُكَذِبِ بِالْمَقْدُورِ يَجْهَلُهُ ضَلَلْتَ عَنْ قَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ وَالرَّشْدِ
 إِنْ كُنْتَ تَخْلُقُ أَفْعَالاً وَتَكْسِبُهَا فَلَمْ يَرَى فَيْكَ وَهَنْ الشَّيْبِ وَالْفَنَدِ
 وَلَمْ تُصَابْ بِمَكْرُوهِ تُسَاءُ بِهِ أَأَنْتَ شِئْتَ وَقُوعَ الضَّرِّ وَالْكَمَدِ
 بَلِ الْمُقَدَّرُ مَوْلَانَا وَخَالِقُنَا سُبْحَانَهُ مِنْ مَلِكٍ وَاحِدٍ أَحَدِ
 وَإِنْ أَصَابَكَ ضُرٌّ مِنْهُ مَعْدَلَةٌ فَقُلْ : ذُنُوبٌ وَفِعْلٌ قَدْ جَنَّتُهُ يَدِي
 هَذَا اعْتِقَادُ أُولَى التَّحْقِيقِ قَاطِبَةً قَدْ صَحَّحُوهُ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالسِّنَدِ
 وَإِنْ أَصَابَكَ إِحْسَانٌ تُسَرُّ بِهِ فَقُلْ : بِفَضْلِكَ يَا مَنْ جَلَّ عَنْ عَدَدِ

أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : ادرك لطف الفطنة وخفي اللطف ، فإني أحب ذلك ، قال : يا رب ، وما لطف الفطنة وما خفي اللطف ؟ قال : لطف الفطنة هو إن وقعت عليك ذبابة فما فوقها ، فاعلم أي أوقعتها عليك فسلني دفعها عنك ، وأما خفي اللطف فهو إن وردت على قلبك قولة مشوشة فاعلم أي قدرتها عليك فسلني دفعها عنك ، وجاء رجل إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فسأله عن القدر ، فقال : سر خفي فلا تنظره ، فقال : بينه لي ، قال : أخلقك كما تشاء أو كما يشاء ؟ قال : بل كما يشاء ، قال : فكل الأشياء فقسها عليه ، فقال : زدني بياناً ، قال : مشيئتك مع مشيئته أم فوقها أم دونها ؟ إن قلت : فوق مشيئته فقد غالبته ، وإن قلت : مع مشيئته فقد أشركته وليس لله شريك ، وإن قلت : دون مشيئته فقد عاليته ، ثم قال : أتقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ قال : نعم ، قال : أتدري ما معناها ؟ قال : لا ، قال : لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله ، ثم قال : أوقع على قلبك السكينة وثلج اليقين ؟ قال : نعم ، قال : فصافحوا أخاكم فقد أسلم إسلاماً جديداً ، وقال وهب ابن منبه : لما خربَ بختنصر بيت المقدس وحرقت التوراة وسبى الذراري والنساء ،

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١ / ١٤٧ ، والطبراني نحو معناه في الأوسط ٤ / ٢٨١ .

وأسر الأنبياء عليهم السلام ، كان فيهم عزيز عليه السلام ، فبلغ عمره أربعين سنة وهو أسير بأرض بابل ، فسهر ليلة من الليالي وتفكر في محنة الأنبياء وخراب بيت المقدس وتمزيق كتبه ، فقال : اللهم ، إنك أنت خلقت الأرض فكانت على مشيئتك ، ثم أنبت آدم منها بشراً سوياً ، وأسجدت له ملائكتك بعد أن نفخت فيه من روحك ، وأسكنته جنتك ، وعهدت إليه عهدك ، فلما ضيعته أخرجته من جنتك وأسكنته الأرض ، وصنعت إليه المصانع وقضيت عليه الموت ، ثم تخيرت رسلك ، وعينت أنبياءك ، وبوأيت بني إسرائيل الأرض المقدسة ، فلما كثر العاصون منهم سلطت عليهم عدوهم ، وأنزلت عليهم عقوبتك ، فقتل أنبياءهم ، ومزق كتبهم ، وخرب بيت عبادهم ، فقلت : هم قوم أخطأوا فعذبوا من لا خطايا لهم ، فنظرت منذ ثلاثين سنة فإذا الذين من بعدهم أكثر منهم في الخطايا والصد منهم عن بابك والكفر منهم بآياتك ، فأرسل الله إليه ملكاً فسلم عليه ، وقال : يا عزيز ، لقد أهتمت الدنيا ، وأحزنك شأنها ، أتريد أن تعلم سر قضاء الله تعالى ؟ قال : نعم ، قال : ألا إن الله تعالى قد أرسلني إليك لأسألك فتخبرني ، وأقول لك فتسمع ، يا عزيز ، أريد أن تصر لي صرة من الشمس ، وتكيل لي مكيالاً من النور ، وترن لي مثقالاً من الريح ، وترد لي يوم أمس ، قال : ومن يطيق هذا ؟ فقال : من يسأل من لا يصل إليه علمه ، ولا يكلف النظر فيه ، يا عزيز ، إذا كنت تعجز عن هذا ، فكيف لو سألتك عن الأرض كم تحتها من ينبوع ؟ وكم فيها من مثقال ؟ وكم في البحر من نقطة ؟ وكم عدد ما أنزل الله من السماء من قطرة ؟ وكم أرواح الموتى ؟ وكم حفر القبور ؟ وكم أبواب السماء ؟ وكم عمق البحار ؟ وأين طريق الجنة ؟ فقال : لا علم لي بهذا ، قال : إذا لم تعلمه وأنت تدركه ببصرك ، وتعرفه بعقلك ، فكيف تريد تعلم علم الله تعالى الذي توحده ، وغيبه الذي حجبته عن خلقه لنفسه ؟ ثم قال الملك : يا عزيز ، سل الأرض لسم تطول أشجارها وتخضر أوراقها وتظهر ثمارها في وقت أوانها ، فإذا بلغت حدّها ردت بزمام القهر وزال ذلك منها ؟ أليس الماء من تحتها يجري والهواء من فوقها يسري ؟ يا عزيز ، وسل البحار ما بالها تعلو أمواجه ويندفع أجاجها ، فإذا بلغت حدّها ردت بخططام القهر إلى القعر ؟ يا عزيز ، أرأيت لو اختصمت إليك الأرض والبحار ، فقالت الأرض : قد ضقت ببجالي وأشجاري وما في من خلق ربي ، وأريد أن أمتد في البحر وأتوسع فيه ، وقال البحر : قد ضقت بأماجي ومياهي وحيثاني ودواي ، وأريد أن أمتد في الأرض وأتوسع فيها ، ما كنت تقضي بينهما ؟ قال : عزيز : كنت أقول لهما :

كل منكما أتى بحجة تنفعه ، وإن لكل واحد منكما حداً بالغه ومدة لا يتعدها ، قال الملك : نعم ما وصفت وقضيت ، كما قضيت على غيرك اقض به على نفسك ، إن الله تعالى قد أجل لأهل الدنيا أجلاً هم بالغوه ، وحداً لا بد لهم أن يصلوه ، فلا ينبغي لأحد من أهل الأرض أن يسأل عن علم السماء الذي حجه عن عباده ، وخص به نفسه ، وقيل في المعنى :

عِلْمُ الْمَشِيئَةِ سِرٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ جَمِيعُ هَذَا الْوَرَى عَنْ عِلْمِهِ وَقَفُوا
فَكُلُّ مَنْ رَامَ أَنْ يَرْفَى بِهِمَّتِهِ أَذْرَاجُ سُلَمِهَا أَوْ دَى بِهِ اللَّهْفُ
ضَلَّتْ عُقُولُ أُولِي الْأَلْبَابِ كُلِّهِمْ أَقَرَّ جَمْعُهُمْ بِالْعَجْزِ وَاعْتَرَفُوا
فَبَيْنَ كَافٍ وَبَيْنَ التُّونِ أَوْجَدَهَا وَكُلُّ مَا نَحْنُ بُنْدِيهِ وَنَقَرِفُ
فَلَيْسَ مِنْ خَلْقِنَا شَيْءٌ بَدَا وَخَفَى إِلَّا بِعِزِّ جَلَالِ اللَّهِ يَعْتَرِفُ

واعلم أن الماء لا يغرق ، والنار لا تحرق ، والحديد لا يقطع ، والتراب لا يدفع ، بل الأقدار تجري كما شاء مجريها ، وتنفذ كالسهام إلى مراميها ، فقد ضرب الله لبني إسرائيل في البحر طريقاً ، وأضرمت النار لإبراهيم فلم تُبدِ حريقاً ، وفُلت السكين على حلق الذبيح فكان إبراهيم ينادي ويصيح : يا سكين احتجتي إليك مرة ، فلم تقطعي شعرة ، فقالت السكين بلسان حال : يا خليل ، لا تتزل الأوحال ، الذي أزال منك حنة الطبع ، أزال مني حدة القطع ، وطئ الرسول عليه الصلاة والسلام بين درعين فأصابته تحفظه العين فشجَّ جبينه ، وكُسرت رباعيته ليصيب نصيباً من قوله : « ولنبلونكم » ، يا درع العصمة انكشف ليقع في الشجاع نبله ، وفي هذا المعنى بيت من الميمنة :

فَسَلَكْتُ بِالرُّمَحِ الطَّوِيلِ بَنَانَهُ لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمٍ

وقيل لما أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما أُلقي في النار لم تحرقه فعجب الخلائق من ذلك ، فأراد إله إبراهيم أن يُريهم ذلك عياناً ، فقال : ﴿ وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مریم: ٧١] ، فإذا وردوا النار صاروا فرقتين : فرقة يستغيثون من النار فلا يغاثون ، وفرقة تستغيث منهم النار ، وإن لله تعالى عبداً إذا جازوا على النار خمد لهبها ، وذهب حرها حتى تناديه جهنم : جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي ، وقيل في المعنى :

يَا مَنْ مَضَى عُمُرُهُ فِي الْحَدِّ وَالنَّصَبِ أَسْرِعْ مُرُورَكَ إِنِّي قَدْ مَضَى لَهْبِي
كَمْ بَتَّ تَحَارُّ مِنْ قَوْلِي فَهَذَا أَنَا قَدْ جَارَتْ مِنْكَ فَإِنِّي الْيَوْمَ فِي تَعَبٍ
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الْحَرَقَ لِي فَإِذَا مَوْلَايَ يَخْلُقُ مَا يَبْدُو مِنَ الْعَجَبِ
يَا مَنْ يُشَاهِدُ أَسْبَابًا وَيَلْحَظُهَا إِنَّ الْمُسَبَّبَ يَبْدُو مِنْكَ فِي السَّبَبِ
لِيُخْرِجَ الضَّدَّ مِنْ ضِدِّ وَيُزِيلَهُ وَكَمْ رَأَيْتُ سُرُورًا جَاءَ مِنْ كُرْبِ

وقيل : إن الله تعالى إذا أراد أمراً وقدر تقديراً ، قدر له أسباباً يتوصل بها إلى ذلك الحكم المقدر ؛ ألا ترى أنه لما أراد أن يترع ملك مصر من أيدي الفراعنة ويملكها بني إسرائيل كيف قدم إلى ذلك أسباباً ؟ فجعل محبة يعقوب لأحد بنيه سبباً لحقد الإخوة ، ثم جعل رؤياه سبباً لحسدهم إياه ، ثم جعل حسدهم سبباً لرميه في الجُبِّ ، ثم جعل رميّه في الجُبِّ سبباً لإخراجه على يد السيارة ، ثم جعل إخراجه على يد السيارة سبباً لبيعه ، ثم جعل بيعه سبباً لوصوله مصر ، ثم جعل وصوله مصر سبباً لشراء العزيز له ، ثم جعل شراء العزيز له سبباً للمراودة ، ثم جعل المراودة سبباً لقول النسوة ، ثم جعل قول النسوة سبباً لدخوله في السجن ، ثم جعل دخوله في السجن سبباً لتعبير رؤيا الساقى والخباز ، ثم جعل تعبیر رؤيا الساقى والخباز سبباً لتعبير رؤيا الملك ؛ وانظر إليه إنما أصابه ما أصابه من السجن من أجل الرؤيا ، ومن أجلها وجد ما وجد من الملك والسلطان ، فبرؤيا هلك وبرؤيا ملك ؛ فالرؤيا التي هلك بها قوله تعالى : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤] ، والرؤيا التي ملك بها قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف: ٤٣] ؛ فرؤيا كانت سبب ترحه ، ورؤيا كانت سبب فرحه ، ورؤيا كانت سبب محنته ، ورؤيا كانت سبب محبته ، وكذلك كان سبب عمي يعقوب قميص قوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] ، وكان السبب في رد بصره قميص قوله تعالى ﴿ فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأَثُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

[يوسف: ٩٣] ، وكذلك وجد فرعون أيضاً المملكة بالماء حيث قال : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١] ، ووجد الهلكة من الماء ، وهو قوله تعالى ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦] ، فسبحان من يخرج الضد من الضد ، ويسرح الأسير من القيد ، وقيل في المعنى :

بَلْدِيدِ ذِكْرِكَ يَطْرَبُ الْمَسْجُونُ	وَحَفِي سِرِّكَ فِي الضَّمِيرِ مَصُونُ
وَالْيَكْ يَصْبُو قَلْبُهُ وَفُؤَادُهُ	وَكِلَاهُمَا مُلْقَى لَدَيْكَ رَهِينُ
إِنْ كَانَ يُرْضِيكَ الَّذِي قَدْ شَفَّنِي	فَحَمِيعُ مَا أَلْقَى عَلَيَّ يَهُونُ
زَعَمُوا بِأَنَّكَ غَائِبٌ عَنْ مُقَلَّتِي	جَهْلًا وَأَنَّكَ لَا تَرَاكَ عِيُونُ
وَحَمِيعُ مَا يَبْدُو يُخْبِرُ أَنَّهُ	خَلَقَ فَعَنَكَ عَلَى الدَّوَامِ يَبِينُ
أَتُخِيبُ آمَالِي وَأَنْتَ مُؤَمِّلِي	وَيَنَالُنِي وَهْنٌ وَأَنْتَ مُعِينُ
إِنِّي رَفَعْتُ إِلَيْكَ وَقَعَ تَضَرُّعِي	أَتَرَى جَوَابِي مِنْكَ كَيْفَ يَكُونُ
وَلَقَدْ سُرِرْتُ بِطُولِ كَرْبٍ شَفَّنِي	وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يُسَرَّ حَزِينُ
لَمَّا عَلِمْتُ بِأَنَّ مِنْكَ وَقُوعُهُ	حَقًّا وَأَنَّكَ لِلثَّوَابِ ضَمِينُ
سَلَّمْتُ لِلْأَحْكَامِ تَسْلِيمَ امْرِئٍ	رَضِيَ الْقَضَاءَ فَشَأْنُهُ التَّهْوِينُ

قال : أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : لما كملت ليوسف في السجن اثنتا عشرة سنة ، وانقضت المدة ، ومضى وقت الشدة ، أرسل الله عز وجل جبريل إليه في صورة حسنة وهيئة جميلة ، فدخل السجن ، وتصوّر للصديق على باب بيته ، فجعل الصديق ينظر إليه ، ويتعجب من حسن صورته ، وأنكر أن يكون مثله في السجن ، فسلم عليه فرد يوسف السلام ، فقال : هل تعرفني أيها الصديق ؟ فقال يوسف عليه السلام : أرى صورة حسنة ، وريحاً طيبة لاتشبه أرياح الخاطئين ، فمن أنت يرحمك الله ؟ قال : فأنا أخوك جبريل ، فكيف أنت يا أطيّب الطيبين ورأس المقربين ويا ابن الطاهرين ؟ فقال : حيي يا جبريل ، كيف تشبهني بالصالحين وتسميني بأسماء الصديقين وعددتني مع آبائي الطاهرين وأنا بين هؤلاء المجرمين وقد دخلت

مدخل المذنبين ؟ قال : أما علمت أن الله يطهر البيوت بتطهير النبيين ؟ فإن البقعة التي تحمل بها أظهر الأرضين ، وأن الله تعالى قد طهر هذا السجن وما حوله من أجلك يا حبيب رب العالمين ، وأن الله تعالى قد جعلك رأس الصديقين ؛ لأنه لم يغير خلقك بالبلاء ، ولم يندس حريتك بالرق ، ولم يعظم عليك السجن في الله عز وجل ، ولم تطأ فراش سيدك في طاعة ربك ، ولم يُنسك بلاء الدنيا بلاء الآخرة ، فقد سماك الله بأسماء الصديقين وعدك مع آبائك المخلصين ، وأوجب لك جزاء الصابرين ، وألحقك بآبائك الصالحين ، وإن الله تعالى يقرأ السلام عليك ، ويقول : كيف حالك وهو أعلم بك منك ؟ فقال : يا أخي يا جبريل ، ظاهر حالي يشهد بما أنا فيه ، فلربي الحمد على كل حال ، وقيل :

سَجْنِي طَوِيلٌ وَقَيْدِي ضَيِّقٌ حَرَجٌ	كَأَنَّهُ أَرْقَمٌ فِي السَّاقِ يَخْتَلِجُ
مَهْمَا أَرَدْتُ إِلَى نَهْضٍ يُبْطِنِي	وَلَيْسَ بِي عِلَّةٌ تَبْدُو وَلَا عَرَجٌ
وَجِيرَتِي فِيهِ أَقْوَامٌ قَدْ افْتَضَحُوا	أَحْيَاءُ لَكِنْ مِنَ الْأَحْيَاءِ قَدْ خَرَجُوا
إِذَا أَتَى لَهُمُ السَّجَّانُ دَاخِلَهُمْ	خَوْفٌ تَطِيرُ لَهُ الْأَكْبَادُ وَالْمُهَجُ
وَلَيْسَ لِي زَائِرٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلَا	أَرَى عَلَى بَابِ بَيْتِي مُشْفِقًا يَلِجُ
وَلَا تُشَاهِدُ عَيْنِي مَا يَسُرُّ وَلَا	أُذْنَايَ تَسْمَعُ قَوْلًا مِنْهُ أَتْهَجُ
فَاللَّيْلُ قَدْ صَارَ عِنْدِي وَالنَّهَارُ سَوَا	لَا اللَّيْلُ يَفْنَى وَلَا الْإِصْبَاحُ يَتَلَجُ
كَأَنِّي طَائِرٌ مَثْوَاهُ فِي قَفْصٍ	قُصِّتْ جَنَاحَاهُ فَالْأَعْضَاءُ تَخْتَلِجُ
وَلِي حَبِيبٌ نَأَى عَنِّي وَفَارَقَنِي	فَحَالُهُ مِثْلَ حَالِي مَا بِهِ عَوَجُ
يَبْكِي عَلَيَّ وَأَبْكِي حِينَ أَذْكُرُهُ	يَا لَيْتَ شِعْرِي مَتَى يَأْتِي لَنَا الْفَرَجُ ؟

ثم قال : يوسف عليه السلام : هل لك علم بيعقوب أيها الروح الأمين ؟ قال : نعم ، وهب الله له الصبر الجميل ، وابتلاه بالحزن فهو كظيم ، وقد عدل حزنه عليك حزن مائة ثكلى ، وبلغ من صبره ما استوجب أجر مائة شهيد^(١) ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الله كتم عنه أمرك فلم يدرٍ أحيى أنت فيرجوك أم ميت

(١) ليس له أصل ، ولعله من الإسرائيليات ، والله أعلم .

فيحتسبك، وإنما كتم الله عليه أمرك ليشدد عليه البلاء حتى يبلغ أجر مائة شهيد ، كما أن إبراهيم عليه السلام لما عرض عليه إحراق جسده وذبح ولده وفراق أحبته والجللاء عن قومه اختاره الله ورضيه وكان أعظم في صدره من ذلك كله ، فأوجب الله له بذلك الخلّة ، ومتعه بابه ، وجعل صدره موضعاً لسره ، وبوآه موضع بيته ، وجعل في ذريته الكتاب والحكمة إلى يوم القيامة ، وهذا أوان الزمان الذي وعدك الله أن يعطيك اليد العليا على إخوتك والظفر بهم ، ويزيل عنك رقبك ، ويظهر للناس حريتك ، ويصدق رؤياك ، وينصفك ممن ظلمك ، ويهب لك ملك مصر تخضع لك أعزها ، وتذل لك جبارها ، ويلبسك الهيبة والمودة في قلوب الخلق حتى يبلغك برحمته ما بلغ آبائك الصالحين ؛ وسبب ذلك أن الملك الريان بن الوليد يرى الليلة رؤيا وهي كذا وكذا ، وتأويلها كذا وكذا ، فأبشر فأنت صديق الله ، وابن صفيه ، ابن ذبيحه ، ابن خليله ، قال : ثم خرج عنه وتركه ؛ فلما جن الليل نام الملك الريان بن الوليد ، وكان معه حاجبه ومضحكه وساقيه ومسامره وطائفة من عظماء قومه ورؤساء مملكته ، وكان منامه في الثلث الأخير من الليل ، فانتبه من نومه مرعوباً ، فقالوا له : ما الذي أفرعك أيها الملك ؟ جعلنا الله فداك ، فقال لهم : عليّ بملأ عظيم من علماء قومي وعظمائهم ومنجميهم وكهانهم والعقلاء منهم ؛ فإني رأيت رؤيا أفرعتني ، أعلم أن لها شأنًا عظيماً ، وأريد أن أقصّها عليهم حتى يعبروها ، فإني من ذلك على وجل ، فتسارعوا لأمره ، وأشفقوا على فزعه وضجره ، فحضر أهل العلوم وأرباب العقول وأصحاب الكهاني والنجوم ؛ وكيف يصلون إلى علم القدر ، وقد جاء توقيع ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾

[يوسف: ٥٠] وقيل في المعنى :

يَبْنِ الْعِبَادِ وَيَبْنِ الْغَيْبِ أَسْتَارُ	وَفِي حِجَابِهِمْ عَنْ ذَاكَ أَسْرَارُ
فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ وَلَا خَبَرٌ	وَقَدْ جَرَتْ قَبْلَ كَوْنِ الْكَوْنِ أَقْدَارُ
فَكَيْفَ لِلنَّجْمِ تَأْثِيرٌ وَخَالِقُهُ	بِأَمْرِهِ فَهَوَ إِخْفَاءٌ وَإِظْهَارُ
وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ وَالْأَكْوَانُ أَجْمَعُهَا	وَالْفَوْقُ وَالسُّفْلُ لِلْجَبَّارِ قَدْ صَارُوا
مُلْكًا يُصَرِّفُهُمْ فِيمَا يَشَاءُ بِـ "كُنْ"	فَيَبْرِزُ الْأَمْرَ مَا فِي الْكُلِّ مُحْتَارُ
فَكَيْفَ يَحْكُمُ قَوْمَ النَّجْمِ وَقَدْ	ضَلُّوا فَيَقْرَارُهُمْ جَحْدٌ وَإِنْكَارُ

لَوْ يَعْلَمُونَ لِمَا نِيلُوا بِرَاحَتِهِ وَلَا اعْتَرَتْهُمْ مُسِئَاتٌ وَأَضْرَارٌ
أَوْ يَسْأَلُونَ عَنِ الْأَرْضَيْنِ مَا عَلِمُوا فَكَيْفَ تَعْلَمُ آثَارٌ وَأَنْوَارٌ
تَبًّا لِأَجْمَعِهِمْ خَابُوا وَقَدْ خَسِرُوا وَكُلُّهُمْ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ كُفَّارٌ

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَتَى كَاهِنًا » ، وفي رواية : « مَنْ أَتَى عَرَافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَلَاةَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا » ^(١) ذكره مسلم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحَرِ ، رواه أبو داود : وقال ﷺ : « مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَ بِمَا يَقُولُ ، أَوْ أَتَى امْرَأَةً حَائِضًا أَوْ امْرَأَةً فِي دُبْرِهَا ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » ^(٢) . فلما حضروا بين يديه ، ونظروا إليه قال لهم : إني رأيتُ في منامي كأني على شاطئ النيل إذ نضب الماء ، وخرج من النيل سبع بقرات سمان قد ملئت ضروعها لبنًا ، وكأهن حُشِين لحما ولبنًا وسمناً ، فبينما أنا كذلك إذ خرج من النيل سبع بقرات مهازيل عجاف خراطيمهن كخراطيم السباع ، فأكلن لحم السمان ، ومزقن جلودهن ، ولَحَسْنَ دِمَاءَهُنَّ ، فلم يبقَ منهن بقرة ، ولم يظهر في البقرات العجاف زيادة ، فبينما أنا أنظر إذا بسبع سنبلات خضر ناعمات مملوءات حَبًّا ، فنبتت تحت كل واحدة منهن سنبله يابسة بيضاء لا خضرة فيها ولا ماء ولا حَبٌّ ، فالتوت السنبلات اليابسات على السنبلات الخضر ، فممصن ما فيهن من الماء والخضرة حتى ييسن ، ولم يظهر في السنبلات اليابسات خضرة ولا ماء ، وييسن كلهن ، فعجبتُ كيف غلبت المهازيل السمان ، واليابسات الخضر الناعمات ، وقيل في المعنى :

لَا تَحْقِرَنَّ ضَعِيفًا فِي ثَقَلِهِ إِنَّ الْبُعُوضَةَ تُذْمِي جَانِبَ الْأَسَدِ
وَلِلشَّرَارَةِ حَقٌّ حِينَ تَنْظُرُهَا وَرَبِّمَا أَضْرَمَتْ نَارًا عَلَى بَلَدٍ

قال : « أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ »
[يوسف: ٤٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يصيب العبد شيء إلا رآه في

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٧٥١ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ١ / ٢٤٣ ، والدارمي في سننه ١ / ٢٧٥ ، والحاكم في

مستدركه ١ / ٤٩ ، والبيهقي في الكبرى ٨ / ١٣٥ .

منامه ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه . وقال ابن عمر : من بات على وضوء وطهارة كان فراشه مسجداً ، وجسده نوراً ، وغشيه ملك ، فإذا رأى رؤيا كانت حقاً ، ومن بات على غير وضوء وطهارة كان فراشه حفرة ، وجسده جيفة ، وعانقه الشيطان ، فما رآه فهو حلم . وقال جابر بن عبد الله : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، رأيت في المنام كأن رأسي قطعت ، فضحك رسول الله ﷺ وقال : إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يحدث به الناس » ذكره مسلم وأبو داود ^(١) ، وقال ابن عباس : الأحلام الرؤيا الصادقة ، والأضغاث الرؤيا الكاذبة . ﴿ فَقَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ [يوسف: ٤٤] ، وكان هذا الجواب بعد أن بُهتوا وتحيروا ، ونظر بعضهم إلى بعض ، فلما لم يكن عندهم علمٌ منها أجابوه بهذا الجواب ذباً عن أنفسهم ليسكنوا غضبه ، فوصفوا الحق بالباطل ، وقالوا: ما رأيت من هذه الرؤيا ، فهو أضغاث أحلام ، فلا تشغل قلبك بها ، فإنها أباطيل كاذبة ، والضغث : هو الشيء المجتمع من الحشيش والعيذان الدقاق ، ويجمع بعضها إلى بعض ، فتسمى أضغاثاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ ﴾ [ص: ٤٤] ، ثم رجعوا إلى الحق فقالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ [يوسف: ٤٤] ، وقيل في المعنى :

شَمَّرَ إِلَى طَلَبِ الْعُلُومِ ذُيُولًا وَأَنْهَضَ لِذَلِكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا
وَصَلَّ السُّؤَالَ وَكُنْ هُدَيْتَ مَبَاحِثًا فَالْعَيْنُ عِنْدِي أَنْ تَكُونَ جَهُولًا
يَا مَنْ يُزَاحِمُ بِالْجَهَالَةِ عَالِمًا وَيَرُومُ بِالْإِدْبَارِ مِنْهُ قَبُولًا
هِيَئَاتَ أَخْطَأَتِ الطَّرِيقَ وَقَلَمًا مُنَحَ الَّذِي ضَلَّ الطَّرِيقَ وَصُولًا

فسكت الملك ، وظن أن الأمر على ما وصفوه ، فلما سمع الساقى الذي كان مع يوسف في السجن ، ورأى الرؤيا فعبرها له ، وقال : اذكرني عند ربك ، وشاهد صدق قوله وتعبيره تذكره ، فقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥] ، يعني بعد نسيان ، وقيل : بعد مدة ﴿ أَنَا أَنَبْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٧٧٧ / ٤ ، وابن ماجه في سننه ١٢٨٧ / ٢ .

فَأَرْسَلُونِ ﴿يوسف: ٤٥﴾ ، قال : ثم إن الساقى وقف بين يدي الملك ، وقال : أيها الملك ، أما قول هؤلاء : أضغاث أحلام فباطل ، وإن في تأويلها العجب العجيب ، ثم قال : أيها الملك ، إن في سجنك غلاماً حكيماً عليمًا عنده من رؤياك علم عجيب ومعنى غريب ، وقد كنتُ أنا وصاحبي في السجن في المدة التي غضبت علينا فيها ، ورأينا كذا وكذا ، ففسرها لنا ، وكان كما قال : ، فقال الملك وما منعك أن تعرفني بأمره ؟ فقال : أيها الملك ، خفتُ أن تذكر جرمي المتقدمة ، فتكون سبباً للمعاقبة والمغاضبة ، فقال له : انطلقْ إليه فقد أذنتُ لك ، فانطلق الساقى إلى السجن ، ودخل على يوسف ، وجعل يتملق بين يديه ، ويعتذر إليه ويقول : لا تأخذني بنسياني وتقصيري ، فلم يكن ذلك مني عمداً ولا عسياناً ، وإنما كان غفلة ونسياناً ، قال : فقال يوسف : صدقت ، وإني لأعلم أن ذلك من سؤالي لغير ربي ، ثم قال : ما أخبر الله تعالى عنه : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتَنَّا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦] ، يعني أرجع إلى الملك وخواصه ، لعلهم يعلمون ويتحققون ما ذكرتُ من علمك وشرفك ، فلما سمع يوسف هذه الرؤيا لم يمتنع من شرحها . قال رسول الله ﷺ : « رحم الله أخي يوسف عبَّرَ لهم الرؤيا قبل خروجه من السجن ، لو كنت أنا لبادرتُ الخروج ، رحم الله أخي لوطاً حيث قال : لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركن شديد ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد » ^(١) ، فقال له يوسف : قل للملك إن رؤياك هذه بلية تدخل على رعيتك ، فانظر لهم فيها قبل نزولها ؛ لأن الملك بالرعية ، والرعية بصلاح الأحوال ، وحاجة الملك بالخدم كحاجة الرأس إلى القدم ، وانتفاع الملك بأعوانه كانتفاع الجسد بعيناه ، وقيل في المعنى :

الأَرْضُ إِنْ شَفَّ الصَّدَا إِندَاءَهَا فَشِفَاؤُهَا صَوْبُ الْعِمَامِ الْهَاطِلِ
وَالنَّاسُ إِنْ ظَلَمُوا فَإِنَّ شِفَاءَهُمْ مِنْ ظُلْمِهَا عَدْلُ الْإِمَامِ الْعَادِلِ
لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْ هِلَالٍ طَالِعٍ لَمْ تَخْشَ عَيْنٌ مِنْهُ حُجَّةَ مَائِلِ

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس ٢ / ٢٦٣ .

قل للملك : أما البقرات السماء والسبع السنبلات الخضر فهي سبع سنين خصبة كثيرة الخير والربيع ، لو أُلقي الحب على حجر يابس لنبت وخرج الحب الكثير ، فلا تحط حبة في الأرض إلا ونبتت ؛ وأما البقرات العجاف والسبع سنبلات اليابسات اللاتي أكلن الناعمات ، فهي سبع سنين تتصل بالماضيات ، وهي قحطات لا تنزل من السماء قطرة ، ولا تنبت الأرض حبة واحدة يأكلن ما كان من غلات السبع المقبلات الموأخر ، كما أكل البقرات العجاف البقرات السماء وأنت تنظر إليها في المنام ، فعليكم أن تبالغوا في السنين الخصبة بالزراعة في كل سنة ، فإذا أدركت غلاتكم ، وكثر خيركم فذروا كل ما تحصدونه في سنبله ، ولا تدرسوا منه إلا ما يقوتكم ، واعلموا أن إبقاءه في سنبله سبب لبقائه ، فلا يسرع إليه الفناء ، ولا يدخله العفن ، ويكون السنبل علفاً للدواب ، واستودعوها في المخازن ، واصنعوا في الأرض الأهراء حتى تتم السبعة الخصبة ، ثم يأتي بعد ذلك سبع شداد يُحتاج فيها إلى استعمال ما جمعتم من الطعام ، ويفنى فيها ما أعددت من الحب والزرع ، فإذا تمت الأربع عشرة سنة صلح الأمر ، وزال العذاب والجوع ، وتدارك الله الخلق وهو قوله تعالى ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ٤٩] وقيل في المعنى :

بَذَلُ النَّصِيحَةِ سُنَّةُ الْفَضْلَاءِ	لَا يَسْخَلُونَ بِهَا عَلَى الْأَعْدَاءِ
يُولُونَهَا مَنْ جَاءَهُمْ مُسْتَرْشِدًا	لَا يَسْتَعُونَ بِذَلِكَ نَيْلَ جَزَاءٍ
يُبْدُونَ إِشْفَاقًا عَلَى كُلِّ الْوَرَى	مِنْ كُلِّ دَانٍ مِنْهُمْ أَوْ نَائِي
وَيَرَوْنَ فِي الْمَصْنُوعِ صَنْعَةَ خَالِقِ	أَلْطَافُهُ تَلْتَاخُ فِي الْأَشْيَاءِ
فَهُمُ الْبُدُورُ إِذَا الْمَكَارِمُ أَظْلَمَتْ	وَهُمُ الشُّفَا مِنْ كَثَرَةِ الْأَدْوَاءِ

قال : فرجع الساقى إلى الملك ، وأخبره بما قال يوسف عليه السلام من تعبير الرؤيا ، فتعجب الملك وخاصته من قوله ، وأقروا بفضله ، وعلموا ما هو عليه من فطنته وحكمته وعقله ، وقال الملك : مثل هذا لا يُهان ولا يُحبس ، فقال الملك : أحضروه إليّ ، ومثّلوه بين يديّ ، وهو قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ [يوسف: ٥٤] ، يعني هذا الرجل العالم الكريم أريد أن أكرمه وأشرفه ، وأنزله منزلة أمثاله ، فمثل هذا لا يُهان ولا يُحبس فجاءه الرسول برسالة

الملك وقال له : إن الملك يدعوك ليكرمك ويشرفك ، فإنه قد أيقن بفضلك وحرمتك وشرفك ، فقال له يوسف : وكيف أخرج وأنا في سجنه منذ سنين ، وهو لا يعرف براءتي ، ارجع إليه ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٠] ، قال رسول الله ﷺ : « رحم الله أخي يوسف إنه كان حليماً ذا أناة ، لو كنت أنا لبادرتُ الخروجَ من السجن سريعاً » ، وقيل : إنما أراد يوسف أن يعرف الملك ببرائته مما تُسب إليه ، فجمع الملك النسوة وزليخا معهن ﴿ قَالَ : مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف: ٥١] ، وكيف دعوته إلى الفاحشة ؟ فأقررن عند ذلك ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ [يوسف: ٥١] ، ولا كانت له رغبة فينا ، ولا دعوة إلى الزنا ، وإنه لبريء الساحة ، طاهر الذيل ، فقالت امرأة العزيز : هذا وقت بيان الحق واضمحلال الباطل ، إن مراد حبيبي إقرار ، فأنا أقر بذنبي ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥١، ٥٢] ، وقيل في المعنى :

وَلَوْ قُلْتَ طَأْ فِي النَّارِ أَعْلَمُ أَنَّهَا رِضَاؤُكَ أَوْ مُدَّتْ لَنَا مِنْ وَصَالِكَا
لَقَدَّمْتُ رِجْلِي نَحْوَهَا فَوَطِئْتُهَا سُرُورًا لِأَنِّي قَدْ خَطَرْتُ بِبَالِكَا

فلما أقررن أتاها الرسول ، وعرفه بإقرارهن ، وقيل : إن جبريل عليه السلام نزل عليه في تلك الساعة فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ [يوسف: ٥٢] الملك ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [يوسف: ٥٢] ، يعني في السر ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٢] ، فقال له جبريل : ولا حين هممت فعصمك الله ؟ فعند ذلك قال : ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣] ، يعني إلا ما عصم الله . وقيل لو خرج يوسف قبل بيان العذر لبقى في نفس الملك منه شيء ، فعندما زالت التهمة وظهرت النعمة ، خرج من السجن ، ودعا لأهل السجن دعوة مستحاجة تعرف فيهم إلى يوم القيامة ، فقال : اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ، ولا تعم عليهم الأخيار ، وكتب على باب السجن حين خرج ، هذا قبر الأحياء ، ومترل البلاء ،

وشماتة الأعداء ، وقيل في المعنى :

لَا تَحْزَنْ لِعُسْرِ قَدْ دُهَيْتَ بِهِ فَكُلْ عُسْرٍ كَرِيهِ سَوْفَ يَنْصَرِمُ
وَهَوْنِ الْأَمْرِ يَحْلُو ذَوْقُ مَطْعَمِهِ هَلْ غَادَرَ الدَّهْرُ إِلَّا مَنْ لَهُ كَرَمُ
إِنَّ النَّجُومَ لَتَبْدُو كُلَّ آوْنَةٍ وَالْبَدْرُ يُكْسِفُ أَحْيَانًا وَيَنْكَبُ
فَانْظُرْ إِلَى يُوسُفَ الصَّدِّيقِ كَيْفَ غَدَا رَهِيْنَ قَيْدٍ شَكَا مِنْ ثِقَلِهِ الْقَدَمُ
وَكَمْ بِسِجْنٍ ثَوَى يَشْكُو صَبَابَتَهُ وَالْقَلْبُ مُحْتَرِقٌ وَالدَّمْعُ مُنْسَجِمُ
كَأَنَّهُ ذُرَّةٌ إِذْ سِجْنُهُ صَدَفٌ وَالْمِسْكُ فِي صُرَّةٍ يَبْدُو وَيَلْتَمُ
فَكَانَ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ السِّجْنِ مَا سَمِعْتُ أُوذُنَاكَ مِنْ فَرْحٍ يَجْرِي بِهِ الْقَلَمُ
وَصَارَ مَمْلُوكُهُمْ بِالْقَهْرِ مَالِكُهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَعْنُو لَهُ الْأُمَمُ
هَذَا دَلِيلٌ عَلَى إِبْتَاتِ خَالِقِنَا وَأَنَّهُ خَالِقٌ مَا شَاءَ يَحْتَكِمُ

يا مسجوناً في حبس نفسه ، يا مقيداً بقيود طرده ، إن أردت التيسير من جواك ،
فخالف هواك ، لولا إيثار يوسف السجن أحب إليّ لم يخرج إلى راحة مكنا له في
الأرض ، من تذكر خنق الفخ هان عليه ترك الحبة ، لما جعل الزيت نفى القنديل
علا الزيت على الماء ، فناداه الماء بلسان الحال : كيف تعلو عليّ ويا طالما كانت
ثمرتك محتاجة إليّ فسقيتها من معين السلسال ، ورويت عروقها بالماء الزلال ، فبعد
إنفاقي عليك من رأس مالي صرت تعلو عليّ ولا تبالي ؟ فناداه الزيت : يا من عتا
وتكبر ، وعدّ فضائله وما تدبر ، ما لعيوبك خفا ؛ لأنك إذا ألفت المصباح انطفا ،
وأنا لما صيرت على طحن الرحا وفراق الأغصان ، علوتك في هذا المكان ، وقيل :
جاوبه بأسحن من هذا ، فقال : لما عرفه الماء بفضله قال : نعم ، ولما علمت ذلك
منك ، وكنت لي كالوالد البارّ فتلقيتُ عنك النار . سم عقاب العقاب مندرج في
لقم الهوى . فكيف تطيب يا مسكين وأنت مقيم في مناخ الراحلين ، فاعتم أيام
القدرة قبل صحة الإزعاج ، فما أقرب ما ينتظر ، وأقل المكث فيما يزول ويتغير ،
ما نيلت فضيلة قط إلا بتعب ، من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة إليه ، كم
صبر بشر على شهوة حتى سمع كلمة ، كل يا مَنْ لم يأكل ، واشرب يا مَنْ لم
يشرب ، ما مد سحاف نعم العبد على قبة ، ووهبنا له حتى جرت في أمانه إنا
وجدناه صابراً . كان بعض التجارين يبيع الخشب وكان عنده قطعة آبنوس ملقاة
تحت الخشب فاشترت منه ، فدخل دار الملك بعد مدة فإذا بها قد جعلت في سرير

الملك ، فقال : سبحان الله ، لقد كنت لا أعبأها ، فكيف وصلت إلى هذه المترلة ؟
فهتف به لسان الحال : لا تنظر في الحال إلى الثمرة وتنسَ صبر الأصل ، كم صبرت
على ضرب القادوم ، ونشر المنشار ، والتغرب عن الأوطان حتى وصلت إلى هذا
المكان ، وقيل في المعنى :

وَالْعِزُّ فِي كَلْفِ الرَّجَالِ وَلَمْ يُنَلِّ عِزُّ بِلَا تَعَبٍ وَلَا تَكْلِيفٍ
وَالْمَجْدُ مَعْنَى لِلْأَعِزَّةِ دَارُهُ وَالذُّلُّ يَنْبْتُ فِي مَكَانِ الزَّيْفِ

(حكاية) قال أحد السادة : دخلتُ بلداً من البلاد ، وكنت بحال فاقة شديدة
واضطراب كثير ، فبينما أنا أمشي في بعض الأزقة إذ نازعتني نفسي ، فقالت : لو
تزوجت ، فقلت : أعلى ما أنا فيه من الفاقة وأنت تحدثيني بما لا يكون ؟ ! فبينما
أنا أمشي وأختصم مع الخاطر إذا أنا بالعسس قد لقيني ، وقالوا : أنت سرقت كذا
وكذا دينارا ، فقلت هي عقوبة الخاطر ، اللهم إني أستغفرك ، فإذا برجل قد لقيني
ونظر إلي ، وقال لهم : أطلقوه فليس هذه سيمة للصوص ، قال : فأطلقوني ، فقلت
في نفسي : إني لكرتم على الله حيث قبل استغفاري وعجل لي البرهان ، فقلت :
والله ، هذا أشد من الخاطر الأول ، وعقوبته أشد ، فعملتُ على نفي الخاطر فلم
ينتف ، قال : وإذا بهم قد لحقوني مرة أخرى ، وقالوا : أنت اللص لا محالة ،
فاحتملوني إلى صاحب الشرطة ، فأوقفوني بين يديه ، وقالوا : هذا سرق كذا وكذا
دينارا ، فقال : كيف وعليه سيما الصالحين وثبات المريدين ؟ ففتشوه ، قال :
ففتشوني ، فأخرجوا صرة من الذهب من تحتي ، والله ما أدري لها خبيرا ، فقال لي :
ويحك ، تشبه بالصالحين ، وتشبه بالمريدين ، وأنت من اللصوص المفسدين ؟
احملوه إلى السجن ، وقيدوه وغلوه حتى تُرفع مسألته إلى السلطان فيمثل به ،
فاحتملوني إلى السجن ، وقيدوني وغلوني ، فبقيتُ يومي ذلك في وثاق عظيم ،
فصليتُ الصلوات الخمس إيماء ، فلما جن الليل ، وهدأت الأرجل ، ونامت
العيون ، رفعتُ بصري إلى السماء ، وقلت : سيدي في أضيق المحابس حستني ،
وبين المجرمين أجلسني ، إلهي أطلق وثاقي حتى أؤدي فرائضك ، فتركها أشد عليَّ
من كل ما أصابني ، وقيل :

هَذَا جَسَدِي وَدِيعَةٌ قَدْ أَقْوَى هَلْ يَحْسُنُ بِي إِلَى سِوَاكَ الشَّكْوَى
أَنْتَ الْمُبْلَى فَكُنْ مُزِيلَ الْبُلْوَى لَا يَرْفُقُ بِالضَّعِيفِ إِلَّا الْأَقْوَى

غيره :

يَا مَنْ بِجِبَالٍ وَدَّهِ اعْتَصِمُ أَبْدِي جَلَدًا وَأَدْمُعِي تَنْسَجِمُ

الْعَبْدُ لَكُمْ فَمَا تَشَاءُوا احْتَكُمُوا هَلْ يَحْمِلُ بِالْكَرِيمِ إِلَّا الْكَرَمُ

غيره :

أَيَّامُ نَوَاكَ غَيَّرْتَ أَشْكَالِي أَسْيَافُ قِلَافِكَ قَطَعْتَ أَوْصَالِي
يَا غَايَةَ بُغْيَتِي وَيَا آمَالِي ارْحَمْ ذُلِّي فَأَنْتَ أَنْتَ الْوَالِي

قال : فإذا بالغُلُ قد انحل ، والقيد قد وقع ، وبقيتُ سارحاً ، فقمْتُ إلى البئر ، فاستقيتُ ماءً ، وتوضأتُ وصليتُ ، واستغفرتُ الله تعالى على ما سلف مني ، وإذا بالغُلُ قد رجع إلى عنقي ، والقيد إلى رجلي ، فبقيتُ مكاني أنتظر الأمر الرباني ، فإذا بباب السجن يُقرع قرعاً عنيفاً ، ومنادٍ ينادي : أخرجوا ولي الله المظلوم ، وقيل :

أَخْرِجُوا مِنْ سِجْنِكُمْ مَنْ سُجِنَا إِنَّ فِي السَّجْنِ رُمُوزًا بَيْنَنَا
مَا تَرَكْنَاهُ وَلَا تُسَلِّمُهُ كَيْفَ وَالْمَسْجُونُ حَقًّا عَبْدُنَا
مَنْ أَرَادَ الْقُرْبَ فِي حَضْرَتِنَا وَحُصُولِ الْأَمْنِ فِيهَا وَالْغَنَى
فَلْيَغِبْ عَنْهُ يُنَاجِي رَبَّهُ كُلُّ مَا يَصْدُرُ مِنَّا حَسَنًا
يَجِدُ التَّعْذِيبَ عَذَابًا فِي الْهَوَى ثُمَّ يَرْمِي خَلْفَهُ لَفْظًا أَنَا
عِنْدَهَا تَمْنَحُهُ مِنْ وَصَلِنَا كُلُّ مَا شَاءَ وَنُعْطِيهِ الْمُنَى

ففتحوا باب السجن ، وفكوا قيدي ، وأزالوا غلِّي ، واحتملوني على أعناقهم ، وأدخلوني على السلطان ، فقام إلي وعانقني ، وقال : يا أخي ، ما كانت هذه الوحشة التي وجب بها ما ظهر عليك ؟ فقلتُ : خطرة أوجبت ما ترى ، فقال : يا أخي ، إني كانت لي بداية صالحة ، ثم امتحنت بالدنيا وأهلها ، ولذلك طردني من جنبابه ، أشهدك أني قد خرجتُ عنها إلى ربي ، فترك الإمارة ، وخرج عن الملك منقطعاً إلى الله عز وجل ، ثم لم يزل في أعداد المنقطعين حتى جاءه الموت . فنسأل الله عز وجل أن يرزقنا حبَّهم ، وحبَّ مَنْ يحبهم ، وحبَّ مَنْ يقرينا إلى حبهم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس العاشر

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

الحمد لله فائق الإصباح وجاعل الليل سكناً ، خالق الأرواح ومقدر الأشباح لها وطناً ، القائم بأرزاق العباد فما لمخلوق عنه غنى ، الدائم الذي لا يعتريه الزوال ولا يصيبه الفناء ، الشاهد على كل مخلوق بما كسب وجنى ، الواحد الذي أحاط علمه بالأشياء فسواه عنده ما بعد وما دنا ، السميع الذي يسمع دعاء المضطر إذا دعاه ويرى من الضنا ، البديع الذي ما زال يستر قبيحاً ويظهر حسناً ، الكريم الذي يقبل توبة التائب وإن أرسل في مخالفته رسناً ، الحليم الذي لا يعجل على من عصاه وينيله الرغبة والغنى ، حامل السموات والأرض على كاهل الاقتدار ولا يُنسب إليه الكسل ولا العنا ، كلم موسى على جبل الطور فقال : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ [طه: ١٤] ، وعرج بمحمد ﷺ إلى قاب قوسين أو أدنى ، فتناول من ثمارها ما قرب وجنى ، ورجع إلى فراشه والليل على حاله ، وقد ألبس حلة التشريف وتوج بتاج الوقار والسنا ، فقلده رسالته وحمله أمانته وحاز البغية والمنى ، فطوبى لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ولم يصحبه الفتور ولا الونا ، ويا ويح من ضيعها وتشاغل عنها بزهرة الدنيا فكان ممن أخبر الله عنه في كتابه العزيز وكفى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ، ماذا أراد حيث ضيع عهدنا، أحمله على نعمائه سرّاً وعلناً ، وأشكره على نعمه التي بها عمنا ، وأسأله أن يفرج كربنا وغمنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مبرئة من الشك والريب والونا ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي شاد به منار التوحيد وبني ، وهدم جدار الكفر وكسر وتنا ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أظهروا سنناً وهدوا سنناً ، صلاة تدوم وتقوم ما اكتحل جفن وسنا ، ولزم طائر فننا ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل في المعنى :

حَمَلُ الْأَمَانَةِ حُظُوءَةً وَأَمَانٌ فِيهِ عَلَى تَفْضِيلِهَا بُرْهَانٌ
عَرِضْتُ عَلَى الْأَكْوَانِ طَرًّا أَجْمَعًا فَتَكَاسَلْتُ عَنْ حَمَلِهَا الْأَكْوَانُ
وَبَدَأَ عَلَيْهَا الْعَجْزُ فِيمَا حُمِلَتْ وَالْوَهْمُ وَالْإِشْفَاقُ وَالْحِذْلَانُ
لَوْ أُيِّدَتْ حَمَلَتْ وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ أَهْلًا لِذَلِكَ فَشَأْنُهَا الْإِذْعَانُ
وَحَبَابُهَا رَبُّ السَّبْرَةِ آدَمًا فَتَأَكَّدَ الْإِيثَارُ وَالْإِحْسَانُ
هَبْ أَنَّهُ أَبْدَى الَّذِي لَا يُرْتَضَى وَأَصَابَهُ مِنْ فِعْلِهِ النَّسْيَانُ
هَيْهَاتَ لَوْ لَمْ تَبْدُ مِنْهُ جَهَالَةٌ مِنْ أَيْنَ كَانَ يَنَالُهُ الْغُفْرَانُ
وَلَوْ أَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُظْهِرُ طَاعَةً مَا كَانَ مَعْنَى لَاسْمِهِ الرَّحْمَنُ
لِلَّهِ سِرٌّ فِي الْخَلِيقَةِ كَائِنٌ فَانْظُرْ بِقَلْبِكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ
أَنْتَ الْمُدَبِّرُ لَا الْمُدَبَّرُ يَا أَخِي وَالْإِعْتِرَاضُ عَلَى الْقَضَا عِصْيَانُ

قوله تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

[الأحزاب: ٧٢] الآية . اعلم أن الله تعالى سبغ خزائن كائنة بين الكاف والنون :
خزانة المطر في السماء ، وخزانة النبات في الأرض ، وخزانة اللؤلؤ في البحر ،
وخزانة الذهب والفضة في الجبال ، وخزانة النار في جهنم للكفار ، وخزانة الرحمة
في الجنة للمؤمنين ، وخزانة معرفته في قلوب العارفين . والعرض ينقسم على أربعة
أقسام :

الأول : عرض الكرامة للملائكة ، قوله تعالى ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾
[البقرة: ٣١] .

الثاني : عرض المحاسبة قوله تعالى ﴿ وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ﴾ [الكهف: ٤٨] .

الثالث : عرض العقوبة ، قوله تعالى ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾
[الكهف: ١٠٠] .

الرابع : عرض الأمانة ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] . وقيل : عرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال عَرْضَ عرض ، وعرضها على الإنسان عَرْضَ فرض ، فكلُّ صاحبِ العرض ، وأجاب صاحب الفرض . وقيل : عرض الله الأمانة على السموات والأرض وهي أجرام بلا قلوب ولا أرواح ، فأشفقن وأبين ، وعرضها على آدم وهو قلب وروح ، فقبلها بالقلب والروح ، لا بالجسم والجِرم . وقيل : عرض الله الأمانة على السموات مفردة وعلى الأرض مفردة فضعفت الأفراد ، فقبض قبضة آدم من الأرض والجبال ، وخرمها بالماء ، وأسكنها الجنان ، فاجتمع المقترب فحملها ، وقال الحسن وابن جريج : قالت السموات : ربُّ ، زيتني بالكواكب ، وأجريت في الشمس والقمر حسباناً ، وقدَّرت الليل والنهار برهانا حتى لا أحمل فريضة ، ولا أتقيد لثواب ولا عقاب ، وكذلك قالت الأرض والجبال ، ثم عرضها على آدم بما فيها ، ثم قال : إن أطعني فلك ثوابي ، وإن عصيتني فعليك عقابي ، فقال : يا رب ، قد حملتها بما فيها بين أذني وعيني وقلبي ، فلم يسكن الجنة إلا بقدر ما بين الظهر والعصر حتى أخرج منها ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ الآية . وقيل : عرضها على الملائكة والوحوش والبهائم ، فأما الملائكة فعرفت جلاله ، وخافت المكر والاستدراج ، وعرفت أن ضمان الحمل يعرض للدعوى ، فلم تتعرض لذلك ، وأشفت منه ، وأما الوحوش والبهائم فقالت : اللهم ، إنك خلقتنا من التراب ، فردُّنا إليه ، ولا تحمِّلنا هذه الأمانة ، فإننا لا نطيقها . وقيل : إن الله تعالى استخلف آدم عليه السلام في الأرض ، وسلطه على الطير والوحوش والبهائم ، وأمره ونهاه ، وحل له وحرم عليه ، فكان على ذلك إلى أن جاءه الموت ، وأراد أن يعرض ما حملة على من استخلفه بعده ، فعرضها على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وفرن منها ، فعرضها على ولده بما فيها فحملها ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ الآية . وقيل : الأمانة الفرائض التي في فعلها الثواب ، وفي تركها العقاب ، عرضها على السموات والأرض والجبال . وقيل لمن : احملن الأمانة بما فيها ، فمن أداها فله الثواب ، ومن

تركها فعليه العقاب ، فقلن : لا ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] . وقيل : الأمانة المعرفة بالله . خفاش تعاطى رؤية الشمس ، فقيل له : ارجع إلى ذكر الحدوث ، واخرج من الظلمة ولا تعد ، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧] . لما أُسري بالنبي ﷺ قال الله تعالى : يا محمد ، أشكو إليك التقى من عبادي والمؤمن والكافر والبر والفاجر ، فقال : يا رب ، هذا الكافر والفاجر ، فما بال المؤمن والبر ؟ فقال : يا محمد ، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧] . وقيل : الأمانة حفظ الجوارح ، « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » . وفي الحديث "البصر أمانة ، والسمع أمانة ، والقلب أمانة ، فليحفظ أحدكم أمانته" . وقيل : إن الله تعالى في ظاهر العبد سبع أمانات ، وفي باطنه سبع أمانات ، فأما أمانات الظاهر فالسمع والبصر والفؤاد ، ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦] ، وأمانة على لسانه ، قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦] ، وأمانة على بطنه ، قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ [البقرة: ١٨٨] ، وأمانة على يديه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩] ، وأمانة على رجله ، قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] ، وأمانة على فرجه ، قوله تعالى : ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠] ، فإن حفظت سمعك فتوابك أن تسمع كلام الله ، قوله تعالى ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨] ، وثواب حفظ عينيك ، ﴿ وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ، إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] ، وثواب حفظ لسانك قولك في الجنة ، ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ ﴾ [الزمر: ٧٤] ، وثواب حفظ يديك ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ

بِمِمينه [الحاقة: ١٩] ، وثواب حفظ بطنك ، ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] ، وثواب حفظ رجلِك ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥] ، وثواب حفظ فرجك ﴿ زَوَّجْنَاهُم بِخُورٍ عِينٍ ﴾ [الدخان: ٥٤] . والأمانات التي يباطنك : همتك وإرادتك ونيتك وفكرتك وخطراتك وعقدك وعهدك ، وثواب حفظها رضي الله عنهم ورضوا عنه . وقيل : الأمانة الفعل الصادر من الإنسان ، إن قال : فعلته بقوتي وحولي فقد خان الأمانة ، وإن قال : فعلته بحول الله وقوته فقد أدى الأمانة . وقيل الأمانة الإخلاص في العمل ، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥] . وقال أبو القاسم القشيري التسكري : سألت أبا عبد الرحمن السلمي عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألت علي بن سعيد عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألت محمد بن زكريا عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألت محمد بن جعفر الخفاش عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألت أبا يعقوب الشريطي عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألت محمد بن غسان عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألت أحمد ابن يسار عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألت عبد الرحمن بن زيد عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألت حذيفة عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألت النبي ﷺ عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألت جبريل عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألت رب العزة عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : يا جبريل ، الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي . وقيل : الأمانة الحكم بين الناس ، فمن عدل في أحكامه فقد أدى الأمانة ، ومن جار في أحكامه فقد خان الأمانة . وقال أبو ذر : « قلت : يا رسول الله ، ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي وقال : يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وهي يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها » . وقال الضحاك : الأمانة الفرائض ، فمن كملها فقد أدى الأمانة ، ومن نقصها فقد خان الأمانة . وقال رسول الله ﷺ قبل أن تنزل الحدود : « ما تقولون في السرقة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هي فاحشة ، وأسوأ السرقة الذي يسرق صلاته ، فلا يتم ركوعها وسجودها » .

وقيل : الأمانة ترك الغش ، وبذل النصح للمسلمين . قال رسول الله ﷺ : « من غشنا فليس منا » . وقال رسول الله ﷺ : « ينام الرجل النومة ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت ، ثم ينام النومة ، فتقبض فيبقى أثرها في قلبه مثل أثر الجمل ، كجمر دحرجته على رجلك فنفظ ، فتراه منتبراً فيصبح الرجل وليس في قلبه شيء من الأمانة ، فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحد أن يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، وحتى يقال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفه ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان » ، وقيل في المعنى :

يَا مَنْ حَيَاتُهُ عَلَيْهِ تَهُونُ	أَقْصِرْ فَنَفْسُكَ لَوْ عَقَلَتْ تَهُونُ
يُلْقَى إِلَيْكَ الْمُسْلِمُونَ أُمُورَهُمْ	فَلَهُمْ لَدَيْكَ بَضَائِعُ وَدُيُونُ
وَيَجِيءُ كُلُّهُمْ إِلَيْكَ بِقَلْبِهِ	فَتَعُشُّهُمْ عَمْدًا نَعَمٌ وَتَحُونُ
وَتَزِينُ مَا تُبْدِيهِ وَيَحْكُ وَالَّذِي	تُخْفِيهِ يُوهِنُ فِعْلُهُ وَيَشِينُ
مَا أَنْتَ إِلَّا كَالسَّرَابِ رَأَاهُ ذُو	ظَمًا فَظَنَّ بِأَنَّ ذَاكَ مَعِينُ
وَأَفَاهُ كَيْ يَشْفِي الْعَلِيلَ فَلَمْ يَجِدْ	شَيْئًا وَخَابَتْ عِنْدَ ذَاكَ ظُنُونُ
يَا جَاهِلًا خَفَتْ عَلَيْهِ ذُنُوبُهُ	وَالثَّقُلُ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ يَكُونُ
لَا تَصْغُرَنَّ إِلَيْكَ قَدْرُ خَطِيئَةٍ	إِنَّ الْمُحَاسِبَ سِجْنُهُ سِجِّينُ

وقيل : إنه ليس شيء أنفس قدراً ، ولا أعلى خطراً من الأمانة ، فإن استعماها يقرب من الملوك في الدنيا ويُدني من ملك الملوك في العقبى ؛ ألا ترى أن الملك الريان بن الوليد لم يجد رتبة يخص بها يوسف عليه السلام أنفسَ منها ، حيث قال : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: ٥٤] ، يعني قد ظهرت لي أمانتك حيث كنت في دار العزيز ، فلم تخنه في أهله ، ولا نسيت ما سلف من إحسانه وفضله . قال : أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : لما تحقق للملك براءته ، وتيقن أمانته ، زاد عنده حظوة ، وكثر شوقه إليه ، وقال ما أخبر الله عنه : ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ [يوسف: ٥٤] ، فأرسل إليه عجلته التي كان يركب عليها ، وكانت من ذهب ، وشدت العجلة على أعناق الفيلة بسلاسل الذهب ، وأحاطت الفرسان

بالعجلة ، واصطفت الرجال خلف الفرسان ، وضربوا له سباطين من السجن إلى باب الملك ، فخرج يوسف في موكب عظيم ، فلما أقبل ونظر الملك إليه وقد ألقى الهيبة عليه ، وقيل في المعنى :

إِذَا مَا بَدَأَ لِي تَعَاطَمْتُهُ فَأَصْدِرُ فِي حَالٍ مَنْ لَمْ يَرِدْ
جَمَعْتَ وَفَرَّقْتَ عَنِّي بِهِمْ فَمَعْنَى التَّوَاصُلِ فَرُدُّ الْعَدَدَ

فتزحزح الملك عن مكانه تعظيماً لشأنه ، ولم يتزحزح قبل ذلك لأحد قط ، وأقعده معه على السرير ، فلما كلمه يوسف قال : « إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ » [يوسف: ٥٤] ، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً ، فأجابه يوسف بكل لسان كلمه به ، فلما فرغ تكلم يوسف بالعبرانية ، وكان الملك لا يحسنها ، فازداد الملك عجباً وبهجاً به ، وأعجب به ، وأقر بحكمته ، فقال : يا يوسف ، عبّر لي رؤياي ، فأني أحب أن أسمعها منك ، فقصّ عليه الرؤيا على أتم ما رآها ، فقال الملك : يا يوسف ، أما الرؤيا فعجب ، وأعجب منها قصُّك لها ، وفهمك لمعانيها ، وعلمك بمبانيها ، فحق لك الفخار ، وعلو المقدار ، فبورك فيك وفي علمك وفهمك ، فلقد حفظت وأحصيت ؛ فمن أخبرك بها على هذا الوجه ؟ قال : أخبرني بها أمينٌ يأتيني من عند ربي يقال له : جبريل ، وقيل :

حُقُّ الْفَخَارِ لِمَنْ لَهُ جِبْرِيلُ يَأْتِي فَعَنْهُ يَصْدُرُ التَّأْوِيلُ
عُلِمَتْ مَكَائِثُهُ فَعَزَّ مَكَائُهُ وَتَأَكَّدَ التَّنْزِيهِ وَالتَّفْضِيلُ
لَمَّا رَأَاهُ عَدُوُّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ ثَبَّتَا وَحَلَ الْقَلْبَ مِنْهُ ذُهُولُ
لَمْ يُعْنِ عَنْهُ وَيَحَهُ سُلْطَانُهُ وَسَرِيرُهُ وَالتَّاجُ وَالْإِكْلِيلُ
مَلِكُ الْمُلُوكِ أَعَزَّهُ فَجَمِيعُ مَا يَلْقَاهُ مِنْ هَذَا الْوُجُودِ ذَلِيلُ
يَا نَاطِرِينَ لَهُ فَأَصْغُوا وَاسْمَعُوا وَتَبَصَّرُوا إِنَّ الْكَلَامَ طَوِيلُ
يَكْفِيكُمْ مَا قَدْ بَدَأَ مِنْ صِدْقِهِ وَالصِّدْقُ بِالْعَزِّ الْمَدِيدِ كَفِيلُ
هَذَا الَّذِي سَبَقَ الْقَضَا بِعُلُوِّهِ وَلَهُ سَبِيلٌ لِاتِّحَ وَدَلِيلُ

اللَّهُ قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ بِمِصْرِكُمْ مَلِكًا لَهُ أَسَدُ الْكِفَاحِ تَمِيلُ
وَبَعْدِلِهِ تَحْيَا الْبِلَادُ وَذِكْرُهُ يَبْقَى مَدَى الْأَيَّامِ لَيْسَ يَحُولُ

فقال الملك : ما ترى في هذا الأمر الذي ذكرت لنا ؟ وكيف يكون الخلاص منه ؟ فقال يوسف عليه السلام : أرى أن تجمع الطعام في سني الخصب ، ثم تبني له الأهرام ، وتتركه في سنبله ؛ لأنه يكون قشره علف الدواب في سني الجذب ، ويكون الحب للناس ، فقال له الملك : وكم أجمع من ذلك ؟ فقال له يوسف : اجمع عبيدك وأهل مصر كلهم وما حولها من الآفاق والقرى يمتارون بحكمك ؛ لأن سني القحط تعم الأرض كلها ، فإذا فعلت ذلك لم يوجد الطعام يومئذ إلا عندك ، وفيه حياة للناس ، فيكون أمر الناس يومئذ بيدك ، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجمعه ملك قط ، فقال : يا يوسف ، كيف هذا ؟ ومن يكون القائم عليه ؟ ومن يدبره ؟ ومن يجمعه ويحصيه ولو جمعت أهل الأرض كلهم ما أطاقوه ، ولا بلغوا منه كل الذي تقول ؟ فقال له يوسف : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥] ، وإن الله تعالى قد قضى بذلك ، أوحى به إلي ، وأمرني أن أكون القائم بها ، والمدير لأمر الناس ، فقال الملك : صدقت ، إني لا أعلم أحداً أحق به منك ، فدونك ، وهذا الخاتم ، وهذا التاج والسرير فبهما يقوم ملكي ، ويشيد أمري ، فلعمري ، إن الذي أعطاك إلهك وشرفك به لقليل في حقك ، ويسير في خطرك ، فأنت الذي تحيا به مصر بعد موتها وأهلها ، فقال له يوسف : أما الخاتم فأشده به أمرك ، وأما السرير فأظهر به سلطانك ، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي ، فقال الملك : صدقت ، فإن لم تلبسه فأنا أضعه عن رأسي حتى يعلم الناس أني قد وضعته إجلالاً لك ، وأني فضلتك على نفسي ، وأثرتك بسلطاني ، وقيل في المعنى :

سَأَخْرِجُ عَنْ حَوْلِي وَأُظْهِرُ إِنْتَاجِي وَأَنْزِلُ عَنْ مُلْكِي وَأَزْهَدُ فِي التَّاجِ
وَمَآذَا يُفِيدُ التَّاجُ وَالْعَجْزُ بَيْنَ وَأَقْبَحُ شَيْءٍ لَوْ تَرَى عِزَّ مُحْتَاجِ
إِذَا كَانَ جَبَّارُ السَّمَاوَاتِ قَاضِيَا فَمَا أَحَدٌ مِمَّا يُرِيدُ بِهِ نَاجِي
وَهَلْ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ عَيْشٍ رَأَيْتُهُ إِذَا الشَّمْسُ لَاحَتْ أَذْهَبَتْ ظِلْمَةَ النَّاجِي
أَلَا فَاقْضِ فِينَا مَا تَشَاءُ فَكُلُّنَا لِإِظْهَارِ مَا تُبْدِيهِ فِي مِصْرِنَا نَاجِي

قال : فوضع الملك التاج على رأس يوسف ، وختمه بخاتمه ، وأجلسه على سريره ثم قال له : رضينا بك ، وسمعنا كلامك ، وأقررنا بعلمك وشرفك وأدبك والخصال المجموعة فيك التي لا تُحصى ، والحكم حكمك والأمرُ أمرُك ، والقول قولك ، وأنت المقدم ونحن التبع ، راضون بقضائك ، سامعون لك ، مطيعون لرضائك ، وقد وليتك على مملكتي أربع عشرة سنة قَدَرُ أيام السعة والضيق والرخص والشدة ، وشرطي عليك أنه إذا مضت هذه المدة وحسُنَ أمر الناس وعادت الأمور إلى رسومها رردتَ عليَّ مملكتي كما وليتك ، وأعود أنا فيها كما كنتُ ، فتكون أنت إذ ذاك أعزَّ مَنْ في مملكتي ، لا أَمْنَعُ شيئاً تريده ، ولا حَكماً تنفذه ، قال : فشارطه على ما تقدم ذكره ، واستوثق منه وفاءً وعهداً ، وأشهدُ الله تعالى على ذلك ، ثم اعتزل الملكُ عن ملكه ، وفوضَه إليه ، وأجلس يوسف عليه السلام ، وجلس هو بين يديه ، وقيل في المعنى :

هَذَا خَدَيَّ بِيَايِكُمْ مَبْسُوطٌ هَذَا رَأْسِي لِحُكْمِكُمْ مَخْطُوطٌ
هَذَا حَرْفِي بِحُبِّكُمْ مَنْقُوطٌ مَا الْقَلْبُ عَلَيْكَ إِنْ صَبَا مَغْلُوطٌ

غيره :

السَّاسُ لَدَيْكَ كُلُّهُمْ قَدْ صَارُوا عَبِيدًا تَقْضِي فِيهِمْ بِمَا تَخْتَارُ
قَالُوا وَالْكُلُّ مِنْ جَمَالِكَ حَارُوا هَذَا نُورٌ تَهَابُهُ الْأَقْمَارُ

غيره :

أَنْتَ الْمَأْتُورُ بِالْجَمَالِ الْبَارِعِ أَنْتَ الْمَوْصُوفُ بِالضِّيَاءِ اللَّامِعِ
اصْنَعْ مَا أَنْتَ بَعْدَ هَذَا صَانِعُ الْكُلُّ لَدَيْكَ مُسْتَهَامٌ خَاصِعُ

قال : فلما طلع هلال أول ليلة من السنين الصالحة ، جمع يوسف أهل مصر دانياً وقاصياً ، وأمرهم أن يصلحوا الأراضي ، ولا يتركوا شبراً من الأرض التي تُزرع ، فاستعدوا لعمارة الأرض وإصلاحها ، فأنبث الله تعالى زرعهم فوق العادة ، وظهر فيه النماء والصلاح والزيادة حتى تعجب الناس منها ، فأتت البركات ونجحت الحركات ، فلما كان أوان إدراك الزرع أمر يوسف عليه السلام ، فنبئت له المخازن مما لا

يوصف قدره ، ولا يُدرك عدده ، ولا يوصف طولها ولا عرضها قدر ما يسع غلّ عامهم ذلك ، ثم أمر بحصادها وخزنها في السنابل ، وما زالت الغلات تنقل إلى المخازن من جميع المدائن وينفق على أهل البيت بقدر نفقاتهم وحاجاتهم على التحرير وعدد العيال وكان النيل يفيض في كل عام شاملاً ، ويوسف يصنع الأهرام ، ويبني المخازن سبع سنين حتى انقضت مدة الخصب وجاء أوان القحط والجذب ، ولكل صعود حدور ، ولابد من انقلاب الأمور ، وقيل في المعنى :

إِذَا امْتَدَّتِ النَّعْمَاءُ أَوْ كَثُرَ الْبَسْطُ	فَلَا تَغْتَرِرْ إِنَّ الزَّمَانَ أَخِي يَسْطُو
وَشُكْرًا لِمَنْ لَلَّهِ جَلًّا جَلَّالُهُ	فَشُكْرُكَ فِي إِبْقَاءِ نِعْمَتِهِ شَرْطُ
وَمَنْ كَانَ بِالنَّعْمَاءِ يَعْصِي إِلَهَهُ	فَذَاكَ الَّذِي لِلْهَلْكِ يَا وَيْحَهُ يَخْطُو
وَكَمْ صَاعِدٍ يَرْجُو وَصُولَ مُرَادِهِ	يُعَاجِلُهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوصَلَ الْحَطُّ
فَكَانَ كَذِي نَوْمٍ دَنَا مِنْهُ حَبُّهُ	وَعِنْدَ انْتِبَاهِ الْعَيْنِ نَازَلَهُ سُخْطُ
هَبِ الْبُعْثَ لَمْ يَذْكُرْ وَلَمْ يَأْتِ نَصُّهُ	وَلَا ثَمَّ وَعَدٌ بِالْحِسَابِ وَلَا قِسْطُ
أَلَيْسَ حَيَاءُ الْعَبْدِ أَوْجَبٌ وَاجِبُ	مِنْ اللَّهِ إِذْ مِنْ فِعْلِهِ الْحُلُّ وَالرَّبْطُ
وَكَمْ قَرِيَّةٍ عَنْ أَمْرِ سَيِّدِهَا عَتَتْ	فَأَمْسَكَ عَنْهَا الْغَيْثَ وَأَتَّصَلَ الْقَحْطُ
فَصَارَتْ كَذَاتِ الْغَيْثِ لَمْ تَذَرِ قَدْرَهَا	تَمَزَّقَ عَنْهَا السِّتْرُ وَأُنْكَشَفَ الْمِرْطُ

قال : فلما طلع هلال أول ليلة من السنين المقحطات ، أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام في الثالث الأخير من تلك الليلة : يا جبريل أما تنظر إلى عبيدي وإمائي يأكلون رزقي ويعبدون غيري ، اهبط بالجوع والقحط سبع سنين ، قال : فهبط جبريل عليه السلام وصاح : يا أهل مصر جوعوا فإن الله تعالى قد سلط عليكم الجوع ، ثم إن للجوع والقحط حالتين إذا اجتمعتا ، فالهلاك أسرع ، والعذاب أوجع : الأولى كثرة الحرص على الطعام ، واستكثروا الأكل منه ، وصار لا يُشبع بالكثير ، فكان أحدهم يجوع قبل أوان الجوع ، ويأكل إذا وجد الطعام فوق الحاجة ، ويسرع إليه بالجوع قبل الميعاد . والحالة الثانية غُذِمَ الطعام وفقده حتى لا يكون له حاجة سواه ، ومع ذلك فلا يقدر على وجدانه إلا بعد الجهد ، ولذلك قيل : إن الطعام

إذا أهانه آكله ولم يكرمه ، استغاث إلى الله تعالى ، وشكا إليه ما يناله من الأذى والإهانة ، فيُعزه الله تعالى بعدمه وقلة نباته ، ولو نظر الآدمي بعين بصيرته إلى اللقمة المتصيرة إلى فيه كم استعملت القدرة فيها من : ملك يتزل ، ومطر ينسكب ، وشمس تطلع ، ورياح تختلف ، وأهوية تتعاقب ، وآدمي يعالج ، وزارع يتصرف ، وأزمة تتردد ، وأرض تنشق ، وأنعام تحرث ، وحاصد يحصد ، ودارس يدرس ، ومفرق يفرق بين قشره وجوبه ، وحامل يحمل ، وطاحن يطحن ، وخابز يخبز ، ونار تنضج ، وخادم يتصرف ، وغير ذلك مما تعجز الأفهام عن إحصائه ، وتقف عقول العقلاء عند استقصائه - لكان له في ذلك عبرة يحمد ربه ، ويشكر فضله ، حتى ينقطع الصوت ، ويكَلُّ اللسان ، وتذهب القوة ، وبعد هذا لا تقدير إلى نهاية ذلك ولا عشر المعشار مما مَنَّ الله تعالى به عليه ، وإذا شكره على إسداء النعمة تَعَيَّن عليه أن يشكره على إلهامه للشكر ، وهو شكر يزيد على الشكر الأول بأضعافه ، كما قيل في المعنى :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَلَيْسَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَأَتَّصَلَ الْعُمُرُ

ثم إذا ابتلع تلك اللقمة ، وحصلت في المعدة ، وتعدت إلى تصرف آخر فطبع يمسكها ، وآخر ينضجها ، وآخر يقسمها على الأعضاء ، فيوجه إلى كل عضو قدر ما يقوم به ، ولو بعث إلى الوجه ، كما يبعث إلى الفخذ ، لصار بمقداره وطبع يفرق بين ثقله ولبابه الذي يقوم به البدن ويغذي به الباطن ؛ والعجب أن الطعام والشراب يدخلان في فم واحد ، وفي الحلق يفترقان ، فيهتدي هذا إلى مجراه ، وهذا إلى مجراه ، ويجتمعان في البطن ، ثم يخرجان على سبيلين مختلفين قد جعل لكل واحد منهما ما يليق به في دخوله وخروجه ، ثم إن كل واحد منهما يدخل بشهوة وراحة ، ويخرج بشهوة وراحة ، فانظروا يا قوم بأبصار البصائر إلى فعل الملك القادر ، وقيل في المعنى :

أَيَا غَافِلًا يُنْذِي الْإِسَاءَةَ وَالْجَهْلَ مَتَى تَشْكُرُ الْمَوْلَى عَلَى كُلِّ مَا أَوْلَى
عَلَيْكَ أَيْادِيهِ تَلُوحُ وَأَنْتَ لَا تَرَاهَا كَأَنَّ الْعَيْنَ عَمِيَاءُ أَوْ حَوْلَا

لَأَنْتَ كَمَزُكُومٍ حَوَى الْمِسْكَ جَبِيهٌ وَلَكِنَّهُ الْمَخْرُومُ مَا شَمَهُ أَصْلًا
أَتُنْفِقُ فِي عَصِيَانِ رَبِّكَ مِنْهُ أَهَذَا جَزَاءُ مَنْ يَمْنَحُ الْجُودَ وَالْفَضْلَا
لَأَنْتَ كَعَبْدِ السُّوءِ حَارَبَ سَيِّدًا وَسَاءَ لَهُ بَعْدَ الْمُحَارَبَةِ الطُّوَلَا

قال عبد الله بن سلام : خلق الله القمح والشعير مما منه خلق الجنة ، وجعل لهما من الحُرمة مثل ما جعل للجنة ، فلولوا القمح والشعير لم يُعمر بيت الله الحرام ؛ لأن بهما قوة الظهر وصلاح العباد ، وهما أول الدنيا وآخرها لا يستقيمان إلا بهما ، وأن الله خلق القمح والشعير فأودعه من روح جلاله وجعله رأس كل بركة ، وبه ثبت الأرض أن لا تزول . وقيل : لما أنزله الله على آدم إلى الأرض أنزل معه سبعين ألف ملك ، فأبلغوه إليه ، وقالوا له : يا آدم ، هو نفع لذريتك ، ونعمة تُسألون عنها يوم القيامة . وفيما أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام : ما من فدان يُزرع إلا والله عز وجل يترل على كل فدان ألف ملك يباركون في حرثه ، فإذا نبت أنزل الله ألفي ملك يباركون في نباته ، فإذا استوى أنزل الله ستة آلاف ملك يباركون في شطاطه ، فإذا نض حصاده أنزل الله ستة آلاف ملك يباركون في حبه يهللون لرب العزة ويكبرون ، ولم يؤكل منه شيء حتى يترل الله عز وجل عشرة آلاف ملك يباركون في أكله ، وأنزل الله عز وجل على داود عليه السلام في الزبور : إني أنا الله رب كل شيء ، خلقت الدنيا ، فجعلت قوامها القمح والشعير ، ولم أخلق شيئاً هو أعز عليّ منهما ، وهما أعز ما خلقتُ ، فمن أفسد منهما شيئاً فقد برئت منه ذمتي ، ومن أفسد زرعاً فكفارته التصدق بثلاثة مثاقيل وصيام شهرين وقيام عشر ليال يبتغي بهن التوبة ، فإن لم يفعل ذلك لم أغفر له ذنبه حتى يئيب ما أفسده ، فأعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، يا داود ، ازرع الزرع بجهدك ، فإنه نفع لك ولقومك ، فما من رجل زرع زرعاً أو غرس غرساً ، إلا كان ما أكله الطير أو ذرته الريح له صدقة تكفر عنه بذلك ذنوبه ، وأوجب له الرحمة . وأنزل الله عز وجل على عيسى عليه السلام آيات محكمات يذكر فيهن القمح والشعير ، ويوصي بهما ، وأنزل الله عز وجل في المائدة القمح ، وقال الله تعالى لعيسى : يا عيسى ، إن الدنيا لا تصلح إلا بالقمح والشعير ، ولا يصلح فسادهما ؛ لأنهما أعز خلق عليّ . يا عيسى ، اعلم أن للزرع حرمة لا يشبهها حرمة أحد من الخلق ، وأني أغضب على

من أفسده كغضبي على من زعم أن ثالث ثلاثة ، أو كغضبي على من قال : يدي مغلولة ، أو كغضبي على من قال : إني فقير ، أو كغضبي على من زعم أني ولدت ولداً ، حتى يكفر ما صنع ، ويتوب مما جناه ، فأغفر له ، وأنا غفار الذنوب . وأنزل الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام في الصحف ، وقال : يا إبراهيم ، قد خلقت كل شيء ، وخلقت القمح والشعير ، وخلقت فيهما النفع كله ، فحذر قومك من إفساده ، فإن إفساده يرفع الغيث عن العباد . وقيل كانت حبة القمح مثل كلية الثور حين نزلت على آدم عليه السلام ، وإنما صغر جرمها ونقصت بركتها لعدم الشكر من العباد ، وكثرة ما يتعاطونه من الأوزار . وأول من حرث الأرض آدم عليه الصلاة والسلام ، وأول صناعة تُعلمت في الأرض صناعة الحراثة ، فهي سبب الغنى وزيادة النماء . وقيل : حرث آدم عليه الصلاة والسلام الأرض ، فأنبئت قمحاً ، فأدركه في آخر النهار الإعياء والكلل ، فقال لحواء : ازرعني ما بقي ، فكانت الحبة لا تستقر في الأرض إلا والسنبلة قد قامت ، فلما حرثت حواء نبت شعير ، فتعجبت من تغيير النبات ، ورغبت لآدم أن يسأل عن ذلك رب الأرض والسموات ، فقال له : هي أول من أطاعت العدو والمشير ، فبدلت لها القمح بالشعير ، فأهملت حواء دموعها وأطارت هجوعها ، فأوحى الله عز وجل إليها : ما لها قد غيّر الحزن حالها ، والسائل أعلم من المسئول ، لكن مراده أن يشرح العبد ويقول ، فعرفها آدم بسؤال من خلقه ، وقد كاد السرور يُذهب رمقه ، فقالت : بكيتُ خوف العباد إذ لم يكن مني ما كان بمراد ، فرفع آدم قصتها إلى الله عز وجل وقد داخله عليها الشفقة ، فأوحى الله إليه : قد رفعتُ عنها وعن بناتها همَّ النفقة ، وفي ذلك يقول :

أَكْثِرَةَ الْأَشْجَانِ وَالْإِشْفَاقِ	مَهْلًا فَعَنْكَ وَظِيْفَةَ الْإِنْفَاقِ
رُفِعَتْ وَأَيْضًا عَنْ بَنَاتِكَ فَأَعْلَمِي	هَذَا قَضَاءُ الْوَاحِدِ الْخَلَاقِ
إِنْ كَانَ بَذْرُكَ قَدْ تَبَدَّلَ خَلْقُهُ	حَتَّى بَدَأَ لِنَوَاطِرِ الْأَحْدَاقِ
فَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي الشَّعِيرِ مَنَافِعًا	وَحَصَائِصًا دَلَّتْ عَلَى الْإِرْفَاقِ
عَلَفُ الدَّوَابِ نَعْمٌ وَأَنْعَامُ الْفَلَاحِ	تَجِدُ الْجَمِيعَ لَهُ لَذِيذَ مَذَاقِ

وَهُوَ الْغِذَاءُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ لَهُ زُهْدٌ يُوصِّلُهُ لِقَرَبِ الْبَاقِي
فَلْتَنْعَمِي بِقَضَائِنَا وَبِحُكْمِنَا فَلَكُمْ ظَلَامٌ مُدًّا بِالْإِشْرَاقِ

ولما كان في الزرع غذاء الأشباح وبقاء الأرواح ، وكان عند الله بهذه الرتبة المنيفة والمترلة الشريفة ، كان إطعامه لمن احتاج إليه وسيلة للمتوسلين ، وفضيلة عظيمة عند رب العالمين ، ولذلك أن إبراهيم عليه السلام لما بنى البيت وسواه صلى في كل ركن من أركانه ألف ركعة ، فأوحى الله إليه : يا إبراهيم ، ألا أدلك على ما هو أفضل عندي مما صنعت ؟ قال : بلى يا رب ، قال : هو أن تطعم جائعاً ، وتعين لهفاناً ، فبني له بيتاً ، وجعل له بابين ، وجعل فيه طعاماً دائماً ، وثياباً معلقة ، وأمر أن لا يغلق الباب ، ولا يرد عنه من قصده ، فيدخل الضيف من الباب جائعاً عرياناً ، فيأكل من الطعام ما اشتهاه ، ويلبس من الثياب ما أراه ، ويخرج من الباب الثاني ، وأرسل الله له الملائكة في صفة الضيفان ، وقيل : كانوا جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ، فقدم إليهم من أكله الطعام ، فامتنعوا من أكله ، وقالوا : لا نأكل طعاماً إلا بأجرة ، فقال لهم : نعم إن لكم أجرة تذكرون الله في أوله ، وتحمدونه في آخره ، فنظر جبريل إلى إسرافيل ، وقال : حقٌ لمثل هذا أن يتخذه الله خليلاً . وقيل : ليس شيء من أعمال البر أقرب برهاناً ، ولا أظهر حجة في وقت من إطعام الطعام ، وله خمس كرامات : إحداها يزيد ويزداد إلى يوم القيامة ، قوله تعالى ﴿ يَمَحَقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦] ، الثانية يطهر من المرض

والوصب ، قوله ﷺ : « داووا مرضاكم بالصدقة » ، الثالثة يحرس النفس والمال ، قوله ﷺ : « حصنوا أموالكم بالزكاة » ، الرابعة الخلف في الدنيا بعشرة أمثاله ، وفي الآخرة بسبعمائة ضعف ، الخامسة يدفع سبعين باباً من السوء .

(حكاية) قيل : إن رجلاً من النبلاء بلغه أن بمدينة كذا وكذا حداداً يدخل يده في النار ، ويأخذ الحديدية الحماية بيده ، ولا تعدو عليه النار ، فقصد الرجل تلك البلدة ، فلما دخل عليها سأل عن الحداد فذُل عليه ، فلما نظره وتأمله رآه يصنع ما قد وُصف له ، فأمهله حتى فرغ من عمله ، وأتاه وسلم عليه ، وقال له : إني أريد أن أكون الليلة ضيفك ، فقال : نعم ، حباً وكرامة ، فاحتمله إلى منزله ، وأكرمه ، وباتا جميعاً ، فلم ير له أثر عبادة ولا قيام ، فقال له : لعله يستتر مني ، فبات عنده

ليلة ثانية وثالثة ، فراه لا يزيد على المفروض إلا اليسير ، ولا يقوم من الليل إلا القليل ، فقال له : يا أخي ، إني سمعت عما أكرمك الله تعالى به ، ورأيت بادية عليك ، ثم نظرتُ إلى اجتهادك فلم أرَ عمل من تظهر عليه الكرامات ، فمن أين لك هذا ؟ قال : أنا أحدثك ؛ وذلك أنه كانت لي جارة ، وكنت بها مولعاً ، فراودتها عن نفسها كثيراً ولم أقدر عليها قط لاعتصامها بالورع ، فجاءت سنة قحط وشدة ، وعم الجوع البلدان ، فبينما أنا في يوم من الأيام قاعداً إذا بقارع يقرع الباب ، فخرجتُ فإذا بها واقفة ، فقالت : يا أخي ، أصابني جوع شديد ، فرفعت مسألي إليك لتعطيني الله ، فقلتُ لها : ألا تعلمين ما كابدته من أجلك ومن حبك ؟ وأنا لا أطعمك إلا أن تمكيني من نفسك ، فقالت : الموت ولا معصية ربي فرجعت ، فلما كان بعد يومين عادت ، وقالت ما قالت في المرة الأولى ، فجوابتها بمثل جوابي الأول ، فدخلت وقعدت في البيت ، وقد أشرفت على الهلاك ، فلما جعل الطعام بين يديها ذرفت عينها ، فقالت : تطعمني الله ؟ فقلتُ : لا ، إلا أن تمكيني من نفسك ، فقالت : الموت خيرٌ من عذاب الله ، ثم قامت وتركت الطعام وخرجت ولم تأكله ، وهي تقول :

أَيَا وَاحِدًا إِحْسَانُهُ شَمِلَ الْخَلْقَا	بَسْمِعِكَ مَا أَشْكُو بِعَيْنِكَ مَا أَلْقَى
فَقَدْ صَدَمْتَنِي شِدَّةٌ وَخَصَاصَةٌ	وَنَازَلَنِي مَا بَعْضُهُ يَمْنَعُ النُّطْقَا
كَأَنِّي ظَمَّآنٌ تَرَى الْمَاءَ عَيْنُهُ	فَلَا غُلَّةٌ تُرَوَّى وَلَا شَرِبَةٌ تُسْقَى
تُنَازِعُنِي نَفْسِي إِلَى نَيْلِ أَكْلَةٍ	لَذَذْتُهَا تَفَنَّى وَغَصَّتْهَا تَبْقَى
أَأَعْصِيكَ فِيمَا بَعْدَ مَا مِنْكَ نَلْتُهُ	وَكَيْفَ وَبِالطَّاعَاتِ أَسْتَجِلُّ الرِّزْقَا
سَأَتْلِفُهَا فِي نَيْلِ حُبِّكَ سَيِّدِي	عَسَايَ بِهَا أَسْتَوْجِبُ الْقُرْبَ وَالْعِتْقَا

قال : فلما كان بعد يومين إذا بها تقرع الباب ، فخرجتُ إليها ، وهي واقفة قد قطع الجوع صوتها ، فقالت لي : قد أعيتني الحيل ، ولا أقدر على بذل وجهي لأحد من الناس إلا إليك ، فهل تطعمني الله ؟ فقلتُ لها : إلا أن تمكيني من نفسك ، قال : فدخلت وقعدت في البيت ، ولم يكن عندي طعام حاضر ، فقمتُ إلى السوق ، وأتيتُ بشيء ، ثم إني أضرمْتُ النار ، وصنعتُ طعاماً ، فلما نضج الطعام

وحملته إليها في القصعة ، تداركني الله بلطفه ، وقلتُ لنفسي : ويحك ، هذه امرأة ناقصة عقل ودين تمتنع من طعام لا قدرة لها على الصبر دونه لما نالها ، ولها مدة وهي تتردد المرة بعد الأخرى ، وأنت لا تنتهي عن معصية الله ؟ اللهم ، إني أتوب إليك مما خطر بنفسي ، فقمتُ بالطعام ، ودخلتُ عليها ، وقلتُ : كُلِّي وَلَا رَوْعَ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لِلَّهِ تَعَالَى ، قال : فرفعتُ عينها إلى السماء ، وقالت : اللهم ، إن كان صادقاً فحرم عليه النار في الدنيا والآخرة ، قال : فتركتهَا تأكل وقمتُ لأزِيل النار من الكانون ، وكان فصل القر والبرد ، ف وقعت جمره على قدمي ، فلم أجد لها ألماً بقدرة الله تعالى ، فوقع في نفسي أن دعوتها قد أجيت ، فأخذت الحمرة في كفي فلم تحرقني ، فدخلتُ عليها ، وقلتُ لها : أبشري ، فقد أجاب الله دعاءك ، فرمت الطعام ، وسجدت لله ، وقالت : اللهم ، كما أريتي مرادي فيه ، وأجبت دعوتي فاقبض روحي الساعة الساعة ، فقبض الله روحها في تلك الساعة ، رحمة الله عليها ، وقيل في المعنى :

دَعَتْ فَأَجَابَ مَوْلَاهَا دُعَاهَا	وَنَابَ عَلَى غَوِيٍّ قَدْ دَعَاهَا
أَرَاهَا سُؤْلَهَا فِيهِ امْتِنَانًا	وَأَنَاهَا كَمَا شَاءَتْ مُنَاهَا
أَنَّهُ لِبَابِهِ تَرْجُو نَوَالًا	وَتَقْصِدُهُ لِكَرْبٍ قَدْ دَهَاها
فَمَالَ إِلَى غَوَايَتِهِ وَأَهْوَى	وَتَوَبَّتُهُ أَتَتْهُ وَمَا نَوَاهَا
فَضَايَا اللَّهِ أَرْزَاقٌ فَمَنْ لَا	تَجِيءُ لَهُ وَتَأْتِيهِ أَتَاهَا

اللهم جنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والحمد لله رب العالمين .

المجلس الحادي عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥] .

الحمد لله الذي رفع علامات الآيات على أبراج معالم الإدراكات ، وأطلع أقمار الولايات على أطباق آفاق العنايةات ، وأدار دراري الكرامات في أفلاك تفوت المقامات ، وحمل جوزات السموات على ظهور رواحل الرياح الذاريات ، ونشر خفي الأسرار المودوعات على بساط أصناف المصنوعات ، وخزائن ذخائر حقائق الأقدار المقدورات في حقائق عاج الأنوار وآبنوس الظلمات ، وأضحك ثغور البقاع الهامدات بفيض دموع السحاب الساجرات ، وأنشبت في أطواق الرياح العاصفات مخاليب الطير الصافات ، وضرب قباب الجبال الراسيات على بساط تلاطم أمواج البحار الزاخرات ، وعلق ستائر أوراق الأغصان النضرات على وجوه قينات الورق الغانيات ، وقطع وصائل الأمنيات بحسام المنيات ، وخلص سبيكة إخلاص المخلصين على نار الاختيار ونزول الرزيات ، وجعل ذلك طهوراً لهم من السيئات ، فقال عز من قائل : ﴿ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥] ، أحمده حمداً كثيراً على ما منح من العطايا والهبات ، وأشكره شكراً أنال به منه القربات ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله قامت بأمره الأرضون والسموات ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، المخصوص بالفضائل والبركات ، صلى الله عليه وعلى آله المخلصين بالوسائل والقربات ، صلاة تدوم وتقوم على توالي الأوقات وتتابع الساعات ، وقيل في المعنى :

أَتُنَكِّرُ مَا يَبْدُو وَتَنْسَى الَّذِي يَخْفَى	وَتَطْعَمُ مَا يُضْنِي وَتَطْلُبُ أَنْ تُشْفَى
وَتَعْصِي طَبِيبًا نَاصِحًا لَكَ فِي الدَّوَا	وَتَشْكُو الْجَفَا مِنْهُ فَقُلْ لِي مَنْ أَحْفَى
وَلَمَّا أَمِنَّا مِنْ عِقَابِ إِلَهِنَا	وَلَمْ نُبْدِ خَوْفًا مِنْهُ أَلَزَمْنَا الْخَوْفَا
وَضَيِّقَ مَا قَدْ كَانَ أَوْسَعَهُ لَنَا	وَصَيَّرَنَا مِنْ بَعْدِ تَقْدِيمِنَا خَلْفَا
فَلَا تَنْسُبُوا لِلْغَيْرِ فِعْلًا فَكُلُّ مَا	تَبَدَّى فَمِنَّا أَصْلُهُ لَمْ يَزِدْ حَرْفَا

وَلَوْ أَنَّهُ يَجْزِي عَلَى قَدْرِ فَعَلْنَا لَكَانَ عَلَيْنَا يُسْقِطُ الْخَسْفُ وَالْكَسْفَا
وَلَكِنَّهُ يَغْفُو وَيَلْطَفُ دَائِمًا كَذَلِكَ الْمَوَالِي تَمْنَحُ الْعَفْوَ وَاللُّطْفَا
أَلَيْسَ الرَّبَّاءُ فِي الْبَيْعِ بِالْحَقِّ مُؤَدِّنَا وَنَحْنُ بِهِ نَرْجُو الزِّيَادَةَ وَالضَّعْفَا
وَمَنْ كَانَ فِي أَيْمَانِهِ الدَّهْرُ حَانِثًا فَذَلِكَ غَدَا يَا وَيْحَهُ لِلشَّقَا حَلْفَا
فَيَا أَيُّهَا الْعَاثُونَ ثُوبُوا لِرَبِّكُمْ وَمُذُوا لَهُ فِي وَقْتِ عُسْرِكُمْ كَفَا
وَقُولُوا بِأَصْوَاتِ الضَّرَاعَةِ كُلُّكُمْ أَتَيْنَاكَ يَا ذَا الْجُودِ نَسْأَلُكَ الْعَطْفَا
نَرَى حَالَنَا فَاثْنُ بِتَفْرِيجِ كَرْبِنَا فَمَا زِلْتَ لِلرَّاجِحِينَ يَا رَبَّنَا كَهْفَا

قوله تعالى ﴿ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥] ، اعلم أن الله تعالى يميز الأولياء من الأعداء في سبع مواضع :

الأول : في الدنيا بالشدائد ، قوله تعالى : ﴿ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥] .

الثاني : في حال الترع ، قوله تعالى : ﴿ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] .

الثالث : في القبر ، قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

الرابع : في البعث ، قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [هود: ١٠٦] .

الخامس : عن أخذ الكتب ، قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَّةً ﴾ [الحاقة: ١٩: ٢٥] .

السادس : عند الفراغ من الحساب ، قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥] .

السابع : عند الفرقة إلى دار الإقامة ، قوله تعالى ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧] .

قالوا : فما الحكمة في اتصال الشدائد للمؤمنين ؟ قيل : لأربعة أشياء :

الأول : ليتبين الخاص من العام .

الثاني : ليكفر الله عنهم الذنوب .

الثالث : ليكتب لهم العمل الصالح ، قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠] .

الرابع : ليكثر دعاؤهم ورغبتهم كما كان يقول بعض العلماء : سبحان من يستخرج الدعاء بالبلاء . وقد أعطى الله الصابرين تسع كرامات : أولها محبته ، قوله

تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ، الثاني نصرته ، قوله تعالى : ﴿ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ، الثالث سكنى الغرف ، قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا

صَبَرُوا ﴾ [الفرقان: ٧٥] ، الرابع : الأجر ، قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ

أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] ، الخامس : البشرى ، قوله تعالى ﴿ وَبَشِّرِ

الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥] ، السادس والسابع والثامن : الصلوات والرحمة والهدى ، قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧] ، قال الخدري : والتاسع : تسليم الملائكة عليهم ، قوله

تعالى : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد: ٢٤] . وقيل : الخوف سوط الله

تعالى يقوم به أنفوساً شردت عن بابه ، والجوع عذاب يسلطه الله على من كفر

بنعمته ، وغفل عن شكره في الدنيا ، كما سلط على قريش حين تهادى بهم الصد عن الإسلام في الدنيا حتى كان الرجل منهم إذا نظر إلى السماء حيل بينه وبينها بدخان من شدة تحير رأسه وفراغ أعضائه ، وقيل : من شدة القحط وعدم المطر حتى علا الأرض الغبار ، وحيل بين الناظر وبين السماء بدخان ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ، يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠ و ١١] ، وإنما سُمي الجوع عذاباً ؛ لأنه يشغل العبد عن عبادته ، والقلب عن إلهه ، ويعذب به أهل النار في الآخرة ، كما قال : كعب : يسلط على أهل النار الجوع حتى يأكلوا أيديهم إلى مناكبهم وأطراف أصابعهم وهم لا يشعرون ، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] ، قيل : هي رفع البركة من الأموال والمتاجر ، والأنفس هو الوهن وعدم القوة ، الثمرات هي العقوبات بعدم بيعها ، وقيل : الإشارة في ذلك إلى البين وما يبدوونه من عقوق الوالدين ، وقيل : هو موتهم أيضاً وفقد الإنسان لهم في الدنيا ، ولذلك قال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] . وقال أبو موسى الأشعري : قال رسول الله ﷺ : « لا يصيب العبد نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب ، وما يعفو الله تعالى أكثر ، ثم قرأ : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] » ^(١) ذكره الترمذي . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : قال : رسول الله ﷺ : « لم تظهر الفاحشة في قوم إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، ولا نقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين الجدبة وشدة المثونة وجور السلطان عليهم ، ولا منعوا الزكاة من أموالهم إلا منعوا المطر من السماء ولولا البهائم لم يُمَطَّرُوا ، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وأخذ بعض ما في أيديهم ، ولا حكم أئمتهم بغير كتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » ذكره البزار . وقال عمار بن ياسر : قال رسول الله ﷺ : « أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً ، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد ، فخانوا وادخروا ،

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٥ / ٣٧٧ ، والحاكم في مستدركه ٢ / ٤٨٣ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٧ / ١٥٣ .

فمُسَخَّوْا قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ» ذكره الترمذي . وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه :
 خطبنا رسول الله ﷺ يوماً ، فقال : « يا أيها الناس ، إذا عملتم سبعا حل بكم
 سبع : إذا ظهر فيكم الزنا كثر الموت ، وإذا جرت في الحكم قحط المطر ، وإذا
 خفرت الذمة كانت الدولة لغيركم ، وإذا منعت الزكاة ماتت الماشية ، وإذا فشت
 شهادة الزور بينكم كثر الخراب ، وإذا طففت المكيال والميزان نقصت البركة ،
 وإذا غللت وقع الرعب في قلوبكم » ذكره ابن حبيب . وقال عبد الله بن عباس
 رضي الله عنهما : « ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب ، ولا
 فشا الزنا في قوم إلا فشا فيهم الموت ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع الله
 عنهم الرزق ، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم ، ولا نقض قوم العهد إلا
 سلط الله عليهم العدو » ذكره مالك بن أنس في مؤلفه . وقالت عائشة رضي الله
 عنها : « عذب الله أهل قرية كان فيها اثنا عشر ألفاً ، أعمالهم أعمال الأنبياء ،
 قيل : وما كان فعلهم ؟ قالت كانوا لا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر »
 ذكره صاحب كتاب الزهد . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال : رسول الله ﷺ :
 « للزاني ست عقوبات : ثلاث في الدنيا ، وثلاث في الآخرة ، أما التي في الدنيا
 فذهاب ماء الوجه ، وطول الفقر ، وقصر العمر ، وأما التي في الآخرة فسخط
 الرب ، وسوء الحساب ، والخلود في النار » ذكره الطليمي في كتابه ، وقال شقيق :
 مر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة ، فقالوا له : يا أبا إسحاق ، إن الله تعالى يقول :
 « اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » [غافر : ٦٠] ونحن ندعوه فلا يستجيب لنا ، قال :
 لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء : أولاها عرفتم الله فلم تؤدوا حقه . والثانية
 قرأتم القرآن فلم تعملوا به . الثالثة ادعيتم حب الرسول فلم تعملوا بسنته .
 الرابعة قلمتم : إن الشيطان عدوكم فوافقتموه . الخامسة قلمتم : إنكم تشتاقون
 إلى الجنة فلم تعملوا لها . السادسة قلمتم : إنكم تخافون النار فلم تهربوا منها .
 السابعة قلمتم إن الموت حق فلم تستعدوا له . الثامنة اشتغلتم بعيوب الناس
 وتركتم عيوبكم . التاسعة أكلتم نعمة الله فلم تشكروه عليها . العاشرة دفتتم
 موتاكم فلم تعتبروا . ذكره أبو نعيم . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : قال :
 رسول الله ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم
 سلطاناً جباراً ، فلا يوقر كبيركم ، ولا يرحم صغيركم ، ويدعو عليه خياركم
 فلا يستجاب لهم ، ويستنصرون فلا ينصرون » ذكره الترمذي . وقال ابن

مسعود : « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله ، وفي كنفه ما لم يمار قراؤها سفهاءهم ، ولم تترك صلاحها فجارها ، فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم جبارهم ، فساموهم سوء العذاب ، ثم ضربهم بالفاقة والفقر » ، وقيل :

بِذُنُوبِ قَوْمٍ تَذْهَبُ الْبَرَكَاتُ وَتُغَيَّرُ النِّعَمَاءُ وَالْخَيْرَاتُ
وَيَزُولُ عَنِ أَهْلِ الضَّلَالِ نَعِيمُهُمْ فَعَقَابُهُمْ أَنْ تُعَقَّبَ الْأَزْمَاتُ
لَمْ يَشْكُرُوا الْجَبَّارَ إِذْ وَالَاهُمْ أَفْضَالُهُ بَلْ ضَيَّعُوا وَأَفْأَتُوا
لِصَلَاتِهِمْ وَصِيَامِهِمْ وَتَعَوَّدُوا أَكَلَ الرِّبَا فَلَهُمْ لَهُ أَدَوَاتُ
فَالْحِنْثُ فِي الْإِيمَانِ أَكْثَرُ فَعَلِهِمْ وَالْبَخْسَ أَحْيَا وَالْحَلَالَ أَمَاتُوا
لَا تُنْكِرُوا مَا نَحْنُ فِيهِ فَرُبَّمَا بِذُنُوبِنَا حَلَّتْ بِنَا الْآفَاتُ

وقيل : لما اغتاز ذو الكفل عليه السلام ، وكان ذو الكفل نبياً من أنبياء بني إسرائيل بعثه الله إلى ملك جبار من ملوكهم يقال له : أرحب ، وقيل : بل هو إلياس ، دعا الله عز وجل ، وشكا إليه ما تلقاه من الأذى ، فقال له ربه : أي شيء تريد أن أعطيك فيهم حتى تأخذ منهم بئارك ؟ فقال : أريد أن تمسك عنهم المطر سبع سنين ، ولا تمطرهم قطرة إلا بدعوتي ، ولا تنشئ لهم سحابة إلا بشفاعتي ، قال الله عز وجل : أنا أرحم بخلقى من ذلك ولو كانوا ظالمين ، فقال : يا رب ، فأربع سنين ، فقال : أنا أرحم بخلقى من ذلك ، وقد أعطيتك سنتين لا تنزل قطرة ، ولا تنشأ لهم سحابة إلا بدعوتك ، قال : يا رب ، فبأي شيء أعيش ؟ قال : أسخر لك صنفاً من الطير تحمل لك قوتك من الأرض التي لم يبلغها القحط ، قال : قد رضيت يا رب ، قال : فسخر الله له الغربان السود تحمل إليه العنب والتين والحب والرطب وأنواع الفواكه من مصر وغيرها ، ووقع القحط في بني إسرائيل ، واشتد الجوع وعدمت الأقوات ، وكثرت الأموات ، وعلموا أن الذي أصابهم إنما هو بدعوته ، فاجعلوا يطلبونه حتى وجدوه في الجبل ، وقيل : بل خرج منهم وبنى خيمة عند المقابر ، فلما كلموه ورغبوه أتى إلى جبارهم ، وكان يعبد صنماً من دون الله يقال له : بعل ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ [الصفافات: ١٢٥] ، فقال للجبار : أخرج إلهك الذي تعبد ، وادع أنت وقومك ، فإن أجابك وأرسل المطر رجعت معك إلى عبادته ، وإن عجز عن ذلك دعوت

ربي ، فإن أرسل المطر وأجابني رجعتم معي إلى عبادة ربي ، قالوا : نعم ، فأخرجوا صنمهم وضمخوه بالمسك والعنبر ، وصفوا أصنامهم وأهنتهم ، وجعلوا يتضرعون إليها ، ويتملقون بين يديها ، وهي لا تكلمهم ، فمكثوا سبعة أيام كذلك ، وقيل في المعنى :

يَا ضَارِعِينَ إِلَى الْعِيدَانِ وَالْحَجَرِ	جَهَلْتُمُ الْقَصْدَ فِي وَرْدٍ وَفِي صَدَرِ
كَمْ تَضْرَعُونَ إِلَيَّ مَنْ لَيْسَ يَنْفَعُكُمْ	وَلَا يَرُدُّ جَوَابًا سَائِرَ الْعُصْرِ
وَتَتْرَكُونَ الَّذِي لَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ	وَفِي يَدَيْهِ زِمَامُ النَّفْعِ وَالضَّرَرِ
لَمْ يُمَسِّكِ الْغَيْثُ مِنْ بُخْلِ وَلَا عَدَمِ	وَإِنَّمَا هُوَ تَأْدِيبٌ إِلَى الْبَشَرِ
فَلَوْ رَجَعْتُمْ لَهُ أَوْلَاكُمْ مِنَّنَا	تَتَرَى وَجَاءَكُمْ بِالْوَابِلِ الْهَمِرِ
فَهُوَ الْكَرِيمُ وَلَا تَفْسَى خَزَائِنُهُ	وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا فِي الْوَهْمِ وَالْفَكْرِ
فَعَظَّمُوهُ وَقُولُوا : لَا إِلَهَ لَنَا	إِلَّاكَ يَا خَالِقَ الْأَجْسَامِ وَالصُّورِ

فلما تبين خطوهم وظهر عجزهم ، قالوا : قد عجزنا ، فادعُ إلهك الذي دعوتنا إليه ، فأراد أن يمتنع منهم ، فأوحى الله تعالى إليه : كم تريد إهلاك عبيدي ، كأنك لم تنظر إلى ما أهلكت من أهلك ؟ فوعزتي وجلالي ما ينفعني إيمانهم ولا يضرين كفرهم ، ولكن لي في ذلك حكم وتقدير ، وأنا اللطيف الخبير ، فتقدم وهم ينظرون إليه ، فدعا الله تعالى بعد أن صلى ركعتين ، ورفع يديه فهاجت الريح ، واجتمعت السحاب ، وجاء المطر من كل جانب ، فأمن الملك وطائفته ، وكفر الباقون ، وقيل في المعنى :

مَا غَيْرَ اللَّهِ مَا بِالْقَوْمِ مِنْ نَعَمٍ	أَوْ يُظْهِرُوا الْفِسْقَ فِي أَدْيَانِهِمْ غَيْرًا
فَكَيْفَ تُنْكِرُ مِنْ تَغْيِيرِ حَالَتِنَا	وَنَحْنُ فِي كُلِّ حِينٍ نَرْكَبُ النُّكْرَا
فَلَيْسَ مِنَّا مُرَاعٍ نَهَى خَالِقِهِ	وَلَا مُطِيعٌ لَهُ فِي كُلِّ مَا أَمَرَا
وَيَعْبُدُ الْمَالَ وَالْذُّنْيَا كَمَا عَبَدَتْ	فِيمَا مَضَى أُمَّةٌ مِنْ جَهْلِهَا الْبُقْرَا
لَوْ لَا مَقَادِيرُ حُكْمِ اللَّهِ مَا تَرَكْتُ	مِنَّا جَرَائِمَنَا أَنْشَى وَلَا ذَكَرَا
وَلَا اسْتَقَرَّتْ بِنَا أَرْضٌ نُقِيمُ بِهَا	وَلَا رَأَيْنَا سَحَابًا فَوْقَنَا قَطْرَا

يَا أَيُّهَا النَّاسُ خَافُوا اللَّهَ وَاعْتَبِرُوا فَإِنَّ فِي خَلْقِهِ التَّفْكِيرَ وَالْعِبْرَةَ

وقيل : لما غضب الله على أهل مصر ، أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام : إن أهل مصر يأكلون رزقي ويعبدون غيري ، اهبط ، فقد سلطت عليهم الجوع ، فانتبه الرجال والنساء والصبيان كلهم ينادون : الجوع الجوع ، وانتبه الملك وهو ينادي : الجوع ، وكان الملك قد أمر الخبازين أن لا يفتروا عن الخبز ليلاً ولا نهاراً ، فكانوا على ذلك ، وكان من قضاء الله تعالى أن تلك الليلة غفل الخبازون بأجمعهم ، فلم يجزوا شيئاً ، فدعا الملك يوسف ، وشكا إليه ما يلقاه من شدة الجوع ، فجعل يوسف عليه السلام يده على بطنه ، ودعا له فسكن ما به ، واحتبس المطر من السماء ، وتعمقت الأرض عن الزراعة فلم تنبت شيئاً ، وأذن مؤذن يوسف عليه السلام في الناس : لا تزرعوا شيئاً حتى تنقضي السبع ، فإنه يضيع بذركم ، ولا ينبت لكم شيء ، قال : وفرغ القوت والطعام من بيوت الناس حتى لم يبق في بيت من بيوت مصر ونواحيها شيء من الطعام ، فأصبح الناس متحيرين قد داخلهم لهف ، وأصابعهم تحير ؛ لأنهم شاهدوا أمراً لا يستطيعون دفعه بحيلة ، وقيل في المعنى :

حُبِسَ الْعَمَامُ عَنِ الْأَنَامِ فَحَارُوا وَبَدَأَ الْهَيَامُ وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ
هَانَ الْفَنَاءُ عَلَيْهِمْ يَا وَيْحَهُمْ وَأَتَتْ أُمُورٌ لَا تُطَاقُ كِبَارُ
لَمْ يُعْنِ عَنْهُمْ جَمْعُهُمْ وَعَدِيدُهُمْ أَبَدًا وَلَا الْأَتْبَاعُ وَالْأَنْصَارُ
وَبَدَأَ عَلَى الْأَبْصَانِ أَيْضًا عَجْزُهَا مَا تَفْعَلُ الْعِيدَانُ وَالْأَحْجَارُ
مَا الْفِعْلُ إِلَّا لِلْمُهَيَّمِ وَخَذَهُ وَلَهُ الْقَضَا وَالْحُكْمُ وَالْأَقْدَارُ
فَهُوَ الَّذِي فِي الْخَلْقِ يَقْضِي مَا يَشَاءُ وَبِأَمْرِهِ تَنْزَلُ الْأَمْطَارُ
صَلَّى الْإِلَهِ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ فَهُوَ الشَّفِيعُ الشَّاهِدُ الْمُخْتَارُ

قال : ففتح الصديق أبواب خزائنه ، وجعل عليها الأمناء والقهارمة وأهل النظر والإحصاء ، ونادى المنادي : ألا من أراد الميرة وشراء الطعام ، فليصل إلى باب الصديق ، فاشترؤا منه في العام الأول بما كان في أيديهم من الدراهم والدنانير والذهب والفضة حتى لم يبق عند أهل مصر دينار ولا درهم ولا ذهب ولا فضة إلا صارت إلى يوسف عليه السلام وانحصرت في خزائنه ، ثم باعهم في السنة الثانية بما في

أيديهم من الأثاث والفرش والأواني ، ثم باعهم في العام الثالث بالخلي والجواهر واللائئ ، فلم يبقَ بمصر حلي ولا جواهر ولا لؤلؤ إلا في خزائنه ، ثم باعهم في السنة الرابعة بالدواب والمواشي حتى صار الكل إليه ، ثم باعهم في السنة الخامسة بالدور والخوانيت والضياع حتى احتوى على الأملاك جميعها ، ثم باعهم في السنة السادسة بنسائهم وبنيتهم وبناتهم حتى صاروا كلهم أرقاء له ، ثم باعهم في السنة السابعة برقابهم ، فأقروا له بالعبودية والرق حتى لم يبقَ بمصر حر ولا حرة إلا صار مملوكاً له . قال : كعب : أصاب الناس في العام السابع شدة وجوع حتى إن الرجل كان يأتي يوسف عليه السلام فيبيع نفسه منه بماء بطنه ، فلما تملكهم صار ينفق عليهم على مراتبهم ، ويعطي لأهل كل بيت ما يقوّمهم على حسب عدّتهم ، وكلهم يؤمّنون إليه إذا بدا ، ويشيرون نحوه إذا غاب ، فصار الناس كلهم وما ملكوه تحت حكمه وقهره إكراماً من الله عز وجل له ، وجزاء بما أقيم في سوق الرقيق يُنادى عليه فيها : مَنْ يشتري ويزيد ، وجزاء لما صبر عن محارم الله تعالى ، واتقاء مولاه في سره وجهره وعسره ويسره ، فعوضه الله تعالى خيراً من ذلك حتى ملكه مصر ونواحيها ، وصارت ملكاً له بما فيها ، وصار أهلها أرقاء لا يخرجون عن حكمه ، ولا يصدرون إلا عن رأيه ، وهو قوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠] ، ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٧] ، أي ما يعطي الله من ثواب الآخرة خير للمؤمنين المتقين من إعطاء الدنيا لا سيما وما فيها يفنى ، ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: ١٧] ، والمعنى أن ما يعطي الله نبيه يوسف في الآخرة خير له مما أعطاه في الدنيا كما قال تعالى في حق سليمان عليه الصلاة والسلام في مسطور الكتاب : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٢٥] . قال بعضهم : لما صاروا عبيداً ليوسف عليه الصلاة والسلام هم وأولادهم وحرمتهم وما ملكت أيديهم من المال والقماش والخلي والأملاك والضياع وما ملكوه ، أوحى الله تعالى إليه : كيف رأيت يا يوسف ؟ زعموا أنك عبد لهم ، فجعلناهم كلهم عبيداً لك ! فخر يوسف عليه الصلاة والسلام ساجداً لله تعالى ، وقال : يا رب ، لك الحمد على ما أنعمت وتفضلت ، سبوح قدوس ، رب الملائكة والروح ، وقوله تعالى ﴿ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠] ، الصابرين في بلائه ، الراضين بقضائه . ولقد روى عنه أنه كان

يَأْكُل خبز الشعير ولا يشبع منه ، فقيل له : أنت في خزائن الأرض ، ولا تأكل إلا خبز الشعير ولا تشبع منه ؟ فقال : إني أخاف أن أشبع فأنسى الجائع ، وقيل في المعنى :

يَا مَنْ بَمَلِّ الْبَطْنِ يُعْرِفُ دَائِمًا وَيَظِلُّ بِالشَّهَوَاتِ صَبًّا هَائِمًا
أَيَقِظُ عُيُونَ الْقُلُوبِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى فَلَرُبَّ مُتَنَبِّهِ وَيُحْسَبُ نَائِمًا
كَمْ جَاءَكَ الْمِسْكِينُ يَسْأَلُ رَحْمَةً فَرَدَّدَتْهُ كَمَدًا وَلَمْ تَكُ رَاحِمًا
وَتَبَّيْتُ شَبَعَانًا وَجَارَكَ جَائِعًا يُذِرِي مِنَ الْأَوْصَابِ دَمْعًا سَاجِمًا
انْظُرْ إِلَى الصَّدِيقِ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ قَدْ بَاتَ جَوْعَانًا وَأَصْبَحَ صَائِمًا
تَجِدُ الشَّعِيرَ غِذَاءَهُ وَهُوَ الَّذِي مُلِئَتْ خَزَائِنُهُ طَعَامًا سَالِمًا
خَوْفًا بِأَنْ يَنْسَى الْفَقِيرَ لَأَنَّ فِي نَسْيَانِ أَهْلِ الْفَقْرِ بُخْلًا قَائِمًا
وَلَأَنَّهُ الرَّاعِي وَحُقَّ لِمَنْ رَعَى أَنْ يَبْذُلَ التُّصْحَ الصَّحِيحَ الدَّائِمًا

قال : وخاف الملك أن يتعبده يوسف عليه الصلاة والسلام مع مَنْ تعبدته من أهل مصر لما شاهد من سلطانه وعظم شأنه ، فقال له : يا يوسف ، أنت وعدتني وعاهدتني ، وحاشاك أن تغدر بعد عهدك ، فقال يوسف عليه السلام للملك : ما رأيك أيها الملك فيما حولني ربي من ملك مصر ، ومكنني من رقاب أهلها ؟ أشر علي برأيك ، فقال له الملك : يا يوسف ، رأيك فيهم نافذ ، وحكمك فيهم جائز ، فقال يوسف عليه السلام : ما أصلحتهم لأفسدهم ، ولا اعتقتهم من الموت لأستعبدهم ، ولا استنقذتهم من الكرب لأضر بهم ، ولا أنجيتهم من الجوع لأكون عليهم بلاء ، ولم أحيهم بنفسي ، ولكن الله أحياهم وإياي . هذه الشفقة جرت والحنو من الصديق ، وهو ليس منهم ، وهم على غير الطريق ، فما حال مَنْ يظلم الناس ولا تأخذه شفقة على المسلمين ؟ فيا ذل مقامه يوم يعرض على رب العالمين ، وقيل في المعنى :

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا إِنَّ الْمَظَالِمَ مَبْدَأُ الضَّرِّ وَالنَّعَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُتَنَبِّهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمْ

فقال الملك : يا يوسف ، وأنا الآخر عبد من عبيدك ، ورجل من خولك ، وما أنا

بالذي أخرج عن رأيك ، ولا أستنكف عنه ؛ لأن الذي يدبر أمرك سلطان عزيز لا يرام ، وقيوم لا ينام ، فقال يوسف عليه الصلاة والسلام : أيها الملك ، وتقول ذلك بأنك عبد من عبيدي ؟ فقال الملك : وهل الرأي إلا ذلك ؟ فقال يوسف : فإني أشهد الله وأشهدك أي قد أعتقت أهل مصر كلهم ، وتصدقت عليهم بجميع أموالهم ، ورددت عليك ملكك وسريرك وتحتك وخاتمك الذي تزعم أنه حظي وجمالي ، فقال الملك : جزاك الله خيراً يا يوسف ، وإني لأعلم أن هذا صنيع إله الأرض والسماء ، فما على وجه الأرض من يصنع ما صنعت ، ولا يصبر على ما صبرت ، ويتكلف ما تكلفت ، فبارك الله فيك وفي علمك وعقلك ، فابق كما كنت في أول الأمر ، واقض ما أنت قاضٍ نسمع لك ونطيع ، وقيل في المعنى :

لَكَ الْحُكْمُ وَالسُّلْطَانُ وَالنَّهْيُ وَالْأَمْرُ وَأَنْتَ رَجَاءُ الْكُلِّ إِنَّ عَمَّهُمْ عُسْرُ
تَحَكُّمٍ بِمَا تَهْوَاهُ فِينَا فَكَلْنَا سَمِيعٌ مُطِيعٌ قَدْ عَلَا وَجْهَهُ بِشْرُ
كَأَنَّكَ مِعْنَاتِيسُ كُلِّ فَإِنْ تَلَجَّ بِهِمْ إِذْ تَبَدَّى نَالَهُ الْعَبْدُ وَالْحُرُّ
لَأَنْتَ الَّذِي رَبُّ السَّمَاءِ أَمَدُهُ بِسُلْطَانِهِ فَالْتَصِرُ يَتَّبِعُهُ التَّصِرُ
وَتَسْمُو بِكَ الْأَكْوَانُ طُرّاً بِأَسْرِهَا وَتَعْنُو لَكَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ وَالْبَدْرُ
عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا وَمَا سَارَتِ الْأَفْلاكُ وَالْأَنْجُمُ الزُّهْرُ

قال : وهب بن منبه : لما دُعِيَ يوسفُ من السجن إلى الملك وقف يوسف بالباب ، وقال قبل دخوله إلى الملك : حسبي ديني من دنياي ، وحسبي ربي من خلقه ، جل ثناؤه ، ولا إله غيره ، ثم دخل ، فلما رآه الملك أكبره وأجله ، ونزل له عن سريره ، وخر له ساجداً ، ثم أقعده على السرير وقال له كما قال الحق المبين :

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: ٥٤] ، قال : « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ

الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ » [يوسف: ٥٥] بهذه السنين ، « عَلِيمٌ » بلغة من يأتي . وقال

ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله أخي يوسف ،

لو لم يقل : اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله الملك من ساعته ، ولكن ادخر

ذلك عنه سنة ، فأقام عنده في بيته سنة . وعرض عمر بن الخطاب رضي الله

تعالى عنه الإمارة على أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، فقال : لا أقبلها ولا

في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾

أريدها ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ طَلَبَ الْإِمَارَةَ لَمْ يَعْدِلْ » ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : قد طلب الإمارة مَنْ هو خير منك وهو يوسف الصديق عليه السلام . فلما انفصلت السنة من طلب الإمارة دعا به الملك ، فَتَوَجَّهَ بتاجه ، وَرَدَّاهُ بردائه ، ووضع له سريرَه وكان من ذهب مرصع بالدر والياقوت والجوهر ، يُضْرَبُ عليه حلة من إستبرق ، وكان طولُ سريره ثلاثين ذراعاً وعرضه عشرة أذرع ، عليه ثلاثون فراشاً وستون مرقعة ، ثم أمره أن يخرج فخرج مُتَوَجَّحاً لونه كالثلج ، ووجهه كالقمر ، فانطلق حتى جلس على السرير يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه ، فلما جلس يوسف على السرير دانت له الملوك ، وذلَّهم الله له ، ودخل الملكُ بيته مع نسائه ، وفوض أمر مصر ونواحيها إليه ، فتلطف يوسف بالناس ، ولم يزل يدعوهم إلى الله تعالى حتى آمنوا به ، وصدقوا بما جاء به ، وقيل في المعنى :

وَأَنَا لَيَرْضَيْنَا رُجُوعَ وَصَالِكُمْ فَرُدُّوْا لَنَا ذَاكَ الْوِصَالَ كَمَا كَانَا
وَكُنَّا نُعْطِي فِي الدُّنْيَا غَرَامَنَا وَتَكُنُّمَ مَا نَلْقَى فَقَدْ بَانَ مَا بَانَ

فإن قيل : كيف استجاز يوسف عليه السلام مع علمه وعقله ، أن يمدح نفسه بين يدي الملك بقوله : ﴿ إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] ، وقد جاء النهي عن تركية النفس ؟ قيل : إنما جرى ذلك مجرى الإعلام بما يحبه الملك من العلم الذي هو مختص به ؛ ألا ترى أن الشاهد إذا أدى شهادة ، واحتاج إلى تركية ، ولم يُحضر مزكياً ، فيجوز له أن يصف نفسه إن كان عدلاً على وجه الإخبار ، وكذا الخاطب له أن يعرض بنفسه عند مخطوبته على ما اشتمل عليه من الخصال المحمودة ، فكأن يوسف عليه السلام يقول : إني مختص بعلم كيفية حفظ ذلك الطعام الذي يُعد لأيام القحط والعدم ، عليم بوقوع ساعة الجوع متى يقع ، وكأن يوسف أعلمه بقوله : ﴿ إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وليس بتركية لنفسه ؛ ألا ترى أن الله عز وجل ذكر نفسه بالكبرياء والعظمة على وجه أنه يزكي نفسه ؛ لكي يعلم عباده ، ويُبين لهم طريق توحيده وتعظيمه ؛ لأنه لو لم يعرفهم بذلك ما عرفوه ، ولو لم يُبين لهم صفاته ما وصفوه ، وكذلك ذُكر الأنبياء مناقب أنفسهم لتزكية لهم ، كما قال : النبي ﷺ « أنا سيد ولد آدم بيدي لواء الحمد » ، إلى غير ذلك من أقواله مما يليق بهذا الفن إنما ذلك إخبار لأهمهم ؛ إذ لو لم يخبروهم بذلك ما عرفوا رتبتهُم ، ولا وصلوا

إلى مقاديرهم ، فكذلك يوسف عليه السلام لم يقصد تزكية نفسه ، إنما قصد إعلام الملك بما خصه الله تبارك وتعالى . وقيل : لم يقل يوسف عليه السلام : « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » [يوسف: ٥٥] حتى اجتمعت فيه عشرون خصلة مرضية : إحداها الدين القوي . والثانية المنشأ الطيب . والثالثة أدب النفس . والرابعة الخلق الحسن . والخامسة العلم . والسادسة الحفظ . والسابعة النصيحة . والثامنة فصل الخطاب . والتاسعة الصيانة . والعاشره الوقار . والحادية عشرة الصدق . والثانية عشرة الأمانة . والثالثة عشرة رؤية المنة . والرابعة عشرة المكانة . والخامسة عشرة الأمانة . والسادسة عشرة الصبر في المحنة . والسابعة عشرة الشجاعة . والثامنة عشرة سمو الهمة . والتاسعة عشرة العدل . والعشرون هي تمام الخصال وسجية الإفضال عناية رب العالمين . أما دينه فقلوه : « إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » [يوسف: ٣٧] ، وأما خلُقه فقلوه : « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » [يوسف: ٣٦] ، وأما الحفظ فقلوه : « إِنِّي حَفِيظٌ » ، وأما علمه فقلوه : « عَلِيمٌ » ، وأما منشؤه فقلوه : « آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » [يوسف: ٣٨] ، وأما نصيحته فقلوه : « فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ » [يوسف: ٤٧] ، وأما فصل الخطاب فقلوه : « فَلَمَّا كَلَّمَهُ » [يوسف: ٥٤] ، وأما صيانتته فقلوه : « رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » [يوسف: ٣٣] ، وأما وقاره فقلوه : « إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ » [يوسف: ٢٣] ، وأما صدقه فقلوه : « أَيُّهَا الصَّدِيقُ » [يوسف: ٤٦] ، وأما تواضعه فقلوه : « وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي » [يوسف: ٥٣] ، وأما رؤية المنة فقلوه : « إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي » [يوسف: ٥٣] ، وأما مكانته فقلوه : « إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ » [يوسف: ٥٤] ، وأما أمانته فقلوه : « أَمِينٌ » ، وأما صبره فقلوه : « مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ » [يوسف: ٩٠] ، وأما شجاعته فقلوه : « ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ » [يوسف: ٥٠] ، وأما سُمُوهُ فقلوه : « اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ » [يوسف: ٥٥] ، وأما عدله فقلوه : « أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا

عِنْدَهُ » [يوسف: ٧٩] ، وأما عناية رب العالمين فقوله : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » [يوسف: ٢١] . وكما لم يسأل يوسف عليه السلام عن الإمارة إلا بعد اجتماع هذه الخصال الحمودة ، فكذلك لا ينبغي لأحد أن يتقدم للحكم بين العباد إلا إذا اجتمعت فيه نحو هذه الخصال ، وأما مَنْ يحكم بهواه ، ولا تدركه الشفقة على من سواه ، فهو الظالم لنفسه ، المتردد في لبسه ، قد خاب من الكرامة ، وحظي بالندامة ، وماله عند الله عذر يوم القيامة ، وقيل في المعنى :

يَا مَنْ يَجُورُ عَلَى الْعِبَادِ وَيَظْلِمُ	اللَّهُ يُبْصِرُ مَا فَعَلْتَ وَيَعْلَمُ
تَبْدُو بِأَثْوَابِ حِسَانِ لِلْوَرَى	بِيضٍ وَقَلْبِكَ بِالْجَهَالَةِ مُظْلِمُ
كَمْ جَاءَكَ الْمَظْلُومُ يَشْكُو كُرْبَةً	وَأَتَى لِبَابِكَ صَاغِرًا يَتَنَدَّمُ
فَتَرَكْتَهُ يُدْرِي دُمُوعَ جُفُونِهِ	حُزْنًا وَأَنْتَ بِمَالِهِ تَتَنَعَّمُ
تَهْوَى الْإِمَارَةَ وَهِيَ وَيَحْكُ حِطَّةً	فِيهَا أُمُورٌ سُوءُهَا لَا يُعْدَمُ
لَمْ يَقْصِدِ الدُّنْيَا وَجَمَعَ خُطَامَهَا	فَالْجَمْعُ لِلدُّنْيَا عَذَابٌ مُّبْرَمُ
مَا قَصَدَهُ شَيْءٌ سِوَى إِصْلَاحِهِ	وَالنَّدْبُ لِلِإِصْلَاحِ دِينَ قِيمُ
ظَنُّوا بِهِ خَيْرًا وَصَلُّوا كُلُّكُمْ	جَهْرًا عَلَيْهِ فَبِرُّهُ لَا يُكْتَمُ

مَنْ صدق في باطنه رأى أحب في ظاهره ، الصدق نَدٌّ لا يشمه مزكوم ، والأعمى لا يرى السحاب المركوم ، لما نظر عزيز مصر إلى يوسف بعين الفراسة ، فأجلسه على إعزاز « أَكْرَمِي مَثْوَاهُ » [يوسف: ٢١] ، ورأته زليخا بعين الأمل ، فشغفها حبًا ، فراودته لما يراد به فأوقد هواها بنيران « وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ » [يوسف: ٢٤] فحمى حماه بحراسة « لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ » [يوسف: ٢٤] ، فبدت له كف من غير ذراع ، فيها مكتوب خطاب الرحمة ؛ لأنه لا يحلُّ له أن يحلَّ عصام العصمة ، فنهضت يد العناية الربانية ، وجددت لِمَنْ لربه فيه نية ، فلما أضرم نيران الهوى ، وقوي وهجها ، صبَّ عليها ماء « كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » [يوسف: ٢٤] ، فجرى جواد عرضه في

حرب ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ [يوسف: ٥٥] ، فانبسطت يد العدوان ، وامتدت
فقدت ، فلما بانث حجته في بيان ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ [يوسف: ٢٦] ، أخذت
ترمي مسرات الإصرار على مرام ما رامت يمين ﴿وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾
[يوسف: ٣٢] ، فاختارت درة فهمه صدف السحن لجهل الناقد ﴿رَبِّ السَّجْنِ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] ، فأجابه مولاه ، وأقبل عليه ،
فكان يواسي المسجونين بنفس تأوي لهم فيعبر تأويلهم ، ويعزي حزينهم ، ويعود
المرضى بالمرضاة حتى يعودهم وإن كان دينهم لا يعجبه ، لكن الحر شفيق على مَنْ
يصحبه ، ويعطف قلوب الأخيار على كل مبتلى لا سيما مَنْ امتحن بالغبرة
والقلي ، وقيل في المعنى :

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ بِأَهْلِهَا فَلَسْنَا مِنَ الْأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الْأَحْيَا
إِذَا جَاءَنَا السَّجَانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ عَجِبْنَا وَقُلْنَا : جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا
لما ضاق السحن على بلبل الطبع ترنم صوته ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ،
فعوقب بإيثاق بابه عليه ﴿فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢] ، فلما
جاز عقبة العقوبة رأى الملك في صحيفة منامه أعجوبة ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ﴾ [يوسف: ٤٢] ، ففات فيه جواب فتياه في فلاة تحير ﴿أَنَا أُتْبِكُكُمْ﴾
[يوسف: ٤٥] ، فطلبه الملك ، فلم يخرج من سحن التهمة حتى سطرت برائته في
صحيفة منشور ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١] ، فخرج من ضيق السحن
إلى سعة ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] ،
فأجابه الملك بما طلب ، وأنزله المتزل الكريم ؛ هذا ، ويعقوب مقيم في بيت الحزن
على فراش الأسى ووساد القلق ، يقول : يا أسفا ، لا يستلذ نوما ولا هجوعا ،
كيف والإنسان خلق هلوعا ، ثمانين سنة يعاين عذر العبر حتى نحل البدن وذهب
البصر ، وقيل في المعنى :

لَمْ يَبْقَ لِي بَعْدَكُمْ رَيْعٌ وَلَا طَلَلٌ إِلَّا وَلِلشَّوْقِ فِي أَرْجَائِهِ عَمَلٌ

بَنَيْتُمْ فَأَوْحَشْتُمُ الدُّنْيَا لِبَيْنِكُمْ مِنَّا فَلَا عِوَضَ عَنْكُمْ وَلَا بَدَلَ
حَمَلْتُمُونِي عَلَى ضَعْفِي يُبْعِدْكُمْ مَا لَيْسَ يَحْمِلُهُ سَهْلٌ وَلَا جَبَلٌ
إِذَا شَمَمْتُ نَسِيمًا مِنْ دِيَارِكُمْ فَقَدْتُ عَقْلِي كَأَنِّي شَارِبٌ ثَمَلٌ

ثم إن البلاء والقحط انتشرا في البلدان ، ووصلا إلى كنعان ، فكان أهل النواحي يقصدون مصر بأموالهم وبضاعتهم ، فيتمارون الطعام ، ويشكرون ليوسف لما يرون له من السير الكرام ، فوصل مس الجذب إلى يعقوب عليه السلام وبنيه ، وظهر ذلك على كل مَنْ يليه ، وكان يجتمع ليعقوب عليه السلام ستون رجلاً وامرأة فشكوا إليه ما نالهم من الخصاصة والجذب ، وسألوه أن يدعو الله تعالى لهم حتى يفرج عنهم ، أو ينظر نظراً يعتمدون عليه ، ويرجعون إليه ، فقال يعقوب عليه السلام : يا بني ، إنه بلغني أن عصر ملكاً من أكرم الملوك ، وأنصحهم لعباد الله ، وأحسنهم خلقاً ، وأسخاهم كفاً ، وعنده طعام كثير ، وقد توجه الناس إليه من البلدان ببضاعات وأموال ، فحمدوا سيرته ، وشكروا إحسانه وطوبته ، وقد استخرت الله تعالى أن أوجهكم نحوه لشراء الطعام ، فقالوا له : نحن لك مطيعون ، ولقولك سامعون ، فجهز عشرة منهم ، وأعدوا أهبة حسنة ، وأظهروا زياً بديعاً ، وحملوا ما أمكنهم ، ولم يقصد مصر قوم أحسن حالاً منهم ، ثم أخذوا في الأهبة والمسير ، وهم لا يعلمون ما يريد بهم اللطيف الخبير ، وقيل في المعنى :

دَعَا مَا كَانَ قَبْلُ مِنَ الشُّؤْرِ وَجَدُوا فِي الْمَسِيرِ وَفِي الْبُرُورِ
لَكُمْ تَسْرِي السَّرَى وَبِكُمْ يَهَنَّا عَظِيمُ الْمَلِكِ ذُو الْحُكْمِ الْوَجِيزِ
وَإِنْ طَرِيدَكُمْ فِيمَا زَعَمْتُمْ طَرِيحُ الْجُبِّ يُدْعَى بِالْعَزِيزِ

قال : وكان يوسف عليه السلام قد نصب قهرمانين : أحدهما قبطي ، والآخر مصري ، وأمر أحدهما أن يبيع الطعام من أهل مصر ، ويأخذ الثمن ، ولا يسأل عن اسم الرجل ، ولا عن اسم أبيه ولا نسبه ، وأمره أن لا يبيع من الغرباء شيئاً قليلاً ولا كثيراً ، وأمر القهرمان الآخر أن يكون يبعه من الغرباء دون أهل البلد ، وأمره أن لا يبيع من غريب شيئاً حتى يسأله عن اسمه واسم أبيه واسم بلده وأرضه ، فإذا عرفه بذلك لم يبعه شيئاً ولا يأخذ منه بضاعة حتى يعرف يوسف عليه السلام بذلك ، ويأخذ منه إذنه في البيع له ، فكان الغريب إذا ورد على القهرمان ، وسأله وعرفه ، تركه

واقفاً ، وسار إلى باب يوسف ، فعرف البواب ، وعرف البواب الحاجب ، فدخل
 الحاجب ، ويقف عند الحجاب ، فييدي من الخضوع ما ييدي لدى الملوك ، ويثني
 على الملك ، ويقول : أيها الملك ، إنه ورد قوم من أرض كذا وكذا ، وبضاعتهم
 كذا وكذا ، ويريدون من الميرة كذا وكذا ، فيهتز الحجاب ، فيكون هزه علامة
 القبول والإنعام عليهم بالبغية والسول ، ولم يكن سدل الحجاب تكبراً من الصديق
 الله ، ولا تجبراً علي الرعية ، بل كان أشد الناس تواضعاً في نفسه وتذلاً لربه ،
 وإنما كان ذلك إرهاباً لقلوب أعدائه ، وتحفظاً ممن يريده بالسوء ، فلو انبسط إليهم
 وهم لا يغفلون عنه ، لأدّى ذلك إلى ازدرائهم له وجراءتهم عليه ، وإنما بُعث
 الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتحديد الشرائع وسد الذرائع . قال : ابن عمر رضي
 الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « ألا أوصيكم بوصية نوح عليه الصلاة والسلام
 ابنه ؟ قالوا : بلى ، قال : أوصى نوح ابنه ، فقال : أوصيك باثنتين ، وأنهاك عن
 اثنتين ، أوصيك بقول : لا إله إلا الله ، فإنها لو وضعت في كفة ، ووضعت
 السموات والأرضون السبع في كفة لرجحتهن ، ولو كانت حلقة لقصمتهن حتى
 تخلص إلى الله تعالى ، وأوصيك بقول : سبحان الله وبحمده ، فإنها عبادة الخلق ،
 وبها تدر أرزاقهم ، وأنهاك عن اثنتين : عن الشرك والكبر فإنهما يحجبان عن
 الله ، قالوا : يا رسول الله أمن الكبر أن يلبس الرجل القميص النظيف أو يتخذ
 الطعام يكون عليه الجماعة ؟ قال : ليس ذلك من الكبر ، إنما الكبر أن تسفّ الحق
 وتغضض الناس » ذكره البزار ، وقيل في المعنى :

خَلَّ النَّصْنَعُ عَنْكَ يَا مِسْكِينُ	إِنَّ التَّوَّاضَعَ فِي الْقُلُوبِ يَكُونُ
مَا تَصْنَعُ الْأَطْمَارُ فِيمَنْ صُنْعُهُ	يَأْتِي التَّقْيِصَ وَقَلْبُهُ مَفْتُونُ
فَرَاهُ يُرْقِعُ ثَوْبَهُ لِيَقُولَ مَنْ	يَلْقَاهُ : هَذَا نَاسِكٌ وَسَكُونُ
فَإِذَا خَلَا أَبْدَى الْقَبِيحِ كَأَنَّمَا	فِي الصَّدْرِ مِنْ خُبْتِ الْخِصَالِ كَمِينُ
وَلَرُبَّ ذِي ثَوْبٍ نَظِيفٍ أَيْضُ	سَاءَتْ بِهِ عِنْدَ اللَّقَاءِ ظُنُونُ
يُيَدِّي السُّرُورَ إِذَا تَرَاهُ وَقَلْبُهُ	بَاكِ عَلَى مَا قَدْ جَنَى مَحْزُونُ
فَكَأَنَّهُ كَنَزٌ عَلَيْهِ طَلَّاسِمُ	يَبْدُو وَلَكِنْ مَا تَرَاهُ عَيُونُ
يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَزَكِّي نَفْسُهُ	أَقْلَلُ كَلَامَكَ فَالْجُنُونُ فُنُونُ

إِنَّ السَّرِيرَةَ لَيْسَ تَخْفَى يَا أَخِي مَنْ يَكْتُمُ الشَّكْوَى عَلَيْهِ تَبِينُ
وَاللَّهُ يُلْبِسُ عَبْدَهُ مَا قَدْ نَوَى وَالْكُلُّ بِالْفِعْلِ الْقَدِيمِ رَهِينُ

(حكاية) : يُروى أنه كان في بني إسرائيل رجل من العباد المبرزين في العبادة ، الموصوفين بالزهادة ، وكان إذا دعا ربه أجابه ، وإذا عمل أعطاه وأثابه ، وكان سياحاً في الجبال ، قواماً في الليالي ، وكان الله تبارك وتعالى قد سحر له سحابة تسير معه حيث يسير ، وتسكب عليه ماء متى شاء ماءها المعين ، فيتوضأ ويشرب إلى أن اعتراه فتور في بعض الأوقات ، فأزال الله عز وجل سحابته ، وحجب إجابته ، فكثر لذلك حزنه ونحيبه ، وطال كمدّه ووجيبه ، وما زال يشتاقي إلى زمان الكرامة الممنون بها عليه ، فيسكى ويتأسف ويتحسر ويتلهف ، فنام ليلة من الليالي ، فقليل له في نومه : إن شئت أن يرد الله عليك سحابتك ، ويجيب دعوتك ، فصل إلى الملك الفلاني في بلد كذا وكذا ، واسأله أن يدعو لك ، فإن الله عز وجل يردها عليك ، ويسوقها إليك ، وقيل في المعنى :

اقصِدْ إِلَى الصَّالِحِ الْأَمِيرِ فِي خَطْبِكَ الْوَاقِعِ الْكَبِيرِ
فَإِنْ دَعَا اللَّهَ جَا بِمَا قَدْ سَأَلْتَ مِنْ وَابِلِ هَمِيرِ
لَقَدْ سَمَا فِي الْمُلُوكِ قَدْرًا وَجَلَّ فِيهِمْ عَنِ النَّظِيرِ
وَسَوْفَ تَلْقَى لَدَيْهِ أَمْرًا يَكُونُ بِالْبِشْرِ وَالسُّرُورِ
فَاقْطَعْ لَهُ الْبَيْدَ وَالْفَيَافِي وَوَاصِلِ السَّيْرَ بِالْمَسِيرِ
لَعَلَّ وَقْتَ الْقَبُولِ يُقْضَى وَيُعْقَبُ الْعُسْرُ بِالْيَسِيرِ

قال : فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى البلدة التي ذكرت له في المنام ، فدخلها وسأل عن الملك ، فأرشد إلى قصر ، فإذا عند باب القصر غلامٌ قاعدٌ على كرسيٍّ عظيم ، وعليه كسوة حسنة ، فوقف الرجل إليه ، وسلم عليه ، فرد عليه السلام ، وقال : ما حاجتك ؟ قال : أنا رجل مظلوم ، جئت لأرفع قصتي إلى الملك ، قال : إنه لا سبيل إليه ؛ لأنه قد جعل لأصحاب المسائل يوماً يدخلون عليه فيه ، وهو يوم كذا وكذا ، فسرّ راشداً حتى يأتي ذلك اليوم ، قال : فأنكر الرجل عليه حجبتّه عن الناس ، وقال : كيف يكون هذا ولياً من أولياء الله تعالى وهو على مثل هذه الحالة ؟ قال : فلما كان ذلك اليوم الذي ذكره البواب ، وصل فوجد عند

الباب أناساً ينتظرون الإذن لهم بالدخول ، قال : فوقف إلى أن خرج وزيرٌ عليه ثياب عظيمة ، وبين يديه سدةٌ وعبيدٌ ، فقال : ليدخل أرباب المسائل ، قال : فدخلوا ، ودخل العابد في الجملة ، فإذا الملك قاعدٌ ، وبين يديه أرباب مملكته على مقاديرهم ومراتبهم ، فوقف الوزير ، وجعل يقدم واحداً بعد واحد حتى وصلت النوبة إلى العابد ، فلما قدمه الوزير نظر إليه الملك وقال : مرحباً بصاحب السحابة ، أقعد حتى أفرغ لك ، فتحير الرجل من قوله ، واعترف بمرتبته وفضله ، ففضى الملك بين الناس ، وفرغ منهم ، ثم قام فقام الوزراء وأرباب المملكة ، وأخذ الملك بيد العابد ، وأدخله إلى قصره ، فوجد عند باب القصر أسوداً عليه ثياب ، وفوق رأسه أسلحة ، وعن يمينه وشماله دروع وتراس ، فقام إلى مولاه ، وفتح باب القصر ، فدخل الملك ويده في يد صاحب السحابة ، فإذا بين يديه باب قصر خلق بال ، ففتحه الملك ، ودخل إلى دار خرابة وبناء مائل ، ثم دخل بيتاً ليس فيه إلا سجادة وقدح للوضوء وشيء من الخوص ، فجرد الملك ثيابه ، ولبس جبة خشنة من الصوف الأبيض ، وجعل على رأسه قلنسوة لبد ، ثم جلس ، وأجلس العابد ، ونادى : يا فلانة ، فقالت : لبيك ، فقال : أتدريين مَنْ ضيفنا في هذا اليوم ؟ فقالت : نعم ، هذا صاحب السحابة ، فقال : اخرجي ، لا عليك منه ، فإذا بامرأة كأنها الخيال ، وكأن وجهها الهلال ، عليها جبة صوف ، وقناع صوف ، فقال الملك : يا أخي ، أتريد أن تعرف خبرنا ، أو ندعوك لك وتصرف ؟ قال : بل أنا إلى سماع خبر كما أشوق ، قال : يا أخي ، إنه كان لي في هذا الأمر آباء كرام يتداولون المملكة ، ويتوارثونها كابراً عن كابر إلى أن ماتوا ، ووصل الأمر إلي ، وبِعَضَ الله إلي الدنيا ، فأردت أن أسيح في الأرض ، وأترك الناس ينظرون لأنفسهم ، فخفت عليهم من دخول الفتنة وتضييع الشرائع وتشتيت شمل الدين ، فبايعوني مكرهاً ، فتركت أمورهم على ما كانت ، وجعلت لكل رأس منهم حواشيه بالمعروف ، وعامل جرائته بالمعروف ، ولبست ثياب الملك ، وأقعدت العبيد على الأبواب إرهاباً لأهل الشر ، وذباً عن أهل الخير ، وإقامة للحدود ، فإذا فرغت من ذلك كله دخلت متري ، وأزلت هذه الأثواب ، ولبست ما لا أسأل عنه ، وهذه ابنة عمي ، وافقتني على الزهادة ، وساعدتني على العبادة ، ونحن نعمل من هذا الخوص بالنهار ما نفطر به عند الليل منذ أربعين سنة ، فأقم عندنا حتى نبيع خوصنا ، وتفطر معنا ، وتبيت عندنا ، وتصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى ، قال : فلما كان عشي النهار إذا بغلام خماسي قد دخل ، فأخذ ما عملاه من الخوص ، وسار به إلى السوق ،

فباعه بقيراط ، واشترى منه خبزاً وفولاً ، وأتى به ، قال : فأفطرتُ معهما ، وبثُ عندهما ، فقاما من نصف الليل يصليان ويكيان ، فلما كان عند السحر قال : الملك : اللهم ، إن هذا يطلب منك ردَّ سحابتِه فرُدّها عليه ، وأنتَ على كل شيء قدير ، اللهم أره إجابته ، وارُدّدْ عليه سحابتِه ، قال : وأمّنتَ الزوجةُ ، قال : فإذا السحابة قد نشأتُ في السماء ، فقالا : لك البشارة ، فودعتُهما وانصرفتُ والسحابة تتبعني ، فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بحرمتِهما شيئاً إلا أجابني ، وقيل في المعنى :

وَأَبْدَأْتُهُمْ قَدْ أُسْكِنْتَ حَرَكَاتُهَا	وَأَبْدَأْتُهُمْ قَدْ أُسْكِنْتَ حَرَكَاتُهَا
تَرَاهُمْ صُمُوتًا خَاشِعِينَ لِرَبِّهِمْ	تَرَاهُمْ صُمُوتًا خَاشِعِينَ لِرَبِّهِمْ
صَفَوْا فَدَنَوْا ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ قُلُوبُهُمْ	صَفَوْا فَدَنَوْا ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ قُلُوبُهُمْ
فَهُمْ حُجَّجُ الْمَوْلَى عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ	فَهُمْ حُجَّجُ الْمَوْلَى عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
كَسَاهُمْ إِلَهُ الْعَرْشِ مِنْ نَسِجٍ وَدِّهِ	كَسَاهُمْ إِلَهُ الْعَرْشِ مِنْ نَسِجٍ وَدِّهِ
يُضِيءُ ظِلَامَ اللَّيْلِ حُسْنُ وَجْهِهِمْ	يُضِيءُ ظِلَامَ اللَّيْلِ حُسْنُ وَجْهِهِمْ
قُلُوبُهُمْ فِي رَوْضِ حِكْمَتِهِ تَجْرِي	قُلُوبُهُمْ فِي رَوْضِ حِكْمَتِهِ تَجْرِي
لَمَّا فِي صُدُورِ الْقَوْمِ مِنْ خَالِصِ السِّرِّ	لَمَّا فِي صُدُورِ الْقَوْمِ مِنْ خَالِصِ السِّرِّ
وَأَنْفُسُهُمْ مَجْمُوعَةٌ الْوَهْمِ وَالْفِكْرِ	وَأَنْفُسُهُمْ مَجْمُوعَةٌ الْوَهْمِ وَالْفِكْرِ
بَحَيْثُ يَرَوْنَ الْعَيْبَ بِالْعَيْبِ كَالْجَهْرِ	بَحَيْثُ يَرَوْنَ الْعَيْبَ بِالْعَيْبِ كَالْجَهْرِ
لِدَعْوَتِهِمْ تَجْرِي السَّحَابُ بِالْقَطْرِ	لِدَعْوَتِهِمْ تَجْرِي السَّحَابُ بِالْقَطْرِ
ثِيَابًا وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْقَصْدِ لِلْغَيْرِ	ثِيَابًا وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْقَصْدِ لِلْغَيْرِ
فَأَنْوَارُهُمْ تَعْلُو عَلَى الْأَنْجُمِ الزُّهْرِ	فَأَنْوَارُهُمْ تَعْلُو عَلَى الْأَنْجُمِ الزُّهْرِ

المجلس الثاني عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق ٢، ٣] .

الحمد لله الذي رفع السماء على رسم جسم سرائر قدرته ، وأمسكها بلا عماد ، وبسط الأرض على سنام آكام أمواج لجج البحر العجاج ووضعها كالمهاد ، وأرساها على كراسيٍ رواسي صم صخر قواعد جلايد جبالها ووضعها كالأوتاد ، العزيز الذي عصم خواطر العارفين بحسام تمام إرادته من حلول نزول وصول جيوش التغير والفساد ، وأنطق قمارى النسيم على أفنان أغصان أفئدةهم في روضات جنات خدمتهم بأنواع أسجاع سماع بدائع صناع عجائب الحكمة والسداد ، الكريم الذي أقفل على أبواب أهل الشرك بأغلال أثقال أحمال احتمال الكفر والعناد ، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ويضل من يشاء ويهدي من يشاء ، ومن يضل الله فما له من هاد ، فتق ورتق وقال وصدق ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود: ٦] ، وهو الكريم الجواد ، يقيم للصادقين منهاجاً ، ويجعل للمتقين مخرجاً ،

ويهبون عليهم الأمور الشداد ، أما سمعته يقول ، وهو لا يخلف الميعاد : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق ٢، ٣] فبأ لمن يعتمد بعد هذا على أحد من العباد ، فسبحان من يقهر الملوك ، ويجير الصلوك ، ويعتق المملوك ويجمع بين الأضداد ، أحمدته على نعمه المتزهة عن الحصر والتعداد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أجد بركتها يوم الميعاد ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحيبيه وخليته ، المخصوص بالحكمة والرحمة والسداد ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الحسباء الأحياء النجباء الأحياء ، صلاة تدوم وتقوم ما فاح مندل وناجى بلبل بواد ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل :

تَنْصَلُ عَنِ الْعَصِيَانِ يَا غَافِلًا أَخْطَا فَشَيْئَكَ قَدْ وَافَى وَيَوْمَكَ قَدْ أَبْطَا
وَتَقْوَاكَ لَا تَقْوَى وَعَهْدُكَ لَا تَفِي كَأَنَّكَ لَا تَخْشَى الْحِسَابَ وَلَا الْقِسْطَا

أَتَجْنَحُ بِهَا بَطَّالٌ لِلَّهِ وَالصَّبَا
حُرُوفَ بَيَاضٍ طَالَمَا اسْوَدَّ لَوْنُهَا
كَأَنَّ غُرَابَ السَّيْنِ بَدَّلَ خَلْقَهُ
وَتَطْمَعُ فِي اسْتِطْطَانِ دَارِ بِهَا الْبَلَا
جَهَلْتُ لَقَدْ أَمَلْتُ مَا لَا تَنَالُهُ
أَلَسْتُ تَرَى مَكْرَ الزَّمَانِ بِأَهْلِهِ
سَتَدْرِي إِذَا مَا جِئْتَ فِي الْحَشْرِ مُفْرَدًا
وَقَلْبُكَ مِنْ فَرْطِ الْحُقُوقِ كَطَائِرٍ
فَإِنْ تَكُ تَرْجُو أَنْ تَنَالَ مِنَ التَّقَى
فَقُمْ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ وَاسْأَلْهُ تَوْبَةً
فَلَا أَحَدٌ يُرْجَى سِوَى اللَّهِ مَانِحٌ

وَهَذَا كِتَابُ الدَّهْرِ فِي الرَّأْسِ قَدْ خَطَا
فَالْبِسْهَا الْمَوْتَ الْمِلْمَ بِهَلٍ مِرْطَا
حِمَامٌ حِمَامٌ فَالْتَفُوسُ لَهُ لَقَطَا
وَتَيْقَةَ عَهْدٍ وَالرَّحِيلُ غَدَا شَرْطَا
أَظُنُّكَ مَجْنُونًا سَقَاهُ الْهَوَى قِسْطَا
وَأَنْتَ كَمَنْ أَعْطَاهُ مِنْ مَكْرِهِ قِطَا
وَرَأْسُكَ مِنْ أَجْلِ الْمَعَابِ قَدْ حُطَا
يُحَاوِلُ نَهْضًا وَالْجَنَاحَانِ قَدْ قُطَا
نَصِيًّا وَيُمَحِّي عَنْكَ وَيَلْكَ مَا خُطَا
فَكَمْ مَنَحَ الْمَقْبُوضَ فِي رِزْقِهِ بَسْطَا
وَلَا أَحَدٌ غَيْرُ الَّذِي رَبُّهُ أَعْطَى

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

[الطلاق ٢ ، ٣] ، اعلم أن الله تعالى أعطى المتقين اثني عشرة خصلة من خصال أهل السعادة : أولها القبول ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] ، الثانية العاقبة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، الثالثة النجاة ، وهو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ [مريم : ٧٢] ، الرابعة الجنة ، وهو قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : ٦٣] ، الخامسة جوار الله تعالى في الجنة ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر : ٥٤] ، ﴿ فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٥] ، السادسة نُصرة الله لهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] ، السابعة محبة الله لهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ٧٦] ، الثامنة

الكرامة ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] ،
 التاسعة اليسر ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾
 [الطلاق: ٤] ، العاشرة والحادية عشرة التكفير وعظم الأجر ، وهو قوله تعالى :
 ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٣٦] ، والثانية
 عشرة المخرج ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾
 [الطلاق: ٢] ، والثالثة عشرة ركوب النوق من القبور إلى القصور ، وهو قوله
 تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٥٨] ، والوافد لا يكون
 إلا راكباً ، وقيل في المعنى :

مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي سِيقَ إِلَيْهِ الْمُتَجَرُّ الرَّابِحُ
 لَا يَجْتَلِي الْخَوْرَاءَ فِي حَذَرِهَا إِلَّا أَمْرُ مِيزَانُهُ رَاجِحُ
 فَاسْمُ بَعِينِكَ إِلَى نِسْوَةِ مُهَوَّرُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يقول : « الإسلام علانية ،
 والإيمان في القلب » ^(١) ، ثم يشير ﷺ إلى صدره ويقول : « التقوى ههنا ، التقوى ههنا ،
 ههنا ، التقوى ههنا ، ثلاث مرات » ^(٢) ذكره مسلم ، وقال عطية السعدي : قال
 رسول الله ﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً
 مما بأس به » ذكره الترمذي . وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : سمعتُ
 رسول الله ﷺ يقول : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي » ^(٣)
 ذكره الترمذي ، وقال أبو ذر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « اتق الله حيثما
 كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن » ^(٤) ذكره

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٣٠١ / ٥ ، والديلمي في مسند الفردوس ١ / ١١٥ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٩٨٦ / ٤ ، والترمذي في سننه ٣٢٥ / ٤ .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٦٠٠ / ٤ ، وابن حبان في صحيحه ٣١٤ / ٢ ، والحاكم في
 مستدركه ١٤٣ / ٤ .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه ٩٦ / ٤ ، والحاكم في مستدركه ١٢١ / ١ ، والدارمي في
 سننه ٤١٥ / ٢ .

الترمذي . وقال رسول الله ﷺ وهو يوصيه : « عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية كل مسلم ، وعليك بذكر الله فإنه نور لك يوم القيامة » ، وقال ﷺ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ » . وقال عمر رضي الله عنه لكعب : حدثني عن التقوى ، فقال : هل أخذت قططاً طريقاً ذات شوك ؟ قال : نعم ، قال : فما عملت فيه ؟ قال : حذرتُ وشترتُ ، قال : فكذلك التقوى . وقال وهب : الإيمان عُريان ، ولباسه التقوى ، وزينته الحياء ، ورأس ماله الفقه . وقال ميمون بن مهران : لا يكون التقيُّ تقيًّا حتى يكون أشد الناس محاسبة لنفسه من الشريك لشريكه . وقال مسعر لسعد : من أفقه أهل المدينة ؟ فقال : أتقاهم الله . وكان شيخ يدور في المجالس وينادي : مَنْ سره أن تدوم له العافية فليتنق الله . وكان الحسن يقول : ما تزال التقوى بالمتقين حتى يتركوا شيئاً من الحلال مخافة الحرام . وأتاه يوماً فرقد وعليه جبة صوف مرقوعة ، فأخذ الحسن بتلابيبه ، وقال : يا ابن أم فريقد ، ليس التقوى بأكل الغليظ ، ولا بلبس العباءة ، إنما التقوى ما وفر في الصدر ، وصدقه العمل ، وقيل في المعنى :

لَيْسَ التَّصَوُّفُ بُسُّ الصُّوفِ تَرْفِيعُهُ وَلَا بُكَاءُؤُكَ إِنْ غَنَى الْمُعْنُونَا
وَلَا صِيَّاحٌ وَلَا رَقْصٌ وَلَا طَرْبٌ وَلَا ارْتِعَاشٌ كَأَنَّ قَدْ صِرْتَ مَحْنُونَا
بَلِ التَّصَوُّفُ أَنْ تَصْفُوَ بِلا كَدَرٍ وَتَتَّبَعَ الْحَقَّ وَالْقُرْآنَ وَالِدِينَا
وَأَنْ تُرَى خَاشِعًا لِلَّهِ مُكْتَنِبًا عَلَى ذُنُوبِكَ طُولَ الدَّهْرِ مَحْزُونَا

واعلم أن أرزاق العباد تنقسم على ثلاثة أقسام : مضمون ، ومقسوم ، وموهوب ؛ فالمضمون ما سطر في أم الكتاب ، والمقسوم ما يتوصل إليه بأنواع الأسباب ، والموهوب ما وعد الله به المتقين حلالاً من غير حساب . وقال أبو الدرداء : قال رسول الله ﷺ : « إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله » ذكره الترمذي . وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ لابن أبي خالد : « لا تيأس من الرزق ما تدهدهت رعوسكما ، فإن العبد تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله » ^(١) ذكره ابن أبي شيبة ، وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : قال

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٤ / ٢٢٦ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٢ / ١١٩ ، وهناد في الزهد ٢ / ٤٠٧ .

رسول الله ﷺ : « ليس من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا عمل يقربكم من النار إلا وقد هيئتم عنه ، فلا يستبطن أحدكم رزقه ، فإن جبريل عليه السلام نفث في روعي : إن أحدكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، فإن استبطأ أحدكم رزقه ، فلا يطلبه بمعصية الله ، فإن الله لا ينال ما عنده بمعصيته » ^(١) ذكره ابن عبد البر . وقال موسى عليه السلام : يا رب ، كيف قمت بأرزاق خلقك على اختلاف صورهم وكثرة عددهم ونياتهم ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا ابن عمران ، إن الخلق في قبضي كعبة خردل ملقاة في أرض فلاة ، وإن إحاطتي بهم أكثر من إحاطة الفلاة بالحبة ، أرزق القريبَ والبعيدَ ، والكبيرَ والصغيرَ ، والمؤمنَ والكافرَ ، ولا يتعذر عليّ ذلك ؛ لقوة الإحاطة واتصال الغنى ، قال : يا رب ، فكيف ترزقهم ولا تفني خزائنك ؟ قال : إني أضرب لك في ذلك مثلاً ، إذا جاء الليل فمرّ بني إسرائيل لا يضرمون ناراً ، ولا يؤقدون مصباحاً ، ثم اجعل مصباحاً على باب خيمتك ، ومُرهم أن يقتبسوا منه ، ففعل ذلك موسى ، فجعل هذا يؤقد مصباحه ، وهذا شعلته ، وهذا ما يحتاج إليه ، حتى أوقد الكل من سراجِه ، وبقي سراجُه كما كان ، فأوحى الله تعالى إليه : يا ابن عمران ، أنقص من سراجك شيء ؟ فقال : لا يا رب ، قال : إذا كان هذا حكم سراجك ، فما حكم خزائن أمدّها بلحظي ، وأحوطها بحفظي ، فقال : سبحانك ، لا إله إلا أنت ، لا تنقص خزائنك ، ولا يبيد سلطانك ، وقيل في المعنى :

يَا مَنْ يَجُودُ عَلَى الْعِبَادِ وَيُنْفِقُ	وَيُسَبِّحُ مَا سَأَلَ الْعَبِيدُ وَيَرْزُقُ
وَيُجِيبُ دَعْوَةَ مَنْ دَعَاهُ لِحَاجَةٍ	وَيُنِيلُهُ اللَّطْفَ الْجَزِيلَ وَيَرْفُقُ
أَنْتَ الْعَزِيزُ بِلَا خِلَافٍ وَالَّذِي	يُولِي الْحَيَا وَأَنَا الذَّلِيلُ الْمُمْلِقُ
قَدْ أَثْقَلْتُ ظَهْرِي الذُّنُوبُ وَإِنِّي	لَأَضِجُ مِنْ ثِقَلِ الْقَمِيصِ وَأَقْلُقُ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ أَزِيدَ جَرَائِمًا	وَتَزِيدَ إِحْسَانًا لَدَيَّ وَتُخْلِقُ
هَذَا دَلِيلُ غِنَاكَ عَنِّي سَيِّدِي	إِنَّ الْغَنَى بِجُودِهِ يَتَصَدَّقُ

(١) أخرجه ابن الجارود في المتقى ١ / ١٤٤ ، والحاكم في مستدركه ٢ / ٥ ، والبيهقي في الكبرى ٥ / ٢٦٥ ، والقضاعي في مسند الشهاب ٢ / ١٨٦ .

فَالْبِرُّ لَيْسَ يَزِيدُهُ فِي مُلْكِهِ وَكَذَا الْفُجُورُ سَنَاءُهُ لَا يُخْلُقُ
فَلَهُ التَّفَضُّلُ وَالتَّطَوُّلُ وَالْغِنَى وَلَهُ الْعَزَازَةُ وَالْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ
قَالُوا : لَقَدْ ظَهَرَ افْتِقَارُكَ لِلَّذِي تَعْنِيهِ فَاسْأَلْ مِنْهُ مَا هُوَ أَرْفَقُ
فَأَجَبْتُهُمْ وَمَدَامَعِي مُنْهَلَّةٌ خَرَسَ اللِّسَانُ وَلِي دُمُوعٌ تَنْطِقُ
صَلَّى إِلَاهُهُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ مَا غَرَّدَ الْقَمْرِيُّ وَهُوَ يُشَوِّقُ

واعلم يا أخي أن الرزق بالقسمة لا بالجهد ؛ ألا ترى أن يعقوب كان حريصاً على رؤية يوسف ، والإخوة كانوا فيه من الزاهدين ، فرآه الزاهد قبل الحريص ، ليعلم أن لكل شيء وقتاً ، والأرزاق بالتقدير لا بالتدبير ، فكيف تفيد الحيل والأسباب وربنا عز وجل يقول : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد: ٣٨] ، وذلك أنهم لما طلبوا الميرة دخلوا الطريق ، وعزموا على الوصول إلى مصر ، وحملوا معهم زاداً ظنوا أنه يوصلهم ، فنفد الزاد قبل وصولهم بمرحلتين ، فأثر الجوع فيهم أثراً ظاهراً ، وعلاهم الشعث ، وبدا فيهم التغير ، فلما دخلوا مصر سألوا الناس عن بائع الطعام ، فذّلوا عليه ، فلما وصلوا إليه وقفوا لديه ، وسألوه بيع الطعام ، فقال : إنكم قوم غرباء ، وليس أمر الغرباء بيدي ، ولكن انطلقوا إلى موضع كذا وكذا ، فإن فيه حاجتكم ، قال : فتقدموا إلى القهرمان الآخر الذي وكله يوسف عليه السلام ببيع الطعام من الغرباء ، وقيل في المعنى :

يَا نَسِيمًا هَبَّ مِنْ وَادِي قَبَا خَبَّرِيْنِي كَيْفَ حَالُ الْغُرَبَا
وَاخْبِرِيْهِمْ كَيْفَ حَالِي بَعْدَهُمْ لَمْ أَزَلْ مِنْ بُعْدِهِمْ مُعَذَّبَا
كَمْ سَأَلْتُ الدَّهْرَ أَنْ يَجْمَعَنَا مِثْلَ مَا كُنَّا عَلَيْهِ فَأَبَى

فوقفوا بين يديه ، وسألوه بيع الطعام ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن بنو الأنبياء ، قال : من أي بلد أنتم ؟ قالوا : من كنعان ، قال : ما أسمائؤكم ؟ فقالوا : فلان وفلان وفلان ، قال : انتسبوا ، قالوا : نحن أولاد يعقوب نبي الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، قال : فدخل القهرمان على يوسف عليه السلام ، وأعلمه بما قالوا له ، فقال : أيها الملك ، ورد قوم لطلب الميرة من بلد كنعان ، صفتهم كذا وكذا ، وحالهم كذا وكذا ، وأسمائؤهم فلان وفلان حتى عد عشرة ،

وأبوهم فيما يزعمون أنه يعقوب نبي الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، وإن الجوع قد أثر في وجوههم ، والخصاصة بدت عليهم ، فهم في نهاية من تغير الألوان ونحول الأبدان ، فاهتز يوسف عليه السلام عند سماع الخبر ، وبدا عليه من السرور أبين أثر ، وقيل في المعنى :

وَرَدَ الْبَشِيرُ مُبَشِّرًا بِقُدُومِكُمْ فَمَلِئْتُ مِنْ قَوْلِ الْبَشِيرِ سُورًا
تَاللَّهِ لَوْ قَنَعَ الْبَشِيرُ بِمُهْجَتِي لَبَذَلْتُهَا وَرَأَيْتُ ذَاكَ يَسِيرًا
أَوْ قَالَ : هَبْ لِي نَاطِرِيكَ لَقُلْتُ هَا خُذْ نَاطِرِيَّ فَمَا طَلَبْتَ كَثِيرًا
مِنْ يَوْمٍ أَوْحَشْتُمْ مَنَازِلَ أَنْسِكُمْ مَا زِلْتُ فِي قَيْدِ الْغَرَامِ أَسِيرًا
فَكَأَنَّنِي يَعْقُوبُ مِنْ فَرَحِي بِهِ إِذْ عَادَ مِنْ شَمِّ الْقَمِيصِ بَصِيرًا

فقال يوسف عليه السلام للقهرمان : أنزلهم منزلاً حسناً ، وابعث إليهم بطعام كثير طيب ورفهم ترفهاً يجب لملثهم ، فعجب القهرمان من ذلك ، وكان لا يفعل ذلك بأحد ، فخرج وأمر لهم بما أمر به يوسف ، فدخلوا دار الكرامة والتفضيل ، واشتد سرور يوسف ، وجعل يشكر مولاه على ما أنجزه وعده السالف له وهو في الحب ، وهو قول الله عز وجل : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

[يوسف: ١٥] ، فبات تلك الليلة بأعبط ليلة تكون ، فلما أصبح لبس أحسن ثيابه ، وجلس على سرير ملكه ، وجعل على وجهه برقعاً من الدياج يرى الناس من داخله ، ولا يرى هو من خارجه ، منظوماً باللؤلؤ والجوهر ، وأقام على يمينه ألف جارية بزيتنهن وحليهن ، وعلى يساره كذلك بأيديهن أعمدة الذهب والفضة ، ثم أمر قواده أن يلبسوا دروعهم وأسلحتهم ، ويحضروا جموعهم وأجنادهم ، ففعلوا واصطفوا صفوفاً ركبانياً عن يمين الكرسي ويساره ، وأمر الرجال والغلمان أن يصطفوا حول الفرسان بأيديهم الحراب والمقامع ، وأظهر زينة لم ير قط مثلها عندهم ، فصاروا يتعجبون من ذلك ، ويسأل بعضهم بعضاً : ما بال الملك فعل اليوم ما لم يكن يفعله قبل ذلك ؟ ! وقيل في المعنى :

يَا سَائِلِينَ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي أُمِرُوا كُفُّوا فَمَا عِنْدَكُمْ مِنْ قِصَّتِي خَبِيرُ
يَبْنِي وَيَبْنِي أَحْبَابِي مُطَالِبَةٌ جَرَى بِهَا وَمَضَى يَا وَيْحَكُمُ قَدْرُ

الْيَوْمَ يُنْجِزُ لِي رَبِّي مَوَاعِدَهُ حَتَّى أَرَى كُلَّ مَا قَدْ كُنْتُ أَنتَظِرُ
وَمُدَّةَ الْبَيْنِ قَدْ فُلتَ كَتَائِبُهَا وَجُنْدُهَا بِحُسَامِ الْوَصْلِ قَدْ قُهِرُوا
وَلِلْمَقَادِيرِ أَسْرَارٌ إِذَا ظَهَرَتْ تَعَجَّبَ الْخَلْقُ مِنْهَا حِينَ تَنْتَشِرُ
وَكُلَّ شَيْءٍ لَهُ حَدٌّ سَيُلْعَهُ فَيَذْهَبُ الْكَرْبُ وَالْمَظْلُومُ يَنْتَصِرُ

ثم أمر بالصواع ، فأحضر بين يديه ، وكانت عادته أن من دخل عليه وعرفه قضى حاجته ، ومن لم يعرفه دعا بالصواع الذي ذكره الله عز وجل ، وكان إناء من ذهب مرصع بأنواع الجواهر والدر والياقوت ، وكان الله تعالى أوصل إليه في ذلك الإناء علم الغيب يعرف به المخبات ، فإذا دخل عليه من لا يعرفه نقر الإناء ، وأدناه إلى أذنه ، فيعرف بذلك صدق المتكلم وكذبه ، وكانت هذه العادة تعرف منه وتذكر بين الناس ، وكان يُكال بذلك الإناء الطعام لعظم قدر الطعام وقيمته عند الأنام ، فجيء بذلك الصواع إليه ، فجعله في حجره ، ثم أذن لهم بالدخول ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون ، وقيل في المعنى :

عَلَى الطُّلُولِ عَمِيدُ الْقَلْبِ مَطْلُولُ فَوْقَ الْقِتَادِ بِسَيْفِ الْوَجْدِ مَقْتُولُ
لِلَّهِ مَوْقِفٌ عَدْلٍ فِي الْقَضَاءِ لَهُ مَشَقٌّ بِأَعْنَاقِنَا وَالسَّيْفُ مَسْلُولُ
أَحَلَّ سُقْمِي بِبِمَعَادِ الرَّجَا فَلَهَا قَلْبِي يَذُوبُ وَجَفْنِي فِيهِ مَبْلُولُ
إِذَا اجْتَمَعْنَا بِبُسْطِ الْإِنْسِاطِ عَلَى وَادِي الْوَدَادِ وَقَدْ قَالَ الْوَرَى : قُولُوا
تَقَدَّمَ النَّاسُ لِلنَّجْوَى بِيَهْرَجِهِمْ فِي مَوْقِفٍ لَمْ تَجْزُ فِيهِ الْأَبَاطِيلُ
وَعِنْدَهُ تَقِفُ الْأَلْبَابُ خَاضِعَةً وَعِنْدَهُ لَا يَجُوزُ الْقَالَ وَالْقِيلُ
فَأَيْنَ أَنْتَ إِذَا جَازَتْ قَوَافِلُهُمْ وَأَنْتَ فِي مَلْعَبِ الْإِعْرَاضِ مَرْحُولُ
حُطَّ اللَّثَامُ عَنِ الْآيَامِ وَارَمَ بِهَا فَالشَّعْرُ يَا ذَا لَهُ وَجَّةٌ وَتَأْوِيلُ
إِذَا كَسَرْتَ إِنَاءً وَهُوَ مَحْضُ إِنَا نَآذَاكَ مِنْ سِدْرَةِ الْأَنْوَارِ جَبْرِيلُ

فلما دخلوا رأوا ملكا عظيماً جليلاً ذا هيبة ، ونظروا إلى الرجال والفرسان والقهارمة والعبدان والجواري والوصائف والحلي والحلل والهيبة والخول والأستار والككل ، ورأوا ما لم يروه قبل ولا سمعوا به في الزمان ، فسلموا عليه بتحية الأنبياء

وقاموا وقوفاً ، وقد طأطأوا الأعناق ، وقد غضوا الأحداق ، ونكسوا الرؤوس ؛ هذا ، ووجه الصديق غير معبوس ، لكن كان مبرقعاً ، ونجم السعد والبهاء عليه قد طلعا ، وكل ينظر ما يأمر به ويحكم فيه ، وجعل يوسف يطيل النظر إليهم ويتأملهم واحداً بعد واحد ، ويعرفهم بأسمائهم ، ويراهم من حيث لا يرونه ، وجعل يطيل النظر إليهم ، ويتشاغل عنهم ، وينظر إلى جهة أخرى ، ويكلم وزراءه بما يريد من أمره ولا يكلمهم ، فلما كان بعد ساعة ، قيل لهم : اعتزلوا حتى يفرغ الملك لكم ، فخرجوا إلى مواضعهم ، ولم يكلمهم بكلمة واحدة ، فبقوا ثلاثة أيام لم يؤذن لهم في الدخول ولا في الانصراف ، وكان كثيراً ما يسرع بصرف من يرد عليه لاحتياج الناس إلى ما بين يديه ، قال : فلما اعتزلوا وبقوا ثلاثة أيام لا يؤذن لهم وقعت التهمة عندهم ، وتشوشت خواطرهم من نظره إليهم أكثر مما كان ينظر إلى غيرهم ، فقال يهوذا : يا إخوتاه ، إن هذا الملك نظر إلينا نظراً لم ينظره إلى غيرنا ، فإما أن يكون نظره إلينا على جهة الغبطة لنبوة أبينا وانتسابنا إلى سلفنا ، وإما أن ينظر إلى هيبتنا وتجلدنا وقوتنا فيريد الإعانة بنا على عدو من أعدائه أو سد من ثغوره ، وإما أن يكون بلغه فعلنا بأخيـنا يوسف فيريد بنا الفضيحة والعار والعقوبة والدمار ، وهذا هو المصـرع الذي كنت أخوفكم ، والموقف الذي كنت أحذركم ، فإنا خجلتنا ، ويا سوء مقامنا ، وكانوا مع ذلك في منزل حسن ، وكرامة شاملة ، وضيافة متصلة لم يكرم بها غيرهم قبلهم ، وكانوا يغدون عليه ويروحون ، وهو يعرض عنهم ، ويظهر لهم التـجهم ، فكانوا يتـحـيرون ويقولون : من العجب إكرامه لنا ، وتـجـهمه عنا إذا رأنا ، ويريدون مفاجأته في الكلام ، فإذا رأوه داخلتهم الهيبة ، ونازلهم الخجل فيصمتون ، وقيل في المعنى :

أَعَدُّ أَشْوَاقِي لِيَوْمِ لِقَائِكُمْ لِأَشْكُو الَّذِي أَلْقَاهُ مِنْ أَلَمِ الْوَجْدِ
فَحَتَّى إِذَا عَايَنْتُكُمْ أَوْ لَقَيْتُكُمْ تَحَيَّرْتُ حَتَّى لَا أُعِيدُ وَلَا أُبْدِي
فَإِذَا عَجَبِي حَتَّى لِسَانِي يَخُونِي وَحَتَّى جُفُونِي فِي الْهَوَى تَقْضَتْ عَهْدِي
يُؤَاصِلُنِي حَتَّى أَقُولَ مَلَكُهُ وَيَهْجُرُنِي حَتَّى أَمَلَّ مِنَ الصَّدِّ
فَوَاللَّهِ مَا طَابَتْ حَيَاتِي بَعْدَكُمْ تُرَى أَنْتُمْ طَابَتْ حَيَاتُكُمْ بَعْدِي ؟

فلبثوا على ذلك حيناً ، ثم أذن لهم بالدخول عليه يوماً من الأيام ، فدخلوا عليه فأكرم مجلسهم ، وجعل يسألهم ، ويكلمهم بترجمان بينهم وبينه ؛ لئلا يفطنوا إليه

ويعرفوه ، وكان الصُّواع موضوعاً بين يديه ، وكان كلما يقول لهم الترجمان شيئاً ويجيبون عنه ، ينقر الصُّواع ويدنيه من أذنه ، ويُريهم أن الصُّواع يعرفه بصدقهم أو كذبهم ، إلى أن قال لهم الترجمان : إن الملك يقول لكم : أراكم ذوي قوة وهيبة ، أخبروني : مَنْ أَنْتُمْ ؟ وما نسبكم ؟ ومن أي البلاد جئتم ؟ فقالوا : نحن الأسباط أولاد يعقوب نبي الله ، ابن إسحق نبي الله وذبيحه ، ابن إبراهيم خليل الله ونبيه ، وأخبروه بنسبهم وأحوالهم واعتقادهم وطاعتهم لإلههم ، فنقر الإناء نقرةً ، وأذناه من أذنه ، وأصغى إليه ، ثم قال : صدقتم في قولكم ، ثم قال لهم : هل لوالدكم ولد غيركم أو كان له قبلكم أو خلفتموه معه أو حاضر أو غائب عنكم ؟ فأجابوه إلى أن وصلوا إلى حديث بنيامين ويوسف ، فقالوا له : كان له ابن فقده ، ولا يُدري أين صار أمره ، وله أخ شقيق أنس به بعده ، واستراح إليه في غيبته ، قال : فنقر الصواع نقرة حتى خرج طنيناً عالياً ثم قال لترجمانه : قل لهم : إن الصُّواع يخبرني أنكم تكذبون في هذا الواحد المفقود ، وإنكم تعرفون خبره ، قال : فتغيرت الألوان ، وتلجلجت الألسن ، وارتعدت الفرائض ، ثم قال لهم : وكيف كان سبب فقده حتى لم يُعلم حقيقة أمره ؟ فقال واحد : أكله الذئب ، وقال آخر : أسره العدو ، وقال آخر : غرق في البحر ، فهز يوسف رأسه ، ونظر إلى الأرض ، ثم رفع رأسه وقال : ماذا قال والده لما فقده ؟ وكيف حاله من بعده ؟ قالوا : هو لفقده باكي العين ، قريح القلب ، حليف الأسف ، لا يلتذ بمجوعه ، ولا يشرب إلا ماء دموعه ، وقد اعتزل الناس ، وهجر الخلان ، واتخذ لنفسه غاراً تحت الأرض ، ودخل فيه وبكى حتى ابيضت عيناه من البكاء ، وليس له ليل ولا نهار ، ولا نوم ولا قرار ، فتقلقل يوسف تقلقل الواجد عند سماع أخبار الوالد ، وقيل في المعنى :

أَعِنْدَكُمْ فِعْلٌ بِمَا فَعَلَ الْوَجْدُ	بِهَيْمَانَ أَفْنَتْهُ الصَّبَابَةُ وَالْبُعْدُ
قَسَوْتُمْ عَلَيْهِ لَا جُزَيْتُمْ بِفِعْلِكُمْ	وَقَدْ رَقَّ إِشْفَاقًا لَهُ الْحَجَرُ الصَّلْدُ
تَرَحَّلْتُمْ عَنْهُ وَشَقَّ مَزَارُكُمْ	فَهَيَّكَلُهُ مِثْلُ الْخِيَالِ إِذَا يَبْدُو
وَيَظْمَأْ إِلَى لُقْيَاكُمْ كُلَّ سَاعَةٍ	وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا مَدَامِعُهُ وَرَدُّ
فَأَجْفَانُهُ كَالسُّحْبِ تَهْمِي صَبَابَةٍ	وَأَضْلَاعُهُ مِنْ لَفْحِ أَشْوَاقِهِ وَقَدْ
وَمِمَّا عَلَاهُ مِنْ حَوَى وَصَبَابَةٍ	وَطُولِ امْتِحَانٍ لَا يُطَاقُ لَهُ رَدُّ

تُقَلِّقُ لَهُ الذِّكْرَىٰ فَيَصْبُو إِلَيْكُمُ وَيَرَجُو تَدَانِيَكُمْ وَإِنْ قَدِمَ الْعَهْدُ
عَسَىٰ مِنْ قَضَىٰ بِالْبَيْنِ يَجْمَعُ شَمْلَنَا وَيُدْنِي تَدَانِيَنَا وَإِنْ بَعْدَ الْبُعْدِ

قال : فنقر الصُّواع ، وأدناه من أذنه ، ثم قال لترجمانه : قل لهم : أما ما ذكرتم من أنكم أنبياء ، فإني لا أرى عليكم أثراً ما ذكرتم ، إنما أنتم لصوص أو جواسيس لأحد الملوك المناوئين لنا ، بعثكم لتطلعوا على عوراتنا ، وتعلموا الغائب من أخبارنا ، وإذا رجعتُم إليهم جئتم بأمثالكم من أهل القوة والتجلد تقاتلونا في بلادنا ، وتدخلوا علينا الفتنة والقتال ، أما أنا فلا أخرجكم من سجنني حتى أعلم خبركم حقيقة ، وأستيقن ما جئتم فيه وسببه ، فان الصُّواع يخبرني بأمور كثيرة عنكم ، ويقول بضد ما قلتموه ؛ فلما سمعوا ذلك منه أظهروا الخضوع ، وسكبوا الدموع ، وقالوا : أيها الملك ، إنا نسألك بالذي بلغك هذه المزية ، وأكرمك وأنعم عليك وفضلك ، إلا ما نظرت بعين الحنان إلينا ، وسدلت ستر الأمان علينا ، وعجلت بتسريحنا وردنا إلى آبينا ، فإنه اليوم أعظم حقاً عليك وعلى أهل الأرض ، وإن لم ترحمنا فارحم الشيخ يعقوب ، فإنك لو رأيت حاله ، وشاهدت ما ناله لأبكاك ، قد احدودب ظهره ، وابيضت عيناه ، وكابده الوهن والشيب قبل أوانه ، وقد توسلنا إليك به ، فلا تضيع وسيلتنا إليك ، ولا تخيب ظنوننا فيك ، وقيل في المعنى :

تَفَضَّلْ عَلَيْنَا أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّدْبُ فَمَنْ خَلَفِنَا شَيْخٌ أَلَمَ بِهِ الْكَرْبُ
فَلَوْ أَبْصَرْتُهُ يَوْمًا إِذَا لَرَحِمْتُهُ قَدْ ابْيَضَّتِ الْعَيْنَانِ وَأَنْحَدَبَ الصُّلْبُ
تُقَلِّقُ لَهُ الْأَشْوَاقُ وَالْبَيْنُ وَالْأَسَىٰ فَسَاعَاتُهُ نَحْبٌ وَأَيَّامُهُ نَدْبُ
تَغَيَّرَ حَتَّىٰ مَا نَكَادُ نَبِيْنُهُ تَقَطَّعَتِ الْأَحْشَاءُ وَأَنْصَدَعَ الْقَلْبُ
أَصَابَتْهُ عَيْنُ الدَّهْرِ فِي وَلَدٍ لَهُ فَلَيْسَ إِلَّا خِلٌ سِوَاهُ يُرَىٰ يَصْبُو
وَقَدْ ظَنَّ فِيكَ الْخَيْرَ فَاصْدُقْهُ ظَنَّهُ وَأَوْزِعْهُ مِنْ رُحْمَاكَ يَرْحَمُكَ الرَّبُّ
عَلَيْكَ سَلَامٌ عَنْ بَرِيٍّ نَسِيمُهُ كَأَنَّ شِدَاهُ الْمِسْكَ وَالْمِنْدَلُ الرُّطْبُ

فقال لهم يوسف عليه السلام : أمّا ما ذكرتم من حرمة أبيكم ، فإني لا أعلم اليوم على وجه الأرض أعظم منه حرمة ، ولا أعلى قدراً ، ولا أوجب حقاً منه ، فلو مشى

على ظهري مقبلاً ومدبراً ما قضيتُ حقه ولا أنكرتُ سبقه ، فأخبروني ما الذي أحزنه وهو نبي من الأنبياء ؟ أليست الجنة نُصِبَ عينيه يتأملها ويرجوها ، وقد أُمِنَهُ الله في عاقبته ؟ فما الذي يحزنه بعد هذا ؟ ولعله من كثرة سفهكم عليه وعقوقكم المتواصل لديه ! فقالوا : كلا أيها الملك ، ما نحن سفهاء ولا عاقون ، وما أتاه الحزن من جهتنا ولا يأتيه ، وإنما هو ما ذكرناه لك ، لما فقد أنيسه وحبيه يوسف ، وكان أصغرنا سنًا ، وأحبنا إليه ، خرج معنا إلى المرعى ، فأكله الذئب ، قال : فما الذي حمل أباكم على أنه وجهكم جميعاً ، هلا حبس واحداً منكم ؟ فقالوا : أيها الملك ، إنا كنا اثني عشر ولداً ، فأكل الذئب الواحد ، وحبس الشيخ الولد الثاني ، وهو شقيق المفقود ليأنس به ، ويستريح إليه ، وهو أصغرنا سنًا ، وأحبنا للأب بعد أخيه ، فقال لهم يوسف : لولا أي أخشى أن تكونوا صادقين ، وآثم في حبسكم لحبستكم ولعذبتكم عذاباً شديداً ، ولكن إن كنتم صادقين ، فارجعوا إلى أبيكم ، وأقرئوه مني السلام ، وقولوا له : يكتب لي كتاباً يشرح لي فيه حاله ، ويخبرني ما الذي أكربه وأحزنه ؟ وما الذي أعمى بصره ؟ واثقوني بشرح هذا كله وبابنه الأصغر الذي زعمتم أنه احتبسه ، فإني علمتُ أنه لم يمسه إلا وهو أحبكُم إليه ، وأعزكم عليه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [يوسف : ٥٩] ، فقالوا : أيها الملك ، إنا نرغب إليك في تعجيل سراحنا ، فإن أبانا يعول سبعين نفساً ، ونخاف أن يطول مُكثنا عندك ، فيهلك الجوعُ من وراءنا ، فقال لهم : إن الصُّواع يخبرني أنكم إذا انصرفتم لا ترجعون إلا برسم المحاربة والقتال وقد قويتُ قهمتكم عندي كثيراً ، وكيف أسرحكم وأنا أخاف على رعييتي منكم ؟ فاخرجوا عني فلا سراح لكم عندي ، فخرجوا وقد داخلهم اليأس ، ونازلهم الكرب ، وكثر البكاء ، وعز العزاء ، وأيقنوا بالاغتراب وفرقة الأحباب ، وقيل في المعنى :

عَذْلٌ وَيَنٌّ وَتَوْدِيعٌ وَمُرْتَحُلٌ	أَيُّ الدُّمُوعِ عَلَى ذَا لَيْسَ تَنْهَمِلُ
بِاللَّهِ مَا بَلَدِي مِنْ بَعْدِكُمْ بَلَدٌ	وَلَا اخْتِرَانُ دُمُوعِي بَعْدَكُمْ بَحْلٌ
فَلَا وَحَرَمَةٌ مَا أَضْمَرْتُ فِي كِبْدِي	قَلْبِي لِلْقِيَاكَ مُشْتَاقٌ وَمُنْدَمِلٌ
وَدِدْتُ أَنَّ الْبَحَارَ السَّبْعَ لِي مَدَدٌ	وَمِنْ جُفُونِي مَيَازِبٌ لَهَا عَمَلٌ
وَإِنَّ لِي بَدَلًا مِنْ كُلِّ جَارِحَةٍ	فِي كُلِّ جَارِحَةٍ يَوْمَ اللَّقَا مُقْلٌ

فبقُوا أياماً يتململون ، فقال لهم يهوذا : يا إخوتاه ، إن هذا الكرب لا يُزيله عنكم إلا تذللکم لهذا الملك ، ورجوعكم إليه ، فلعله أن يرحم صبيانكم ، وينظر بعين البصيرة إليكم ، قال : فرجعوا إليه ، وأظهروا التذلل ، وأخذوا في التضرع والتوسل إليه ، فقال لهم : أمّا إني لا أترككم للمسیر حتى تتركوا عندي واحداً منكم أو تعطوني عهودكم ومواثيقكم أن ترجعوا إليّ برسالة أبيكم وأخيكم الأصغر المذكور ، فقال له يهوذا : أيها الملك ، نقترع فَمَنْ أصابته القرعة تركناه عندك رهناً حتى نرجع من عند أبينا ، ونأتيك بما ذكرت لنا ، قال : نعم ، فاقترعوا ، فخرجت القرعة على شمعون الأصم ، وهو الذي خلع قميصه يوم ألقى في الحب ، وقيل في المعنى :

الْخَيْرُ مَصْنُوعٌ بِصَانِعِهِ فَمَتَى صَنَعْتَ الْخَيْرَ أَعْقَبَكَ
وَالشَّرُّ مَفْعُولٌ بِفَاعِلِهِ فَمَتَى فَعَلْتَ الشَّرَّ أَعْطَبَكَ

قال : فتركوه ، وأمر لهم يوسف بجهازهم وكيل طعامهم ، فلما حملوا دوابهم دخلوا عليه للوداع ، فقال ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [يوسف: ٥٩] ، يقول : قد رأيتم كيف أضيف الضيفان وأكثر الإحسان ، ﴿ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴾ [يوسف: ٦٠] أي لا حق لكم عندي ، ولا إذن لكم في دخول بلدي ، فلما شرط عليهم هذه الشرائط ، ووعدهم بهذا الوعد في المستقبل ، أجابوه بقوله عز وجل مخبراً عنهم : ﴿ سَتَرَاوُدُّ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [يوسف: ٦١] ، قالوا : سنحتال في أخذه من أبيه ، لكننا نبذل في ذلك جهدنا ، وننفذ فيه وسعنا ، ونعلم أن هذا على أبينا شديد ، ولا يقدر على فراقه ؛ لأنه أنيسه بعد الأخ المفقود ، ولكننا لا نقصر أيها الملك في إنفاذ أمرك ، فلما استوثق منهم ، وعلم أنهم لا يخلفونه وعده ، أمر فتيانه برد بضاعتهم إليهم ، وقال : اجعلوها في رحالهم من حيث لا يعلمون ولا تجعلوها كلها في حمل واحد ، بل اجعلوها مفرقة في الأحمال حتى لا يمكنهم جردها ، فهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف: ٦٢] قال : وزاد في إعطائهم ، وبالع في الإحسان إليهم ، وقال : هذا يؤكد رجوعهم ؛

لأنهم قد رأوا إكرامي وإحساني وتفضلي إليهم وامتناني ، ولو أخذت بضاعتهم ربما لا يجدون شيئاً يرجعون به ، واعتذروا بالفقر وقلة ذات اليد ، فلما قضى ذلك كله ، وأرادوا المسير أمر بهم ، فأدخلوا عليه ، وأقبل عليهم بكليته ، وأمر ترجمانه فقال لهم : إن الملك قد فعل معكم فعلاً جميلاً ، وأولاكم طَوْلاً جليلاً ، وإنه يودعكم ، ويقول لكم : أبلغوا سلامي لأبيكم ، فإذا أتيتموه فقولوا له : إنا سمعنا عن همك وغمك فعليك بالصبر الجميل ، فإن النصر مع الصبر ، واليسر مع العسر ، والله لطيف بعباده ، وقيل في المعنى :

يَا غَائِبِينَ وَعِنْدِي لِاتِّزَاجِهِمْ	مَا لَوْ تَحَمَّلَهُ شَهْلَانُ لَا تَفْطَرَا
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَعْدَ غَيْبَتِكُمْ	لَمْ أُمَتِّحِ النَّاسَ سَمْعًا لَا وَلَا بَصَرًا
قَدْ كُنْتُ بِالْأَمْسِ مَسْرُورًا بِرُؤْيَيْكُمْ	وَالْيَوْمَ أَصْبَحْتُ لَا أَذْرِي لَكُمْ خَبْرًا
قَدْ كُنْتُ أَسْتَبْطِئُ الْإِمْسَاءَ عِنْدَكُمْ	وَالْآنَ بَعْدَكُمْ أَسْتَبْطِئُ السَّحَرَا
مَا حَالُ مَنْ لَمْ يَيْتْ يَوْمًا عَلَى ثِقَةٍ	ظَنَّ الضَّرُورَةَ بَعْدَ الْبَيِّنِ وَانْتَظَرَا
أَلَا خَيْالٌ وَلَوْ فِي النَّوْمِ تَبَعْتُهُ	وَالنَّجْمُ يُقْنِعُ مَنْ لَا يُدْرِكُ الْقَمَرَا
هَذَا الْكِتَابُ إِلَيْكُمْ سَارَ مِنْ دَنْفٍ	رُدُّوا الْجَوَابَ فَقَدْ أَصْبَحَتْ مُنْتَظَرَا

إخواني ، تلاشت قوة إخوة يوسف ، واضمحلت حجتهم لما عاينوا سلطانه وجلاله ، ونظروا ملكه وكماله ، فبعد الإدلال أصابهم الإذلال ، وبعد السرور واللهج اضطربت من خوف العقاب الأكباد والمهج ، كذلك يوم القيامة يجمع الله الرسل فيقول : ما أجبتكم ؟ قالوا : لا علم لنا ، تتحير أفهامهم ، ويستحيل جوابهم وكلامهم ، فمن التحير ينسون جواب الأمم ، ويستقلون الوسائل والذمم ، فإذا كان هذا حال الرسل في القيامة ، فما يكون حال من فزع من كثرة ذنوبه من الندامة ؟ وقيل في المعنى :

يَا خَجَلْتِي مِنْهُ إِذَا جِئْتُهُ	وَالْعَبْدُ مَطْلُوبٌ بِدَيْنٍ قَوِيمٍ
وَلَيْسَ لِي عُذْرٌ وَلَا حُجَّةٌ	وَكَيْفَ وَالْفِعْلُ خَبِيثٌ ذَمِيمٌ
إِنَّ الَّذِي يَطْلُبُنِي قَدْ دَرَى	أَنِّي مُحْتَاجٌ فَقِيرٌ عَلِيمٌ
وَلَسْتُ أَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ	لَأَنَّ مَوْلَايَ بِحَالِي عَلِيمٌ

وَحُكْمُهُ الْمُقْسِطُ لَا يَقْتَضِي هَلَكَ مَدْيَانَ بِمَلِكِ الْعَرِمِ

(حكاية) : يُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يجمع الله الخلائق في صعيد واحد يوم القيامة ، وتمد الأرض ، ويزاد في سعتها كذا وكذا ، فبينما الخلائق وقوف إذ سمعوا رعو سهم وجبة عظيمة ، فيرفعون رعو سهم ، وقد انشقت السماء الدنيا ، ونزل أهلها وهم أكثر عدداً من أهل الأرضين بأضعافهم ، فيتدبرهم أهل الأرض ، ويقولون : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : جل ربنا ، وهو آت ، فيُحدقون بالخلائق ، ثم تنشق السماء الثانية ، ويترل أهلها ، وهم أكثر عدداً من أهل الأرض وأهل السماء الدنيا بأضعافهم ، ثم تتدبرهم الخلائق ، ويقولون : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : جل ربنا ، وهو آت ، ثم تنشق السماء الثالثة بأضعافهم ، فيتدبرهم الخلائق ، ويقولون : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : جل ربنا ، وهو آت ، فتتنشق السموات سماء بعد سماء ، وكل سماء يضعف أهلها على من قبلهم بأضعافهم ، حتى يترل أهل السماء السابعة وهم أكثر عدداً من أهل السموات والأرض بأضعافهم ، لهم أصوات مختلفة ، وصور شتى ، يخرج من أفواههم لهب النار ، قال : فيتدبرهم الخلائق فيقولون : أفيكم ربنا ؟ فيقولون جل ربنا ، وهو آت ، وناهيك بانشقاق أجرام السموات الغليظات سمكها ، الشديديات بناؤها ، وما يصيب القلوب من الذعر الشديد ، وعند سماع القرعة وعظيم الأصوات ، وما يصيب القلوب والأجرام والصور والأجساد من كثرة الازدحام ، وقوة اللهب والاضطرام ، وشدة الدهول والهيام ، فعند ذلك يُكشف عن ساق ، وتطير القلوب ، وتشخص الأحداق ، وينادي منادي الملك الخلاق : يا أيها الناس ، ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ، أين الحامدون لله على كل حال ؟ فيقوم ناس قليل ، فينطلقون إلى الجنة بغير حساب ، ثم ينادي ثانية : أين الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ؟ فيقوم ناس قليل ، فينطلقون إلى الجنة بغير حساب ، ثم ينادي ثالثة : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، ومما رزقناهم ينفقون ؟ فيقوم ناس قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يخرج من النار ملك أسود له عينان يبصر بهما ، ولسان يتكلم به ، يعلو الخلائق فينادي بصوت يسمعه القريب والبعيد : يا معشر الخلائق ، إني وُكِّلْتُ اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، فيلتقطهم من الصفوف ، كما تلتقط الحمامة حَبَّ السمسم ، فيلقيهم في النار ، ثم

يخرج وينادي : إني وُكِلْتُ اليومَ بِمَنْ زعم أن مع الله إلهًا آخرَ ، فيلتقطهم من الصفوف ، كما تلتقط الحمامة حَبَّ السمسم ، فيلقيهم في النار ، ثم يخرج فيقول : إني وُكِلْتُ اليومَ بالمصوِّرين ، فإذا حصل هؤلاء في النار عُلقت الموازين ، ونُشرت الدواوين ، ويتجلى الله عز وجل للفصل بين العباد ، وقيل في المعنى :

هُنَاكَ لَا شَيْءَ يُنْجِي مَنْ لَهِيَ لَظَى	إِلَّا إِذَا كُنْتَ قَدْ قَدِمْتَ إِحْسَانًا
فَمَا اعْتَذَارُكَ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ إِذَا	جِئْتَ الْمَلِكِ الَّذِي سَوَّاكَ إِنْسَانًا
وَقَالَ : أَأَيْنَ الَّذِي بِالذُّبِّ جَاهِرَنَا	عَمْدًا وَجَهْرًا وَإِسْرَارًا وَإِعْلَانًا
مُدُّوا لَهُ الصُّحُفَ كَيْ يَقْرَأَ جَنَائِتَهُ	فَلْيَ عَلَيْهِ شُهُودٌ بِالَّذِي كَانَا

المجلس الثالث عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

الحمد لله الذي عقد أزرار ثوب الوجود بحكمة وإتقان ، خالق الخلائق وقاسم الأرزاق ، ومقدر رزق الكبير والصغير والرضيع والوضيع والمحروم والمجذوم لا عن وجوب واستحقاق ، بل هو الفعال لما يريد وما للخلق معترض على الخلاق ، مولج الليل المدلهم بسُدفة ظلمته في ضوء نهار ذي إشراف ، ومولج النهار بضياؤه في بجمعة ليل قد مُد من الظلمة رواقاً فوق رواق ، محيي قلوب العارفين المحبين بلبيل عليل نسيم تنسيم رجاء الوصل والتلاق ، مضحك رياض الروض بارق بريق المزن المنسكب من غمام دمع بلا آفاق . فإذا خاطب الغيم الروض بصوت رعد زاجر وإبراق ، تكفكف دمع السحاب كدمع صب واله مشتاق ، وجاوبته الأبراق على أغضان دوحة مخضرة الأفنان والأوراق ، بصوت مطرب وشجو معرب يهيج المشتاقين والعشاق ، وتشققت كمائم الورد والرجس عن معاهد أزرار وأطواق ، وقام خطيب البنفسج فوق منبره يخطب قائماً على ساق ، وهو ينشد :

الجَوْ يُغْضِبُنَا حِينًا وَيُسَمِّنَا	حِينًا وَيُبْدِلُ بِالْإِظْلَامِ إِشْرَاقُ
وَالزَّهْرُ يَرْفُلُ فِي أَنْوَابِ حُلَّتِهِ	شِبْهَ الْمَوْلَى لِلْأَحْبَابِ مُشْتَقُ
فَانْظُرْ بَدَائِعَ مَا أَبْدَى بِحِكْمَتِهِ	رَبُّ الْعِبَادِ وَمَنْ لِلْخَلْقِ رَزَاقُ
تَرَى رَفَائِقَ زَهْرِ الرُّوضِ شَاهِدَةً	تَقْرَأُ عَلَيْهَا لَهُ عَهْدٌ وَمِيثَاقُ
فَالْعَيْثُ يَكْتُبُ وَالْأَكْوَانُ أَسْطُرُهُ	وَالْوَابِلَاتُ لِمَا تُمْلِيهِ أَوْرَاقُ
رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّ الْمَاءُ فَاشْتَبَهَا	فَاشْرَبَ فَدَيْتُكَ رَاحُ الْعَيْثِ رَفَرَّاقُ

فسبحان من زين سماء قلوب المحبين بزهرات نجوم مكارم الأخلاق ، وطيب أنفاس نفس نفوسهم بمحائق حقائق التسليم في السر والإملاق ، وشهد لهم بمحبته في كتابه العزيز ، فقال وهو العزيز الخلاق : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] ، فعجز الصدر عن حصر فضائلهم وضاق ، أحمدده حمد عبد سكر من حبه ، وحظي بدنوده

وقربه فتاه في ميدان السباق ، ورضي عنه مولاه لما غاب عن سواه فقربه من حضرته بالطفاف وأشواق ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من ذاق من شراب المحبة والتوحيد أعذب مذاق ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحببيه وخليته المؤيد بالفطنة والعلم والتأييد في الحكم ، والممجد بالشفاعة في يوم التلاق ، صلى الله عليه وعلى آله الموفين بالعهد والميثاق ، صلاة تدوم وتقوم ما أفلت ناصية الفلاة مناسم ركبان الرفاق ، وغنت على كراسي الأغضان ذوات أطواق ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل في المعنى :

إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ الْمَعَارِفِ أَشْرَقَتْ حَنَادِسُ أَعْضَائِي وَطَابَ كَلَامِي
وَأِنْ دَارَ كَأْسُ الْوَصْلِ قُمْتُ بِذِكْرِكُمْ عَلَى مِنْبَرِ الْمَعْنَى فَجَلَّ مَقَامِي
وَشَيَّدْتُ بُنْيَانَ الثَّنَاءِ عَلَيْكُمْ قَدَامَ أَمَانِي ثُمَّ زَادَ سَقَامِي
وَزَخَرَفْتُ جَنَاتِ الْوُصُولِ فَهَاجَكُمْ سِنَامَ سَنَاهَا فَادْخُلُوا بِسَلَامِ
وَنَادَيْتُ أَرْبَابَ الْقُلُوبِ إِشَارَةً : عَلَى رِسْلِكُمْ إِنِّي رَمَيْتُ سِهَامِي
أَلَا فَاشْهَدُوا إِنِّي سَكِرْتُ مِنَ السَّنَا بِكَاسِ دَوَامٍ لَا بِكَاسِ مُدَامِ
إِذَا كَانَ حَدُّ الْخَمْرِ سَبْعِينَ جَلْدَةً وَعَشْرًا فَحَدُّ الْحَبِّ أَلْفُ حُسَامِ

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ ، اعلم أن للمحبة عشرة أسماء : أولها المنة ، الثاني المودة ، الثالث الخلقة ، ثم المحبة ، ثم الشوق ، ثم التوق ، ثم العشق ، ثم الرmq ، ثم التراع ، ثم الصباية ؛ أما المنة فهي ابتداء الملاحظة ؛ وأما المودة فهي ميل الطبع بالبعضية ؛ وأما المحبة فهي لذة في بعضها ومواضع الحقيقة دهش ؛ وأما التوق فهو توق النفس للمحبيب ؛ وأما الشوق فهو إرادة الرؤية ؛ وأما العشق فهو مجاوزة الحد في المحبة ؛ وأما الرmq فإنه ميل القلب كما أن الرmq ميل العين ، وأما التراع فهو قلع الشيء من أصله ، وأما الصباية فهي ذهاب الشيء من محله . قيل لأحدهم : بأي شيء تعرف أن محبة المؤمن لله أشد من محبة الكافر للصنم ؟ قال بستة أشياء : أحدها أن الكافر إذا أصابته شدة تبرا من معبوده . قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ الآية [البقرة : ١٦٦] ، والمؤمن لا يعرض عن الله في الشدائد والحن ، قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا

إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» [البقرة: ١٥٦] . الثاني محبوب الكافر ومعبوده كثير ، ومحبوب المؤمن ومعبوده واحد ؛ فالكافر يتبرأ من معبوده يوم القيامة، والمؤمن لا يتبرأ من معبوده لا في الدنيا ولا في الآخرة . الثالث أن الكافر أظهر محبته لمعبوده بقربان نفسه ، والمؤمن كتم في نفسه محبة مولاه . الرابع أن محبة الكافر لمعبوده من جهة واحدة ، وهي حبه له ، ومعبوده لا يحب ولا يبغض ؛ لأنه جماد ، ومحبة المؤمن من وجهتين : يحبه مولاه ، ويحب هو مولاه ، قوله عز وجل « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوهُمْ » [المائدة: ٥٤] . الخامس أن معبود الكافر يغيب عنه ويحتجب ، ومعبود المؤمن معه في كل حال ، قوله تعالى : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ » [المجادلة: ٧] الآية . السادس أن معبود الكافر ومحبوبه يحمله معه وينقله ، ومعبود المؤمن ومحبوبه هو حامله وكافله ، قوله تعالى : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ » [الحديد: ٤] . والمحبة على لسان العالم هي الإرادة ؛ لأنه ما أراد أحب ، وما أحب أراد . وقال قوم : المحبة صفة ، والإرادة صفة . وأما في اللغة فقال قوم : المحبة اسم لصفات المودة ؛ لأن العرب تقول لبياض الأسنان ونضارتها : حَبَبُ الأسنان ، وأما أهل التصوف فقالوا في المحبة أقوالاً يمنع من استيفائها مخافة التطويل ، وقد أفردت لها في كتابي المسمى بـ "فائدة المتعلم وبغية المتكلم" مجلساً يلحق ذوي الألباب سماعه ، ويهيج القلوب استطلاعاً . وقال الحاسبي : المحبة ميلك إلى الشيء بكليتك ، ثم إثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرّاً وجهراً ، ثم اعترافك بتقصيرك في حبه . قال الكتاني : وجرت مسألة في المحبة بمكة - شرفها الله تعالى - في أيام الموسم ، فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فقالوا : هات ما عندك يا عراقي ، فأطرق برأسه ودمعت عيناه ، ثم قال : هو عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هدايته ، وصفا شربه من كأس وده ، وكشف له الحق عن أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن سكت فلله ، وإن نطق فمِنَ الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو لله ، وبالله ، ومع الله ، فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين ، وقيل في المعنى :

لَنْ كُنْتُ عَنِّي فِي الْعِيَانِ مُعَيَّيَا فَمَا أَنتَ عَنْ قَلْبِي وَلَيْيَ بَغَائِبِ
إِذَا اشْتَاقَتِ الْعَيْنَانِ مِنْكَ لِنَظَرَةٍ تَمَثَّلَ لِي فِي الْقَلْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثٌ مَنْ كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسوله أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه » ^(١) ذكره مسلم والنسائي . وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « ما تحبُّ اثنان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لصاحبه » ^(٢) ذكره البزار . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « زار رجل أخاً له في قرية فأرسل الله على مدرجته ملكاً ، فلما أتى عليه قال له : أين تريد ؟ فقال : أريد زيارة أخ لي في هذه القرية ، فقال : فهل لك عليه من نعمة تربيها ؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله ، قال : فاني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » ^(٣) ذكره مسلم . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنون حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » ^(٤) ذكره أبو داود . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فذكر منهم : رجلان تحابَّا في الله ، اجتمعا على ذلك ، وافترقا عليه » ^(٥) ذكره البخاري . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : وجبت محبتي للمتحابين في ، والمتحالفين في ، والمتبازلين في والمتزاورين في » ^(٦) ذكره مالك في موطئه . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : أين المتحابون لجلالي ، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » ^(٧) ذكره مسلم . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « قال

(١) أخرجه البخاري ١ / ١٤ ، ومسلم ١ / ٦٦ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧ / ١٨٠ ، ومعمر في الجامع ١١ / ٢٠٣ ، والطبراني في الأوسط ٣ / ١٩٢ ، والطيالسي في مسنده ١ / ٢٧٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٣ / ٤٣٦ ، وابن المبارك في الزهد ١ / ٢٤٧ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١ / ٧٤ ، والترمذي في سننه ٤ / ٦٦٤ ، وأبو داود في سننه ٤ / ٣٥٠ ، وابن ماجه في سننه ١ / ٢٦ .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ١ / ٢٣٤ ، ومسلم في صحيحه ٢ / ٧١٥ .

(٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢ / ٣٣٥ ، والحاكم في مستدركه ٤ / ١٣٦ ، والبيهقي في الكبرى ١٠ / ١٥ ، ومالك في الموطأ ٢ / ٩٥٣ ، وأحمد في المسند ٥ / ٢٣٣ .

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٩٨٨ ، وأحمد في المسند ٢ / ٢٣٧ ، ومالك في الموطأ ٢ / ٩٥٢ ، والدارمي في سننه ٢ / ٤٠٣ .

تعالى : المتحابون لجلالي لهم منابر من نور يغطهم الأنبياء والشهداء»^(١) ذكره الترمذي . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « إن من العباد عبداً يغطهم الأنبياء والشهداء ، قيل : مَنْ هم يا رسول الله ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال ولا أنساب ، وجوههم من نور يحملون على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم تلا ﷺ : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »^(٢) ذكره النسائي . وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : « أقبل رسول الله ﷺ على الناس بوجهه لما قضى صلاته ، فقال : أيها الناس ، اسمعوا واعتقلوا واعلموا أن الله عبداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله تعالى ، قال : فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس ، وألوى بيده إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله ، ناس من أبناء الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله ، انعت حالهم لنا ، فسر وجه النبي ﷺ بسؤال الأعرابي ، فقال : هم ناس من أبناء الناس وأنواع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله ، وتصافحوا في الله ، فيضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيحملهم عليها ، فيجعل ثيابهم نوراً ، يفزع الناس وهم لا يفزعون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، وقيل تخميساً :

لله مِنْ غُصْبَةٍ هَامُوا بِحُبِّهِمْ وَأَفْرَدُونِي وَقَدْ فَازُوا بِقُرْبِهِمْ
فَقُلْتُ وَالشَّوْقُ قَدْ أَوْدَى بِحَزْنِهِمْ يَا سَاقِيَ الْقَوْمِ مِنْ أَسْرَارِ رَبِّهِمْ

كَأَسِ السُّرُورِ أَمَا لِي بَيْنَهُمْ قَدْ حُ

عِنْدِي وَعَيْشِكَ لِلْأَسْرَارِ مَزْرَعَةٌ بَيْنَ الضُّلُوعِ وَلِلْأَسْقَامِ مَدْرَعَةٌ
وَلِلْهَوَىٰ إِنْ سَطَا سَيْفٌ وَمَقْمَعَةٌ كَرَّرَ عَلَيَّ اسْمُهُ فَالْكَأَسُ مُتْرَعَةٌ

بِخَمْرَةِ الرُّوحِ عَلَّاهُم يَنْتَرِحُ

وَأُطْلِعَ الْآنَ بَدْرًا كَانَ مُعْتَرِبًا وَأَظْهَرَ الْيَوْمَ سِرًّا كَانَ مُحْتَجِبًا

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤ / ٥٩٧ .

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى ٣ / ٤٦٠ .

وَعَنَّ يَا بُلْبُلَ الْبَلْبَالِ مُحْتَسِبًا وَعَلَّلِ الصَّبَّ إِنَّ الصَّبَّ قَدْ طَرَبَا
وَحُذْ ثِيَابِي فَإِنِّي الْيَوْمَ مُصْطَبِحُ

مَتَى أُبْلَغُ أَسْبَابِي بِلا سَبَبٍ مَتَى أَشَاهِدُ مَحْبُوبِي بِلا حُجَبٍ
مَتَى أَكُونُ مَعَ الْأَشْوَاقِ فِي غَلَبٍ مَتَى آتِيَهُ عَنِ الْأَكْوَانِ بِالْقُرْبِ
مَتَى أَكُونُ بِدَعْوَى الْحَبِّ أَفْتَضَحُ

مَتَى أَفُوزُ يَوْمٍ مِنْكَ يُطْرِبُنِي مَتَى أَشَاهِدُ وَجْهًا مِنْكَ يُعْجِبُنِي
مَتَى أَرَى السُّكْرَ بَيْنَ النَّاسِ يَغْلِبُنِي أَصَاحُ بِعَنِي وَحُذْ ثَوْبِي بِلا تَمَنٍ
إِذَا رَأَتْ مُقْلَتِي مَنْ كُنْتُ أَقْتَرِحُ

واعلم أن أربعاً من النساء أحببن أربعة ، فوجدن بذلك المغفرة : أولهن خديجة أحبت رسول الله ﷺ ، فوجدت بذلك القربة والإسلام والنجاة من عبادة الأصنام ، فعصت عليه عذالها ، وأنفقت عليه مالها ، وكانت أول من أسلم من نساء عصرها ، وبشرها الملكُ بقصرها ، قال أبو هريرة ؓ : « أتى جبريل إلى النبي ﷺ فقال : هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام وطعام ، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » . وقالت عائشة ؓ : « ما غرتُ على واحدة من نساء النبي ﷺ ما غرتُ على خديجة ، وما رأيتهما ولكن كان رسول الله ﷺ يُكثر من ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ، ثم ييعثها في صدائق خديجة رضي الله عنها إلى الذين كانوا أصحاباً لها ، فلربما قلتُ له : كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ، فيقول : إنها كانت وكانت ، وكان لي منها ولدٌ » ذكره مسلم . وقالت عائشة رضي الله عنها : « دخلتُ عجوز يوماً على رسول الله ﷺ فقال : مَنْ أنت ؟ قالت : حثامة المزنية ، فقال : بل أنت حسانة المزنية ، كيف حالكم ؟ كيف بكم بعدنا ؟ فقالت : بخير ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، قالت : فلما خرجتُ ، قلتُ : على مثل هذه العجوز تُقبل هذا الإقبال ، وتَسأل هذا السؤال ؟ فقال : يا عائشة ، إنها كانت تأتينا في أيام خديجة وحسن العهد من الإيمان ^(١) ذكره مسلم . وتزوجها النبي ﷺ

وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وقيل ابن إحدى وعشرين سنة ومات قبل هجرته بثلاث سنين . قال ابن عباس : كان لنساء قريش عيد في الجاهلية يجتمعن فيه في المسجد ، فاجتمعن في عيد ، وإذا يهودي قد وقف عليهن وقال : يا معشر النسوة ، إنه قد جاء وقت بعث نبي كريم ، فأيتكن استطاعت أن تكون له أرضاً يطؤها فلتفعل ، قال ، فلمنه وطرده ، وكانت خديجة حاضرة ، فوقع ذلك القول في نفسها ، وكانت قريش قوماً تجاراً ، وكانت خديجة تستأجر الرجال الأمانة في مالها ، فسمعت برسول الله ﷺ وأمانته وصدق حديثه وكرم أخلاقه ، فبعثت إليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطيه لغيره من التجار ، فقبل ذلك منها رسول الله ﷺ وخرج بمالها مع غلام لها يُسمى ميسرة نحو الشام تجاراً ، فلما سمعت برجعهم وقفولهم قعدت تنتظرهم ، وذلك في يوم صائف ، فاطلع رجل من العقبة والسماء ليس فيها سحاب إلا قدر ما يظل ذلك الرجل ، وكانت في مشرفة عالية وهي تنظر ، فقالت : إن كان ما قال اليهودي حقاً فما هو إلا هذا ، فرمقته بعينها ، والعناية بذلك تبصرها حتى قرب منها ، وإذا هو رسول الله ﷺ فسألت ميسرة عنه ، فأخبرها بما رآه في سفره من كراماته ومعجزاته ، وذلك أنهم مروا بطريقهم على راهب يقال له "نسطورا" في صومعته ببصرى من أرض الشام ، وكان الناس يتزلون بإزاء الصومعة فلا يخرج إليهم فلما نزلوا ورسول الله ﷺ معهم نزل تحت ظل شجرة ، فأطلع الراهب رأسه من صومعته ونادى يا ميسرة ، وكان يعرفه : من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ فقال : هو رجل من قريش من أهل الحرم ، قال : أو في عينيه حمرة لا تفارقه ؟ قال : نعم ، فقال : هو هو هو نبي هذه الأمة ، والله ، ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي ، فيا ليتني أدركه حين يؤمر بالخروج ، فأخبرها ميسرة بذلك ، وما شاهد من ظل الغمامة ، فعند ذلك أرسلت خديجة إلى النبي ﷺ ، فلما دخل عليها سألتها عما كان في سفرهما هو وميسرة ، ثم قالت له : يا محمد ، مالك لا تتزوج ؟ قال : ومن ؟ قالت : أنا ، قال : أنت كبيرة قريش ، فقالت : اخطبني ، فخرج من عندها ، وأتى عمه أبا طالب ، فأخبره بما شاهد في سفره ، ثم قال : يا عم ، اخطب لي خديجة ، فقال : يا بني ، أخاف أن لا يفعلوا ، ثم لقي أبو طالب عمها ورقة بن نوفل ، وذكر ذلك له ، فقال : حتى أنظر ، فلقىها عمها ، فذكر ذلك لها ، وذكر من يخطبها من كبراء قريش ، فقال : إن فلاناً يرغب فيك ، فقالت : شيخ كبير سنه ، وساءت أخلاقه يدل عليّ بماله لا حاجة لي فيه ، قال : وفلان ، وذكر شاباً من قريش كثير المال ،

فقالت : شاب صغير سنه ، سفيه عقله ، لا حاجة لي فيه ، قال : وما تقولين في محمد بن عبد الله ؟ فلما سمعت بما في خاطرها والغرض ، وهل لرسول الله ﷺ من عوض ؟ قالت : هو أوسط ، أي أعلى قریش حسباً ، وأحسنهم وجهاً وأفصحهم لساناً ، وأطيبهم خلقاً ، أعود عليه بمالي ، ويكون طوع يدي ، فخشى الشيخ عمها إن لم يزوجه أن تزوج نفسها ، فبعث إلى النبي ﷺ وزوجه بها ، فرضي الله عن خديجة وأرضاهما ، ما أحسن فراستها ، وقيل في المعنى :

صِفُوا لِي حَبِيبًا قَدْ وَهَبْتُ لَهُ كَسِي فَإِنْ تَعَذَّلُوا فَالْعَدْلُ لَيْسَ بِنَافِعٍ وَمَاذَا وَمَاذَا أَنْ تَقُولُوا وَآمِرِي وَيَقِيسُ بَذَرُ الْأَفْقِي مِنْ نُورٍ وَجْهِهِ وَتَنْفَجِرُ الْأَنْهَارُ بَيْنَ بَنَانِهِ وَإِنْ تَفْخَرِ الْأَفْخَارُ يَوْمًا بِسُودِدٍ وَهَبْتُ لَهُ نَفْسِي وَمَا مَلَكَتْ يَدِي عَلَيْهِ سَلَامٌ عَنِّي نَسِيمُهُ

فَأَحْلَلْتُهُ صَدْرِي وَأَسْكَنْتُهُ قَلْبِي وَإِنْ تَعْتَبُونِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ عَنِّي إِذَا مَا مَشَى فِي الطَّرْقِ ظَلَّلَ بِالسُّحْبِ ضِيَاءُ يَعْصُمُ الْأَرْضَ فِي الشَّرْقِ وَالْعَرْبِ بِمَاءٍ لَذِيذٍ بَارِدٍ طَيِّبٍ عَذْبٍ وَنِيلٍ فَهَذَا سَيِّدُ الْعُجَمِ وَالْعَرْبِ فَإِنْ كَانَ يَرْضَانِي فَذَلِكَ حَسْبِي يَضُوعُ كَنْشَرِ الْعُودِ وَالْمَنْدَلِ الرَّطْبِ

قال : والثانية آسية بنت مزاحم أحببت موسى الكليم فأوردها جنات النعيم ، وبني لها بيتاً في الجنة ، وأعظم عليها المنة . قيل : إن موسى عليه السلام لما وضعته أمه خافت عليه ، وما علمت أن العناية الربانية تحوط من خلفه ومن بين يديه ، ألقته من بطنها ، وعظم عليها من جهة ولدها حزنها ، والذباحون من قبل فرعون على الباب لاذت بالمسبب ، ونبذت الأسباب ، فدخلوا عليها للطلب ، فرمته في التنور رمي الحطب ، فلما خرجوا ولم يروه عادت إليه . إذا النار بقدرة المولى لم تعد عليه ، فكانت سلامته نقداً لأجله ، وبلغ قلب أمه أقصى أمله ، ثم ألهمها الرب الجليل رميه في النيل ، فخرجت إلى نجار تطلب منه تابوتا من خشب ، فقال : وما تصنعين به ؟ فكرهت أن تكذب ، فقالت : وضعت ولداً ، وخفت عليه من فرعون ، وأريد رميه في النيل ، وضمن لها ربها العون والصون ، فأعطاهم التابوت ، وقفها أثرها إلى مترها ، ثم سار إلى الذباحين ليخبرهم بها ، فلما وصل إليهم حبس الله عن النطق لسانه ، فصار يشير إليهم ، ولا يفقهون كلامه ، فقال : اللهم ، إن

كان هذا النبي هو الذي يخافه فرعون ، فأطلق لساني ولا أخبرهم بإعلامي ، فأطلق الله لسانه ليريه مترلي موسى وبرهانه ، فعاد إلى الذباحين ليفشي الأسرار ، فحبس الله لسانه ثانياً ، فدعا كدعائه الأول مبتهلاً ، فأطلق الله تعالى لسانه ، فعاد إلى الذباحين ملتزماً عدوانه : وفعل ذلك ثلاث مرات ، والحنان المنان يحبس اللسان ، ثم يطلقه كما كان ، فلما كانت الرابعة سار إلى الذباحين وهو من الظالمين ، فإذا هم لم يفهموا كلامه وقد أعياهم ضربوه ضرباً وجيعاً حتى عاد صريعاً ، فلما خلص من أيديهم دعا الله تعالى كدعائه الأول وإليه ابتهل وبموسى توسل ، فأطلق الله سبحانه وتعالى لسانه وعليه تفضل ، فحينئذ رجع إلى أم موسى ليؤمن بالمولى ، فقال لها : أريني ولدك الذي تخافين عليه ، فإن الله حفظه من خلفه ومن بين يديه ، وقيل في المعنى :

أَبَالْكَيدِ تَبْغِي مَنْ خَصَصْنَاهُ بِالْأَيْدِ وَتُخْبِرُ بِالسَّرِّ الْمَصُونِ أُولِي الْجُنْدِ
وَمَا ضَرَّ مَنْ تَبْغِيهِ مَنْ أَنْتَ فَاعِلٌ وَكَيْفَ وَمُوسَى قَدْ خَصَصْنَاهُ بِالْأَيْدِ
لِسَانُكَ مَحْبُوسٌ عَنِ التَّلَطُّقِ كُلِّهِ فَأَنْتَ الْمُحَازِي فِي النَّصِيحَةِ بِالرَّدِّ
وَلَحْظُكَ مَصْرُوفٌ وَفِعْلُكَ عَائِدٌ عَلَيْكَ فَلَا يُغْنِي لَدَيْكَ وَلَا يُجْدِي
لَوْ أَنَّ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِأَسْرِهِمْ يَرُومُونَ إِخْفَاءَ الَّذِي شِئْتَ أَنْ تُبْدِي
لِمَا قَدَرُوا فَارْجِعْ سَلِيمًا فَإِنَّمَا مُرَادِي أَنْ أَذْنِكَ مِنِّي يَا عَبْدِي
فَسَلِّمْ لِأَحْكَامِي وَسَلِّمِي تَفَضُّلاً فَحَاجَاتُ هَذَا الْخَلْقِ أَجْمَعُهُمْ عِنْدِي

قال : فألقته أمه في اليم بأمر من فضله سبحانه تم وعم ، فساقته المياه إلى الساحل بقدرة الملك العادل إلى منظره زوجة فرعون آسية ، وكانت على الماء عالية ، فلما أبصرته رفعته ، فلما فتحت عنه أبصرته ، ورأت وجهاً دونه الهلال ، وقد لبس حلة الدلال ، فألقى الله حبه في قلبها وفي قلب فرعون زوجها ، وعرضته على المراضع ، فلم يقبلها ؛ لأن فاه قد خُتم عليه بقفل ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ [القصص: ١٢] ، إلى أن سلم إلى من شفها تسليه من فراقه ، وقيل لها : هذا وعدنا السالف لك بتلاقه ، يا من يئست من عناقه ، اسمعي خطاب الكرم ، كيف تخافين عليه وقد حفظناه في القدم ، وقدرنا أنه يكون رسولاً وكليماً وصفيماً مقبولاً ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى

أُمِّهِ ﴿ [القصص: ١٢] ، وبذلك قد وعدنا ، وحاشا كرمنا أن يخيب من قصدنا ، ولما فطمته أمه من الرضاع ساقته لآسية الحنون المطاع ، فسُرَّتْ به وضمته إلى صدرها ، وقبلت بين عينيه ، وأدخلته على فرعون ، فأجلسته في حجره ، وأقبل عليه ، فأغفله الكليم ، وأدخل يده في غصن من أغصان لحيته ، وجذب الغصن فخرج الغصن في يده ، فسال الدم في حجره ، فغضب فرعون اللعين ، وقال : عليّ بالذباحين ، هذا الذي خُوِّفْتُ منه فلا أرجع عنه ، فجعلت آسية تتطارح ، وتقول ﴿ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [القصص: ٩] ،

وإن حدث منه ما تكره فلمني ، ثم قالت : هو صغير لا عقل له كغيره من صغار الصبيان ، وإن شئت أريتك البرهان ، اجعل بين يديه ثمرة وجمرة ، وقيل : جوهرة وجمرة ، فإن أخذ الثمرة فاقتله ، فعقله معه ، ولا تسمع مني مرة ، وإن أخذ الجمرة وترك الثمرة فدعه وأقبل عذره ، ولا تؤذ منه شعرة ، ثم دعت في سرها مولاه بأن يُنِيلها منها ، وكان فرعون لا يأخذ أحداً ببرهان ودليل وتبيان ، فأمر بالثمرة والجمرة فجُعِلتا بين يدي موسى ، فبادر موسى إلى الثمرة ومد إليها يده ، فضجت الملائكة المشفقون إلى الله تعالى ، فأرسل سبحانه في الحال جبريل فحجب الثمرة بجناحه ، وذلك قوته وشأنه ، فأخذ موسى الجمرة ، فأهوى إلى فيه ، فاحترق لسانه فبكى ، فعند ذلك سكن غيظ فرعون وزال ، ولم يعلم المفتون بأن ذلك بقدرة الكبير المتعال ، وعجبٌ وأي عجب لجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، ويحترق بالجمرة لسان موسى الكليم ، والخليل أعرض عن الأشياء كلها حتى عن جبريل ، وأتكل الأمر على الجليل ، ونادى ربه بلا واسطة ، فأراه لطفه في الحال بلا واسطة ، والكليم عند فرعون اللئيم كان صغيراً رباباً ، فرمى جرى على لسانه مرةً أبي ومرةً أمي ، فسُلِطت عليه النار لذكره غير مولاه ، وقيل : لو لم يحس بألم النار ويك منه لأنكر عليه فرعون ، ووجدتها منقبة عنه ، وتحقق أنه هو الذي يؤخذ بسببه ، ولكن مولاه آله ليصرف الحنة عن قلبه ، ولم يجعلها برداً كما جعلها على خليله ، حكمة منه ورفعة لرسوله ، وبما نادى موسى يوماً لفرعون : يا رارا ، وهذه الكلمة بالعبرانية : يا بابا ؛ فهذا لسانه احترق ، وظهر عليه القلق ، ألا ترى يده لم تحترق وقت أخذه الجمرة ؛ لأنها كانت في مقام المجاهدة ، وأخذ بها يوماً لحية فرعون ومنتف شعره ، ولطم بها يوماً وجهه ، فحُم ثلاثاً أيام من تلك الضربة ، وجرت قصة الثمرة والجمرة ، وقيل : يا موسى ، إزالة الفطنة أزالَتْ عَنْكَ الْحَنَةَ ، قد

عُصِمَتْ يَدُكَ مِنَ النَّارِ ؛ لَأَمَّا جَاهَدْتَ أَعْدَاءَنَا الْكَفَّارَ ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، وَجُوزِي اللِّسَانَ بِإِحْرَاقِهِ ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ مَنْ جَرَى الْقَلَمُ بِإِغْرَاقِهِ ، وَلَمْ تَحْتَرَقْ شَفَتَاهُ حِينَ أَدْخَلَ الْجَمْرَةَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ اللِّسَانَ مَلِكُ الْكَلَامِ ، وَقَدْ ذَكَرَ مَنْ جَرَى الْقَدَرُ بِإِغْرَاقِهِ ، فَكَانَتِ الْعُقُوبَةُ لَهُ ، وَعُصِمَتِ الشَّفَتَانِ ، وَالشَّفَتَانِ بِمِثْلَةِ الْبَوَابِ ، وَالْبَوَابِ لَيْسَ عَلَيْهِ عِتَابٌ ، وَقِيلَ فِي الْمَعْنَى :

إِنَّا نَعَارُ مِنَ الْمَحْبُوبِ إِنْ ذَكَرَا غَيْرًا وَلَنَلْحَظُهُ إِنْ غَابَ أَوْ حَضَرََا
وَفِي الْعُقُوبَةِ تَهْدِيدٌ يُطَهِّرُهُ مِنْ كُلِّ وَصْفٍ ذَنِيٍّ جَلٍّ أَوْ صَغِيرَا
وَالْمَنْدَلُ الرُّطْبُ لَوْلَا النَّارُ تُحْرِقُهُ مَا اسْتَشْنَقَ النَّاسُ عَرَفًا فِيهِ مُنْتَشِرَا
هَذَا يَمِينُكَ مِنْ نَارِ الْغَضَا سَلِمَتْ لِأَنَّهَا جَاهَدَتْ عَبْدًا بَنَى كَفَرَا
وَرُبَّمَا قُلْتَ يَوْمًا بِاللِّسَانِ : أَبِي فَعُوقِبَ الْعُضْوُ فِيمَا مِنْهُ قَدْ صَدَرَا
أَنْتَ الْكَلِيمُ لِذِي الْمَوْلَى يُكَلِّمُهُ بِلَا لِسَانٍ فَكُنْ لِلْوَعْدِ مُنْتَظِرَا
وَفِي الشَّدَائِدِ أَشْيَاءٌ مُكْتَمَةٌ بِهَا يَعُودُ خَفِيُّ اللَّطْفِ مُشْتَهَرَا
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا طَهَ وَمُوسَى وَعِيسَى ضَعْفُهُ عَشَرَا

قال : والثالثة بلقيس ، أحبت سليمان عليه السلام ، فكان حبها إياه سبباً لدخولها في الإسلام ، وكانت تعبد الشمس من دون الخالق حتى بانث لها الحقائق ، ووصل الهدد بالكتاب فتبين الحق والصواب ؛ لأنها رأت كتاباً مختوماً وأمرأاً محتوماً ولفظاً عجيباً وحالاً غريباً ، فصاح فصيح فهمها في نادي علمها : ﴿ إِلَيَّ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل : ٢٨ ، ٢٩] ، وقيل في المعنى :

بَعَثْتُ هَذَا سِرِّي فِي طَلَابِكُمْ وَقُلْتُ هَلْ لَكَ مِنْ عِلْمٍ بِأَحْبَابِي
فَقَالَ : إِنَّهُمْ قَدْ غَوَّضُوا بَدَلًا وَلَمْ يَرْقُوا لِأَلَامِي وَأَوْصَابِي
يَا غَائِبِينَ وَرَبُّعَ الصِّدْرِ مَسْكَنَهُمْ لَمْ تَقْطَعُوا عَنَّا وَصْلِي وَأَسْبَابِي
رَقُّوا لِصَبِّكُمْ مَنُوا بِكِتَابِكُمْ سَمَاعُ عَتَبِكُمْ أُنْسِي وَآرَابِي

كَأَنَّ قَلْبِي إِذَا مَا مَرَّ ذَكَرَكُمْ فَرِيْسَةً مَسَّهَا ذَنْبٌ بِأَثْيَابٍ

قال : فاستشارت قومها بسؤال ﴿ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ [النمل : ٣٢] ، فأشاروا إلى المحاربة برمز ﴿ نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [النمل : ٣٣] ، فما على هذا مزيد ، فقالت : إن من جنده البر والبحر ؛ لا يقاتل بالجنود ، والحسود لا يسود ، فرجعت إلى رأيها والعناية تبصرها ، فبعثت إليه بالهدية طمعاً أن يقبلها ويسكت عنها ، فصاح لسان العز : ﴿ أَتَمِدُّوْنَ بِمَالٍ ﴾ [النمل : ٣٦] ، حاشاه أن يشبه بغيره من الحكام الظلمة الذين يقبلون الرشوة أولي الضلال ، فجرد صارم العزيمة عن وعيد ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ [النمل : ٣٧] ، فلما صح ما يدعو إليه عندها ، وثبت على أقدام الطلب ، واستسلمت لعزيمة الإسلام ذوي العز والرتب ، وهيات مراكب القصد ، وتزودت لسفر الوصل ، فلما وصلت وسلّمت ، أسلمت فسلمت ، وحلت نطاق النطق في الكتاب المبين : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] ، وقيل في المعنى :

سَأَتْرُكُ أَقْوَامِي وَأَنْبُدُ أَعْلَامِي	وَأَهْجُرُ أَصْنَامِي وَأُظْهِرُ إِسْلَامِي
وَأُبْرَأُ مِنْ مُلْكِي وَسَلْكِي وَبَرَّتِي	عَسَى خَالِقُ الْأَجْرَامِ يَغْفِرُ إِجْرَامِي
ولما بدت للقلب شمس هدايتي	أَزَالْتُ صَدَى صَدْرِي وَظَلْمَةَ أَوْهَامِي
وَلَمْ أَلْتَفِتْ شَمْسَ النَّهَارِ لِأَنَّهَا	بَغِيَّتْهَا حُقَّ الْبَقَاءُ لِعَلَامِ
فَوَحَّذْتُ رَبِّي مَعَ سُلَيْمَانَ عَلَنِي	أُبُوءُ بِالتَّوْحِيدِ مَنَزَلَ إِكْرَامِي
صَلَاةً وَتَسْلِيمًا وَأَزْكَى تَحِيَّةٍ	عَلَى الْمُصْطَفَى الْمَبْعُوثِ لِلْخَلْقِ رَحَامِ

قال : والرابعة زليخا ، وأحب يوسف الصديق ، فبانَتْ لها أبواب التحقيق ، ورُدَّ عليها البصر والشباب ، وانتزاح الخطأ وإتيان الصواب ، وكانت قصة زليخا بين مشي إخوة يوسف ورجوعهم إليه بأخيهم ؛ وذلك أن الله تعالى سلط على أموال زليخا الفناء ، ومات العزيز ، وافتقرت فقراً شديداً ، وذهب بصرها ، وصارت تسأل الناس ، وهذا من آفات الدنيا ، من اغتر بها ندمان ، ومن وثق بها خجلان ،

فقيل لها : لو تعرضت للصديق لرحمك وأعطاك شيئاً عن الناس يقيك ، ثم قيل لها : لا تفعلين ، فرمما يذكر ما كان منك إليه من المراودة وطول السجن والمخالفة ، فيسيء إليك ويعاقبك ، فقالت : هيهات ، أنا أعلم بحبيبي منكم ، إن من خلقه الصفح والاحتمال والفضيلة والابتهاال ، ثم نهضت حتى جلست على ربوة بطريقه ، وكان ليوسف يومٌ يركب فيه في كل أسبوع ، وكان يركب معه في كل موضع موكب من عظماء قومه ووزرائه وأرباب دولته نحو مائة ألف ، فلما أقبل يوسف وأحسست به قامت ونادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل العبيد ملوكاً بالطاعة ، وجعل الملوك عبيداً بالمعصية ، فأمسك العنان ، ونظر إليها وهي واقفة في ذلك المكان ، فقال : من أنت ؟ قالت : أنا التي كنت أخدمك دهرًا على صدر قدمي ، وأرجل جمتك بيدي ، وأبذل في خدمتك جهدي ، وكان مني ما كان في ذلك الزمان ، فقد ذقت وبالها ولقيت نكاله ، وذهب مالي ، وتغيرت كما ترى أحوالي ، وفقدت بصري ، وتبين كما ترى ضرري ، وصرت أسأل الناس ؛ فمنهم من يرحمني ، ومنهم من يعرض عني ، وهذا جزاء من خالف مولاه واتبع هواه ، وقيل في المعنى : تخميساً :

أَيَا سَيِّدًا كُلِّ الْمَحَاسِنِ قَدْ حَوَى وَمَنْ هَجَرُهُ دَوًّا وَمَنْ وَصَلُهُ دَوًّا
وَمَنْ بَعْدَهُ سُقْمٌ وَمَنْ قُرْبُهُ قُوَى أَتَرُكُ مَنْ يَهْوَاكَ فِي مَعْرِكَ النَّوَى

وَتَمْنَعُ وَرْدَ الْوَصْلِ وَهُوَ مُبَاحٌ

فَلَوْ سَمِعْتَ أَذْنَاكَ فِي اللَّيْلِ أَتَتِي لَرَقْتُ لِمَا بِي مِنْ هَوَاكَ وَحَتَّتِي
حَنِينِكَ بِي كَمْ ذَا تُجَدِّدُ مَحَنَتِي وَتَظْهَرُ فِي وَقْتِ التَّجَلِّي لِفَتْنَتِي

عَلَيَّ وَأَيْدِي الْوَارِدَاتِ صِفَاحٌ

أَتَطْلُبُ مِنِّي فِي هَوَاكَ تَسْتَرًّا وَقَدْ نَالَ غَيْرِي مِنْكُمْ مَا تَخَيَّرَا
وَفِي حُلَلِ التَّقْرِيبِ أَمْشِي تَبَحْثَرَا وَأَتْرُكُ مَقْصُوصَ الْجَنَاحِ مُؤَخَّرَا

وَغَيْرِي لَهُ عِنْدَ السَّمَاعِ جَنَاحٌ

وَحَسْبُكَ رَبُّعُ الصَّدْرِ مِنِّي قَدْ عَفَا وَحُسْنُ عِزَائِي لِلْجَفَاءِ قَدْ انْتَقَى
فَإِنْ بَحْتُ فَاعْذِرْنِي فَقَدْ بَرَّحَ الْجَفَا فَلَيْسَ عَلَيَّ مَنْ صَاحَ فِي دَوْحَةِ الصَّفَا

إِذَا لَمْ يُشَاهِدْ مَنْ يُحِبُّ جُنَاحُ

وَهَبْتُكَ قَلْبًا لَمْ تَزَلْ فِيهِ ثَاوِيَا وَأُظْهِرْتُ وَدًّا فِي الْحَشَا لَكَ طَاوِيَا

وَأَلَيْتُ أَنِّي لَا أَرَى عَنْكَ سَالِيَا رَضِيتُ بِمَا تَرْضَى إِذَا كُنْتَ رَاضِيَا

وَالَا فَحَسْبِي فِي الْوُجُودِ صَبَاحُ

قال : فلما سمع الصديق كلامها بكى إشفاقا عليها ، ثم قال لها : هل بقي في قلبك شيء مما كان ؟ فقالت : والله ، لنظرة فيك أحب إلي من الدنيا وما فيها ، ثم قالت : ناولني سوطك ، فناولها إياه ، فوضعتة على صدرها بفناء قلبها ، فوجد الصديق في يده عند إمساكها السوط ارتعاداً وارتعاشاً واضطراباً ، فقالت : يا يوسف ، هو كما ترى ، فجاوزها وذهب باكياً ، ثم بعث إليها رسوله ، فقال لها : يقول لك الملك : إن كنت أيمًا تزوجناك ، وإن كنت ذات بعل أغنياناك ، فقالت لرسوله : إليك عني ، فإن الملك أعرف بالله من أن يستهزئ بي ، لم يلتفت إلي زمان شبلي وجمالي ، فكيف يلتفت إلي الآن ؟ فرجع الرسول ، وأعلم الصديق بما قالت ، وذكرت من شأنها ، فلما ركب الصديق في الأسبوع الثاني على عادته ، وقعدت هي بالربوة على عادتها ، فلما مر بها ونادت كالنداء الأول ، فقال : ألم يبلغك رسولي ما أرسل به إليك فما ترين ؟ فقالت : ألم أقل : إن نظرة إليك أحب إلي من الدنيا وما فيها ، وقيل في المعنى :

وَحُرْمَةِ الْوُدِّ مَالِي عَنْكُمْ عَوْضُ وَلَا تَبْدَلُ قَلْبِي دُونَكُمْ عَرْضُ

وَمِنْ حَدِيثِي بِكُمْ قَالُوا بِهَا مَرَضُ فَقُلْتُ : لَا زَالَ عَنِّي ذَلِكَ الْمَرَضُ

قال : فأمر بحملها إلى قصره ، وأحضر الشهود وتزوجها ، فلما زُفَّت إليه وأدخلت عليه ، نظر إليها ، فزاد إشفاقا عليها ، فصَفَّ قدميه ﷺ ، وصلى ما شاء الله أن يصلي ، ثم دعا الله باسمه الأعظم ، فردَّ الله عليها جمالها وبصرها وشبابها ؛ فعادت كهيتها يوم راودته ؛ فتحيرت تحيراً كثيراً ، وأسالت دموعها غزيراً وداخلها الدهول ، ولسان حالها يقول تخميساً :

حَنَانِيكَ رَفَقًا بِي وَمَهْلًا عَلَى صَدْرِي فَحُبُّكَ أَفْنَانِي وَأَفْقَدَنِي صَبْرِي

أَقُولُ وَقَدْ جَلَّ الْمَقَالُ عَنِ الْقَدْرِ بَدَا لِي وَجْهَ مِنْكَ فِي حَالَةِ السُّكْرِ

فَأَنْكَرْتُ مَا يَبْدُو مِنَ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ

جَمَالِكَ قَدْ أَوْدَى الْقُلُوبَ فَرَاعَهَا غَدَاةَ اشْتَرَاهَا فِي الْوُجُودِ وَبَاعَهَا
أَقُولُ وَأُذْنِي لَا تَمَلُّ سَمَاعَهَا لَقَدْ أَنْكَرْتَ نَفْسِي عَلَيْكَ طِبَاعَهَا
فَهَا أَنَا مِمَّا بِي تَحِيرْتُ فِي أَمْرِي
عَذَابُكَ عَذَبٌ فِي الْقُلُوبِ نِكَالُهُ يَهُونُ عَلَيْنَا فِي هَوَاكَ احْتِمَالُهُ
وَوَجْهُ سَبَابًا حُسْنُهُ وَكَمَالُهُ فَأَسْكَرْنَا مِنْ غَيْرِ خَمَرٍ جَمَالُهُ
فَلله مِنْ سُكْرِ عَلَيْكَ بِلا خَمَرٍ
وَجَدْنَا جِبَالَ الْوَجْدِ فِيكَ خَفِيفَةً كَمَا صَارَ مِنْكَ الْحُبُّ فِينَا خَلِيفَةً
وَقَوِيَّتْ أَسْرَارِي وَكَانَتْ ضَعِيفَةً تُقِيمُ حُدُودًا فِي السُّكَارَى لَطِيفَةً
وَتَضْرِبُ حَدَّ الْقَتْلِ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ
شَرَابٌ بِأَفْوَاهِ الْخَوَاطِرِ قَدْ حَلَا وَكَأْسٌ شَرِبْنَاهُ وَلَكِنَّهُ مَلَا
وَقَلْبٌ بِمَنْ نَهَوَاهُ فِي اللَّيْلِ قَدْ حَلَا مُحَاسِنُهُ بِالْوَهْمِ فِي مَعْلَمِ الْعَلَا
فَيَأْخُذُ مِنْ قَلْبِي الْقِصَاصُ وَلَا يَدْرِي

قال : وقيل : بل رَدَّ الله عليها شبابها بعد وصول يعقوب ليوسف عليه السلام وارتداد بصره بالقميص ، فسارت إليه ، ووقفت بين يديه ، وقالت : يا رئيس الصابرين ، وإمام المحزونين ، تصدَّقْ على المتحنة من قميصك بخيط يزِيل وصبها ، ويُذهب كرمها ، فأعطاهَا منه خيطاً ، وكان القميص من الجنة ، وهو الذي كساه الله إبراهيم ، وتعرضت للصديق ، وهي كهيتها يوم راودته فدعاها إلى الإسلام فأسلمت بين يديه ، فكان دخولها في الملة سبباً لرفع درجتها والوصلة ، فلما زفت إليه ، وأدخلت عليه ، استأذنته في أن تصلي لله صلاة شكر علي ما وهبها من نعمته وجاد عليها برحمته ، فأذن لها ، فاستطابت حلالة المناجاة ، وذُهِلت عما كان وما هو آت ، فناداهَا لسان المطالبة بالدعوة : كيف تشتغلين عن المحبوب بالنجوى ؟ فقال لسان حالها مجاباً ، والدمع من جفنها ينهل ساكباً : أنا كالطائر في المصائد ، شغله عن الحبة ظفر الصائد ، في أول مرة لم ينلها ، وعند وصول ما تفرغ إليها ، وقيل في المعنى :

يَا أَهْلَ بَابِلَ أَنْتُمْ أَصْلَ بَلْبَالِي رُدُّوا فُؤَادِي عَلَى جُثْمَانِي الْبَالِي
 لا وَاغْتِلَاقِ هَوَاكُم يَوْمَ بَيْنِكُمْ مَا مَرَّ صَرْفُ النَّوَى يَوْمًا عَلَى بَالِي
 وَإِنَّمَا عَرَضَتْ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ نَوَائِبُ أَرْخَصَتْ مِنْ دَمْعِي الْغَالِي
 سَلَوْتُ عَنْ غَيْرِكُمْ لَمَّا عَلِقَتْ بِكُمْ عُجْبًا أَلَا فَأَعْجِبُوا لِلْعَاشِقِ الْبَالِي

قال : فطال على الصديق انتظارها ، فدعاها إليه فلم تجبه ، فدعاها ثانياً فسكت عنه ، فدعاها ثالثاً فلم تجبه ، فحذبها من خلفها ، فقد قميصها من دُبر ، فقال لسان حالها عنها مجابوا : يا مَنْ أذهب الشوق صبره وصدده ، قَدَّةً بَقْدَةً ! ليس العجب من مشتاق يهتز ، إنما العجب من ذليل يعتر ؛ لما لاذت بنا ، ورجعت ووقفت ببابنا وخضعت ، أوضحنا لها طريق القبول والإقبال ، وأبدلناها من الإدلال بالإذلال ، وقيل في المعنى :

مَنْ اعْتَرَّ بِذِي الْعِزِّ فَذُو الْعِزِّ لَهُ عِزٌّ
 وَلَا عِزٌّ لِمُعْتَرٍّ إِذَا اعْتَرَّ بِلَا عِزٍّ

فلما دخل بها وجدها بكرًا عذراء ، فقال لها الصديق : ما الذي كنت تفعلين حين راوديتني ، قالت : يا نبي الله أعذرني ولا تلمني ، فإن الله قد كساك حلة الجمال والبهاء والكمال ، وكان زوجي عني لا يقرب النساء ، وكنت مشركة حينئذ فلا تؤاخذني بسوء صنيعي ، فلما آتاها حملت منه ، فولدت افرائيم وميشا في أربع سنين وطاب عيشهما مدة حياتهما ؛ لكنه ما دام ، بل النعيم لهما والمتقين العابدين في الفردوس على الدوام ، وقيل في المعنى :

بِتَقْوَى الْإِلَهِ نَجَا مَنْ نَجَا وَفَازَ وَصَارَ إِلَى مَا رَجَا
 وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ كَمَا قَالَ : مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجًا
 وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَإِنْ ضَاقَ أَمْرُهُ بِفَرَجًا
 وَمَنْ كَانَ فِيمَا مَضَى مُذْنِبًا فَعَفُو الْإِلَهِ لَهُ يُرْتَجَى

(حكاية) : قيل : جهز أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ جيشاً من المسلمين تجاه العدو قبل الشام ، فحاصروا حصناً من حصونهم حصاراً شديداً ، وكان في المسلمين رجلان أخوان قد آتاها الله نجدة وجرأة على العدو ، وكان أمير ذلك

الحصن يقول لأقياله ولمن بين يديه من أبطاله : لو أن هذين المسلمين حصلا وقتلا لكفيتم من سواهما من المسلمين ، قال : فما زالوا ينصبون لهما المصائد ، ويحتلقون المكائد إلى أن أخذوا واحداً منهم أسيراً والآخر أخاه صار قتيلاً ، فاحتمل المسلم إلى أمير ذلك الحصن ، فلما نظر إليه وجده بطلاً شديداً ، فقال : إن قتل هذا لمصيبة ، ورجوعه إلى المسلمين كريهة ، وددت أن لو دخل في دين النصرانية ، وله من مالي كذا وكذا ، فقال له بطريق من بطارقه : أيها الأمير ، أنا أفنته عن دينه ، وذلك أن العرب أسرع ما يصبون إلى النساء ، وإن ابنتي فلانة من أجمل النساء ، فلو رآها لفتن بها ، قال : خذه إليك ، ففرش المزل ، وألبس ابنته من الثياب ما زاد في زينتها وجمالها ، وجيء بالرجل ، فدخل المزل ، فأحضر الطعام ، ووقفت النصرانية بين يديه كالخادم المطيعة لسيدها منتظرة لأمر يأمرها به تفعله ، فلما رأى المسلم ما نزل به اعتصم بالله ، وغض بصره عما حرم الله ، واشتغل بقراءة القرآن خوفاً من الافتتان ، وبأن له صوت حسن فأحبته النصرانية ، فما زالت على ذلك سبعة أيام حتى صارت تقول : أشتهي لو أدخلني هذا الرجل في دينه ، ورضي بدخولي معه في الإسلام ، وقيل في المعنى :

أَتَعْرِضُ عَنَّا وَالْفُؤَادُ لَكُمْ يَصْبُو
وَأَنِّي لَأَرْضِي أَنْ أَفَارِقَ رُفْقَتِي
وَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ
عَسَاهُ بِأَنْ يَقْضِيَ بَوَصْلِي وَقُرْبَتِي
فَقَدْ تُفْتَحُ الْأَبْوَابُ مِنْ بَعْدِ غَلْقِهَا
فَدَوَاؤُكُمْ نَفْسِي وَمَثْوَاكُمْ الْقَلْبُ
وَأَتْرُكُ دِينًا دُونَهُ الصَّارِمُ الْعَضْبُ
بَذَا ثَبَتَ الْبُرْهَانُ وَارْتَفَعَ الرَّيْبُ
وَيُبْرِدُ قَلْبًا شَقَّهُ الشَّقْوُ وَالْحُبُ
وَيُعْطِي الْأَمَانِي مَنْ تَدَاوَلَهُ الْكَرْبُ

قال : فلما عيل صبرها وضاق صدرها ترامت بين يديه ، وقالت : أسألك بدنيك إلا ما سمعت كلامي ؟ قال لها : وما كلامك ؟ قالت : اعرض علي الإسلام ، فعرضه عليها فأسلمت ، وتطهرت وعلمها الصلاة ، فلما فعلت ذلك قالت له : يا أخي ، إنما كان دخولي في الإسلام بسببك وابتغاء قربك ، فقال لها : إن الإسلام يمنع النكاح إلا بشاهدين عدلين ومهر ، وأنا لا أجد الشاهدين ولا المهر ، فلو تحيلت في خروجنا من هذا الموضع لرجوت الوصول إلى بلد الإسلام ، وإني أعاهدك أن لا يكون لي زوجة في الإسلام سواك ، قالت : أنا أحتال في ذلك فدعت أخاها وأماها وأباها ، وقالت لهم : إن هذا المسلم قد لان ، ومال قلبه إلي ،

وندبته إلى الدخول في الدين حتى أوصله من نفسي إلى ما يريد مني ، فقال لي : إن هذا لا يتفق لي في بلد قُتل فيه أخي ، فلو خرجتُ منه لسلا قلبي ، ولفعلتُ ما هو المراد مني ، ولا بأس أن تخرجوني معه إلى قرية كذا ، فإني ضامنته لكم وللملك بما تريدونه ، قال : فمشى أبوها إلى ملكهم ، وعرفه بذلك ، فسُرَّ سروراً كثيراً ، وأمر بإخراجها معه إلى القرية فخرجتُ ، فلما وصلا إلى القرية ، وجنَّ عليهما الليل أخذنا في الرحيل وقطع السبيل ، وقيل في المعنى :

وَقَالُوا : قَدْ دَنَا مِنْهَا الرَّحِيلُ فَقُلْتُ : وَلِي تُهْدَدُ بِالرَّحِيلِ
وَمَا لِي غَيْرُ جَوْبِ الْقَفْرِ شَعْلٌ وَقَطَعُ الْأَرْضَ مِيلًا بَعْدَ مِيلٍ
لَسِنُ ظَعْنِ الْأَحْبَةِ نَحْوَ أَرْضٍ لَرُحْتُ بِهَا مِنْ ابْتَاءِ السَّبِيلِ
وَأَجْعَلُ نَحْوَهُمْ شَوْفِي دَلِيلًا فَيَهْدِينِي الطَّرِيقَ بِلا دَلِيلٍ

قال : فسارا ليلتهما تلك ، وكان الشاب قد ركب جواداً سابقاً ، وأردفها من خلفه فما زالا يقطعان الأرض حتى قرب الصباح ، فمال بها عن طريقه ، وأنزلها وتوضاً جميعاً ليصليا الصبح ، فبينما هما كذلك إذ سمعا قعقة السلاح وصلصلة اللحم وكلام الرجال وحوافر الخيل ، فقال لها : يا فلانة ، هؤلاء تبع النصارى قد أدركونا ، فما تكون الحيلة ، والفرسُ قد كلَّ وملَّ ، ولا يقدر أن يخطوَ باعاً ، فقالت له : ويحك ، فزعت وخفت ؟ قال : نعم ، قالت له : وأين ما كنت تحدثني من قدرة ربك وغياثته للمستغيثين به ، تعالَ نتضرع إليه ، وندعوه لعله أن يغيثنا بعنايته ، ويتداركنا بلطفه ، فقال لها : نعم ، والله ما قلتِ إلا حقاً ، فأخذنا في التضرع إلى الله تعالى ، وقيل في المعنى :

إِنَّا إِلَيْكَ مَعَ السَّاعَاتِ نَحْتَاجُ أَوْ كَانَ فِي مَفَرِّقِي الْإِكْلِيلِ وَالتَّاجُ
وَأَنْتَ لِي حَاجَتِي الْكُبْرَى فَلَوْ ظَفِرْتَ بِمَا أَرَادَتْ يَدِي لَمْ يَبْقَ لِي حَاجُ
وَلَيْسَ عِنْدَكَ شَيْءٌ أَنْتَ مَانِعُهُ بَلْ جُودُ جُودِكَ سَيَّالٌ وَنَحَّاجُ
لَكِنِّي أَنَا مَحْجُوبٌ فَلَوْ رُفِعَتْ حُجَّتِي لِأَشْرَقَ نُورٌ مِنْكَ وَهَاجُ

قال : فبينما هو يدعو ويتنحب ، والجارية تؤمِّن على دعائه ، ووجهة الخيل تقرب منه إذ سمع كلام أخيه الشهيد ، وهو يقول : لا تخف ، ولا تحزن ، فإن الوفد ، وفد الله وملائكته ، أرسلهم إليكما يشهدون عليكما في التزويج ، وإن الله قد

أعطاكم أجر السعداء والشهداء ، وطوى لكما الأرض ، وإنك ستصبح بجبال المدينة ، فإذا اجتمعت بعمر بن الخطاب ، فاقراً عليه مني السلام ، وقل له : جزاك الله عن الإسلام خيراً ، فلقد نصحت واجتهدت ، ثم رفعت الملائكة أصواتها بالسلام عليه وعلى زوجته ، وقالوا : إن الله قد زوجنا منك قبل خلق أبيكما آدم بألفي سنة ، قال : فغشيتهما البشر والسرور والأمن والحبور ، وزاد اليقين ، وثبتت هداية المتقين ، وطلع الفجر ، فتوضأ وصليا الصبح ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يغلس بصلاة الصبح ، وربما دخل المحراب وخلفه رجلان ، فيبتدئ بسورة الأنعام أو سورة النساء ، فينتبه الراقد ، ويتوضأ المتوضئ ، ويأتي البعيد فما يتم القراءة إلا والمسجد قد امتلأ بالناس ، فيصلي الركعة الثانية بسورة خفيفة ، فلما كان ذلك اليوم صلى في أول ركعة بسورة خفيفة ، وأوجز فيها ، ثم في الثانية كذلك ، فلما سلم نظر إلى أصحابه ، وقال : اخرجوا حتى نتلقى العروسين ، فتعجب أصحابه ، ولم يفهموا كلامه رضي الله عنه ، ولا عجب في ذلك ، فإن الله تعالى كشف له حتى رأى سارية بالعراق وهو بالمدينة على منبره ، وأسمع سارية صوته يقول : يا سارية ، الجبل ، فصعد هو وأصحابه الجبل ، فكان سبباً لنجاته ونجاة أصحابه ، ولقد كان مَنْ هو أدنى منه طبقةً كمعروف الكرخي وسري السقطي والجنيد وسهل بن عبد الله التستري ، ونحوهم من السادات ، لهم المكاشفات والأحوال الخارقات كالخطوة البعيدة ، والحضور والغيبة ، والدعوة المستجابة ، حتى إن سهل بن عبد الله المذكور على ما اشتهر عنه ونقله الثقات من العلماء في كتبهم أنه كان يرى يوم التروية وهو الثامن من شهر ذي الحجة في مدينة تستر التي يسمونها العوامُ بـ "دشتر" ، ويوم عرفة كان يرى بعرفة ، وأما الشيخ عبد القادر الكيلاني - رحمه الله - فلا تُحصى مناقبه وكراماته ، وهذا حال هؤلاء ومن في طبقتهم ، فما حال من هو من الأربعة الذين هم أفضل الخلق بعد النبيين ، وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ، قال : فتقدم عمر هو ومَنْ خلفه ، حتى خرج على باب المدينة ، وكان الشاب عندما ظهر الضوء رأى أعلام المدينة ونواحيها ، فأقبل يريد المدينة وزوجته من خلفه ، فلقاه عمر رضي الله عنه والمسلمون فسلموا عليه ، وأمر عمر رضي الله عنه بصنع الوليمة ، فحضر المسلمون ، وأكلوا ودخل الشاب بعروسه ، ورزقه الله تعالى منها أولاداً نجباء يقاتلون في سبيل الله ، وما أتى في معناها أن أحد الخلفاء العباسيين جهز إلى الشيخ أبي بكر الشبلي - رحمه الله تعالى - حال ضعفه طبيباً نصرانياً ليداويه فعالجه مدة ، فقال الطبيب يوماً

للشبلبي : يا شيخ، لو علمتُ أن دواءك في لحم كتفي لقطعتُ منه وداويتك به ، فقال : الشبلبي : يا نصراني ، دوائي في حل زنارك فدارك ، فوقع في قلب النصراني من كلامه موقعه لكون كلامه خالصاً ، وفي الحال حل زناره ، وتشهد على يديه وحسن إسلامه بما منَّ الكريم سبحانه عليه ، فلما بلغ الخليفة قال : زعمنا أننا جهزنا طبيباً إلى مريض ، ما علمنا أننا جهزنا مريضاً إلى طبيب ، وهكذا ورد أن شخصاً لقن ميتاً ، فأسمع الله من حضر واحداً منهم صوت الميت يقول : عجبْتُ من ميت يلقن حياً ، وكما كشف عن بصر أحد الذين واروا الأحنف بن قيس - رحمه الله - في قبره ، أنه فُسح له قبره مدَّ بصره فقال لرفقائه الذين معه : هل ترون ما رأيْت ؟ قالوا : لا ، فأخبرهم بما رآه ، هذا الذي بصره الله تعالى ، والذي ذكر قبله أسمعهم ، فلا تنكروا أحوال الصالحين ، بل صدقوا فلو وصلتكم إلى ما وصلوا إليه لكنتم موقنين ، وقيل في المعنى :

وَمَا لَكَ دُونَ الطَّالِبِينَ جَوَابُ	أَرَأَيْكَ عَلَى الْأَبْوَابِ تَبْكِي وَتَشْتَكِي
وَصَدُّكَ عَنْ بَابِ الْحَيِّبِ حِجَابُ	أَصَابَكَ عُذْرٌ أَمْ دَهَتْكَ مُلَمَّةٌ
لَهُ مِثْلُ مَا تَابَ الْوَرَى وَأَنَابُوا	قِفِ الْيَوْمَ يَا مِسْكِينُ فِي ذِكْرِهِ وَتُبْ
وَيُهْنِي بِأَرْبَابِ الذُّنُوبِ ثَوَابُ	عَسَى مَطَرُ الْغُفْرَانِ يَغْسِلُ مَا مَضَى
وَيُعْتَقُ مِنْ سِجْنِ الْعِقَابِ رِقَابُ	فَقَدْ يُفْلِتُ الْمَأْسُورُ وَهُوَ مُقَيَّدُ

المجلس الرابع عشر

في قوله تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢] .

الحمد لله الذي أظهر بوجوده وجود آياته عبراً لكل عاقل ، فاعترف بوحدانيته وربوبيته شواهد قواطع سواطع الدلائل ، يسبح بحمده الشمس والقمر والجبال والشجر بالأسنة صوامت ذوابل ، إله فرد صمد احتجب عن الأبصار فلا مطلع له ولا مقابل ، تقدس عن الأضداد والأفراد يعدل في القضاء لا جائر ولا مائل ، عليم يعلم خفي ما اختلج في الأسرار وخطر في الأفكار لا ناس لها ولا جاهل ، بصير يبصر خطوات الذر في قعر قاموس البحر قبل أن يقذف إلى الساحل ، سميع يسمع وقع أرجل النمل على كثران الرمل وصفحات الجنادل ، حي بحياة قديمة أزلية فهو آخر بعد الأواخر وأول قبل الأوائل ، كلم موسى على جبل الطور بكلام قدسم أزلي صفة للمتكلم القائل ، ولم يكن بينه وبين كلامه حائل ، فلا يقال : كيف كان ، فالسؤال عن الكيفية باطل ، استوى على العرش كما قال وليس العرش له بحامل ، يتزل كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول : هل من راغب ؟ هل من تائب ؟ هل من سائل ؟ الهناء لمن كان في ذلك الوقت مستيقظاً لا نائم ولا غافل ونزول نزول من فضل وإحسان وطول لا نزول من عال على سافر ، فيا غافلاً سفينتك قد أفلعت إلى الساحل ، وأنت بالتوبة تماطل ، قم يا مسكين في الأسحار ، والزم الندم والاستغفار للملك العادل ، وقف على الباب في جملة الأحباب ، وابك بدمع ساكب على الخد هاطل ، وأنشد ما قاله الأديب الفاضل :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْطَى بِكُلِّ فَضِيلَةٍ فَفِي ذِكْرِ مَوْلَانَا جَمِيعُ الْفَضَائِلِ

فسبحانه من أنعم على عباده المخلصين بقبول الوسائل ، فقال مَنْ هو أصدق قائل وأقدر فاعل : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢] ، هذه والله أشرف المناقب وأكرم الشمائل ، أحمله على ما أودع من الإحسان والامتنان الطائل ، وآتي من الفضل والبذل الهائل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أرجو بها الخلاص في اليوم الهائل ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحيبيه وخليله الذي أرسله بين الحق والباطل فاصل ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، صلاة تدوم وتقوم بالبكر والأصيل ، وقيل في المعنى :

بَلَدِيذِ ذِكْرِكَ تُنْعَشُ الْأَرْوَاحُ وَضِيَاؤُهُ بِجَوَانِحِي تَلْتَأَحُ
فَكَأَنَّمَا جَسَدِي زُجَاجٌ أَبْيَضُ وَبِكُلِّ جَارِحَةٍ بَدَأَ مِصْبَاحُ

إِنَّ قَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ يَوْمًا قَاتِلٌ
 وَمِنْ الْعَجَائِبِ أَنْ تَرَانِي ضَاحِكًا
 فَالْبَرْقُ يَبْدُو لِلْعُيُونِ سَنَاوُهُ
 إِنَّ جَارَ هَذَا الدَّهْرِ يَوْمًا أَوْ عَدَا
 يَا مَنْ مَضَتْ أَحْكَامُهُ فِي خَلْقِهِ
 خَضَعَتْ لِعِزِّكَ يَا مَلِكُ رِقَابُنَا
 أَفٍّ لِمَنْ لِلْخَلْقِ يَشْكُو كُرْبَةً
 وَيَصُدُّ عَنْكَ وَأَنْتَ مَالِكُ أَمْرِهِمْ
 فَارْحَمْ ضَرَاعَتَنَا إِلَيْكَ وَفَقَرْنَا
 مَا إِنَّ لَنَا رَبًّا سِوَاكَ نُؤْمُهُ
 مَضَتْ الْكُرُوبُ وَجَاءَتْ الْأَفْرَاحُ
 وَالْقَلْبُ فِيهِ مِنَ الْغَرَامِ جِرَاحُ
 وَبِإِثْرِهِ غَيْثٌ أَتَى وَرِيَا حُ
 فَرَجَاءُ جُودِكَ جَنَّةٌ وَسِلَاحُ
 طُرًّا فَمَا لِلْكَلِّ عَنْهُ بَرَا حُ
 وَتَذَلَّلَتْ لِجَلَالِكَ الْأَشْبَاحُ
 فَلَهُ بِأَبْوَابِ الْعَيْدِ صِيَا حُ
 وَلَكَ الْقُلُوبُ وَعِنْدَكَ الْمِفْتَاحُ
 وَالْطُفُّ فُلُطْفُكَ يَا كَرِيمُ مَبَا حُ
 أَنْتَ الرَّجَاءُ وَتُورِكَ الْوَضَاحُ

قوله تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أَنْذَرَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، اعلم أن في هذه الآية
 عشرين قولاً ، قيل : اذكروني بالإخلاص أذكركم بالاختصاص ، وقيل : اذكروني
 بالحضور أذكركم بتيسير الأمور ، وقيل : اذكروني بالقلوب أذكركم بغفران
 الذنوب ، وقيل : اذكروني بالضمائر أذكركم بدفع الضرائر ، وقيل : اذكروني
 بالأصوات أذكركم بتيسير الأقوات ، وقيل : اذكروني في الخلوات أذكركم بالرحمة
 والصلوات ، وقيل : اذكروني بلا نسيان أذكركم بمغفرة العصيان ، وقيل : اذكروني
 في المساء والصباح أذكركم باللطف والصلاح ، وقيل : اذكروني في السجود
 أذكركم بالنعمة والجود ، وقيل : اذكروني بالمعذرة أذكركم بالمغفرة ، وقيل :
 اذكروني بأداء الفريضة أذكركم بالرحمة العريضة ، وقيل : اذكروني بالاستغفار
 أذكركم بالنواهد الأبكار ، وقيل : اذكروني بالأسحار أذكركم بغرس الأشجار ،
 وقيل : اذكروني في الأيام القلائل أذكركم بلبس الحُلل والغلائل ، وقيل : اذكروني
 بالصبر على البلا أذكركم بالدرجات العلا ، وقيل : اذكروني بالألباب أذكركم
 بزوال الحجاب ، وقيل : اذكروني على التوالي أذكركم بفضلي ونوالي ، وليس
 العجب من قوله : فادْكُرُونِي ، إنما العجب من قوله : أذكركم ، وليس العجب من
 قوله : ويحبونه ، إنما العجب من قوله : يحبهم ، وليس العجب من فقير يحب
 محسناً ، إنما العجب من محسن يحب فقيراً ، نزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ

فقال له : « إن الله يقول لك : أعطيت أمتك ما لم أعطه أحداً من الأمم ، قال : وما هو ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ ﴾ » ، ولقد أجزل العطاء والموهبة من حلاك بهذه المنقبة حيث خلق الفلك والملك والنور والحلك والعلوي والسفلي والعرش والكرسي والبهايم والهوام والوحش والأنعام ، فلم يقل لصنف منها : اذكروني أذكركم إلا لك ؛ فمتى تؤدي شكر مولاك على ما أنعم عليك وأولاك . وقال : أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه : « سئل رسول الله ﷺ : أي العباد أفضل عند الله درجة يوم القيامة ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً ، قال : قلت : يا رسول الله ، ومن الغازي في سبيل الله ؟ ! قال : لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينحني ويختضب دماً ، لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل منه درجة » ^(١) ذكره الترمذي ، وقال عبد الله بن بشر : « قال رجل : يا رسول الله ، إن شرائع الله قد كثرت علي ، فمُرني بأمر أتشبه به ، قال : لا يزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى » ^(٢) ذكره الترمذي . وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : ذكر الله » ^(٣) . وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه ، إذا ذكرتني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرتني في ملاء ذكرته في ملاء خير منه ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » ^(٤) ذكره البخاري . وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ وهو يسير في طريق مكة ومر بجبل يقال له : حمدان ، فقال : « سيروا ، هذا حمدان سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » ^(٥) ذكره مسلم . وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال :

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤٥٨ / ٥ .

(٢) أخرجه الترمذي ٤٥٨ / ٥ ، والبيهقي في الكبرى ٣ / ٣٧١ .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٤٥٩ / ٥ ، وابن ماجه في سننه ١٢٤٥ / ٢ ، والحاكم في المستدرک ١ / ٦٧٣ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٦٩٤ / ٦ ، ومسلم ٢٠٦١ / ٤ .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٦٢ / ٤ .

المشهورون بذكر الله ، يضع الذكر عنهم أوزارهم ، فيأتون يوم القيامة خفافاً »^(١) ذكره الترمذي . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عجز منكم عن الليل أن يكابده ، وجبن عن العدو أن يجاهده ، وبخل بالمال أن ينفقه ، فليكثر ذكر الله »^(٢) ذكره البزار . وقال جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه : « خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في مسجد المدينة ، فقال : إن الله سرايا من الملائكة تحل وتقف في مجالس الذكر في الأرض ، فإذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : مجالس الذكر ، اغدوا وروحوا في ذكر الله ، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله تعالى يتزل العبد منه حيث أنزله من نفسه »^(٣) ذكره البزار ، وقال : أبو هريرة ؓ : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تبادروا هلموا إلى حاجتكم ، فيحفوهم بأجنحتهم حتى يملئوا ما بين السماء الدنيا ، فإذا تفرقوا وصعدوا إلى السماء ، فيسألهم ربهم ، وهو أعلم بهم من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عبيد لك في الأرض ، قال : ما يقول عبادي ؟ قالوا : يسبحونك ويقدمسونك ويستعيذونك ، فيقول : وهل رأوني ؟ فيقولون : لا والله فيقول : وكيف لو رأوني ؟ فيقولون : لو رأوك لكانوا أشد لك عبادة وأشد تحميداً وأكثر لك تسبيحاً ، قال : فيقول : يا ملائكتي ما يسألون ؟ فيقولون : يسألونك الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ قال : فيقولون : لا والله ، فيقول : وكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو أنهم رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً ، وأكثر لها طلباً ، وأعظم لها رغبة ، قال : فتقول الملائكة ويتعذونك ، قال : فيقول : ومم يتعذون ؟ قال : فيقولون : من النار ، قال : فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ، فيقول : وكيف لو أنهم رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد منها فراراً وأشد منها مخافة ، فيقول : أشهدكم أنني قد غفرت لهم ، فيقول ملك من الملائكة : رب فيهم فلان ، وليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، فيقول له : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم »^(٤) ذكره البخاري . وقال أبو ذر رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : من عمل حسنة فله عشر أمثالها ، ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر ومن عمل مثل قراب

(١) أخرجه الترمذي ٥٧٧ / ٥ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد في مسنده ٢١٥ / ١ ، والطبراني في الكبير ٨٤ / ١١ .

(٣) أخرجه الترمذي ٥٣٢ / ٥ ، والشيخاني في الآثار ٢١٧ / ١ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٣٥٣ / ٥ .

الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلتُ له مثلها مغفرة ، ومن اقترب إليَّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً ، ومن اقترب إليَّ ذراعاً ، اقتربتُ منه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » ^(١) ذكره مسلم . وقال أبو ذر رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر ، إنك إن صليت الضحى ركعتين لم تُكتب من الغافلين ، وإن صليت أربعاً كتبت من العابدين ، وإن صليت ستاً لم يلحقك ذنب ، وإن صليت ثمانياً كتبت من القائمين ، وإن صليت اثنتي عشرة ركعة بُني لك بيت في الجنة ، وما من يوم وليلة إلا والله فيه صدقة يمنُّ بها على من شاء من عباده ، وما منَّ على عبد بمثل أن يلهمه ذكره » ^(٢) ذكره البزار ، وقيل في المعنى :

أَلَا عَلَّلُونِي بِاسْمِ مَنْ لَمْ يَزَلْ فَرْدًا	وَمَنْ يَمْنَحُ الْآلَاءَ وَالطُّوْلَ وَالرُّفْدَا
وَمَنْ ذَكَرَهُ أُنْسِي إِذَا اللَّيْلُ جَنَنِي	أَصْغِيرُهُ وَرَدًّا فَأَسْتَعْذِبُ الْوَرْدَا
إِذَا مَا شَدَا شَادٍ وَرَثَمَ بِاسْمِهِ	يَكَادُ فُؤَادِي أَنْ يَطِيرَ لَهُ وَجْدَا
وَتَهْتَزُّ أَعْضَائِي مُوَافَقَةً لَهُ	فَلَا تُنْكِرُوا رَقْصِي إِذَا الشَّوْقُ بِي أَوْدَى
عَجِبْتُ لِمَنْ يَشْتَاقُ لِقَاءَ حَبِيبِهِ	وَيَشْكُو النَّوَى مِنْهُ لَقَدْ جَهَلَ الْقَصْدَا
وَهَلْ هُوَ إِلَّا حَاضِرٌ غَيْرُ غَائِبٍ	يُشَاهِدُهُ بِالْقَلْبِ مَنْ أَخْلَصَ الْوُدَا
وَيُبْصِرُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بَدَا لَهُ	فَيَعْرِفُهُ الْعَقْلُ الرَّزِينُ بِمَا أَبْدَى
وَهَبْتُ لَهُ كُلِّي وَلَذْتُ بِرُكْنِهِ	وَحَمَلْتُهُ كُلِّي وَلَمْ أَسْتَجِزْ رَدَّا
فَهَا أَنَا مُلْقَى فِي يَدَيْهِ رَهِينَةٌ	أَسْأَلُهُ الرَّحْمَى وَأَسْتَنْجِزُ الْوَعْدَا
يُقَرِّبُنِي طَوْرًا فَأَزْهُو بِقُرْبِهِ	وَيُبْعِدُنِي طَوْرًا فَأَرْضَى بِمَا أَسْدَى

وقيل : إن جسد آدمي سور مشيد ، وقلبه وأعضاؤه رعية ، وخواطره جواسيس ، وحرركاته أجناد ، وصدره مدينة ، وقدميه مطية ، ويديه حارسان يردان ما يرد على البدن من الأذى ، وأذنيه رائدان ، وعينه طلائع ، وفمه ترجمان ، ولسانه مسامر ، وشهوته روم تدور بالمدينة وتروم ملك السور ، فإذا كان المسامر ذاكرةً لله تعالى حرس السور ، وحفظت المدينة ، وعاشت الرعية ، وبقي الملك ، وخفر الأجناد ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢٠٦١ .

(٢) أخرجه البزار في مسنده ٩ / ٣٣٦ .

وسافرت الجواسيس ، وجاءت الأخبار ، واعتزل الترجمان ، وأيد الحارس ، وصحت المطية ، وبعدت الروم عن المدينة ، وإذا غفل المسامر ، وسكت عن ذكر الله أدركته الغفلة ، وأصابه النوم فتمكنت روم الشهوات من السور ، وهلك الملك ، وتفرقت الأجناد ، وضاعت الرعية ، وقيل في المعنى :

لِسَائِكَ سَامِرٌ وَالْجِسْمُ سُورٌ وَرُومٌ هَوَاكَ وَيَكُ بِهٍ تَدُورُ
فَإِنْ ضِيعَتُهُ وَغَفَلَتْ عَنْهُ فَإِنَّكَ ذُوْنَمَا شَكٌّ أَسِيرُ
وَإِنْ بِالذِّكْرِ كُنْتَ لَهُ حَفِيزًا تَأْمَنْتِ الرَّعِيَّةَ وَالْأَمِيرُ
إِذَا عَلِلَّ الذُّنُوبُ بِنَا أَحَاطَتْ فَذَكَرُ اللَّهُ دِرْيَاقَ كَبِيرُ

واعلم أن يعقوب عليه السلام حين وجه يوسف مع إخوته لم يزد على أن قال : ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٣] ، فعوقب على ذلك بطول البين ، والبعد من قرة العين ، ولما سأله أولاده توجيه بنيامين قال : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤] . فلما قدم ذكر مولاه أنعم عليه برجوع البنين إليه ، وهما ولداه ، قال وهب بن منبه : لما خرجوا من عند أخيههم ، وقدموا على أبيهم كانوا يغتبطون بقضاء حوائجهم ووجود الطعام والميرة بأرخص ما وجدها سواهم ، وكانت في قلوبهم غصة في ترك أخيههم بمصر ، وكيف يسألون أباهم ابنه الثاني بعد ما فعلوا بالأخ الأول ما فعلوا ، فكانوا يخافون منه أن لا يصدقهم ولا يسعفهم في صرفه معهم ، لكنهم لم يجدوا بُدًّا من مفاجأته بهذا الكلام ، وسؤالهم إياه أن يبعثه إلى الملك ، وقد وعدوه بذلك ، وانفصلوا على الإتيان به إلى هنالك ، فقالوا : ما أخبر الله عنهم ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف: ٦٣] وأخذوا في شكر الملك وذكر صنيعه الجميل بهم ، وإنزاله إياهم أحسن المنازل وبيعهم الطعام بأرخص الأثمان ثم قالوا : يا أبانا ، لا وجه لنا في لقائه بعد هذا ، ولا في أخذ رطل واحد منه في المستقبل ، فقال لهم والدهم : يا بني ، ولم ذلك وقد أخبرتم عنه بالكرامات السالفة والخيرات الوافرة والصنع الجميل ؟ فقالوا : لأنه سألنا حمل أخينا بنيامين إليه والورود به عليه ، وأمسك أخانا شمعون عنده حرصاً على لقاء بنيامين ، ومن كثرة ما رأينا فيه من حرصه لم تنفصل عنه إلا بعد ما عاهدناه على إتيانه إليه ، فإن أنت سمحت لنا بتوجهه معنا ، فترجو من الله تعالى أن يكون

لنا عند الملك حظوة وكرامة ، ونكتال الطعام ، وإن كان غير ذلك لم يقض الملك حاجتنا ولم يلتفت إلينا ، فأجابه أبوهم بما أخبر الله عنه ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنَ تَكُمُ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَالَلَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤] ، وقيل :

وَإِنِّي كَيْبٌ هَائِمٌ دَنَفٌ مُلْقَى	كَأَنَّ لَمْ تَرَوْا يَا وَيْحَكُمْ فَرَطَ مَا أُلْقَى
وَمَا أَحَدٌ مِنْكُمْ لِمَا نَالَنِي رَقَا	أُكَابِدُ أَشْوَاقًا وَوَجَدًا وَلَوْعَةً
وَأَحْبَابُهُ وَالْقَلْبُ رَقُوا لِمَا يُلْقَى	غَرِيبٌ بِهِ وَجَدٌ يَجُودُ بِنَفْسِهِ
فَوَادِي مَمْلُوكٌ وَلَا يَشْتَهِي الْعَتَا	وَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا الشَّقِيقُ الَّذِي لَهُ
فَأَضْحَى بِهِ صَبًا وَأَصْبُو لَهُ عِشْقًا	أَشْمٌ عَلَيْهِ رِيحُهُ بَعْدَ نَأْيِهِ
أَيَّتَقَى مَعِيَ صَبْرٌ أَصْبَرِي مَعِيَ يَتَقَى	فَكَيْفَ اصْطَبَارِي بَعْدَهُ إِنْ فَقَدْتُهُ
فَمَازَالَ يُؤَلِي مَنْ رَجَا جُودَهُ رِقًا	عَسَى مَنْ قَضَى بِالْبَيْنِ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

ثم قال لهم يعقوب عليه السلام : أخذتموه مني بالمواثيق الأكيدة ، وضمنتم لي رَدَّهُ ، ثم فعلتم ما فعلتم ، وسكت عن ذلك ، وكره ما ذكروه ، واهتم هما شديدا ، ولم يُجبهما لما سأله ، وجعل يبكي ويجزن ويمجدد عليهم أمر يوسف وحديثه وهم يمدحون الملك وحسن سيرته ، ويقولون : يا أبانا ، ما رأينا ملكا قط أشبه به منك ، وإن جميع عاداته وخلقه وسيرته تشبه خلق الأنبياء ، وقد أحسن إلينا ، ووجدنا عنده الزيادة ، ولو حملنا أخانا إليه لآزددنا كرامة عنده مع ما كنا نزداد مع جملة من الهدايا والتحف ، وأكثروا عليه القول ، فلم يُجبههم بشيء ، ولم يزد على قوله : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنَ تَكُمُ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَالَلَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤] ، فلما أعياهم ذلك قام واحد منهم إلى رحله وفتحها ، وقام الجميع وفتحوا رحالهم ، فوجدوا بضاعتهم قد رُدَّتْ ، فتأكدت المحبة واشتدت ، وقيل في المعنى :

هَذَا يَا النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ	تُؤَكِّدُ فِي قُلُوبِهِمُ الْوَصَالَا
وَتَزَرِّعُ فِي الْقُلُوبِ هَوًى وَوُدًّا	وَتَكْسُوهُمْ إِذَا حَضَرُوا جَمَالَا

قال : فرجعوا إلى أبيهم فرحين مغتبطين متعجبين من كرمه ، وهو قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ [يوسف: ٦٥] ؛ ذلك أنهم أروه البضاعة المردودة من الذهب والفضة ، وقوي أملهم على الرجوع إليه بما في أيديهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ مَا نَبْغِي ﴾ وجهان : أحدهما على وجه الاستفهام : أي ما نطلب من الخير وحسن الظن بذلك الملك بعد ما كان الكيل موفوراً ، ورد البضاعة والأثمان مستودعة في أوعيتنا هذه ، فما نبغي بعد هذا ، أي ما نلتمس من الخير أكثر من هذا الوجه ، الثاني ما نبغي ، أي ما نكذب في قولنا : أرسله ، وصدقنا في قولنا من إحسان الملك إلينا واستدعائه أخانا فلا بأس أن ترسله معنا ، فهذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا ، فإذا عدنا إليه بأخينا نغير أهلنا ، يعنون نحمل الميرة لأهلنا ، ونحفظ أخانا ونكرمه ، ونرده إليك مسرعاً ، ونزداد إذا كان أخونا معنا حمل بغير ، وهذه كانت عادة يوسف عليه السلام يكتال لكل واحد حمل بغير هين عليه يسير ، وحمل البعير يومئذ له قيمة عظيمة ، فلما رأى يعقوب عليه السلام ذلك سكن قلبه إلى بعث ابنه بنيامين معهم ، ولكنه لم يجبههم إلى ذلك إلى أن فني ما عندهم من الطعام ، ودخل الصبيان عليه يبيكون من الجوع ، فلان قلبه ، وطابت نفسه على توجيه الأخ معهم ، واستخار الله تعالى في ذلك ، وعزم على الصبر فيما نزل به ، وقيل :

فَوَادِي لِمَا قَدْ نَالَ مِنْكَ حَزِينُ	وَلَيْلِي سُهْدٌ كُلُّهُ وَأَنِينُ
وَعَاهَدْتُ صَبْرِي أَنْ يَفِيءَ بَمَوْعِدِي	وَلَمْ أَذِرْ أَنَّ الصَّبْرَ فِيكَ يَخُونُ
وَهَبْتُ لَكَ اللَّبَّ الَّذِي أَنْتَ سَاكِنُ	بِهِ وَلَهُ قَدَرٌ لَدَيَّ مَكِينُ
فَأَكْثَرَ عَذَابِي لِذَلِكَ مَلَامُهُمْ	فَقُلْتُ وَعُذْرِي فِي الْجَوَابِ مُبِينُ
وَقَدْ تَخْرُجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكِ	ذَخَائِرَ مَنْ رَبُّ بِهِنَّ ضَمِينُ

ثم قال لهم ما أخبر الله عز وجل ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف: ٦٦] ، يعني إلا أن يتزل بكم أمر مقدر من السماء لا يمكنكم دفعه عنكم من موت أو مرض أو غير ذلك ، فكأنه استثنى موثقه ، وعلم أن المقدور إذا نزل لا يمكن أحدا صرفه ولا زواله ، فقال : ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف: ٦٦]

أي شهيد عليكم ، وهو موفقكم للوفاء بالعهود وإبرار الأيمان . سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الموثق الذي أخذه يعقوب على ولده فقال : إن يعقوب عليه السلام قال لولده : يا معشر أولادي ، إن ختتموني في ولدي بنيامين ؛ فأنتم بُراء من النبي الأمي الذي يكون في آخر الزمان ، له أمة لهم صفوف في الصلاة كصفوف الملائكة في السماء ، ودوي في الأسحار بشهادة أن لا إله إلا الله ، وهو صاحب التاج والحرارة ، والقضيب والإداوة ، والوجه الأحمر ، والجبين الأزهر ، والحوض المورود ، والمقام المشهود ، ذلكم النبي الذي يُسمى محمداً ﷺ ، فأنتم بُراء منه ، وهو مُعرض عنكم بوجهه يوم القيامة إن ختتموني في ولدي قالوا : بلى ، قال يعقوب : ﴿ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف : ٦٦] ، وقيل في المعنى :

بِجَلَالِ قَدْرِكَ صَحَّتِ الْأَخْبَارُ	وَتَتَابَعَ الْإِعْلَامُ وَالْآثَارُ
وَرَوَى الثَّقَاتُ وَصَحَّ مَا قَدْ أَثْبَتُوا	طُرّاً بِأَنَّكَ سَيِّدٌ مُخْتَارُ
وَالْأَنْبِيَاءُ بِكَ الْمَوَاقِفُ أَكْدُوا	وَتَأَكَّدَ التَّفَضُّيلُ وَالْإِيثَارُ
لَمَّا رَأَى يَعْقُوبُ تَوَجُّهَ ابْنِهِ	وَفِرَاقَهُ أَمْرٌ لَدَيْهِ كِبَارُ
أَخَذَ الْعُهُودَ عَلَى بَنِيهِ وَقَالَ : إِنَّ	خَنُتُمْ وَلاَحَ عَلَيْكُمْ الْإِدْبَارُ
فَمُحَمَّدٌ مِنْكُمْ بَرِيءٌ يَوْمَ لا	سِتْرٌ إِذَا لَفَحَ السَّعِيرُ يُصَارُ
يَا سَيِّدًا شَهِدَ الْوُجُودُ بِفَضْلِهِ	قَبْلَ الْوُجُودِ فَمَالَهُ إِتْكَارُ
مِنِّي السَّلَامُ عَلَيْكَ مَا بَرَّقَ سَرَى	وَيُعَاقِبُ الْإِمْسَاءُ وَالْإِبْكَارُ

قال : فلما قضى يعقوب موثقه ، وأنفذ عهده ، دعا ابنه روبييل ، فقال : يا روبييل ، اكتب عني كتاباً إلى ملك مصر أمليه عليك ، قال : نعم ، فكتب : باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، من يعقوب ، إسرائيل الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر ، أما بعد : فإنك سألتني على لسان أولادي عن سبب حزني وشيبي وانحناء ظهري وذهاب بصري ، فاعلم أن أولى الناس بذلك وأحقهم به أخوفهم من ربه وأذكرهم لمعاده ، فأما كبري قبل أوانه فمن خوف يوم القيامة ، وأما شيبي قبل أوانه فمن ذكر النار وشدة عذابها ، وأما انحناء ظهري

ووهن عظمي وذهاب بصري فمن حزني على قرة عيني يوسف ومواصلة بكائي عليه ، فإنه كان قرة عيني ونور بصري ، وهو كان أنيسي في الخلوة ، ومرادي في الملا ، وقد أصبت فيه وفرق بيني وبينه ، فلا أدري أحي هو فأرجوه أم ميت فأحتسبه ؟ وأنا من أهل بيت موكل بنا البلاء ، قد خصصنا بذلك ، لا تصفو لنا الدنيا ، ولا نزال فيها مُنْعَصِينَ مُعَذِّين ، وما ذلك لهواننا على الله عز وجل ، ولكنها حماية ليخلص لنا أجرا ، ويسلم من النقص عنده حظنا ، وقد بلغني اهتمامك وسؤالك عني وعن حالي ، والله تعالى يجزيك على ذلك خيراً ، وكفى بالله مجازياً ومثيلاً ، واعلم أنك لا تُكرمني بكرامة هي أعظم في صدري وأبلغ لشكري من أن تُعجل لي بسراح ولدي وردهم إلي ، فتجدد بذلك أنسي ، وتبسط بصرفهم نفسي ، وتزيل وحشتي ، وتكرم شيعتي ، فلو رأيت حالي لأبكاك ما أنا عليه ، وقد وجهتهم إليك بالأمانة فرُدَّهم لي بالأمانة ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وقيل في المعنى :

مُحِبُّ بَرَاهُ الشَّوْقُ بِالْمَنْزِلِ الْأَقْصَى	يُنَادِيكُمْ : رِيشُوا جَنَاحِي قَدْ قُصَّ
يَزِيدُ بِطُولِ الْعُمْرِ ضَعْفًا وَشَيْبَةً	وَتِلْكَ زِيَادَاتٌ تُكَسِّبُهُ نَقْصًا
جَلِيدٌ عَلَى وَقْعِ الْمِلْمَاتِ صَابِرٌ	لَهُ أَنَّهُ تَرَقَّى وَلَسْتُ تَرَى شَخْصًا
إِذَا مَا جَرَى تَذَكُّارُكُمْ فِي ضُلُوعِهِ	تَمَائِلَ فَاهْتَرَّتْ مَعَاطِفُهُ رَقْصًا
وَقَدْ قَضَتْ الْبُلُوى مَدَامِعَ جَفْنِهِ	فَهَلْ عَطْفَةٌ مِنْكُمْ فَيَقْبَلُ مَا قَصَا
سَقَتُهُ اللَّيَالِي كَأْسَ ذُلٍّ وَمَهْنَةٍ	فَأَصْبَحَ لَا قَبْضًا لَدَيْهِ وَلَا قَنْصًا
سَتَقْطَعُ بِيَدِ الْحُبِّ أَثْنُ وَجْدِهِ	وَيُعْمَلُ فِي مَرْضَاتِكَ الْوَجْدَ وَالنَّصَا
لَعَلَّكَ تُحْيِي دَارِسَاتِ رُسُومٍ مِنْ	بَرِيْقَةٍ هِجْرَانِ الْمَحَبَّةِ قَدْ غُصَا
فَيَمْنَحُ بَعْدَ الْبُعْدِ أَنْسًا وَقُرْبَةً	وَيُصْبِحُ مِنْ بَعْدِ التَّبَاعُدِ مُخْتَصًّا

ثم ختم الكتاب ، وقال لبنيه ما أخبر الله عنه يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، قيل : إنه خاف عليهم العين ، ولا عجب في ذلك

فإن نبينا ﷺ قال : « السحر حق والعين حق » ^(١) . وقال : « استعيذوا من العين فإنها تورث الرجل القبر » . وكان ﷺ يُعوّذُ الحسن والحسين ويقول : « أعيدكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » ^(٢) . وقيل : كان أبو عبد الله الباغي مجاب الدعوة وله كرامات وآيات ، فبينما هو في بعض أسفاره إما حاجاً وإما غازياً على ناقه له ، وكان في القافلة رجل عائنٌ ما نظر قط إلى شيء إلا أتلفه وأسقطه ، وكانت عند أبي عبد الله ناقهٌ فارهٌ ، فقبل له : احفظها من العائن ، فقال : ليس له إلى ناقتي سبيل ، فأخبر بذلك العائن ، فتحرى رَحْلَ أبي عبد الله ، وجاء إلى ناقته فعانها ، فسقطت الناقة من ساعتها تضطرب ، فأتى أبو عبد الله ، وعُرِفَ بذلك ، فقال : دُلوني على العائن ، فدلوه عليه ، فوقف عليه وقال : بسم الله ، حبس حابس ، وحجر يابس ، وشهاب قابس في عين العائن ، رددت عين العائن عليه ، وعلى أحب الناس في كبده وكليتيه ، لحم رقيق ، ودم دقيق ، وعظم وثيق ، وفي ماله يليق ، « فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ » [الملك ٣، ٤] ، فسالت حدقتا العائن على خديه ، وقيل في المعنى :

وَعُذُّ بِرَبِّكَ فِي الْإِسْرَارِ وَالْعَلَنِ	الْعَيْنُ حَقٌّ فَلَا تَأْمَنُ مِنَ الْمَحْنِ
يَكُونُ مَا عَاشَ فِي حِفْظِ مِنَ الْفِتَنِ	فَالْإِسْتِعَاذَةُ حِصْنٌ مَنْ يَحُلُّ بِهِ
بِالتَّقْصِ فَاحْذَرُ أَخِي مِنْ سَطْوَةِ الزَّمَنِ	وَأَعْلَمْ بِأَنَّ كَمَالَ الْبَدْرِ مُقْتَرِنٌ
كَمَا يَقُولُ فَصِيحُ الْقَوْلِ ذُو لَسَنِ	وَأَعْلَمْ حَسَانَ عُيُونِ النَّاسِ نَاطِرَةً
وَالْعَيْنُ أَسْرَعُ مَا تَأْتِي عَلَى الْحَسَنِ	عَيْنٌ أَصَابَتْكَ إِنَّ الْعَيْنَ صَائِبَةٌ

فقال يعقوب الكندي لبنيه : « ادخلوا من أبواب متفرقة » أي ليدخل كل واحد منكم من باب منفرد وطريق سوى طريق الآخر ، فإنكم إذا دخلتم متفرقين كان أبعد لكم من إصابة العين ، ثم علم أن ذلك ليس بنافع من الحكم والقدر ، فقال : « وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » [يوسف : ٦٧] أي

(١) أخرج البخاري الشطر الثاني منه ٥ / ٢١٦٧ ، ومسلم ٤ / ١٧١٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٤ / ٢٣٥ ، وابن حبان في صحيحه ٣ / ٢٩١ .

القضاء والتدبير والحكم والمشئمة ، إنما هي لله عز وجل وحده يفعل ما يشاء عليه توكلت ، وفوضت أمري إليه ، وهو حسي ونعم الوكيل ، وقيل في المعنى :

مَا الْحُكْمُ حُكْمِي وَلَا التَّقْدِيرُ تَقْدِيرِي مَا الرَّأْيُ رَأْيِي وَلَا التَّدْبِيرُ تَدْبِيرِي
يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى رَأْيِي وَيَعْذِلُنِي أَنَا الْمُقَادُّ بِأَرْسَانِ الْمُقَادِيرِ

وقيل أيضاً : إنما أراد يعقوب عليه السلام تفريقهم ؛ لأنه كان وصفه له الأعرابي حين لقيه يوسف عليه السلام وقال : أبلغ رسالة المغموم المهموم إلى المكظوم ، وقال : رأيته بمصر ، قيل : نزل عليه عزرائيل عليه السلام ، فقال له : هل قبضت روح يوسف بين الأرواح ؟ فقال : لا ، إنما هو حي واطلبه من ههنا ، وأشار إلى ناحية مصر ، فأمرهم أن يتفرقوا على الأبواب ، ويأخذوا الجناح والطرق ؛ لعل واحداً منهم يلقي يوسف في طريقه ، أو تقع عينه عليه في سيره ، ويعقوب عليه السلام لا يعلم ما خص الله به يوسف من الملك والسلطان والطول والامتنان ، وقيل في المعنى :

لَمْ يَذَرِ يَعْقُوبُ مَا أَوْلَاهُ مَوْلَاهُ مِنْ مُلْكِهِ وَحَبَاهُ مَا تَمَنَّاهُ
أَوْصَى بَنِيهِ بِتَفْرِيقٍ إِذَا دَخَلُوا لَعَلَّ وَاحِدَهُمْ إِنْ سَارَ يَلْقَاهُ
لَمْ يَذَرِ أَنْ إِلَهَ الْعَرْشِ سَائِقُهُمْ طَرًّا إِلَيْهِ لِأَمْرِ دَقِّ مَعْنَاهُ
وَأَنْ يَبْنَى يَدَيْهِ سَوْفَ يُوقِفُهُمْ حَتَّى يُرِيَهُ حَقِيقًا صِدْقَ رُؤْيَاهُ
وَرُبَّ طَالِبٍ أَمْرٍ سَاقَهُ سَبَبٌ أَنْيْلَ مَا رَامَهُ أَوْ مَا تَرَجَّاهُ
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبْ قَدْ جَاءَهُ فَرَجٌ فَظَلَّ يَعْجَبُ مِنْ أَفْعَالِ مَوْلَاهُ
يَا صَاحِبَ الْهَمِّ إِنَّ الْهَمَّ مُنْفَرَجٌ أَبَشِّرْ بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْفَاتِحَ اللَّهُ

ثم أخذوا ولده بنيامين بعد أن شد عليه منطقتة التي كانت لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وناولوه قضيب أخيه يوسف ، ثم ودعه وقبله بين عينيه ، وقال : هكذا فعلتُ بأخيك يوسف ، استودعتك الله رب العالمين ، فلما جاءوا باب مصر تفرقوا ، ودخل كل أخوين من باب ، وبقي بنيامين واقفا وحده عند باب الشام ، لم يدر أين يذهب ، ولم يعرف أحد بلسانه ، فترل جبريل عليه السلام على يوسف ، وقال له : يا يوسف ، قم والبس جلباب الملك ، واركب ناقة ، واقصد باب الشام ، فإن أخاك من أملك وأبيك يسأل كل من مر به وهم لا يعرفون كلامه ، فبكى يوسف

ثم برقع وجهه ، وركب ناقته ، وسار حتى وصل إليه ، وسلم عليه بالعبرانية ، وقال له : فهو سهو سامين ، معناه : من أين أنت ؟ وما تريد ؟ قال : هوسم ، يعني من الشام في طلب الميرة فمن أنت ؟ فما علم بكلامي أحد غيرك ، فقال له يوسف **الطاهر** : أنت في بلاد لم تعرف بالعبرانية ، وقيل في المعنى :

إِنْ كَانَتْ الدَّارُ فِيمَا بَيْنَنَا سَلَفَتْ فَأَنْتُمْ فِي سُوَيْدِ الْقَلْبِ سُكَّانُ
وَاللَّهِ مَا غَيَّرْتَنِي سَلْوَةٌ عَرَضَتْ وَلَا طَوَّانِي عَنِ الْمَحْبُوبِ إِنْسَانُ
وَكَيْفَ أَسْلَاكُمْ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ وَفِي الْحَشَا مِنْكُمْ وَجَدٌ وَنِيرَانُ
لَا تَهْجُرُونَ فَنِّي مَا خَانَ عَهْدَكُمْ فَتَبَلُّغُوا غَرَضَ الْحُسَّادِ لَا كَانُوا

قال : ثم أعطاه سواراً على عضده يساوي خمسة آلاف دينار ، فأخذه بنيامين ولم يدر ما يصنع به ، فعلم يوسف أنه لم يعرفه ، فقال له يوسف : اجعله على عضدك ، ثم قال : تعال معي ، انظر إخوانك ، فدخل الاثنان من باب واحد ، فلما دنا من إخوانه وهم قيام على الباب ، قال له يوسف : امض إليهم فبكي ، وقال : والله ما أشتهي أن أفارقك ، فقد حنَّ قلبي إليك ، ثم راح نحو إخوانه فرحان ، فقالوا : له ما رأيك قط فرحان منذ فارقت أخاك يوسف مثل هذه الساعة ؟ قال : نعم ، وقف بي الساعة راكب على ناقه فكلمني بالعبرانية ، وأعطاني شيئاً من الزجاج ، فقال له يهوذا : أرني هذا الزجاج حتى أنظره ، فأعطاه له ، فقال له : يا أخي ، ما أحسن هذه الزجاج ، دعها في عضدي لثلاث تصبيح منك ، فقال شمعون : يا يهوذا ، أرني أنظرها ، فطلبها يهوذا في عضده ، فلم يجدها ، فقال بنيامين : يا أخي ، قد انتقلت في عضدي ، فأخرجها لشمعون فشدها في عضده ، ثم طلبها فلم يجدها ، فقال بنيامين : يا أخي ، لا تحزن ، ها هي على عضدي ، قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [يوسف : ٦٨] أي ما يعصمهم دخولهم مصر متفرقين من قضاء الله شيئاً حتى ابتلوا بإمساك أخيهم ، وادعاء السرقة عليهم ، إلى غير ذلك مما امتحنوا به ، وقيل : إنه لم يكن قصد يعقوب **الطاهر** القول الأول ولا الثاني ، وإنما كان حاجة في نفس يعقوب قضاها ، أي غصة كانت في قلبه من فراق يوسف ، ثم جاءت غصة أخرى بفراق بنيامين ، فحمله هذان الغمان على أمره لهم بالتفرقة ؛ لأن الغريق يتعلق بما لقي قصداً للنجاة ، وكذلك غريق الهموم يتعلق بكل وجه يظن أنه

يوصله إلى الفرج ، وقد قبل الله عذره ، فلم ينقصه أجره ، ولم يعاتبه على ذلك ، وقال تعالى مخبراً عنه : ﴿ وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٨] . فلما وصلوا إلى مصر أخبر يوسف عليه السلام بقدمهم ووصول أخيه بنيامين معهم ، فسُرَّ بذلك غاية السرور ، وأمر بتزيين مجلسه بالزينة الحسنة ، فزُين وبُخِّر ، وقعد علي سريرته ، وأمر بأواني الذهب والفضة فمُلئت مسكاً وعنبراً وأنواع الطيب ، وصُفَّت الأواني من باب قصره إلى موضع سريره عن يمين وشمال ، ثم أمر بدخولهم ، فلما دخلوا عليه قَدَّمُوا بنيامين من بين أيديهم ليُعلموا الملك بوصولهم معه ، ودخلوا على أثره ، فلما نظر بنيامين إلى تلك الأواني جعل يأخذ الطيب ، ويتمسح به ، فجعل إخوته يلومونه ويزجرونه ، ويقولون له : ما أجهلك ، ألكَ وُضعت هذه الأواني ، ولأجلك مُلئت طيباً ؟ أليس هذا سوء أدب منك ؛ لأنك لم تتعود الدخول على الملوك ، إنما تعودت صحبة الغنم والرعي ، فقال لهم بنيامين : يا إخوتي ، ليس الأمر كذلك ، إنما هذا الملك ملك عزيز ، وهو أعز الملوك وأطيبهم نفساً ، وقد تعود من مي الطيب فتغيره من أدنى رائحة ، ونحن قوم سفارٌ وقد تغيرت رائحتنا ، ففعلتُ هذا لتزول عنا الرائحة الكريهة ، فقالوا له : صدقت ، وأخذوا يتمسحون ويوسف عليه السلام ينظر إليهم وقد امتلأ سروراً وفرحاً ، فلما وقفوا بين يديه نظروا إلى بهاء ملكه ووقار سلطانه وزيادة زيه ، فتعجبوا من ذلك ، فقال بعضهم لبعض : لعل هذا غير الذي كنا لقيناه ؟ قال : فبدأهم الترجمان بالكلام ، وقال : يقول الملك : من أنتم ومن أي بلد جئتم ؟ فقالوا : نحن بنو الأنبياء الذين أمرتنا بالإتيان بأخيها ، فقال : نعم ، عرفتكم ، وأنتم عندي مكرمون ، فهل أتيتموني بأخيكم المذكور ؟ فحينئذ استبشروا ، وعرفوا أنه الملك الذي أرسلهم ، فقالوا : أيها العزيز ، إنا قد امتثلنا أمرك ، ولزمتنا طاعتك وسمعنا ، وأتيناك بأخيها ، ومعنا كتاب من أبيها ، فقال لترجمانه : خذهم ، فأخذه منهم ، وأعطاه ليوسف عليه السلام ، فلما قرأ كتاب أبيه ووجد فيه ما وجد ، أصابه الولوع ، وفاضت عيناه بالدموع ، وقيل في المعنى :

وَأَفَى الْكِتَابُ كَأَنَّ مِسْكَ خَطَّهُ تَبْدُو رَوَائِحُهُ إِذَا يُسْتَنْشَقُ

وَالْيَاسَمِينَ حَكَتْهُ قِطْعَةُ صَفْحَةٍ وَاللَّفْظُ دُرٌّ قَدْ حَكَاهُ الْمَنْطِقُ

فَقَرَّاتِهِ وَمَدَامِعِي مُنْهَلَّةٌ وَالْقَلْبُ مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ يَخْفِقُ

فَكَأَنَّني ظَامٌ تَوَقَّدَ صَخْرُهُ وَكَأَنَّهُ مُزَنٌ مَعِينٌ مُعْدِقُ
يَا كَاتِبًا يَشْكُو بِكَثْرَةِ شَوْفِهِ وَأَنَا إِلَى لُقْيَاهُ مِنْهُ أَشْوَقُ
لَا تَحْزَنَنَّ مِنَ الْبُعَادِ وَقْزَعِهِ فَلَكُمْ بَعِيدٌ بِالتَّوَاصُلِ يُلْحَقُ
وَإِذَا الْمَقَادِرُ سَاعَدَتْ لِمُقَدَّرٍ فَلَهُ مِنَ الضِّيقِ التَّوَسُّعُ يُخْلَقُ

إخواني ، ما كل مَنْ دخل حصل ، ولا كل من دنا وصل ، رب دان وهو بعيد ، ومواصل وهو شريد ، دخل إخوة يوسف عليه جماعة ولم يصل إلا واحد ، كذلك من دخل في طريق المعرفة وميدان الخدمة ، فالداخل كثير والواصل قليل ، ولهذا أصاب قلوب المحققين الدهول حتى كابدهم السقم والنحول ، والله در قائلهم إذ يقول :

خَلِيلِي قُطَّاعُ الْفَيَافِي إِلَى الْحِمَى كَثِيرٌ وَإِنَّ الْوَاصِلِينَ قَلِيلُ
وُجُوهٌ عَلَيْهَا لِلْقُلُوبِ عِلَامَةٌ وَلَيْسَ عَلَى كُلِّ الْوُجُوهِ قَبُولُ

قال أحد السادة : رأيت ليلة كأني في مسجد الشونيزية ، وفيه رجلان أحدهما قائم ، والثاني مضطجع نائم ، ورأيت إبليس واقفاً بالباب يريد الدخول فلا يقدر فقلت له : مالك لا تدخل ؟ قال : إني لا أقدر ، قلت : ولم ؟ قال : كلما أردت أن أدخل لوسوسة القائم أحرقتني أنفاس النائم . عجباً لإخوة يوسف دخلوا داره ولم يعرفوه ، وكذلك دخلت الملحدة دار التوحيد ولم يعرفوا الموحد ، فتأهوا في بيده التحديد ، ووقفوا مع الفكر والتبليد ، وقيل في المعنى :

عَجِبْتُ لِمَنْ أَفْهَمُهُ فَيَعِيَا عَنْ الْمَعْنَى أَكْرَرَهُ مَرَارَا
وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَانَ بَغَيْرِ قَلْبٍ فَكَيْفَ يَرَى بَعَيْنَيْهِ الثَّمَارَا

(حكاية) : قال سيدي إبراهيم الخواص : طالبتني نفسي في وقت من الأوقات بالخروج إلى بلاد الروم ، فخوفت نفسي فلم تلتفت إلى الخوف فلم تكف ، وعملت على نفي الخاطر فلم ينتف ، فخرجت أحترق ديارها وأجول أقطارها ، والعناية تكتنفني ، والرعاية تلحظني ، لا ألقى نصرانياً إلا غض نظره عني ، وتباعد مني ، إلى أن أتيت مصرأ من الأمصار ، وإذا عند باب البلد عبيد ورجال على رؤوسهم الأسلحة وبأيديهم المقامع ، فلما رأوني قاموا إلي وقالوا : طبيب أنت ؟ قلت : نعم ، قالوا : أجب الملك ، فاحتملوني إلى ملك عظيم ، ذي وجه وسيم ،

فلما نظر إليَّ قال : أطيب أنت ؟ قلت : نعم ، قال : احمِلوه إليها ، وعرفوه بالشرط قبل دخوله عليها ، قال : فأخرجوني ، وقالوا : إن للملك ابنة ، وقد أصابها اعتلال شديد ، وقد أعيا الأطباء علاجُها ، وما من طيب دخل عليها وعالجها ولم يُفد طبه إلا قتله الملك ، فانظر لنفسك ! فقلتُ : إن الملك ساقني إليها ، فأدخلوني عليها ، فاحتملوني إلى بابها ، فلما قرعوه إذا هي تنادي من داخل الدار : أدخلوا الطيب ، فلي وله سر عجيب ، وقيل في المعنى :

اَفْتَحُوا الْبَابَ فَقَدْ جَاءَ الطَّيِّبُ وَانْظُرُوا نَحْوِي فَلِي سِرٌّ عَجِيبُ
فَلَكُمْ مُقْتَرَبٌ مُبْتَعِدٌ وَلَكُمْ مُبْتَعَدٌ وَهُوَ قَرِيبُ
كُنْتُ فِيمَا بَيْنَكُمْ فِي غُرْبَةٍ فَأَرَادَ الْحَقُّ اُنْسِي بِغَرِيبِ
جَمِيعَتِنَا نِسْبَةً دِينِيَّةً فَتَرَاءَيْنَا مُحِبٌّ وَحَبِيبُ
وَدَعَانَا لِلتَّدَانِي دَاعِيً حُجِبَ الْغَافِلُ عَنَّا وَالرَّقِيبُ
فَاثْرُكُوا عَذْلِي وَخَلُّوا لَوْمَكُمْ اِئْنِي يَا وَيْحَكُمْ لَسْتُ اُجِيبُ
لَسْتُ اَلْوَى نَحْوِ فَاِنْ غَائِبٍ اِنَّمَا قَصْدِي بَاقٍ لَا يَغِيبُ

قال : فإذا شيخ كبير قد فتح الباب بسرعة ، وقال : ادخل ، فدخلتُ ، وإذا بيت مبسوط بأنواع الرياحين ، وإذا سترٌ مضروب في زاوية من زواياه ومن خلفه أين ضعيف يخرج من هيكلي نحيف ، فعدتُ بإزاء الستر ، وأردتُ أن أسلم ، فذكرتُ قوله ﷺ : « لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام ، فإذا لقيتموهم في طريق اضطروهم إلى أضيقه » ^(١) ، فأمسكت ، فنادت من خلف الستر : أين سلام التوحيد والإخلاص يا إبراهيم يا خواص ؟ فعجبتُ من ذلك ، وقلتُ : من أين عرفتني ؟ فقالت لي : إذا صفت القلوب والخواطر أعربت الألسن عن مخبات الضمائر ، سألته البارحة أن يقيض لي ولياً من أوليائه يكون لي على يديه الخلاص ، فنوديتُ في زاوية بيتي : لا تحزني ، إنا سنرسل إليك إبراهيم الخواص ، فقلتُ لها : وما خبرك ؟ فقالت لي : منذ أربع سنين قد لاح لي الحق المبين ، فهو المحدث والأنيس ، والمقرب والجليس ، فرمقني قوم بالعيون ، وظنوا بي الظنون ، ونسبوني إلى الجنون ، فما دخل عليَّ طيب منهم إلا أوحشني ، ولا زائر إلا أدهشني ،

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٢ / ٣٥٤ ، والبخاري في الأدب المفرد ١ / ٣٧٨ ، والبيهقي في الكبرى ٩ / ٢٠٣ .

فقلتُ : وَمَنْ ذلكَ على ما وصلتَ إليه ؟ قالتُ : براهينه الواضحة وآياته اللائحة ، وإذا أوضح لك السَّيْلَ شاهدتَ المدلول في الدليل ، قال : فبينما أنا أكلمها ، وإذا بالشيخ الموكل بها قد دخل ، فقال لها : ما فعل طبيبك ؟ فقالت : عَرَفَ العلة وأصاب الدواء ، فظهرت عليه البشرى والسرور ، وقابلني بالبر والحبور ، وسار إلى الملك وأخبره ، فحضره على إكرامي ، فبقيتُ أختلف إليها سبعة أيام ، فقالت لي : يا أبا إسحاق ، الهجرة إلى دار الإسلام ، فقلت : وكيف يكون خروجك ؟ ومن يتجاسر عليه ؟ فقالت : الذي أدخلك عليَّ وساقك إليَّ ، فقلتُ : نعمَ ما قلت ، قال : فلما كان من الغد خرجنا على باب الحصن ، وحجبَ عنا العيون مَنْ ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، فما رأيتُ أصبر منها على الصيام ، وآدبَ منها على القيام ، وجاورتُ بيتَ الله الحرام سبعة أعوام ، ثم قضتُ نحبها ، ولحقتُ برها ، وبمكة قبرها ، رحمة الله عليها ، وقيل في المعنى :

وَلَمَّا أَتَوْنِي بِالطَّبِيبِ وَقَدْ بَدَتْ	دَلَائِلُ مِنْ دَمْعِ سَفُوحٍ وَمِنْ سَقَمٍ
نَضًا الْبُرْدَ عَنْ وَجْهِهِ فَلَمْ يَرَ تَحْتَهُ	سِوَى نَفْسٍ مِنْ غَيْرِ رُوحٍ وَلَا جِسْمٍ
فَقَالَ لَهُمْ : دَاءٌ تَعَذَّرَ طِبُّهُ	وَلِلْحُبِّ سِرٌّ لَيْسَ يُدْرِكُ بِالْوَهْمِ
أَرَى أَثَرًا لِلنَّصْلِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ	يَقِينًا وَلَكِنْ لَسْتُ أَعْرِفُ مَنْ يَرْمِي
سَلُوهُ عَنِ السَّهْمِ الْمُصِيبِ فَوَادَهُ	عَسَى سِيْمَةُ الرَّامِي تَلُوحُ عَلَى السَّهْمِ
فَقَالُوا : سَأَلْنَاهُ فَلَمْ نَرَ عِنْدَهُ	مَعَ الْبَحْثِ وَالتَّفْتِيشِ شَيْئًا سِوَى الْكَثَمِ
فَقَالَتْ : إِذَا لَمْ يَعْلَمْ النَّاسُ مَا بِهِ	وَلَمْ يُعْرِفِ الرَّامِي بَعِينَ وَلَا بِاسْمِ
فَكَيْفَ يَكُونُ الطَّبُّ فِيهِ مُؤْتَرًّا	دَعُونِي فَإِنِّي لَسْتُ أَحْكُمُ بِالْوَهْمِ

المجلس الخامس عشر

في قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص : ٢٩] .

الحمد لله الذي أنبع من عيون جفون المحبين الباكين من خشيته دموعاً غزيراً ، وأجرى في قلوب ألباب الأحباب من الوله والشوق جداول وأنهاراً ، وجَدَّدَ في أسرار أفكار المريدين من الوجد والتَّوق أنواراً ، وأنبَتَ في ضحضاح بطاح سراح صدور الحقيقين من أزهار التوكل والإخلاص والتواصل والاختصاص أنهاراً ، وأمطر عليها من عجائب سحائب غرائب مواهب كرمه غيثاً مدراراً ، فأينعت الأزهار ، وأورقت الأشجار ، وغردت الأطيَّار على أفنان الأغصان بالتسبيح سرّاً وجهاراً ، وقام الوردُ يتباهى على الجلنار ويفتخرُ افتخاراً ، واشتاتت الشقائق إلى النسرين والبنفسج فحنت ورنت وبكت بدمع ينحدرُ انحداراً ، فسبحان مَنْ أنعم بنعمته وجاد برحمته على بريته ، ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : ٢] اعتباراً ، فجَرَّ أنهاراً ، وأنبَتَ أشجاراً ، وجعل فيها من أنواع المطاعم والحبوب والألوان والمنافع ما يجب شكره على العباد ليلاً ونهاراً ، وأخرج موسى من مَدِينِ والشوق لأمة قد أذكى في صدره جماراً ، فأهَّلَهُ لكلامه وخصَّه بإنعامه وأقام له مناراً ، فقال مَنْ لم يزل واحداً قهاراً : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ [القصص : ٢٩] ، أحمده على نعمه سرّاً وجهاراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مُقرِّ بوحانيته إقراراً ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحببيه وخليله الذي استخلصه من نبعة العز مختاراً ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين نهجوا آثاراً وبذلوا إيثاراً ، صلاة تقيم لها في القيامة مناراً ، وقيل في المعنى :

وَلَمَّا وَرَدْنَا حَانَةَ الْقَسِّ زُوَّارًا وقد أشعل التوحيد في القلب أنواراً
ولاحت لنا شمسُ الحقيقة في الدجى فأبدت على النفس النفيسة آثاراً
ونادى بطورِ القلب هاتفُ حبه ليقتبس المدعو من قربنا ناراً

نَزَّلْنَا عَلَيْهِ وَهَوَىٰ فِي دَارِ دِيرِهِ
وَيَعْلَنُ بِالْإِنْجِيلِ فِي أَهْلِ جِيلِهِ
كَأَنَّ مَقَامَاتِ الْمَعَارِفِ مَلَكُهُ
فَلُذْنَا بِهِ نَبْتَاعُ مِنْهُ مُدَامَةً
فَقَالَ لَنَا : مَنْ أَنْتُمْ لَا عِدْتُمْ
فَقُلْنَا : أَتَيْنَا نَبْتَغِي مِنْكَ خَمْرَةً
فَسَاوِمٌ وَخُذْ مَا شِئْتَ فِيهَا فَإِنَّا
فَقَالَ لَنَا : عِنْدِي بَقَايَا مُدَامَةٍ
بِهَا هَامَ سِرُّ الرُّوحِ مِنْ رُوحِ آدَمَ
وِخَصَّصَهُ بِالْقُرْبِ مِنْهُ كَرَامَةً
وَمِنْ أَجْلِهَا نُوحُ أَطَالَ نُوَاخُهُ
وَصَعَقَ ابْنُ عِمْرَانَ بِهَا كَانَ فَاعْلَمُوا
وَأَحْيَا بِهَا الْأَمْوَاتَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
وَأَلْبَسَ خَيْرُ الْخَلْقِ مِنْهَا طُلَاوَةً
فَمَا نَقْدُهَا فِي مَهْرٍ رِقِّ صَفَائِكُمْ
فَهَيِّمَ إِعْجَاباً وَجَاءَ بِقَهْوَةٍ
وَلَا حَ لَنَا السَّاقِي تَنْزَةً وَجْهَهُ
فَقَالَ لَنَا : أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا
أَلَا فَاشْرَبُوا كَأْسًا مِنَ الْوُدِّ مُتْرَعًا
فَغَبِنَا بِهِ عَنْ كُلِّ فَنٍّ وَمُحَدَّثٍ
قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ
يُرْجِعُ الْحَنَاءَ وَيَضْرِبُ أَوْتَارًا
وَيَقْرَأُ تَوْرَةً لِمَنْ ضَلَّ أَوْ حَارَا
فَبَيْنَ يَدَيْهِ يَرْفَعُ الْجَحْدُ إِقْرَارًا
وَنَلِثُمْ إِعْظَامًا مِنَ الدَّيْرِ أَحْجَارًا
فَقَدْ آنَ إِكْرَامُ الْمَزُورِ لِمَنْ زَارَا
تَخَامَرُ أَلْبَابًا وَتُدْهَشُ أَفْكَارَا
أَتَيْنَاكَ وَالْمَحْجُوبُ لَمْ يَذَرِ مَا دَارَا
وَقَدْ عُمِّرَتْ قَبْلَ الْمَلَائِكَةِ أَعْمَارَا
فَنَعَمُّهُ السَّاقِي وَأَسْكَنَهُ الدَّارَا
وَصَيَّرَهُ مَا بَيْنَ أَمْلَاكِهِ جَارَا
وَبِرْهَامٍ فِي ذَنْ التَّصَابِي بِهَا دَارَا
لَأَنَّ سَنَاهَا غَادَرَ الْقَلْبَ طَيَّارَا
وَأَظْهَرَ دِينَ الْحَقِّ فِي الْأَرْضِ إِظْهَارَا
فَفَجَّرَ مَا بَيْنَ الْأَصَابِعِ أَهَارَا
فَقُلْنَا : أَلْفَنَاهَا جِهَارًا وَإِسْرَارَا
تَرَوْحُ لَهَا الْأَرْوَاحُ حُبًّا وَإِثَارَا
عَنِ الْمِثْلِ وَالتَّشْبِيهِ قُدْسًا وَإِكْبَارَا
فَمَا زَلْتُمْ عِنْدِي كَرَامًا وَأَبْرَارَا
حَبَاكُم بِهِ رَبُّ تَعَاظَمَ قَهَارَا
وَمَنْ هَامَ بِالسُّكَّانِ لَمْ يَلْحَظِ الدَّارَا

الطُّورِ نَاراً» [القصص : ٢٩] ، اعلم أن أربعة نفر خرجوا لأربعة أشياء ، فوجدوا أربعة أشياء : يوسف خرج للزَّهة في البرية ، فوجد العبودية ، وبلقيس خرجت تنظر إلى ملك سليمان ، فوجدت معرفة الرحمن ، وطالوت خرج يطلب الحمار ، فوجد النُّصرة والظَّفَرَ على الكفار ، وموسى خرج يقتبس النار ، فوجد كلام الملك الجبار ، خرج للاصطلاء فانسدلت الظلمة ، وأصاب زوجته الطلق ، وقعقع الرعد ، وأبرق البرد ، فاشتد عليها البرد ، فطلب النار ، فضرب زناده ، والشوق إليه قد ألهب فؤاده ، فشح الزناد بناره ؛ ليظهر أثر فقر موسى واضطراره ، فسار وهو منظور وقد اشتدت عليه الأمور ، فلاح له الإشراق من الطيور ، فأقبل وهو يرى اقتباسها غاية المنى ، فما وصل إلا وقد أدركه التعب والعناء ، فنودي : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ [طه : ١٤] وقيل في المعنى :

أيها العبدُ كُنْ لِمَا لَا تُرْجِي منك أَرْجَى عَلَى الَّذِي أَنْتَ رَاجِي
إِنَّ مُوسَى مَضَى لِيَقْبِسَ نَاراً مِنْ ضِيَاءِ رَأَى وَاللَّيْلُ دَاجِي
فَأَتَى أَهْلَهُ وَقَدْ كَلَّمَ اللَّهَ وَنَاجَاهُ وَهُوَ خَيْرُ مُنَاجِي
وَكَذَا الْكَرْبُ كُلَّمَا اشْتَدَّ بِالْعَبْدِ سَدَّ ذَنْتَ مِنْهُ سَاعَةُ الْانْفِرَاجِ

فعندما سمع كلام ربه كثر خفقان قلبه ، ولما بدت منه الغيبة شغل بذكر العصا عن الهيبة ، ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه : ١٧] ، قيل : فما الحكمة في أنه قال : يمينك ، ولم يقل : بيدك ؟ قالوا : لثلاثة أقوال : أحدها أنه كان في يسار موسى خاتم ، فلو قال : وما تلك بيدك لأشكل عليه الجواب ، الثاني أنه ذكر اليمين لفضيلة أصحاب اليمين ، الثالث لما جعل عصاه يمينه صارت له شرفاً وفضيلة ، فكذلك مَنْ أُعْطِيَ كتابَهُ يمينه ، فإن قيل : فما الحكمة في أنه سأل عن العصا وهو عالم بها ؟ قيل : لثلاثة أشياء : أحدها أنه أراد تعليم المعلمين كيف يدربون التلامذة للسؤال ، وينبئوهم عن التعليم ليهتدوا به من الضلال ، الثاني بين شففته سبحانه للعاصين ، كأنه يقول : سألت موسى عن العصا وأنا أعلم بها ، كذلك أسألكم يوم القيامة عن الذنوب ، فلا تخافوا ، فأنا عالم بها ، وأنا اليوم أغفرها لكم ، الثالث قيل : لما تحيَّرَ موسى من هيبة الكلام آنسه بسؤاله عن العصا في ذلك المقام ، كما رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « لما كانت الليلة التي أُسْري بي

فيها وقف جبريل عليه السلام في مقامه ، ثم دفعني ، فقال : ها أنت وربك ، فغبتُ عن تحية كل ملك وكلامه ، وصرتُ بمقام انقطعتُ عني فيه الأصواتُ ، وتساوى عندي فيه الأحياءُ والأمواتُ ، اضطربَ قلبي وتضاعفَ كربِي ، فسمعتُ منادياً يُنادي بلغة أبي بكر : قفْ يا محمد ، فإن ربك يُصلي ، فشغلني ما سمعتُ عما كنتُ فيه ، وقلتُ : كيف يُصلي ربي ، وإنه لغني عن الصلاة لأحد ؟ وكيف بلغ أبو بكر هذا المقام ، فقال الله عزَّ وجل : يا محمد ، أنا الغني أن أصلي إلى أحد ، وإنما صلاتي أن أقول : سبحاني سبحاني ، اقرأ يا محمد : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ، صلاتي رحمةً لك ولأمتك ، وإنما سماعك صوت أبي بكر ، فإن أحاك موسى لما جاء إلى جبل الطور ، وعانين ما عانين من عظم ، أذهله ما رآه عما يُلقى إليه ، فشغلته عن الهيبة بذكر أحب الأشياء إليه ، وهي العصا ، فقلتُ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه: ١٧] ، ولما كان أبو بكر أحب الأشياء إليك خلقتُ باسمه ملكاً» ^(١) ، وقول موسى عليه السلام : ﴿ وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى ﴾ [طه: ١٨] اختصار للكلام ، قيل : كان له في العصا ألف معجزة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أيُّ الأجلين قضى موسى ؟ فقال : ما أدري ولم يُوحَ إليَّ في ذلك شيء ، وسأسلُ جبريل ، فأتاه جبريل ، فقال : يا جبريلُ ، أيُّ الأجلين قضى موسى ؟ فقال : لا أدري ، وسأسلُ إسرافيلَ ، فسأله ، فقال : لا أدري ، وسأسلُ ربَّ العالمين ، فسأل ربه ، فقال : يارب ، هذا جبريل يسألني ، وقد سأله نبيُّك محمدٌ : أيُّ الأجلين قضى موسى ؟ فقال الله عز وجل : يا إسرافيلُ ، قلْ لجبريل يخبر نبيي محمداً أن موسى قضى أحسنهما وأتمهما عشر سنين ، إن الأنبياء إذا وعدت لم تخلف ، وكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا سُئل عن ذلك يقول : أخبرني جبريلُ ، عن إسرافيلَ ، عن الله عز وجل ، أن عبده موسى قضى أتم الأجلين عشراً » ذكره وثيمة وغيره . قال وهب بن منبه : لما عمد موسى نحو النار التي رآها ، وانطلق يؤمُّها ، فلما وصل إليها رأى ناراً عظيمةً تخرج من جذع شجرة خضراء شديدة الخضرة ، يقال لها : العليق ،

(١) لم أقف عليه ، ولوائح الوضع بادية عليه .

وقيل : كانت شجرة العُتَاب ، وقيل : عوسجة ، لا تزداد النار فيما يرى إلا اضطراباً ، ولا تزداد الشجرة مع كثرة الحريق إلا خضرةً وتنعماً ، فلما رأى ذلك من أمرها تعجّب ، ولم يدر ما يصنع ، غلبه أمرها إلا أنه غلبه في قوله إنما يمنعها من الإحراق شدة خضرتها وكثرة مائها ، فوقف يرجو أن يسقط منها شيء ، فلم يسقط شيء ، فلما طال عليه ذلك أخذ ضعفاً من الحطب الرقيق ، وأهوى به ليقبس منها فمالت عليه ، فهرب حتى أبعد ، ثم عاد إليها ، فمالت عليه كأنها تريده ، فما زال يفعل ذلك مراراً حتى خمدت واستترت في الشجرة حتى كأنها لم تكن قبل ذلك ، فزاد تعجباً ، وجعل يطوف بالشجرة يميناً وشمالاً ، وقيل : إن لهذا شأنًا ، ووضع أمرها على أنها مأمورة أو مصنوعة ، إلا أنه لا يدرى بما أمرت ولا من أمرها ، فوقف متحيراً ، لا يدرى يرجع أم يقيم ، ثم نظر إلى فرعها فإذا لها خضرة ساطعة تشرق منها دياحي الظلم ، ثم لم تزل الخضرة تستنير وتبيض حتى عادت نوراً ساطعاً ما بين السماء والأرض ، لها شعاع كشعاع الشمس تكل دونه الأبصار ، فلما نظر إليها كادت تحطفُ بصره ، فغمض عينيه بثوبه ، ولصق بالأرض ، واشتدَّ رعبه ، وطار قلبه ، وسمع دويًا لم يسمع السامعون مثله ، فلما اشتدَّ عليه الأمر وكاد عقله أن يخالط ، نُودي : يا موسى ، فأسرع الإجابة استئناساً بالكلام ، وجعل يقول : لبيك لبيك ، قد سمعتُ كلامك ، فأين أنت ؟ قال : أنا فوقك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، وأمامك ، وخلفك ، وأقرب إليك من حبل الوريد ، ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] وقيل : إن إبليس - لعنه الله - عرض له عند انصرافه ، وقال له : يا موسى ، هذا الذي يكلمك هو ربك أم غيره ؟ قال : بل هو ربي ، لا إله إلا هو ، قال : ومن أين تدري ذلك ؟ قال : أعرفه بأربعة أشياء : **أحدها** أن كلام البشر يُسمع من جهة واحدة ، وهذا أسمعته عن اليمين والشمال والخلف والأمام . **والثاني** أن كلام البشر يُسمع من الأذن ، وهذا كلام صارت كل جارحة في أذنا . **الثالث** أن كلام البشر هو بصوت له حروف تنقطع ، وهذا لا مقطوع ولا حروف له . **الرابع** أن كلام الخلق لا يوجد له دهشة ولا طرب ، وهذا قد أطربني وأدهشني ، وقيل :

لاحت النارُ في ذرى الأطوادِ

متراً بين نخلِ ذاك الوادي

الخيامَ الخيامَ وسطَ الوهادِ

هذه الدارُ فالتمسُ يا خليلي

وتجسّسُ مِنْ سَاكِنِي بَيْتِ لَيْلَى
فَلَكُمْ لَيْلَةٌ أَتَيْتُ إِلَيْهَا
عِنْدَمَا أَسْفَرْتُ تَبَدَّى ضِيَاءُ
وَدَعْتَنِي لَهَا فَصَارَتْ عِظَامِي
عَجَبَ الْعَاذِلُونَ مِنْ فَرْطِ شَوْقِي
فَأَنَا كَالْغَرِيقِ فِي لُجٍّ بَحْرِ
يَا أَهْيَلَ الْحِمَى مَلَكْتُمْ قَلْبِي
وَتَرَكْتُمْ صَبَابَتِي وَوُلُوعِي
كُلُّ مَا تَفْعَلُونَهُ فَهَوَ سُؤْلِي
هَلْ أَقَامُوا عَلَى شَفِيرِ الْوَادِي
وِظْلَامُ الدَّجَى عَلَى الْكَوْنِ بَادِي
دُونَهُ الشَّمْسُ إِذْ تَلَوْحُ بِنَادِي
مِسْمَعًا مَصْغِيًّا يَجِيبُ الْمَنَادِي
لَحْيِبِ قَرَارُهُ فِي فَوَادِي
يَكْثُرُ الشَّرْبُ وَهُوَ ظِمَانُ صَادِي
وَسَلَبْتُمْ تَصْبِرِي وَرُقَادِي
وَنَحْيِي وَغَرِيبِي وَسُهَاةِي
لَا أَبَالِي إِذَا بَلَغَتْ مُرَادِي

وقيل : إن سبب سؤال موسى ﷺ النظر إلى ربه عز وجل أن إبليس - لعنه الله - لما عَرَضَ له ، ولم يعلم أنه إبليس ، فقال : يا موسى ، إن كنت تزعم أنه ربك الذي كَلَّمَكَ ، فسله النظر إليه ؟ هل أحد يخاطبه مولاه ، ولم ينظر إليه ، ولا يراه ؟ فكان من أمر سؤاله ما كان ، فاعترض له بعد ذلك ، فعلم أنه إبليس ، فقال له موسى : يا لعين ، لأجل عدم سجودك لآدم والكبر والهوى رَضِيتَ بالدنيا عوضاً ، وتركتَ دَارَ الْبَقَاءِ وَجَنَّةَ الْمَأْوَى ، وَتَتَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى ، ثُمَّ لَا تَمُوتُ فِيهَا وَلَا تَحْيَا ، فقال : يا موسى ، سَلْ مُوَلَاكَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيَّ ، فلما ناجاه قال : يا رب ، أنت أعلم ، قال : يا موسى ، إن أراد التوبة فليسجد لآدم ، فلما لقيه بلغه أمر ربه ، فقال : هيهات ، أنا ما سجدتُ له وهو حي ، أسجد له وهو ميت ؟ ! فقال له موسى : تَبَّأَ لَكَ وَسُحْقًا ، أنتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَقًّا ، فقال : يا موسى ، إذا كان يوم القيامة ، وأمر بي ربي إلى النار ، قلتُ كلماتَ بَهْنٍ يُدْخِلُنِي رَبِّي الْجَنَّةَ ، قال : فَأَثَّرَ كَلَامُهُ فِي خَاطَرِ مُوسَى أَثَرًا ، فلما ناجاه مولاه ، قال : يا موسى ، زعم اللعين أن يدخل الجنة بكلمات يقولهن ، ليس كما يزعم ، إنما أنسيه إياهن يوم القيامة ، وفي حال إبليس وحال مباشرة الظلمة أنشد بعضهم :

قُلْ لِلَّذِينَ شَرَوْا دُنْيَا بَآخِرَةٍ
بَاعُوا جَلِيلًا جَمِيلًا بَاقِيًا أَبَدًا
لَمْ يَرْجُحُوا فِي اقْتِرَافِ الذَّنْبِ بَلْ خَسِرُوا
بِدَارِسِ طَامِسٍ يَا بَشَسَ مَا أَتَجَرُّوا

واعلم أن أهل المعرفة - وإن وجدوا وصال المحبوب - لا يجدون لذة الوصال إلا بعد سماع المقال : ﴿ يَا عِبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف : ٦٨-٧٠] ، اللهم اجعلنا منهم يا مَنْ إذا أراد شيئاً فإنما يقول له : كُنْ ، فيكون ، كما أن موسى لم يجد من رؤية النار لذة إلا من قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] ؛ ألا ترى أن الصديق لم يصل إخوته إليه حقيقة ولم يجدوا لذة الوصال إلا بأخيه الأمين بنيامين ؛ لأنه علم الوصال بمقال المواصل له : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ [يوسف : ٦٩] ؛ وذلك أنهم لما دخلوا عليه ، وكلموه أمر بإنزالهم على حسب ما تقدم ، فبعد أيام قلائل أمر بعمل طعام جميل ، فصنع وجعل لديه ، وأجلسوا على الموائد في عز وشرف وكرامة ، والولدان والوصائف وقوف على رؤوسهم بأنواع الأشربة وألوان الزينة ، فلما أرادوا التناول قال الترجمان : إن الملك يأمركم أن يجلس كل أخوين منكم من أم وأب على صحيفة ، فاقتحم كل أخوين منهم على مائدة ، وبقي بنيامين وحده ؛ لأنه لم يكن له شقيق إلا يوسف عليه السلام ، فتأخر عن الطعام ، وجادت أجفانه بالدموع السحاج ، ونادى : واحسرتاه لفراقك يا يوسف ، ولم يدر أن الذي يبكي على فراقه قد جرى القدر بدونه وتلاقيه ، وقيل في المعنى تخميساً :

فؤادي والأحشاء تحنو عليهم وأسرار فكري باديات لديهم

وقلي وروحي ذا وذا في يديهم ومن عجب أني أحن إليهم

وأسأل شوقاً عنهم وهم معي

وتلحظهم نفسي بعين ودادها وتجعل ذكراهم أجل مرادها

وتشتاق رؤياهم وهم في فؤادها وتبكيهم عيني وهم في سوادها

ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

لقد ملكوا قلبي كما شاءه الحب وفيهم تساوى عندي القرب والبعد

فصدري لهم أفق وأوجههم شهب وما لي مما شفني غيرهم طب

وَذَكَرَهُمْ أَنَسِي لِقَلْبِي وَمِسْمَعِي

وقد زاد شوقي بعدهم وتولعي فزذ يا عذولي في الملامة أو دَع

فأها لأيام تَقَضَّتْ بَلَعْلَع فيا عيني العبراء فيضي بأدعمي

ويا كبدي الحرأ عليهم تَقَطَّعِي

يناديكم من جسمه طار كالهبا وأجفائه تسقي الأباطح والرُّبا

وما زال عما قد عهدتم ولا صبا عليكم سلام الله ما هبت الصبا

وما حن مشتاق لألف مؤدع

قال : فلما سمع يوسف مقاله ، ورأى حاله ، أشفق عليه ، وأقبل بكليته إليه وقال : ما لك يا غلام تأخرت عن الطعام ؟ فقال : أيها الملك ، أمرت أن يقعد كل أخوين شقيقين من أم وأب على مائدة ، وكان لي أخ يُسمى : يوسف ، كنا شقيقين من أم وأب ، فقدته ولا أدري أحي هو أم ميت ، فلما ذكرته تجددت أحزاني ، وتحركت أشجائي ، ثم صاح ، وضُعق ، وأغشي عليه ، ووقعت الصيحة في منزل يوسف ، فما ظن إلا أنه مات أحد العبرانيين ، وقيل في المعنى :

رعى الله أحباباً هم ودَّعُوا أَسَا وقد غرسوا أشواقهم عندنا غرسا

ولو أن نفسي أنصفت في ودادها وقد مسها في فقدهم بعض ما مسّا

لفاضت ولم تلبث فواق حلوبة وباعت طويل العمر من بعدهم بخسا

قال : فترل يوسف عن سريره ، والبرقع على وجهه ، ورفع رأس بنيامين ، وجعلها في حجره ، وأقبل يساعده في البكاء حتى أفاق ، فقام يوسف ، وأمر الخدم أن يحملوه إلى السرير ، فحملوه ووضعوه إلى جنبه ، ثم أمر بإحضار مائدة مرصعة بالجوهر ، فوضعت بين أيديهما ، ثم أمر الخدم أن يحملوا من ألوان الأطعمة ما يليق بالملوك ، وليس هذا من باب الفخر والتعظيم ، إنما كان قلبه ﷻ أرق من قلب الفقير الصعلوك ، وإنما القصد لئلا تُنتهك عند العامة حرمة ، ولكي لا يفقه إليه إخوته ، فلما وضعت المائدة بين أيديهما قال كما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ [يوسف : ٦٩] ، معناه في الظاهر : إن كنت منفرداً فأنا لك كالأخ ،

فجعل يأكل معه ، فعظم ذلك على الإخوة ، وقال بعضهم لبعض : انظروا إلى ابني راحيل : الأول - يعنون يوسف - قال : أنتم عبيدي ، وهذا يأكله مع الملك إذا رجع إلى كنعان يفتخر علينا ، ويقول : جلست مع الملك على سريريه ، وأكلت معه . يا هذا ، إذا رأيت الأخ يحسد أخاه فلا عجب ، هذا ، وهؤلاء الإخوة هم أولو المناصب والرتب ؛ ثم أقبل يوسف على أخيه بنيامين يشغله بالحديث عند الأكل ، وهذا هو المستحب عند ذوي الفضل لكي يُطيلوا الأكل ، فقال : يا فتى ، ألك زوجة ؟ قال : نعم ، قال : ألك أولاد ؟ قال : نعم ، ثلاثة أولاد ذكور ، قال : يا فتى ، ما اسم الأول ؟ قال : ذئب ، قال : ولم ؟ قال : لأن إخواني زعموا أن أخي يوسف أكله الذئب ، فأنا أحبُّ أن أذكره ، قال : والثاني ، قال : سمَّيته دماً ، قال : ولم ؟ قال : لأن إخواني جاءوا بقميصه وهو متلطخ بالدم ، فأنا أحبُّ أن أذكر ذلك ، قال : فما سميت الثالث ؟ قال : يوسف ، قال : لم ؟ قال : لثلاث يندرس اسمه من فمي ، فاهتز الصديق لمقالة أخيه ، حتى همَّ أن يُبيح بالسُّرِّ ويُفشيهِ ، وأنشد لسان الحال فيه :

وكم في رياض الحسن لي من مفاضة	أسر بها نجواي حيناً وأجهرُ
إذا نفحتُها نفحةً من تنفسي	سقتها دموعي فهي تندى وتقطرُ
فهذا مصيفٌ حين يحمى ويلتطي	وهذا ربيعٌ حين يهمي ويعطرُ
أعلل نفسي إن حلت برؤيه	بذكركم والشيء بالشيء يُذكرُ
فقلبي عليكم بالتذكر ينطوي	وعيني إليكم بالتخيل تنظرُ
أراني أراكم حيث كنتُ بناظري	وقلي وأنتم غائبون وحُضرُ
وما أنتم مني بحيثُ أراكم	ولكن قلبي عن حمى الحب يبصرُ

ثم قال يوسف : قم يا فتى معي إلى البيت لأخلو معك فيه ، فقام معه حتى دخل البيت ، وأرخى الستور ، وكشف البرقع ، وأزال النقاب ، وأظهر ما هو مستور ، وقد لاح علم السرور ، ثم قال : أتعرفني ؟ فقال : أرى وجهاً جميلاً يشبه وجه حبيبي يوسف ، قال : أنا أخوك وقرّة عينك يوسف ، فاعتنقا وبكيا ، وضجت الملائكة في السماء ، وخرَّ بنيامين لله ساجداً ، وغشي عليه من شدة الفرح ، يا لها من فرحة ، ما أعظمها بعد تلك الكروب ، وتماها إذ اجتمع الشمل بابني يعقوب ،

ثم قال الصديق : لا تخبرهم بما ألقى إليك ، (فلا تبتسئ) ، أي فلا تحزن ولا تغتم بما كانوا يعملون من الحسد لنا وصرف وجه أيينا عنا ، وأريد أن أحبسك عندي ، وأكد مكيده في ذلك فلا تحزن ، إن مع العسر يسراً ، وإن النصر مع الصبر ، والله عاقبة الأمور ، ومن صبر احتساباً نال يسراً ، قال : فخرج بنيامين من عند أخيه وقد امتلأ سروراً وطرباً ، فلقى إخوته وهم يغبطونه بأكله وخلوته مع الملك ، ويقولون : هنيئاً لك يا بنيامين ، فما الذي قال لك الملك ؟ قال : وعدني بخير ، وأريتُ منه ما هو أهله ، وتبين عدله وفضله ، قال : فأمر يوسف عليه السلام فتيه اللذين أقامهما لكيال الطعام أن يكتالا لهم ، ويكون الصغير آخر من يُكال له ، وأن يجعل الصواع ، ولا أكثر قيمة عند الصديق منه ، وكان إناء من ذهب مُرصعاً بجواهر ، وكان الله تعالى قد أعطاه معجزة فيه يُعلمه إذا نقره بالصادق والكاذب ، فلما جعل الصواع في رحله أعلمه يوسف بذلك ، وأخفاه عن إخوته ، قال : سأجعله في رحلك حتى آخذك بالسرقة ، وأدعك عندي وأسرهم ، ولا تخف ولا تحزن ، فإن الله تعالى يدبر أمرك ، قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [يوسف : ٧٦] ، فأمر بإخفائه ، فشده في وسط الطعام ، وشدوا رعوس الأوعية ، ثم سلموها لأربابها ، وكذلك كانوا يفعلون بجميع الناس الذين يشترون الطعام ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ ﴾ [يوسف : ٧٠] ، أي كال لهم الطعام ﴿ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف : ٧٠] ، والسقاية كان مكيال الملك ، وهو الصواع المذكور . قال ابن عباس : إنه كان صاعاً لم يزد عليه ، فحملوا طعامهم ، وشدوا رحالهم ، وودعوا الملك وأخوهم بنيامين معهم ، فخرجوا جميعاً فرحين حتى نزلوا من مصر على يوم وليلة عند قرية هناك يقال لها : بصرى ، فلما نزلوا إذا جماعة من القهارمة والخدم والأعوان من جماعة الملك وصلوا إليهم ، فحبسوهم وأمسكهم عن الرحيل قال : الله تعالى ﴿ ثُمَّ أَدْنَى أُذُنَهُ ﴾ [يوسف : ٧٠] أي نادى مناد : ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ ﴾ أي الرفقة ، وهي القافلة ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف : ٧٠] ، قال : فتحيروا عند سماع النداء ، قالوا : ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴾ [يوسف : ٧٠] ، ولم يسميتونا سارقين ، ﴿ قَالُوا تَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ ﴾ يعنون السقاية ﴿ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ ﴾

أي وللذي يجيء به ويردّه ﴿ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ يعني من الطعام ، وكان لحمل البعير في ذلك الوقت قدرٌ كبير وثمنٌ خطير ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٢] أي كفيل ، ثم قال لهم : أهدأ جزأؤنا منكم ، أدخلناكم منازلنا ، ووفينا لكم مكيالنا ، فكان الجزاء منكم أن أخذتم أحب الأشياء إلى الملك وأعزها عليه ، وهو صُواعه الذي يعلم به الصادق والكاذب ، ويطلع به على الغيب ، ويشرب به إذا عطش ، ففعلكم يا هؤلاء رديء غير مناسب ، وقيل في المعنى :

رُدُّوا صُوعًا أَخَذْتُمْ أَيُّهَا النَّفَرُ	فلم يكن منكم ما ليس يُتَظَرُّ
عَجِبْتُ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُ مَكْرَمَةٍ	إِلَيْكُمْ مِنْذُ كُنْتُمْ يُنْسَبُ الْأَثَرُ
كَيْفَ ارْتَضَيْتُمْ بِأَمْرِ لَا يَحِلُّ لَكُمْ	أَمَا لَكُمْ وَيَحْكُمُ عَقْلٌ وَلَا فِكْرُ
كَأَنَّكُمْ لَمْ تَرَوْا فِعْلَ الْعَزِيزِ بِكُمْ	أَمَا لَهُ عِنْدَكُمْ عِزٌّ وَلَا قَدْرُ
مَنْ رَدَّهُ مِنْكُمْ فِي الْوَقْتِ كَانَ لَهُ	حِمْلٌ مِنَ الثِّبْرِ مَوْفُورٌ لَهُ خَطَرُ
أَنَا الْكَفِيلُ بِمَا قَدْ قُلْتُهُ فَهَبُوا	صُوعًا أَيُّهَا الْعَادُونَ وَاتَّعَمُّرُوا
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عُقُوبَةٍ مَنْ	أَجْنَادُهُ إِنْ قَضَى الْأَمْلَاكُ وَالْقَدْرُ

قال : فأجابوه بما أخبر الله عنه ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ [يوسف : ٧٣] أي لا تُعرف بهذه الصفة ، فقد رأيتم سيرتنا وما نحن عليه ، فكيف سميتونا سارقين ؟ فلما أقسموا بالله ، وأتوا بهذه الحجة عطف عليهم المنادي ومن معه من الرجال ، فقالوا لهم : ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [يوسف : ٧٤] في قولكم : ما كنا سارقين ، فأجابوهم : جزاء السارق الذي تُوجد السرقة في رحله ، فهو جزاؤه ، أي السارق الذي ظهرت سرقة عليه ، يُؤخذ عوض السرقة ، ويصير عبداً للمسروق في شريعة آل يعقوب ، وهو الثابت في ملتنا ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [يوسف : ٧٥] ، وأي ظلم وأي ذنب أعظم بعد الكفر من السرقة لا سيما اللصوص بالليل والناس راقدون ؟ فيا ويلهم كل الويل يوم يموتون ويوم يُبعثون ، وقيل في المعنى :

يا خائضَ البحرِ الذي قد طَمَتْ فيه مِنَ الْعِصْيَانِ أَمْوَاجُ

تَزَوَّدَ التَّقْوَى وَدَعَّ كُلُّ مَنْ لَهُ مِنَ الْآثَامِ أَزْوَاجُ
فَالْعَقْلُ لَا يُوجِبُ إِسْخَاطَ مَنْ إِلَيْهِ حَاجَاتُكَ تَحْتَاجُ

قال : ثم رَدُّوا العِيرَ نحو مصر ، وصرفوا وجوهها حتى رجعوا ، فلما أقبلوا على يوسف ، ووقفوا بين يديه أمر بتفتيش أوعيتهم بعد عتاب طويل ، ففتشت وهي كل ما استودعت شيئاً من جراب وجوالق ومخلّاة ، وهم لا يحتشمون من ذلك ، ولا يخشون لعلمهم بالبراءة مما نسب إليهم ، ففتشت العير العشرة ، فلم يوجد فيها شيء ، فلما وصلوا إلى رحل بنيامين تركوه ، وما قصدوا بتأخير عدهم إلا نفياً للتهمة ، ولو بدأوا به لخطرَ ببال إخوته أنهم تركوه قصداً في رَحْل بنيامين ، فتركوه ولم يفتشوه ، وصاروا يعتذرون إليهم ، وأمروهم بالمسير ، فحسد الإخوة بنيامين في ذلك ، وقالوا : إن ابن راحيل يفتخر علينا بذلك ، وبما تقدم من أكله مع الملك ، وخلوته ، وتقديمه عند الدخول ، فقالوا : ما بال رَحْل أخينا لم يُفتش ؟ فقال الصديق : لعله بريء الساحة كما أنتم ؟ فقالوا : لا بد من تفتيشه أيها الملك ، وأخذوا في الإلحاح والطلب ، وهم لا يعملون ما يلقون من التعب والتَّصَب ، فقال لهم يوسف : إذا أبيتم إلا تفتيش رحله ففتشوه أنتم ، ولم يتول ذلك غيركم ، قال : فتقدموا إلى رحل بنيامين وفتحوه ، وإذا الصُّواع فيه على حسب تلاقيه ، فلما رأوا ذلك ضاقت عليهم المسالك ، فصاروا باهتين حائرين ، لا يردون جواباً ، ولا يُبدون خطاباً ، قد نكسوا رءوسهم مما نالهم من الخجل ، وأصابهم من الحزن والكمد ، هذا آفة الحسد ، فالتفتوا إلى بنيامين ، وقالوا : يا ابن الميشومة والأخ الميشوم ، هذا من شؤمك وشؤم أخيك ، فليت ما أجريناه في أخيك أجريناه فيك ، إذ أنت أحق بذلك منه ، إذ لم يكن له جرم يُؤاخذ به ، وأنت على حسب تعديك ، فكيف فضحتنا وفضحت أباك ؟ أما تحشى مولاك ؟ فقال : يا إخوتي ، اسمعوا مني ، وعليّ لا تعجلوا حتى آتيكم ببرهان تعرفون أي بريء ؛ أستم تعرفون أن بضاعتكم رُدت في رحالكم يوم صدرتم من عند الملك وأنتم لا تعلمون ، فإن كنتم سرقتم البضاعة يومئذ ، فأنا سرق الصُّواع ، وإن كنتم بُرّاء ، فأنا بريء ، فظهرت حجته لديهم ، وسكنوا عن ملامهم لأخيهم فقال لهم الصديق : كيف رأيتم ؟ ألم أقل لكم في أوائل الأمر : إنكم خنتم وفعلتم ما فعلتم ، وأردت أن آخذكم بذلك ، لكنني عفوت عنكم ، وحسنت ظني فيكم ، فقالوا : أيها الملك ، لا ننكر ذلك عليه ، وقالوا ما أخبر الله عنهم : ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ [يوسف : ٧٧] ، يعنون يوسف ﷺ ، وسيأتي ما ذكر في معني

سرقته ﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ [يوسف: ٧٧] أي أسر الكلمة التي كانت جواب قولهم هذا ﴿ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ [يوسف: ٧٧] ، وهو أنه قال في نفسه : ﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا ﴾ [يوسف: ٧٧] يعني عند الله بما صنعتُمْ مِنْ ظلم أخيكُم وعقوق أبيكُم ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ٧٧] أي علم أن الذي تذكرونه كذب ، فظنوا أن قولهم : فقد سرق أخ له من قبل ، عذرٌ منهم يدينهم إليه ، فإذا هو منه يبعدهم ، وقيل في المعنى :

يا مَنْ عَلَى الْعَدْلِ فِي الْأَحْبَابِ يَقْتَصِرُ كَمْ ذَا تُزَيِّنُ أَقْوَالًا وَتَخْتَصِرُ
قَرَبٌ ذِي مَنْطِقٍ يُبْدِي فَصَاحَتَهُ فِيهِ لَهُ الْحَتْفُ لَا يُبْقِي وَلَا يَذَرُ
وَكُلُّ مُصْلَحَةٍ حَاوَلَتْ نَافَعَةً مُضِرَّةٌ هِيَ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْقَدَرُ
لِلَّهِ دَرُّ أَدِيبٍ قَالَ مُرْتَجِلًا وَالصَّبْرُ أَسْلَمُهُ إِذْ خَانَهُ النَّظَرُ
إِذَا مُحَاسِنِي اللَّاتِي أَدُلُّ بِهَا كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ

قال : فاحتوشتهم الخدم كالمنكرين عليهم ، وأخرجوا بنيامين بالعنف من بين إخوته ، وجعلوا يجرّونه حتى غيّبوه ، وأدخلوه قصر الملك ، فلما غاب عن إخوته قام الصديق عن سريرته ، ودخل بأخيه بنيامين إلى بيته ، وجعل يضمه إلى صدره ويقبله ، ويقول له : لا تحزن ، إني أنا أخوك يوسف ، وألبسه الثياب الفاخرة ، وجلسا يتحدثان ، وقيل في المعنى :

إِشَارَتُنَا فِي الْحَبِّ رَمَزُ عَيُونِنَا إِذَا رُمْتَ لَفْظًا جَاوِرَ اللَّفْظِ لِلْمَعْنَى
فَإِنْ شَتَّ قَرَبًا قَالَ : أَهْلًا وَمَرْحَبًا مَتَى غَبْتُمْ عَنَّا وَنَحْنُ مَتَى غَبْنَا
فَطِيبُوا وَعِيشُوا وَافْرَحُوا وَتَنَعَّمُوا بِحَضْرَتِنَا مَعَكُمْ وَحَضْرَتِكُمْ مَعَنَا
عَسَى الْوَاحِدُ الْمَنَانُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَيَجْمَعُنَا بَعْدَ الْفِرَاقِ كَمَا كُنَا

ثم قال : يا أخي ، طب نفساً ، وقرّ عيناً ، فأنا أخرج إليهم لأسمع ما يقولون ، فلما خرج رأيهم بأكين محزونين ، وقد اعتراهم الذل والقلق ، وهم في قلق من فراق أخيه بنيامين ، وماذا يكون حالهم إذا رجعوا إلى أبيهم الحزين ، وقيل في المعنى :

ماذا يكون الحال وقت رجوعنا والأخ بنيامين ليس كذا معنا
فيا رب أنعشنا بتفريج كربنا فما زلت للمكروه تصرفه عنا
بحرمة من لبي وقام تحشعاً هو المصطفى المبعوث بالجمع متعناً

قال : فإن قيل : كيف جاز للصديق ﷺ أن يمكر على إخوته ، ويسميههم سارقين ، ويفعل هذا بهم ؟ الجواب أن يقال : إن الله تعالى قد برأه من الذنب في ذلك ، وأضاف سبحانه تلك المكاييد إليه حيث قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كُنَّا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٧٦] ، وإنما كان الصديق يفعل ذلك بوحي من الله تعالى ، ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ [يوسف : ٧٦] ؛ وذلك أن حكم الملك في مصر أن السارق يُضرب ويُعَرِّمُ ضعفي ما سرق ، فلم يكن يتمكن الصديق من حبس أخيه واسترقاقه في حكم الملك لولا ما كاد الله له تطفلاً وتهدياً لإخوته وتكفيراً لخطاياهم حتى وجد السبيل إلى ذلك ، وهو ما جرى على ألسنة إخوته على ما هو في حكمهم وشريعتهم أن جزاء السارق الاسترقاق ، فاستعبده الصديق فيما ظهر ، ونعمه فيما خفي وبطن وأسر ، ولا يُظَنُّ بالصديق أنه أتى باطلاً أو فعل شيئاً لم يُوحَ إليه به ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءُ ﴾ [يوسف : ٧٦] بضروب الكرامات وأبواب العلوم ، كما رفعنا درجات يوسف على إخوته في كل شيء ، وقيل : ناداهم سارقين لما تقدم من فعلهم معه وخيانتهم وكذبهم ، فالخائن كالسارق ، قال الله تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] ، يكون هذا أعلم من هذا ، وهذا أعلم من هذا حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى ، أي لا يوجد عالم إلا وفوقه أعلم منه إلى أن تنتهي علوم الخلاق إلى علم الله تعالى ، فحينئذ تصير علوم الخلاق في علمه كنقطة في بحر لُجِّي . واعلم أن العلم علمان : مكسوبٌ وموهوبٌ ، فالمكسوب ما يأتي بالدرس والتعليم والحفظ والاجتهاد ، والموهوب ما يهبه الله لأنبيائه ، ومن شاء من عباده من غير درس ولا اجتهاد ؛ منهم الخضر عليه السلام ، وذلك أنه لما شرح لموسى عليه السلام قصة السفينة والتي بعدها قال في الأولى : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [يوسف : ٧٩] ، فتوذي في سره : مَنْ أَنْتَ ؟ وَمِنْ أَيْنَ كَانَ لَكَ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى تَقُولَ فَأَرَدْتُ ؟ فعدل في الثانية بالضمير إليه وإلى موسى بقوله : ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ ، فتوذي : أُنَى يَكُونُ لَكَ وَإِلَى مُوسَى ؟ فَعَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، فعدل في الثالثة بالضمير إلى الله وحده بقوله :

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ [الكهف: ٨٢] ، وهذا كما أخبر الله عز وجل في حق موسى حيث قال : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ [طه: ٦٧] . قيل : لأي شيء خافَ وكان على يقين من ربه من النصر على العدو ونحوه ؟ قيل : سمع قائلاً يقول خطاباً للسحرة : ألقوا يا بررة . قال رسول الله ﷺ : « وضع ربي يده » أي إحسانه ، واليد الإحسان الذي خصه به في ذلك الوقت بين كتفي ، فعلمتُ علمَ الأولين والآخرين ، وعلمني ربي علوماً ، فعلمُ أخذ عليّ كتمانته إذ علم ربي لا يسمعه أحدٌ إلا علمه ، وعلمٌ خيّرني فيه ، فأنا أسرُّ به إلى أبي بكر وعمر ، وعلمٌ أمرني بتبليغه ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ، ولقد عاجلتُ جبريلَ في آية نزلَ بها عليّ ، فأنزل الله تعالى عليّ : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه: ١١٤] ؛ وهل يعترض من يتزل جبريل عليه ويأتي بوحي الله إليه ؟ كما قال الخضر لموسى عليهما السلام حين فسر له ما غاب عنه : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف: ٨٢] ، وقيل :

العلمُ أنْفَسُ شيءٍ أنتَ داخرُهُ مَنْ يَدْرُسُ العلمَ لم تَدْرُسْ مفاخرُهُ
فاجهدْ لتعليمٍ ما أصبحتَ تجهلُهُ فأولُ العلمِ إقبالٌ وآخرُهُ

رُويَ في الخبر أن نبيّاً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان يتعبد في جبل مرتفع وتحت عین ماء تجري ، فكان بالنهار يجلس في أعلى الجبل بحيث لا يراه الناس يذكر الله تعالى ، وينظر إلى مَنْ يَرُدُّ العینَ ، فبينما هو ذات يوم جالس إذا بفارس أقبل إلى العین ، فترل عن فرسه ، وأزال قِراباً ، أي جراباً ، كان في عنقه ، ووضعهُ إلى جنبه ، واستراح وشرب من الماء ، ثم قام وركب الجواد ، وترك القِرابَ ، وكان فيه دنائيرٌ ومضى ؛ وإذا رجلٌ آخرٌ قد أقبل إلى العین ، ونزل عن فرسه ، وأخذ القِرابَ بالمال ، وانصرف سالماً ؛ وإذا بحطاب على ظهره حُزْمة حطب ، جاء إلى العین ، وأنزل الحُزْمة عن ظهره ، وقعد على العین فغسل وجهه ، وإذا بالفارس صاحب القِراب قد أقبل لهفان ، فقال للحطاب : أين القِراب ؟ فقال : ما القِراب ؟ قال : القِرابُ الذي فيه الألف دينار ، قال : لا أدري ، فضربه الفارسُ فقتله وسارَ ، فقال ذلك النبي : يا رب ، هذا واحد أخذ القِرابَ بالمال وآخر قتل فيما

أراه ظلماً ، فأوحى الله تعالى إليه : يا هذا ، اشتغل بعبادتك ، فإن تدبير أسرار المملكة بيدي ، وليست من شأنك ، إن والد الفارس كان قد غَصَبَ ألفَ دينارٍ من هذا الرجل الذي أخذها ، فمكنتُ الولدَ من مال أبيه ، وإن الخطاب كان قد قَتَلَ والدَ الفارس ، فمكنتُ الولدَ من القصاص ، فقال ذلك النبي : سبحانك ، لا إله إلا أنت ، أنتَ علامُ الغيوب ، وجابرُ القلوب ، بيدك التدبير ، وإليك المصير ، وقيل في المعنى :

رأى النبي الذي قد كان بالبصر	فصار يسأل عما كان بالخبر
وشاهدت عينه ما ليس يفهمه	فقال : يا رب ماذا والقتيل بري
هذا أصاب الغني من دون ما تعب	وذاك أيضاً أتى في زي مفتقر
وذاك قد صار ميتاً بعد عيشته	من غير ذنب جنى يا خالق البشر
ف قيل : يا باحثاً عن سر حكمتنا	أنت المقدّر لا تسأل عن القدر
إن الدراهم كانت مال والد من	رأيتُه قد أتى إرثاً بلا كدر
دع اعتراضك يا هذا فإن لنا	في الخلق سرّاً خفي عن حدة النظر
سلم لأحكامنا واخضع لعزتنا	فحكمتنا قد جرى بالنفع والضرر

يا هذا ، سأقص عليك شيئاً من باب المجاز ، وهو عظةٌ وأمثالٌ يقبل الجواز ، انتبه بعضُ المحبين من نوم الغفلة ، وطلع عليه مصباحُ الوصلة ، ففتح عينيه ، فرأى قرطاساً قد اسودَّ وجهه ، وزالت بهجته ، فقال : عهدي بك أبيض اللون ، مليح الصون ، كافوري الأدم ، قويم وسيم ، فلم سودّت وجهك وخفضت قدرك ؟ فقال : ما سودّت وجهي باختياري ، ولكن سودّني الحبر ، فقال للحبر : لم سودت وجه القرطاس حتى عاد نهاره كالليل بادياً للناس ؟ فقال : كنتُ كامناً في المحبرة التي هي وطني ، فجاء القلم بالقهر فاخطفني ، فقال للقلم : لم أخرجت الحبر من وطنه ، وأزعجته من مسكنه ؟ فقال : اسمع قصتي ، فإني مظلوم ، ولعل لي عذراً وأنت تلوم ، كنتُ قصبةً نابتهً على شاطئ النهر أتمايلُ على الأغصان شبيه الزهر في نعيم دائم وصلاح قائم ، أعانقُ الرّند ، وأقبل وجنات الورد ، فجاءت اليد بسكين صنعت للقطع والفصل ، فأخرجتني عن محل الوصل ، وصيرتني فرعاً بعد الأصل ، وأزالت قشري التي كانت لي بُرداً ، وقدّنتني قدّاً ، وفصلتني على قدر

الشبر ، ولزمتني خدمة المحبرة والحبر ، فلا أزال كذلك في كد وانزعاج ، وحبس واستخراج ، وإن يوماً تغيرتُ وشدتُ بأسِي قُطْ رأسي ، ولقد نثرتُ الملح على جرحي بسؤالك ، فأقللُ من ذلك ، ولكن سَلِ اليَدَ ، فسألها ، فقالت اليَدُ : لا أملكُ لنفسي ضرراً ولا نفعاً ، ولا لغيري خفصاً ولا رفعاً ؛ وهل رأيتُ جسماً يتحرك بنفسه أو يوماً أنتَ فيه يعود كأمسه ، وإنما ركبتني فوارسُ الطاعة ، وهي القوة والقدرة والاستطاعة ، فيها تحرك في حلي وربطي ، وقبضي وبسطي ، فاسأل الاستطاعة ، فقالت الاستطاعة : ليس بيدي تخيير ، ولا أقدر على تقديم ولا تأخير ، وإنما أنا منتظرة ما يَرُدُّ عليَّ منْ خطرة القلب والإرادة الممدودة من عالم الغيب والشهادة على لسان العقل بواسطة العلم والنقل ، فأنا لا أعدم ولا أوجد ، ولا أقوم ولا أقعد ، إنما أنا رَقُّ المقدور ، ولا أحدثُ شيئاً من الأمور ، فاسأل الإرادة الآدمية الإلهية الأزلية ، فسألها ، فقالت : ماذا صنعتَ ؟ على الخير وقعت ، أنا منقطعة الحوالات يا كثير الغفلات ، إلا إن عندى حوالة أخرى ، ولا يمكنني ذكرها ، قال : ولمَ ؟ قالت : لأنك لا تفهمها ، قال : ولمَ ؟ قالت : لأنك في عالم الملك والشهادة ، وأنا مبدأ عالم الملكوت والسعادة ، إنما أنا كالبحر إن أمكنك أن تطبقَ تلاطمَ أمواجه ، فَلَجْ في عجاجه ، وإلا فعليك بالساحل ؛ لأن ذاك العالم لا يسمع بهذا السمع ، ولا يبصر بهذه العين ، إنما تبصر ببصرك الصور ، وتعاين العبر ، أما سمعتَ قولَ السميعِ البصيرِ مخبراً عن أهلِ جهنمَ وبئسَ المصيرُ : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] ، فكانوا يسمعون الأصوات ، لكنهم في الظاهر أحياء وفي الحقيقة أموات ، ولكن سَلِ القلبَ ، فقال : إنما أنا لوح ، لم أنبسطُ بنفسي ، ولكني بُسِطْتُ ، فاسأل العقلَ ، فقال العقل : إنما أنا سراج ، لم أشتعلُ بنفسي ، ولكني شُعِلْتُ ، فاسأل العلمَ ، فقال العلم : إنما أنا نقش لم أنقش ، ولكني نُقِشْتُ ، فاسأل القلمَ ، فقال : قد سألتُهُ في أول الأمر - كما ذكر - فقال : وأيَّ طريق سلكتَ في النظر : طريقَ البصيرة أم طريقَ البصر ؟ فقلتُ : طريقَ البصر ، فقال : هيهات ، تركتَ الطريق ، وخالفتَ الركب والرفيق ، وسلكتَ طريقاً لا توصل إلى مقصود ، ولا تحمل على القرب لمعبود ، فاسمع إن قصدت الصعود :

انظرْ بقلبك إنَّ العينَ كاذبةٌ واسمعْ بقلبك إنَّ السمعَ خَوَّانٌ

إياكَ يسمعُ حديثاً بيننا أحدٌ فقد يقولونَ : للحيطانِ آذانٌ

ولكن يا هذا اسلك طريق العبرة ، وأعدّد زادَ الفكرة ، تصل إلى الحضرة ، وإن لم تقدر على هذا الطريق ، فبضاعتك مُرجاة ، وعملك قليل ، ومركبك ضعيف ، والهلاك في الطريق الذي تتوجه فيه ، فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت عليه ، ولعلك تلاقيه ، فما هذا إلا أن بعثك فادرج ولا تغترّ بالأمانى ، ومنها فاخرج ، فكلّ ميسر لما خُلق له ، فإنّ الأذن التي في الرأس عند البهيمة والكافر ، فافتح أذن قلبك ، وبصر بصيرتك لتدرك القلم الإلهي الذي لا كالأقلام ، الذي ينقش على الدوام أنواع العلوم والإرادات وأسباب الشقاء والسعادات ، قلم يخط ، وكاتب لا يسأم ، وحروف تعجم بآية تتوهم ، فقلّمه لا كالأقلام ، ويده لا كالأيدي ؛ ففتح عين بصيرته ، فرأى القلم الإلهي ، فسأله ، فقال : جوابي جواب القلم الأول ، قال : وكيف وأنت أبعد منه في الشبه عليك المعول ، فقال : وأي فرق بيني وبينه في معنى التسخير ، والمولى سبحانه بيده التدبير ، فالقلم الأول ظاهر للعيان ، وأنا لا أدرك إلا بالأذهان ، فسأل يمين الملك والسموات مطويات بيمينه ، وكذلك الأقلام في قبضته بيمينه ، فقليل : سل القدرة ، فسأل ، فقليل : سل القادر الذي يعلم السرّ المكنون ، فقال تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، وقيل في المعنى :

لا بدّ من جريان الحكم يا لكع	والبحث عن سرّه في الصدر منصدع
حكم المهيم جار في بريته	وكلهم لنفاذ الحكم قد خضعوا
هذا يقربه من دون ما عمل	وذا يباعده منه فينقطع
وليس يسأل عن فعل يقدره	لأنه مالك والملك متسع

قال بعض السادة : كنت ملاحاً بنيل مصر ، أعدّي من الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي ، فبينما أنا قاعد يوماً في الزورق إذا بشيخ ذي وجه مشرق ، وقف وسلّم عليّ ، فرددت عليه السلام ، فقال : أتحملني لله ؟ قلت : نعم ، قال ، وتطعمني لله ؟ قلت : نعم ، فطلع الزورق ، فعديت به إلى الجانب الشرقي ، وكان عليه دفاً وبه ركة وعصا ، فلما أراد النزول ، قال : أريد أن أحمك أمانة ، قلت : وما هي ؟ قال : إذا كان عند الظهر تجديني إن شاء الله تعالى تحت تلك الشجرة ميتاً وستنسئ ، فإذا ألهمت فأتيني وغسلني في موضعي ، وكفني في الكفن

الذي تجده عند رأسي ، وادفني بعد الصلاة عليّ في هذا الرمل ، وامسك المرقعة والركوة والعصا ، فإذا جاء مَنْ يطلبهم منك ، فادفعهم إليه ، ثم سار ، فعمجت من قوله ، وبث ليّتي تلك ، ثم أصبحت أنتظر الظهر ، فلما جاء وقته نسيت ما قال لي ، ثم تفكرت قريب العصر ، ثم ألهمت ، فصليت العصر ، وسرت بسرعة ، فوجدته تحت الشجرة كما قال ميتاً ، ووجدت عند رأسه كفناً تفوح منه رائحة المسك ، فغسلته وكفنته ، ثم صليت عليه ، وحفرت له في الرمل ودفنته ، ثم عدت للجانب الغربي ليلاً ، ومعى المرقعة والركوة والعصا ، فلما أصبح الصباح وفتح باب البلد ، وإذا بشاب من الشطار أعرفه ، وعليه ثياب رقيقة ، وبيده أثر حناء ، فقال لي : أنت فلان ؟ قلت : نعم ، قال : أعطني الأمانة ، قلت : وما هي ؟ قال : العصا والركوة والرقعة ، قلت : ومن أعلمك بهم ؟ قال : لا أدري ، إلا أني بث البارحة في عرس فلان ، وسهرت أغني إلى الصباح ، فنمت لأستريح ، وإذا بشيخ يقول لي : إن الله تعالى قد قبض روح الولي فلان ، وقد أقامك مقامه ، فسر إلى فلان المعدّي ، وخذ ما أعطاك ، فإني قد أودعتها لك عنده ، فأخرجتهم له فأعطيتهم إياهم ، فترع ثيابه ولبس المرقعة ومضى ، فبكيت لما حرمت من ذلك ، فلما جن الليل نمت فسمعت هاتفاً يقول لي : يا عبدي ، أثقل عليك أن مننت على عبد عاصٍ برجوعه إليّ ؟ ! إنما هو فضلي أوتيته من أشياء ، وقيل في المعنى :

ما للمحب مع الحبيب مرأى	كل اختيارك لو علمت حرام
إن شاء واصل منة وتعطفاً	أو صدّ عنك فما عليك ملام
إن لم تكن بصدوده متلذذاً	فاخرج فما لك في المقام مقام
أو كنت تعرف قربه من بعده	فلأنت خلف والهوى قدام
إن كان ملكك الغرام حشاشتي	أو قادي للقتل فيك زمام
فاهجر وصدّ وصل فذلك واحد	ليس الوقوف مع الحظوظ مرأى
ما القصد في حيي إليك سوى الرضا	فإذا رضيت البعد فهو قوام

قال بعض العارفين : إن الله تعالى يشكر من العمل قليله إذا كان خالصاً لوجهه ، ويثيب عليه ، ويعفو عن الكثير من الذنب ، ويتجاوز عنه ، وهذا الفتى ربما كان فية خصلة حسنة ، لله خالصة ، فشكره الله بذلك ، ورحمه ، وأعطاه منزلة

تقدمه ، وإن كان مكتوباً في القدم في ديوان الأبرار ، فلن تضره الذنوب والأوزار .
كما ذكر أن شخصاً من الشطار كان يقطع الطريق بالبلاد المقدسة ومعه جماعة من
الأشرار ، فطلعوا يوماً على قافلة فيهم رجل صالح من الكبار ، فأخذوا جميع ما
معه من تجارة ومأكّل وفاكهة وثمار ، ولم يدعوا أحداً منهم حتى سلبوه حتى
الصالح أخذوا جميع ما معه ، فمضى نحوه كبيرهم وقد حصل عنده ، فوجده جالساً
وحده ، وإذا أناس من جماعته أقبلوا وهم يأكلون من الذي أخذوه من القافلة وهم
يلعبون ، فاستمر كبيرهم لا يأكل معهم ، فلصق الصالح إلى جنبه وسلّم عليه ، فردّ
عليه السلام ، وأقبل عليه ، فقال الصالح : يا هذا ، ما لي أراك لا تأكل معهم مما
أخذوا من المأكّل ؟ ! فقال : يا هذا ، إني صائم ، فقال الصالح : سبحان الله ، أنت
تقطع الطريق على الناس ، وتأخذ أموالهم ، وتقول : إني صائم ، فقال : يا هذا ،
لعل الكريم سبحانه إن شاء يتفضّل عليّ ، ويكون ذلك صلحاً بيني وبين الحي
الدائم ، فتركه الصالح ، ومضى مستخفاً بكلامه ، ووكل الأمر إلى علامه ، فبينما
الصالح بعد مدة في موسم الحج طائف بالكعبة ، وإذا شخص من ورائه جذبه ،
فالتفت إليه فإذا هو الشاطر يسلم عليه ، وقال : يا هذا ، بهذا أعلمناك ، وأشرنا أن
صومنا إن شاء الله يُوقّع الصلح بيننا ، ولعل الكريم من فضله لم يخيننا ، وقيل في
المعنى :

أيا سيدي ما زلتي بغريبة لديك ولا غفرائها بطريف
فإن تقبل العذر الضعيف تكرماً فإن رجائي فيك غير ضعيف

قال - رحمه الله - : وهذا كما جاء عن الإمام أبي حامد الغزالي - رحمه الله
تعالى - في إحياء علوم الدين : أن شخصاً كان عاصياً ، فلما توفّي لم يحضر جنازته
أحدٌ استنقاصاً به لما كان عليه من المعاصي والزلات والذنوب الموبقات ، فبكت
زوجته لوحدته وإسرافه على نفسه وزلته ، وقعدت تنتظر أحداً يجيء بحمله
ويشيعه ، فما رأت أحداً جاء يتبعه ، فاكترت حمالين ، فحملوه إلى المقابر
وأسلموه ، وعلى الكريم أقدموه ، فبينما الحمالون والمرأة سائرون ، وعلى المقبرة
مقبولون ، إذ نزل إليهم شخص من أكابر الصالحين قد اعتزل الناس ، وفاق أهل
زمانه في العبادة والدين ، وجاء ليصلي عليه ، فتسامع أهل البلد بالرجل الصالح ،
فترلوا إلى الميت ليصلوا عليه ، فبادروا إليه ، فلما صلى عليه صلوا وراءه احتراماً
لجانبه ، فلما انقضت حضروا بين يديه ، واعتذروا من التخلف وطلوعهم خلفه إذ
لم يكونوا معه ، فقال الصالح : إن هذا الرجل لا أعرفه قبل اليوم ، لكنني أخذتني

سنة من النوم قبل قدوم هؤلاء القوم ، فرأيتُ قائلاً يقول : يا هذا ، استيقظْ ، وقُمْ فتوضاً للصلاة على الميت القادم الآن ، فإنه مغفور له ، وبهذا وعده الرحمنُ ، فلما سمعتُ ذلك ما أمكنتني التخلفُ عن الصلاة عليه ، فواروهُ في حفرتِه ، وعاملهُ اللهُ بلطفه ، وتغمده برحمته ، وصار يقول :

أصبحتَ بقعرِ حفرةٍ مرهنا لا أملكُ مِنْ دنيائي إلا كفنا
يا مَنْ وسعتُ عبادةَ رحمتهُ مِنْ بعضِ عبيدِكَ المسيئينَ أنا

قال : لكن بقي في خاطر الصالح من ذلك وسواس لأجل ما ذكر عنه الناسُ ، فدعا زوجته ، وقال : يا فلانة ، ما تعلمين من زوجك حسنةً كان يعملها اللهُ خالصة ؟ قالت : إنه كان على ما شهر عنه من المعاصي ؛ غير أنه كان يصدر منه ثلاثة أشياء يرحمه بهن مالكُ النواصي : الأولى أنه كان على ما شهر عنه ؛ إذا صلى الصبح مع الجماعة كان يلبسُ ثياباً غير التي تكون عليه ، ويمضي إلى الجامع ، ويحضر في ذلك الوقت . والثانية أنه كان إذا أفاق من سُكْرِهِ رَمَقَ السماءَ بطرفه ، ويقول : يا رب ، أي زاوية في جهنم تملؤها بهذا الخبيث - يعني نفسه - ويكي حتى يخفتَ حسُّهُ . والثالثة أنه كان يُقبل على الأيتام ، ويكرمهم تعظيماً للملك العلام ، فقال ذلك الصالح : لا شك أن الله تعالى قد رحمه ، وبفضله وجوده عَمَّهُ ، ثم مضى إلى منزله وقد زال ما عنده من الإشكال ، وكذا أهل البلد أحسنوا ظنَّهم بالكريم المتعال ، وقيل :

يا رب إنَّ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً
فلقد علمتُ بأنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ
فبِمَنْ يلوذُ ويستجيرُ المجرمُ
أدعو إليك كما أمرتَ تضرعاً
فإذا رددتَ يدي فَمَنْ ذا يَرْحَمُ

المجلس السادس عشر

في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣]

الحمد لله الذي فتقت أكفُّ أقداره أخياط إحاطة جيوب الغيوب من أسرارهِ فبانت هُود صدور عرائس أفكار نفاذ أحكام الحكيم ، وأضرم مجامر الخوف في قلوب الدسم ففاضت جفونها بآلئ دموع المطر العميم ، وقاد مطيَّ السحاب بأزمة الرياح إلى أمهات الهامة وبنات المواهي وبساط الروضات وشامحات الجبال وشاهقات الأعلام فظهر عليها فضله الجسيم ، وضربَ ظهر الرعد بسوط البرق فسبح بصوت ترعد له المفاصل وتطيش به القلوب ويتململ الخائف لأجله تملل السقيم ، وأخرج من النبات المختلف والزرع المؤتلف ما دل على أنه يحيي العظام وهي رميم ، ووسع الخلاق بالنعيم وعاملهم بالكرم فهو الغني الكريم ، وضاعف لهم الأجور وغفر للمأزور وعفا عن الفعل الذميم ، كرمه مبسوط ، وعدله مقسوط ، فبئس القنوط ، وكيف يُقنط العبد ممن عفوه وكرمه وإحسانه قلم ؟ أما سمع قول الملك العليم : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، أحمده على ما وهب من إحسانه الجسيم ، وأشكره على ما أولى في الحديد والقلم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنجي من عذاب الجحيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحيه وخليفه القسيم الوسيم ، الذي آتاه الله سبعا من المثاني والقرآن العظيم ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا الصراط المستقيم ، صلاة تدوم وتقوم ما هب نسيم ، واشتاق إلى حميم حميم ، وسلم تسليماً كثيراً ما غوفي سقيم ، وجاد بالعتاء والمعروف كريم ، وقيل في المعنى :

بِبَابِكَ عَبْدٌ قَدْ جَفَاهُ خَلِيطُ وَتَازَلَهُ بَعْدَ الصُّعُودِ هُبُوطُ
دَوَى غُصْنُهُ وَاصْفَرَّ مِنْ بَعْدِ يَنْعِهِ وَلِلْغُصْنِ بَعْدَ الْإِصْفَرَارِ سُقُوطُ
وَكَايَدُهُ وَجَدٌ وَضَعْفٌ مُبَرِّحٌ وَضَاقَ عَلَيْهِ الْكُونُ وَهُوَ بَسِيطُ

كَسِيلٌ إِذَا دَاعَى الْفَلَاحَ أَثَارُهُ وهند دواعي المهلكات نَشِيطُ
فَكَمْ مَرَّةٍ رَامَ الْفَرَارَ بِنَفْسِهِ وهيهات لا يجدي وأنتَ مُحِيطُ
وَلَوْ لَا رَجَاهُ أَنْ يَمُنَّ بِعِثْقِهِ لَنَازَلَهُ بِؤْسٌ وَعَادَ قَنُوطُ
وَلَكِنْ وَعَدَتْ الْمُسْرِفِينَ بِرَحْمَةٍ بِذَاكَ كِتَابٌ قَدْ أَتَى وَخُطُوطُ
فَيَا قَاهِرَ الْأَكْوَانِ طَرًّا بِأَسْرِهَا فَأَجْمَعُ مَنْ فِيهَا لَدَيْكَ رِبِيطُ
أَغْنِي بَعْفُكَ مِنْكَ وَاعْفِرْ جَرِيْمَتِي فَمَازِلَتْ عَنِّي مَا أَخَافُ تُمِيطُ

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية .
اعلم أن الله تعالى أضاف هذه الأمة إلى خمسة : أولها إلى نفسه ، فقال تعالى : ﴿ يَا عِبَادِيَ فَاتَّقُونَ ﴾ ، ولآدم بالنبوة ، فقال : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ ، ولنوح بالشرعة ، فقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ [الشورى: ١٣] ، ولإبراهيم بالملة ، فقال : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨] ، ولمحمد ﷺ بالأمة ، فقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ؛ فإذا كان يوم القيامة قال آدم : أولادي ، وقال نوح : أهل شريعتي ، وقال إبراهيم : أهل ملتي ، وقال محمد : أمتي ، وقال الرب عز وجل : عبادي ، فإذا كان هذا حال هذه الأمة أفترأهم يلحقهم ضييم يوم القيامة ؟ حاشا كرم الله ، وسُمِّيَ العبد عبداً ؛ لأنه مسلك القضاء ومحل العيوب ، وليس الفخر له سبحانه أن تكون عبده ؛ لأن عبده كثيرة ، بل الفخر لك أنه مولاك ، فأنت عبده يا هذا على الحقيقة ما كنت مطيعاً له . كما ذكر عن بعض الصالحين أنه قدم عليه ناس يزورونه ، فتوسم العجب فيهم حين رأيهم ، فلما أقبلوا عليه قال : أهلاً بعبيد عبادي ، فأنكروا قوله ، وعنه انصرفوا ، فذكروا لأحد العلماء ما قال لهم ، فقال : صدق ، أنتم عبيد الهوى ، والهوى عبده . قيل : فما الحكمة في أن الله أضاف العبيد إلى نفسه ؟ قيل : لثلاثة أشياء : أولها ليكونوا في حمايته ، فلا يقدر الشيطان أن يخلص إليهم . الثاني لئلا يدعى فيهم إبليس باتباعه . الثالث ليكون جميع ما يصلحك عليه . قيل : فما الحكمة في أن الله تعالى أضاف نفسه إلينا ، فقال :

﴿ وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة: ١٦٣] . قيل أيضاً : لثلاثة أشياء : أحدها لتعلم أنه لا يفارقك . *الثاني* ليعلمك أن كل ما خلقه من أجلك ولك خلقه ، كما قيل : لما خلق الله الأرض قال الآدمي : ماذا لي ؟ قال : النبات لك ، وخلق الأشجار فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال الثمار لك ، وخلق السوى ، فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال اللبن لك ، وخلق البحار فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال : الحيتان لك ، وخلق الجبال فقال الآدمي : ماذا لي ؟ فقال : معادن الذهب والفضة لك ، وخلق الهواء ، فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال : الطير والغمام لك ، وخلق السماء فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال : الشمس والقمر والنجوم لك ، يعني لأجل ما في الشمس والقمر من المنافع ، وما في النجوم السيارات الدالة على الأوقات ، ثم خلق اللوح المحفوظ ، فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال : العلم والحقيقة لك ، ثم خلق المعارف فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال الله عز وجل : أنا لك ، فطوبى لمن كان له الملك العلام دائماً على الدوام حتى يلقاه على الرضا في دار السلام . *الثالث* ليكون لك الفخر على سائر المخلوقات ، وما أحسن ما أنشده في المعنى الشيخ الإمام عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى :

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَقْتُ حَظِّهِ النَّدَمُ	وَمَنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُو بِهِ الْهَمُّ
وَنَاطِرٌ فِي سِوَى رُؤْيَاكَ حَقٌّ لَهُ	يَفِيضُ مِنْ جَفْنِهِ بِالْذَّمِّ وَهُوَ دَمٌ
فَمَا الْمَنَازِلُ لَوْلَا أَنْ تَحُلَّ بِهَا	وَمَا الدِّيَارُ وَمَا الْأَطْلَالُ وَالْحَيْمُ
لَوْلَاكَ مَا شَاقَنِي رُبْعٌ وَلَا طَلَلٌ	وَلَا سَعَتْ بِي إِلَى نَحْوِ الْحِمَى قَدَمُ
فِي كُلِّ جَارِحَةٍ عَيْنٌ أَرَاكَ بِهَا	مِنِّي وَفِي كُلِّ غَضْوٍ لِلنَّاءِ فَمُ
فَإِنْ تَكَلَّمْتُ لَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمْ	وَإِنْ سَكَتُ فَشَغَلِي عَنْكُمْ بِكُمْ
فَأَنْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْقَلْبِ وَحَدُّكُمْ	وَكُلُّ كُلِّي مَشْغُولٌ بِكُلِّكُمْ
لَا تَطْرُدُونِي فَإِنِّي قَدْ عُرِفْتُ بِكُمْ	وَصِرْتُ بَيْنَ الْوَرَى أَدْعَى مُجِبُّكُمْ
أَمْرُغُ الْخَدَّ ذُلًّا بِالثَّرَابِ عَسَى	أَنْ تَرْحَمُونِي وَتَرْضَوْنِي عَبِيدُكُمْ
أَنَا الْمُقَرَّبُ بِذَنْبِي فَاسْمَحُوا كَرَمًا	فَبَاعْتِرَافِي وَتَقْصِيرِي أَتَيْتُكُمْ
نَسِيتُ كُلَّ طَرِيقٍ كُنْتُ أَعْرِفُهَا	إِلَّا طَرِيقًا تُؤَدِّيَنِي لِرَبِّعُكُمْ

قيل : وإنما قال تعالى : (أسرفوا) بضمير الغيبة ؛ لئلا يعلم أحد منهم ، ولو قال : أسرفتم بضمير الخطاب لوقع الخجل . وقيل لما قال : ﴿ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر: ٥٣] تحير العصاة ، وقالوا : إذا كان إسرافنا على أنفسنا فقد هلكنا ، فقال تعالى : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء: ٧] . وقيل : إن سبب نزول هذه الآية أن وحشياً قاتل حمزة عم النبي ﷺ لما ألقى الله تعالى في قلبه الإسلام ، أرسل إلى النبي ﷺ وقال : يا محمد ، لقد أردت الدخول في الإسلام لولا آية نزلت عليك ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٨] ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ [الفرقان : ٦٩] فأنزل الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] . فأرسل بها النبي ﷺ إليه ، فقال : هذا بشرط التوبة ، ولعلي لا أتوب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] ، فأرسل النبي ﷺ بها إليه ، فقال : هذا بشرط المشيئة ، ولعله لا يغفر لي ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] ، فأرسل بها النبي ﷺ إليه ، فجاء وأسلم . وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل » متفق عليه . وفي رواية لمسلم : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار » ^(١) . وقال أبو ذر ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشرة أمثالها وأزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو

أغفر ، ومن تقرب إلي شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً أتيته بمثلها مغفرة » ، معناه : من تقرب إلي بطاعتي تقربتُ إليه برحمتي ، وإن زاد زدتُ ، ومن أتاني يمشي ، أي أسرع في طاعتي أتيته هرولة^(١) ، أي صبتُ عليه الرحمة ، وسبقته بها ، ولم أُحوِّجْهُ إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود ، وقراب الأرض ، بضم القاف وكسر ها معناه الذي يقارب ملء الأرض ، والله أعلم . قال أنس : قال رسول الله ﷺ : « إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا ، وأما المؤمن فإن الله تعالى يدخر له حسناته في الآخرة ، ويعقبه رزقاً في الدنيا لي طاعته » . وفي رواية : « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدنيا ، ويجزي بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل الله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يُجزي بها »^(٢) رواه مسلم . قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله تعالى فيه »^(٣) رواه مسلم . وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم »^(٤) رواه مسلم . وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أذنب عبد ذنباً ، فقال : أيُّ ربٍّ ، اغفر لي ذنبي ، قال الله عز وجل : أذنب عبي ذنباً ، فعلم أن له ربّاً يغفر الذنب ، ويأخذ به ، يقول الله تعالى : يا عبي ، قد غفرتُ لك »^(٥) ، هذا إذا أذنب فيما بينه وبين ربه ، لا يظلم غيره من المخلوقين ، فإن ظلم العبد نفسه إذا تاب العبد منه ، تاب الله عليه ، وإذا ظلم غيره ما له توبة إن لم يرضَ خصمه ، فإذا لم يرضه فجهنم من ورائه ، كما قال المولى العليم : (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيثون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم) . وعنه ﷺ : « كان في بني إسرائيل رجلان متواخيان أحدهما مجتهد والآخر مذنب ، فكان المجتهد يقول للمذنب : أقصر ، فيقول المذنب : خلني

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢١٦٢ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٢ / ٦٥٥ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢١٠٦ .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢١١٢ .

وربي ، فوجده المجتهد يوماً على كبيرة ، فقال : أقصر ، فقال المذنب : خلني وربي ، أبعثت رقيباً ؟ فقال : والله ، لا يدخلنك الله الجنة ، فبعث الله ملكاً فقبض أرواحهما ، فقال الله عز وجل للمذنب : ادخل الجنة برحمتي ، وقال للمجتهد : أكنت قادراً على ما في يدي ؟ أتستطيع أن تمنع عبدي رحمتي ؟ أدخلوه النار ، ثم قال ﷺ : لقد تكلم بكلمة أوبقته دنياه وآخرته ^(١) ، يعني القسم ، ذكره البزار ، وقيل :

يَا رَبُّ قَدْ حَلَفَ الْإِخْوَانُ وَاجْتَهَدُوا أَيْمَانُهُمْ أَنِّي مِنْ سَاكِنِي النَّارِ
أَيُحْلِفُونَ عَلَى عَمِيَاءَ وَيَحُهُم مَا ظَنُّهُمْ بِعَظِيمِ الْعَفْوِ غَفَّارِ

قال رحمه الله : وهذا يؤيد مذهب أهل السنة والجماعة ، وهو أنهم لا يقطعون للعاصي بالنار ، ويقولون : الكل في مشيئة الله تعالى ، من شاء عذبه ، ومن شاء رحمه ، إلا مَنْ ورد فيه النص عن النبي ﷺ ، وثبت أنه من أهل الجنة من السادة الصحابة ، ومن التابعين أويس القرني رضي الله تعالى عنهم ، حتى إن الإمام سعيد ابن المسيب - رحمه الله تعالى - قال : لو كنتُ شاهداً لأحد من أهل الجنة ، لشهدتُ لعبد الله بن عمر ، فإذا كان هذا عبد الله رضي الله تعالى عنه مع جلالة قدره لم يقطع له ابن المسيب بالجنة ، فكيف يقطع لغيره إلا مَنْ أتى فيه النص بالجنة كما ذكرنا فافهم ؟ والله سبحانه وتعالى أعلم ، وقيل في المعنى :

إِلَهِي بِزَمَزَمَ بِالْمُلْتَزَمِ بَطَلَهُ بِمَنْ طَافَ حَوْلَ الْحَرَمِ
أَجْرَنِي فَقَدْ أَوْبَقْتَنِي الذُّنُوبُ وَجُدْ لِي بِعَفْوِكَ يَا ذَا الْكَرَمِ

وقالت أسماء بنت عميس : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] . ولا يباي « ذكره الترمذي . قال أبو ذر ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تبارك وتعالى : كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيته فأسألوني أرزقكم ، وكلكم مذنب إلا من عافيته ، فمن علم أني ذو قدرة على المغفرة فاستغفري غفرت له ولا

أبالي». وفي بعض طرق هذا الحديث لمسلم: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم»^(١)، وقيل في المعنى:

مُقِرًّا بِالذُّنُوبِ وَقَدْ دَعَاكَ إِلَهِي عَبْدُكَ الْعَاصِي أَتَاكَ
وَأِنْ تُبْعِدْ فَمَنْ يَرْحَمُ سِوَاكَ فَإِنْ تَغْفِرْ فَذَا مِنْ وَفَضْلُ

قال عامر الدوسي رحمه الله: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ أقبل رجل وعليه كساء وفي يده شيء قد التفت عليه، فقال: يا رسول الله، مررت بغيسة شجر، فسمعت أصواتاً لأفراخ طائر، فأخذت فوضعتهم في كسائي، فجاءت أمهم فاستدارت على رأسي فكشفت لها عنهن، فوقعت عليهن، فلففهن في كسائي فهم أولاء، فقال: ضعهن، فوضعهن، فأبت أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله ﷺ: أتعجبون لرحمة هذه الأم للأفراخ، فوالذي نفسي بيده الله أرحم من أم الأفراخ بأفراخها، ارجع بمن حتى تضعهن من حيث أخذت وأمهن معهن، فرجع بمن كما أمره رسول الله ﷺ»^(٢) رواه أبو داود. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش»^(٣) رواه مسلم. وقال أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: «كان رسول الله ﷺ يوماً قاعداً متفكراً في ذنوب أمته وخطاياهم، فأشفق لذلك، فبينما هو كذلك، وإذا بطائر منطوم بالدر والياقوت من أحسن الطيور خلقاً قد وقع بين يديه، فجعل رسول الله ﷺ يتعجب من حسنه وصورته، ثم إن الطائر طار حتى أتى البحر، وكشف الله عن بصر النبي ﷺ حتى رآه، فأتى جزيرة من الرمل، فصار يأخذ بمنقاره من الرمل، ويرمي به في البحر زماناً، ثم طار حتى وقف بين يديه ﷺ وقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال له: وعليك السلام أيها الطائر، فقال: ألا تسألني من أين جئت؟ ولماذا فعلت ما فعلت؟ قال: رأيتك قد وصلت البحر، ورأيتك تأخذ من الرمل بمنقارك، ثم تلقى في البحر، قال: نعم، أردت أن أرُدَّ جري البحر، وأطمس أمواجه بما أخذ بمنقاري من الرمل، فتبسم رسول الله ﷺ، فقال الطائر: ما

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٩٩٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٣ / ١٨٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٦ / ٢٧٠٠.

أضحكك يا رسول الله أضحك الله سنك ؟ قال : قد عجبتُ من حسن صورتك وضعف عقلك ، وكيف تقدر أن تُردَّ ماء البحر بما تأخذ بمنقارك ، وما يبلغ ما تأخذه بمنقارك ؟ ! فقال : إن الله عز وجل ضربني لك مثلاً حين علم ما خطر ببالك ، والذي بعثك بالحق نبياً ، ما ذنوب أمتك في سعة عفوه إلا كما يأخذ الطائر بمنقاره ، ويجعله في البحر » ذكره صاحب كتاب الغرائب . وقال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما : « تلا رسول الله ﷺ قول إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] ، وقول عيسى ابن مريم : ﴿ إِنِ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، فرفع يديه ، وقال : اللهم ، أمتي أمتي ، وبكى ، فقال الله تعالى : يا جبريل ، انزل إليه وسله : ما يُكيِّك ؟ وهو أعلم ، فترل جبريل ، وأخبره بما قال الله له ، قال : يا جبريل ، اذهب إلى محمد ، وقل له : إنا سنرضيك في أمتك ، ولا نسوؤك فيهم » ذكره مسلم ، وقيل : لما أبعد إبليس - لعنه الله - وطُرد ونزل إلى الأرض هو وآدم ، قال : يا رب ، أنزلتني إلى الأرض ، وجعلتني شيطاناً مريداً ، وسلطتني على آدم وذريته ، فاجعل لي سلطاناً ، فقال الله تعالى : إنه لا يولد له ولدٌ إلا ولدٌ لك اثنان ، قال : يا رب ، زدني ، قال : ﴿ أَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ [الإسراء : ٦٤] ، قال : يا رب ، زدني ، قال : صدورهم لك مساكن ، قال : يا رب ، زدني ، قال : تجري منهم مجرى الدم ، قال : يا رب ، زدني ، وجعل لي طعاماً ، قال : ما لم يُذكر عليه اسمي ، قال : فاجعل لي شرباً ، قال : كل مُسكر ، قال : فاجعل لي بيتاً ، قال : الحَمَام ، قال : فاجعل لي مجلساً ، قال : الطرق والأسواق ، قال : فاجعل لي مصائد ، قال : النساء ، قال : فاجعل لي مؤذناً ، قال : المزمار ، قال : فاجعل لي قرآناً ، قال : الشعر . قال آدم : يا رب ، أنزلتني إلى الأرض ، وسلطت عليَّ إبليس ، فاجعل لي عليه سلطاناً ، قال : لا يُولد لك ولد إلا وكتُّ به ملكين يحفظانه ، قال : يا رب ، زدني ، قال : الحسنة بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بواحدة وأغفر ، قال : يا رب ، زدني ، قال : باب التوبة مفتوح ما دام في الجسد روح . « أتى في الخبر أن عبداً يوقف بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ، لا يعلم حسنة عملها في الدنيا ، فحال وقوفه يؤمر به إلى النار ، فيمضي ولا يلوي برأسه نحو ربه حياءً منه واعتراضاً بذنوبه ، ولمَّا في نفسه أنه ما عمل خيراً قط ، فعندما يقرب من النار ، ويتيقن

دخوله إليها ينادي الكريمُ جل جلاله : ارجعوا به ، فيرجع ، فيقول : مالك تقتحم النار من غير توقف ولا إعذار ؟ فيقول : يا رب ، ما أعرف لي حسنة عملتها في الدنيا ، وطالما عصيتك فلا أعصيك في الآخرة ، قال : فيشفق الباري عز وجل من كلامه ، ويقول : يا عبدي ، أنا أعرف لك حسنة ، فيقول : يا رب ، وما هي ، فيقول في الليلة الفلانية اضطجعت على ظهرك ، ونظرت إلى النجوم وزهرتها ، وللسماء وزرقتها ، وقلت : سبحان الخالق ، فهذه حسنة لم أنسها لك ، ولم أضيعها عليك ، وبها أغفر لك ، امضوا به إلى الجنة ، وقيل في المعنى :

يَا وَيْلَتِي مِنْ مَوْقِفٍ مَا بِهِ أَخَوْفُ مِنْ أَنْ يَعْدِلَ الْحَاكِمُ
يَا رَبُّ عَفْوَاً مِنْكَ عَنْ مُذْنِبٍ أَسْرَفَ إِلَّا أَنَّهُ نَادِمٌ
وَبَارَزَ اللَّهُ بَعْضُيَانِهِ وَلَيْسَ غَيْرُ اللَّهِ لِي رَاحِمٌ

وقيل : يُوقف بين يدي الله يوم القيامة عبد قد أدركه الخوف ، وداخله الذهول ، فيحاسبه على ذنوبه ، فيطلب منه حُجة يأتي بها أو عذراً يعتذر به ، فلا يهتدي إلى شيء لكثرة خوفه ، فيقول : يا ابن آدم ، ما غرك بربك الكريم ؟ فيقول عند ذلك : غربي كرمك ، فيغفر له . وقيل في المعنى :

أَلَا حَدَّثُونِي مَا رَجَائِي بِهِ يَقْوَى فَذَلِكَ أَشْهَى لِي مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى
وَرُبَّ عَلِيلٍ جَاءَهُ مِنْ طَبِيبِهِ بَشِيرٌ فَخَفَّتْ عَنْهُ مِنْ حِينِهِ الشَّكْوَى
أَيَا جَاهِلًا يَشْكُو إِلَى النَّاسِ مَا بِهِ وَيَرْجُوهُمْ فِي السَّرِّ مِنْهُ وَفِي النَّجْوَى
وَيَتْرُكُ مَنْ يُعْطِيهِ قَبْلَ سُؤَالِهِ وَيَصْرِفُ مَا يَخْشَى وَيَأْتِي بِمَا يَهْوَى
فَحَسِّنْ بِمَوْلَاكَ الظُّنُونِ وَلِذَلِكَ بِهِ فَإِنَّ رَجَاءَ اللَّهِ أَفْضَلُ مَا يُنْوَى
وَحَسْبُكَ مِنْهُ أَنْ يُلْقَنَ عَبْدُهُ مَقَالًا بِهِ يَنْجُو مِنَ الضَّرِّ وَالْبَلْوَى
يَقُولُ لَهُ : مَاذَا دَعَاكَ إِلَى الْهَوَى وَغَرَّكَ بِالمَوْلَى الكَرِيمِ الَّذِي سَوَى
فِيهِتَفُ : يَا مَوْلَايَ فَضْلُكَ غَرَّنِي فَخُذْ بِيَدِي إِنِّي عَلَى النَّارِ لَا أَقْوَى
فَيُنَجِّهِ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ بِفَضْلِهِ وَيَجْعَلُ جَنَاتِ النَّعِيمِ لَهُ مَاوَى
وَيَبْدُو لَهُ فِيهَا فَيَنْظُرُ وَجْهَهُ وَرُؤْيَا مَوْلَانَا هِيَ الْعَايَةُ الْقُصْوَى

قال رحمه الله تعالى : اعلم أنه إنما وردت هذه الأخبار في فضل الغفار ورحمته التي تسع الأخيار والأشرار ، من أمة سيدنا محمد المختار ، لكيلا يقنط العبد من رحمة ربه الحليم الغفار ، بحيث إذا وقع منه ذنب فيقول : قد هلكت ، وينام مصراً على عصيانه ؛ اعتقاداً منه أنه لا توبة له ، فهذا ظن سوء بربه وهو اعتقاد الكفار ، وربما يجهل التوبة لرغبته في المعصية ، فتجرئه على المعاصي وإصراره عليها ومدامته لها ، وربما ينعكس عند موته - كما ذكرنا وتقدم - ويصير من الكفار ، فواجب على كل مسلم مؤمن بالله واليوم الآخر ، أنه لا يذنب وإن قدر عليه ووقع الذنب يبادر إلى التوبة بالندم والإقلاع وعدم العود إلى الذنب والأوزار ، فإن « الكَيْسَ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْمَغْفِرَةَ » ، هكذا قال المصطفى المختار ﷺ فلا يطمع العاصي ، ويتجرأ على المعاصي ، ويتهاون فيما فرض الله عليه من الطاعات المفروضات المفصلة ، ويعتقد كما يعتقد الفجرة الجهلة من أنه إن كان قد كُتِبَ من أهل الجنة أو النار فلا تنفعه الحسنات ولا تضره السيئات ، فهذا ضل سعيه وأحبط الله عمله ، ولو علم فيه سبحانه خيراً وفقه وعلمه وألهمه طاعته ، ويكفى المرء الموفق قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [الليل ٥ : ١٠] ، وقول النبي ﷺ : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ^(١) ، فعبد اتقى الله ، وأخلص عمله حاشا كرمه أن يضيعه ، وانظر إلى قول رئيس الحكماء : « من عمل الخير فبنفسه بدا ، ومن عمل الشر فعلى نفسه اعتدى » ، وتصديق ذلك قول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] ، تالله لأهل الخير من سوء الخاتمة خائفون ، فما حال غيرهم وهم عاصون ظالمون ؟ وفي هذا إن شاء الله كفاية لأولي النهاية . واعلم أن السيد إذا أحب عبداً من عبيده ، وأراد أن يزيل طمع الغير منه أعابه بعب ، فيقطع الغير طمعه منه ، ويزيل العجب عنه ، فلذلك قدر الله المعصية على عبده المؤمن ليزيل صحبه ولا يطمع الغير فيه ؛ ألا ترى أن الخضر عليه السلام لما أراد إبقاء السفينة أعابها لما خرقتها ؛ والصدوق عليه السلام لما أراد إمساك بنيامين أخيه عنده رماه بالسرقة . وفي قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ

سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴿ [يوسف : ٧٧] يعنون يوسف ، ثلاثة أقوال : أحدها أن يوسف كان له جد يعبد صنماً ، وكانت أمه راحيل تكره ذلك ، فكانت تقول ليوسف : اسرق صنم جدك ليرى الشيخ عيب فعله . الثاني أنه كانت ليوسف عمّة ، وكانت تحبه حباً شديداً ، فكانت تحمله من عند أبيه وتمسكه عندها ، فيشتاق إليه يعقوب فيأخذه منها فتقل ذلك عليها ، فنام الصديق يوماً عندها ، فشدت على وسطه منطقة كانت لإسحاق ، ثم أقامته ووجهته إلى أبيه ، فلما خرج جعلت تصيح وتقول : سرقتَ منطقتي يا يوسف وأحبتُ أن تمسكه عندها . القول الثالث أن يوسف كان في صغره من إلهامه الخير كلما وضعت المائدة بين يدي يعقوب ، وقعد معه الصديق وإخوته للأكل يوفر من أكله رغيفاً ، ويجعل عليه من الإدام ، ويجعل ما وفره تحت المائدة ، فإذا فرغ من ذلك خرج وتصدق به ، فعد إخوته ذلك سرقةً وعيروه بها ، وقيل في المعنى :

يَا قَلْبُ لَا تَطْرَحْ سِلَاحَكَ كُلَّهُ جَزَعاً وَإِنْ بَانَ الْعَقِيقُ وَبَانَهُ

لَا غَرَوْا أَنْ تَجْنِي عَلَى فَضَائِلِي سَبَبُ احْتِرَاقِ الْمَنْدَلِي دُخَانُهُ

وهكذا دأبُ الصالحين يقصدون فعل الخير خفية حتى لا يعترضه التزين ، فيقع الرياء ، فيطيب القلب بالرياء ، فيبطل الأجر ، حتى كان الإمام أبو القاسم الجنيد - رحمه الله تعالى - في مبدأ أمره بزازاً فيقول لأهله : اعزلوا غداي ، فيأخذه ويمضي إلى الحانوت ، فيتصدق به ، فيظن أهله أنه ليأكله في حانوته ، وما يعلمون أنه كل يوم يصبح صائماً ، وكان له ورد فيصلي خلف الستر كل يوم بين الظهر والعصر ورده ، فيظن جيرانه بالسوق أنه يتغدى ، وإنما كان يصلي ورده ، وأخفى عنهم حاله ، كما أنه أخلص لله فعله ، هذا كان دأبه إلى أن صار من الأبدال ، وخصه بذلك الله الكبير المتعال ، وفي المعنى بعضهم قال :

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطِنَا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا

نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا

تَرَكُوهَا لُحْجَةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفْنَا

قال : فلما خرج إليهم الصديق أمر بالصُواع فأحضر بين يديه ، ففقر نقرة ، فسمعوا طنينها ، فقال : أستمعون ما يقول ؟ قالوا : لا ، قال : إنه يقول إنكم

ختمتم أبائكم في ولده الأول ، فارتعدت فرائضهم ، وقالوا : يا أيها العزيز ، استر علينا ما ستره الله ، وإنا نسألك بالذي فضلك علينا إلا رحمتنا ورحمت شعبة أئينا ، وأزلت كرب يعقوب ووحشتنا من بُعدنا عنه وانقطاعنا ، فلما ذكروا يعقوب ، قال لهم : لولا حق يعقوب ونسبه ورسالته ، لنتك منكم ما تستحقون ، فاخرجوا وغيبوا وجوهكم عني فلا حاجة لي بكم ، وقد رغب إلي في توجيهكم إليه وقدمكم عليه ، قالوا : فلعلك أن تردنا إلى أئينا بابنه الذي حبسته عندك ، فإنك لا تصله بصلة هي أسنى عنده من صرف ابنه وتوجيهه إليه ، فإن حبسته تضاعف بلاؤه ، فإن كان ولا بد كما قال الله تعالى : ﴿ فَخُذْ أَحَدًا مَّكَانَهُ ﴾ أي خذ واحداً منا تستعبده بدله ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٧٨] أي فما رأينا من إحسانك الجزيل يسهل عليك ما ذكرنا أن تأخذ عوضه واحداً منا ، ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أي أعوذ بالله أن يؤخذ البريء ، ويطلق الفاعل ، فإذا فعلنا ذلك ﴿ إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٧٩] ، فقالوا : أيها العزيز ، لا يمكننا أن نرجع إلى كنعان دونه ؛ لأننا أعطينا أبانا موثقاً لا نرجع إلا بأخيها ، فانظر إلينا ، فقال : اخرجوا عني ، فلا سبيل لكم إلى ذلك ، أما أخوكم فمحبوس في حبسي ، ومأخوذ بجرمته ، فضجوا لذلك ، وضاعت عليهم المسالك ، فتشاوروا بينهم ، فلم يروا وجهاً أصوب من الرجوع إليه ، والتملق بين يديه ، فدخلوا عليه ، وقالوا : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَّكَانَهُ ﴾ [يوسف : ٧٨] ، وهو هالك لا محالة إن لم ترحمه وترحمنا وأحانا ، وقيل في المعنى :

رَقُوا عَلَيْنَا فَإِنَّا أَهْلُ مَسْكَنَةٍ	رَفَقُوا وَلَا تَقْتُلُونَا يَا مَوْلَانَا
جَدْنَا بِأَنفُسِنَا فِي حُبِّكُمْ طَمَعًا	هَذَا لَعْمَرِكُمْ جَهْدُ الْمُقْلِينَا
مَا الْخَوْفُ أَنْ تَقْتُلُونَا فِي مَحَبَّتِكُمْ	وَأِنَّمَا خَوْفُنَا أَنْ تَأْتُمُوا فِينَا
إِنْ تَقْتُلُونَا سَتُحْيُونَا بِفَضْلِكُمْ	حَاشَا لِفَضْلِكُمْ قَتْلَ الْمُحْيِينَا

قال : وبنيامين مع ذلك كله في مجلس كريم وقصر عظيم ، ومع ذلك لم يكن على الصديق - اللهم صل وسلم عليه - في ذلك كله عتاب ولا ملامة ؛ لأن الله رضىه ، وجعل ذلك قصاصاً لهم لما سلف من فعلهم بأخيهم وكذبهم على أبيهم ،

قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٧٦] ، وإنما أضاف الكيد إليه ؛ لأنه سبحانه لا يمكن أحداً يعتب ولا يعترض عليه ، وما كان قصد الصديق تعذيباً بل تهذيباً حتى تطهر سرائرهم مما كان فيها ، ويرفع الله درجاتهم بالتوبة ويوفئها ، وقيل :

وَقَالُوا تَسْلَوْنَ عَنْ جَمِيلِ وِدَادِهِ فَهَذَا أَنَا مَجْرُوحٌ بِبَلِّ عِنَادِهِ
فَقُلْتُ لَهُمْ وَالطَّرْفُ تَجْرِي دُمُوعُهُ وَلَيْسَ لَهُ وَجْهٌ لِنَيْلِ رِقَادِهِ
وَمَا صَدَّ عَنِّي أَنَّهُ لِي مُبْغِضٌ وَلَا كَانَ قَتْلِي فِي الْهَوَى بِمُرَادِهِ
وَلَكِنْ رَأَى أَنَّ الْوَصَالَ يَزِيدُنِي جُنُونًا فَأَحْيَا مُهْجَتِي بِبِعَادِهِ
كَذَلِكَ يُقِيمُ الصَّبُّ عُذْرَ حَبِيبِهِ فَيَسْكُنُهُ فِي صَدْرِهِ وَفُؤَادِهِ

قال : فخرجوا عنه وقد داخلهم اليأس منه ، ونازلهم القنوط ، وعلموا أنه لا يرده معهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ أي انفردوا متناجين في ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيه . وهذه الآية من فصیحات القرآن ، حتى لو اجتمع الأدباء والفصحاء والبلغاء والفضلاء على أن يأتوا بمثلها لم يقدروا ، ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ أي يهوذا ، وفي قول : روبيل كان أكبرهم سنًا ، وقيل : في العلم والقوة ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ في حفظ بنيامين ورده إليه ، ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا قَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ أي قصرتم في أمره ، وخنتموه فيه ، يعني أن يعقوب قد أخذ عليكم العهود والمواثيق ، ومن قبل هذا أخذها علينا في يوسف ، فقطعنا رحمنا وظلمنا أخانا ، فذقنا وبال ذلك ، وقد أطلع الله الملك على أسرارنا ، وأظن أنكم لستم تنجون مما وقعتم فيه ﴿ فَلَنُأْبَرَحَ الْأَرْضَ ﴾ أي لن أخرج من أرض مصر ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ أي في الرجوع إليه ويتبين عذري لديه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بالأخ ، فأرجع إليه ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يوسف : ٨٠] أعد لهم ، أي هو خير من حكم في الأمور ، ثم قالوا : ندخل على الملك مرة أخرى ، فإن سمح لنا يرد أخينا معنا ، وإلا حاربناه بالقوة التي ركبها الله فينا ، وذلك أن الواحد من أولاد يعقوب كان إذا غضب انتفخ ، واقشعر جلده ، وخرج شعره من ثيابه ، فيخرج من تحت كل شعرة قطرة

دم ، فيضرب بقدمه الأرض فتزلزل ، ثم يصرخ صرخة فلا تسمعها حامل إلا وضعت ، ولا يسمعها أحد إلا أغشي عليه ، فإذا مسه أحد من أولاد يعقوب أو من نسله سكن غضبه ، وزالت قوته ، وصار كواحد من الناس ، وكان الصديق بالنسبة إلى علو مقامه وفضله على إخوته أشدهم قوة ، وأقواهم بأساً ، فقال يهوذا : اكفوني أهل مصر ، أكفكم الملك ومن معه ، أو اكفوني الملك ومن معه ، أكفكم أهل مصر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : وجه يهوذا أحد إخوته ، وقال : انظر كم أسواق مصر ؟ فقال : تسعة ، فقال : يا قوم ، كل واحد منكم لسوق ، وأقوم : أنا بالملك ومن معه ، قالوا : فتقدم أنت للملك ومن معه ، فدخل يهوذا مغضباً على يوسف ، فقال أيها الملك ، ردّ علينا أخانا ، وإلا صحت الآن في قصرك صيحة فلا تبقى حامل إلا وضعت ما في بطنها دماً عبيطاً ، ومات كل من يسمع صيحتي ، وكانت له شعرات بين كتفيه إذا غضب قامت وخرجت من الثياب ، فلا تسكن حتى تسفك دماً أو يمسه أحد من أولاد يعقوب أو من عقبه ، فقامت الشعرات التي تخرج من ثيابه ، فنظر إليه الصديق لعلمه بها ، فقال لولده الأكبر : قم وخذ بيد ذلك الرجل واثني به ، فقام الصبي إليه ، وأخذ بيده ، وأتاه به يقوده ، فزالت في الحال حدته ، وخمدت قوته ، ولانت شرته ، فالتفت يهوذا يميناً وشمالاً ليرى أحد إخوته فلم يرَ أحداً منهم ، فقال : والله ، لقد مسني أحد من أولاد يعقوب ، وهذا الملك مؤيد ، ومن تأييده يُنصر على أعدائه ، ثم خرج وقد طأطأ رأسه ، وارفض عرقاً ، فأتى إخوته ، فقال : مَنْ حضري الآن منكم ؟ فقالوا : والله ، ما حضر أحد منا إليك ، قال : وأين أخي شمعون ؟ قالوا : مضى إلى الجبل ليأتي بصخرة يشدخ بها رعوس مَنْ في هذا المنزل ، قال : هيهات ، لا ينفع ذلك ولا يرد شيئاً ، ثم مضى يهوذا في أثره ، وإذا شمعون قد أقبل بصخرة عظيمة ، فقال له : ارم بها ، فإنها لا تفيدك شيئاً ، أقسم بالله يا أخي ، إن في هذا المنزل رجلاً من أولاد يعقوب ، فالله بفضله يزيل الكروب ، وقيل في المعنى :

لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَحْسَبُ أَنِّي	جَلِيدٌ عَلَى حَرْبِ الْعَدَاةِ صَبُورٌ
وَأَنِّي إِذَا أَغْضِبْتُ صَحْتُ بِقُوَّتِي	فَعَادَرْتُ أَكْبَادَ الرِّجَالِ تَطِيرُ
فَهَا أَنَا قَدْ أَفْقِدْتُ بَأْسِي وَشِدَّتِي	وَصِرْتُ كَأَنِّي إِذْ لُمِسْتُ حَرِيرُ
فَهَلْ أَحَدٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ مَسَّنِي	أَجِيبُوا فَإِنِّي لِلْجَوَابِ فَقِيرُ

وَإِنْ تُضْمِرُوا حَرْبًا فَخَلُّوهُ وَيَحْكُمُ فَكُلُّ مَكِيدَاتِ الرَّجَالِ تَبُورُ
فَإِذَا مَلَكَ قَدْ سَدَّدَ اللَّهُ أَمْرَهُ وَخَصَّصَهُ بِالْأَيْدِ فَهُوَ نَصِيرُ
أَلَا فَاخْضَعُوا طُرًّا لَهُ وَتَذَلَّلُوا فَكُلُّكُمْ فِي رَاَحَتِيهِ أَسِيرُ

فقالوا ليهودا : أشر علينا ، فقال : « أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » [يوسف : ٨٠] ، وذكر أبو صالح قال : لما علم يوسف أن غضب يهوذا قد سكن ، قام إلى حجر من أحجار الطاحون ، وكان في فناء قصره فوكزه برجله ، فرماه خلف الحائط ، ثم جذب يهوذا جذبة كاد أن يلقيه ، ثم قال : يا معشر الكنعانيين ، أنظنون أنه ليس لأحد مثل قوتكم ، فعندها أظهروا التذلل والخضوع ، فلما رأى ذلك منهم داخل قلبه عليهم الخشوع ، وقال : قد عفوتُ عنكم ، إنما أردتُ أن أرىكم فضل قوتنا ، ثم نقر الصواع ، وقال : إنه يخبرني أنكم طرحتم أخاكم في بئر ، ثم أخرجتموه ، وبعتموه بثمن بخس يسير ، فأنكروا وقالوا : لعل الملك قد سمع غلطاً ، فأخرج الكتاب الذي كتبوه يوم يبيعهم له بخطوطهم ، فقال : هذا الكتاب وجدته في خزائني ، وفيه مكتوب بالعبرانية ، فاقرعوه وفسروه لي ، فأخذه يهوذا ونظر فيه ، ثم قال : يا روبيل ، أتعرف خطك ؟ فلما رآه روبيل داخله الجزع والدهش ، ونكسوا رعوسهم وأطرقوا ، وقيل في المعنى :

وَلِي حَبِيبٌ عَزِيزٌ لَا أَبُوحُ بِهِ أَحْشَى فَضِيحَةً وَجْهِي حِينَ أَلْقَاهُ
أُغَالِطُ النَّاسَ طُرًّا فِي مَحَبَّتِهِ وَفِي الْأَغَالِيطِ سِرٌّ دَقٌّ مَعْنَاهُ
أُرِيهِمْ أَنَّنِي فِي غَيْرِهِ دَنَفٌ وَلَيْسَ يَعْلَمُ مَا أَلْقَاهُ إِلَّا هُوَ

قال : فقال الصديق : ما لكم صَمْتُكُمْ ؟ فقالوا : أيها الملك ، هذا كتاب كتبناه لعبد بعناه كان لنا ، قال : فأخبروني ما فيه ، فقرأه روبيل كما تقدم ، فقال الصديق : ويحكم ، لقد جئتم بما لا يليق ، فلو كنتم كما تقولون ما ارتكبتم من صغركم ما ارتكبتم ، ثم نقر الصواع ، وأدناه منه ، وقال : إنه يخبرني أن أخاكم الذي ترعمون موته حي ، وأنه سيرجع يخبر الناس بصنيعكم معه ، ثم نقره وقال : إنه يقول : إنكم فرَّطتم في أخيكم ، وكذبتهم على أبيكم ، وكل ما دخل أبيكم من الهم والحزن

والعمى فمن أجلكم ، ثم نقره وقال : إنه يقول : إنكم أذنبتم هذا الذنب ، وما زلتم عليه مصرين ، ولم تتوبوا منه ، ولم تستغفروا الله ؛ لأصيرنكم نكالا للعالمين ، ولأذيقنكم العذاب الأليم ، عليّ بالحدادين حتى أقطع أيديهم وأرجلهم أجمعين ، فلما سمعوا ذلك ضاق ذرعهم ، وسالت مدامعهم ، وبكوا وخضعوا وندموا على ما أسلفوا ، فقال لهم يهوذا : هذا ما حذرتكم منه يوم فعلتم بأخيك ما فعلتم ، وقلت لكم : إن الله لبالمرصاد ، ولا يترك ظلم العباد ، وكل عامل يلقي عمله من خير أو شر فعله ، فكيف يكون حال الشيخ الضعيف إذا بلغه فقد أولاده جميعا ، وقد أصابه ما أصابه لفقد يوسف ، فتوبوا إلى ربكم ، وأشهدوا هذا الملك الجليل قدره بالتوبة ، ففعل الله الرؤوف الرحيم أن يمن عليكم بالتوبة ، وأن يشفق الملك عليكم فيردكم بأجمعكم إلى أبيكم ، وقيل في المعنى :

هَلْ إِلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحُ طَرِيقُ إِنَّ نَفْسِي لِمَا جَنَنْتُهُ تَضِيقُ
دَنْتُ دِينَ الْعَصَاةِ سِرًّا وَجَهْرًا لَمْ يَكُنْ لِي مِنَ الْخِيَارِ صَدِيقُ
أَنَا فِي قَبْضَةِ الذُّنُوبِ أَسِيرٌ لَيْتَنِي مِنْ وَثَاقِهِنَّ طَلِيقُ
عَمَلِي مُثْقَلٌ وَحِمْلِي وَثِيقُ وَالَّذِي أَرْتَجِيهِ رَبُّ شَفِيقُ
ذَلِكَ اللَّهُ سَيِّدِي وَمَلَاذِي فَهُوَ لِي مَلَجًا وَرُكْنٌ وَثِيقُ

قال : فبكوا جميعا ، وقالوا : اعترفنا بذنوبنا ، وتبنا مما كسبت أيدينا ؛ ولئن من الله علينا برد أخينا يوسف ، لنكونن ترابا تحت قدميه ، ولم نزل بين يديه ، ولنقبلن رأسه ، فلما سمع الصديق مقالهم ، ورأى حالهم ، فاضت عيناه بالدموع ، وقال : إلى متى أقلقل قلوب إخوتي ، إنما كان حرصي وفعلي ذلك بهم لأجل توبتهم وزوال الإصرار من قلوبهم ، فأمر أن يُخلّى سبيلهم ، وينصرفوا إلى أبيهم ، وقال لهم : أما أنا فلا أسرح لكم أخاكم بوجه ولا على حال ، فلما استياسوا منه تشاوروا ، فقال لهم يهوذا : أما أنا فما لي وجه ألقى به والدي ، ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا آبائنا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا ﴿ [يوسف : ٨٠ ، ٨١] ، يعنون في أظاهر الأمر ؛ لأنه وجدت السرقة في رحله ، ونحن ننظر ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ [يوسف : ٨١] أي ما كنا نحفظه ، ولا نعلمه إذا غاب عنا ، ﴿ وَأَسْأَلِ

الْقَرْيَةِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ۙ أَيُّ أَهْلِ الْبَلَدَةِ ، ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۙ ﴾ أَيُّ أَهْلِ
الرَّفْقَةِ ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف : ٨٢] فيما ذكرنا ، وقد وصفنا لك الأمر
على ما وجدناه ، فلما رجعوا إلى أبيهم ، قالوا هذا وهم ثمانية ، وتأخر منهم في
مصر ثلاثة : يهوذا وشمعون وبنيامين ، فلما أقبلوا عليه قال يعقوب : ما لي أراكم
ثمانية ؟ قالوا : يا أبانا ، إن بنيامين سرق صُواع الملك فحبسه واستعبده ، وأما
يهوذا وشمعون ، فإنهما تخلفا عنك حياء منك ، وقالوا : لا نبرح من ههنا حتى يأذن
لنا أبونا أو يحكم الله لنا ، فلما قالوا ذلك ساء ظنه وقويت كهمتهم عنده ، وقال :
كلما توجهتم ذهب واحد منكم ؟ ثم تضاعف حزنه ، وتزايد قلقه حيث كان يعاني
هم يوسف وحده ، فتزايد هم الثلاثة ، ولسان حاله ينشد عنه :

لَقَدْ صَدَقْتَ مِنِّي الظُّنُّونَ الْكَوَاذِبُ	وَنَالَ الَّذِي يَبْغِي الْعَدُوَّ الْمَحَارِبُ
وَأَنْفَذَ سَهْمَ الْبَيْنِ وَالْبُعْدُ مُقْلَتِي	وَضَاقَتْ لَمَّا أَلْقَى عَلَيَّ السَّبَاسِبُ
وَفُرِّقْتُ مِنْ قَوْمٍ كِرَامٍ أُحِبُّهُمْ	فَمِنْهُمْ أَسِيرٌ فِي الْوَنَاقِ وَغَائِبُ
وَمِنْهُمْ طَرِيدٌ قَدْ تَمَادَى غِيَابُهُ	وَمِنْهُمْ شَرِيدٌ ضَايَقَتْهُ الْمَذَاهِبُ
وَإِنَّ ضِيَاءَ الْعَيْنِ وَيَحْيَ فَقَدْتُهُ	فَسَاعَاتُ يَوْمِي كُلُّهُنَّ غِيَاهِبُ
فَمَنْ ذَا الَّذِي أَبْكِيهِ مِنْهُمْ وَكُلُّهُمْ	حَيِّبٌ بِهِ مِنْهُ تُنَالُ الرِّغَائِبُ
مَصَائِبُ شَتَّى جُمِعَتْ فِي مُصِيبَةٍ	وَلَمْ يَكْفِهَا حَتَّى قَفَّتْهَا مَصَائِبُ

قال : ثم قال يعقوب عليه السلام : وما سرق ابني ؟ قال : صُواع الملك ، أخرجته من رحله
وقد حبسه الملك بجنايته وغيبه عنا ، وأردنا محاربتَه فإذا هو أشد قوة منا ، ولكن
صرفه الله عنا بعد أن هم أن يؤذينا ببركة دعائك لنا ، ونحن لا ندري أسرق أخونا
أم لا ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ۙ ﴾ أَيُّ أَهْلِ الْقَرْيَةِ وَالْعِيرِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴿ وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف : ٨٢] ، وقد وصفنا لك الأمر على جليته ، وألقيناه إليك
على أصله ، ولقد لقينا من الذل والهوان والتردد والامتحان ما لو اطلعت عليه
لساءك ، وقد علم الناس حالنا وشاهدوا ما كان منا ، فلما سمع مقالهم قال : ﴿ بَلْ
سَوَّلْتُ لَكُمْ ﴾ أي زينت لكم ﴿ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ أخرجتم بنيامين من عندي رجاء
منفعة ، فعاد من ذلك شر وضرر ، ولعلكم فعلتم في بنيامين ما فعلتم في يوسف ،

فلا أصدقكم ولا أكذبكم ، بل أرد أمري إلى الله ، وأصبر صبراً جميلاً لا جزع فيه ولا شكوى إلا لمن قدر البلوى ، وهكذا يكون المؤمن يتمسك بالصبر عند الشدائد والنقم ، والشكر عند التفضل والنعم ، ثم قال : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ٨٣] . لما عظم بلاؤه زاد رجاءه ، والكرب كلما اشتد بالعبد الكتيب جاءه الفرج القريب . قال رسول الله ﷺ لما بلي بالشدائد اشتدي أزمة تنفرجي ^(١) ، وقيل لما فقد ولده يوسف قال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ [يوسف : ٨٣] ، فتعلق بالصبر ، ونسي حسن الظن بالرب ، فزيد كربه بفراق بنيامين ، فلما فقدوه ومن معه من إخوته ، رجع إلى الصبر والرجاء لرب العالمين قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ٨٣] ، فأجابته سبحانه سريعاً ، وأراحه من البين ، ورد عليه ضياء العين ، وجمع بينه وبين الاثنين ، وقيل في المعنى :

لَا تَجْزَعَنَّ لِحَادِثٍ كُلِ الْأُمُورَ لِفَعْلٍ قَادِرٍ
فَلْتَنْظُرَنَّ بِمَا تَحَا وَلِ أَوْ يُصِيبَكَ مَا تُحَاذِرُ
وَإِذَا تَضَايَقَتِ الْأَوَا نِلْ سَوْفَ تَنْفَرِجُ الْأَوَاخِرُ

قال الله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عن بنيه ، وتجدد وجدده بيوسف وازداد ، ﴿ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أي يا طول حزني عليه ، ﴿ وَابْتَئِضْتُ عَيْنَاهُ ﴾ ، وانقلب سوادها بياضاً ، فلم يصبر بهما من الحزن : أي من البكاء ، فلهذا عند الحكماء أن كثرة البكاء تورث العمى ، قال الله تعالى : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤] أي مغموم مكروب ، لا يظهر حزنه بجزع ولا شكوى ، بل يردد حزنه في جوفه ، ويكتمه عن غيره حتى طلع عليه عالم السر والنجوى ، ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ ﴾ أي لا تزال (تذكر يوسف) لا تفتر عن ذكره ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً ﴾ أي ضعيفاً مُبتلى ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ [يوسف : ٨٥] أي الميتين ، فلما

(١) أخرجه الشهاب في مسنده ١ / ٤٣٦ ، والدليمي في مسند الفردوس ١ / ٤٢٦ ، ولوائح الوضع بادية عليه .

أغلظوا عليه في القول ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي ﴾ أي ما بي من البث ، وهو الهم الذي تفشيه إلى صاحبك ﴿ وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ لا إليكم ، أي ذكر مصيبي لربي ، وأشكو شدتها إليه ، ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٨٦] أي أنا أعلم منكم بربي ، وقيل في المعنى :

يَا وَاحِدُ جَلَّ عَنْ نَدٍّ وَعَنْ عَدَدٍ أَشْكُو إِلَيْكَ وَلَا أَشْكُو إِلَى أَحَدٍ
مَاذَا أَقُولُ وَمَا لِلْقَوْلِ فَائِدَةٌ أَنْتَ الْعَلِيمُ بِمَا قَدْ حَلَّ فِي خَلْدِي
إِنِّي لَأَنْظُرُ عَنْ يَسْرِي وَمِمْنتِي فَلَا أَرَى غَيْرَ ذِي عَذَلٍ وَذِي فَنَدٍ
هَذَا يُلُومُ وَهَذَا لَيْسَ يَعْذُرُنِي كَأَنَّ مَا بِي شَيْءٌ قَدْ جَنَّتْهُ يَدِي
يَا رَبُّ قَدْ حَلَّ بِي مَا إِنْ أُعْبِرَهُ أَنْتَ الْعَلِيمُ فَخُذْ يَا سَيِّدِي بِيَدِي

قال : يا من ضج من الكرب ويصيح ، خل التدبير لمن خلقك ، واشكُ إليه تستريح ، تكثر النحيب والعيول ، وتريد أن يمحى عنك فعل الويل ، لو رجعت إليه بقلبك لعجل لك بتفريج كربك ، لو صح يقينك لما أسلمك معينك ، لو صحت المعرفة لزال العلل المجحفة ، أنت أصل دائك ، أنت المعرض عن دوائك ، أنت الزاهد عن رشادك ، أنت العامل على إبعادك ، أنت الجالب لنكالك ، أنت الجامع لأنكالك ، أنت الفارُّ من نعيمك ، أنت الطالب لزقومك وحييمك ، من ذا الذي لاذ بالمولى فأسلمه ؟ من ذا الذي أطاعه حقيقة فما أكرمه ؟ ولو أنهم عند حل العقود ونبد الوداد وبدء الصدود وخلعهم لثياب الحياء ونقضهم لصحيح العهود أناخوا بأبوابنا ساعة ، وأجروا مدامعهم في الخدود لعدنا سراعاً إلى وصلهم وقلنا قلوب المحبين عود .

(حكاية) : كان في بني إسرائيل رجل من خيارهم ، وكان له كثير المال ، وله ولد صالح ، فلما حضر الوالد الموت قعد ولده عند رأسه ، وقال : ألا توصيني يا أبت ؟ قال : يا ولدي ، لا تحلف صادقاً ولا كاذباً ، يعني بإلهه خوفاً من أن تقع في الكذب فتحنث فتأثم ، فبذلك أوصاه ، فما حال من يتهاون بالحلف بالطلاق ، ويعاشر زوجته حراماً ، لا شك أن جهنم مأواه ، قال : ثم إن الرجل مات ، فتسامع الناس بوصيته ، فبلغ فساق بني إسرائيل ، فصار الرجل منهم يأتي إلى الولد ، ويقول : لي عند أبيك كذا وكذا ألفاً ، فأعطني مالي أو احلف ، فيتوقف عن يمينه لوصية أبيه

له ، فيعطيه ما طلب ، فلم يزل يتردد إليه الفساق إلى أن فني ماله ، واشتد إقلاله ، وكان له زوجة صالحة وولدان صغيران ، فقال لزوجته : إن مطالبة الناس لي قد كثرت ، وقد نفذ المال ، وليس معي شيء ، فلنفراً بأنفسنا إلى بلد لم نعرف فيه ، فنعيش بين أظهر الناس ، فركب البحر بها وبولديها ، لا يعرفان إلى أين يقصدان

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد : ٤١] ، وقيل في المعنى :

يَا خَارِجًا خَوْفَ الْعِدَا مِنْ دَارِهِ وَالْيُسْرُ قَدْ وَاثَاهُ عِنْدَ فِرَارِهِ
لا تَجْزَعَنَّ مِنَ الْعِبَادِ فَرِمَا عَزَّ الْغَرِيبُ لَطُولِ بُعْدِ مَزَارِهِ
لَوْ قَدْ أَقَامَ الدُّرُّ فِي أَصْدَافِهِ مَا كَانَ تَاجُ الْمُلْكِ يَبْتَ قَرَارِهِ

قال : فبينما هم سائرون إذ أحاطت الأمواج بالسفينة فانكسرت ، فبقي الرجل على لوح ، والمرأة على لوح ، والولدان على لوح ، وفرقتهم الأمواج ، فحصلت المرأة في بلد ، والولد الواحد في قرية ، والآخر حصل في سفينة أخرى التَّقَطَّ فيها من البحر ، وأما الرجل فقذفه الموج إلى جزيرة منقطعة حصل فيها ، فتوضأ فيها ، وأذن وأقام الصلاة ، فإذا قد خرج من البحر أشخاص بألوان مختلفة فصلوا بصلاته ، فلما فرغ قام إلى شجرة في الجزيرة ، فأكل من ثمارها ، فزال عنه جوعه ، ثم وجد عيناً من الماء عذبة فشرب منها وحمد الله تعالى ، فبقي ثلاثة أيام يصلي ويخرج من البحر أقوام يصلون بصلاته ، فلما كان بعد ثلاثة أيام إذا بمناد ينادي : يا أيها الرجل الصالح البار بأبيه ، الجمل قدر ربه ، لا تحزن فإن الله يخلف عليك ما خرج من يديك ويرده عليك ، من كان باراً بأمه وأبيه فالله بفضله يكفيه ، إن في هذه الجزيرة كنوزاً وأموالاً ومنافع يريد الله أن تكون لها وارثاً وفيها عامراً ، وهى في موضع كذا وكذا من الجزيرة ، فاكشف عنها ، وإنا نسوق إليك السفن ، فأحسن إلى الناس وادعهم إليك ، فإن الله تعالى يُمِيلُ قُلُوبَهُمْ إِلَيْكَ ، فقصص تلك المواضع من الجزيرة ، وكشف الله له تلك الكنوز ، وصارت السفن تأتي إليه ، فيحسن إحساناً عظيماً لمن أقبل من الناس إليه ، ما أحسن الإحسان ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة يقولها الإنسان ، وقيل في المعنى :

أَحْسِنِ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعِيدُ رِقَابَهُمْ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِحْسَانُ إِنْسَانُ
فَإِنْ أَسَاءَ مُسِيءٌ فَلْيَكُنْ لَكَ فِي عُرُوضِ زَلَّتِهِ عَفْوٌ وَغُفْرَانُ

قال : وكان يقول للواردین علیہ : لعلکم تُدلون علی العمال والفقراء ، فإني أعطيهم كذا وكذا ، وأجعل لهم كذا ، فصار الناس يأتونه من الأقطار ، فلم يأت عشر سنين إلا والجزيرة قد عمرت ، والولد البار مالکها وملکها ، ولا يأتيه أحد إلا يحسن إليه حتى شاع ذكره ، وكان ولده الأكبر قد حصل عند رجل علمه الأدب ، وكذا أخوه الأصغر لطف الله به ، وساق إليه رجلاً من أهله أخذه وأدبه ورباه وأحسن تربيته وعلمه طريق التجارة ، وحصلت المرأة عند رجل من التجار ائتمنها على ماله لما توسم فيها الخير ، وعاهدها أن يعينها على رضا الله تعالى وطاعته ، فكان يسافر بها في السفن إلى البلاد يتغى الفوائد والرزق الحلال من فضل رب العباد ، فسمع الولد الكبير عن ذلك الملك فقصده ، فأوقع الله في قلبه حبه وهو لا يعلم من هو ، ومال إليه الملك فاستكتبه ، وأخلص له وده وسره ، ومن حبه ائتمنه ، سمع الولد الآخر أيضاً بالملك فقصده ، فحظي عنده ، ووكله على النظر في أموره ، ولا يعرف كل منهم الآخر ، بل هو الله مولاهم كما فرقهم جمعهم وأراهم آمالهم ، فبقي الأخوان برهة من الزمان في خدمة الملك والدهم ، واجتماعاً به بعد إبعادهم ، وسمع التاجر الذي عنده المرأة عن الملك والإحسان المنسوب إليه ، فانتقى من الثياب الفاخرة والتحف اللاتقة ليُقدم بها عليه ، وأتى بسفينة والمرأة معه حتى أرسى على الجزيرة التي صارت مدينة ، ثم نزل إلى الملك وقدم له هدية ، فاستظرف الملكُ بها ، وسُرَّ بها سروراً كثيراً ، وأمر للرجل بجائزة سنية ، وكان في هديته عقاقير ، وأراد الملك من التاجر أن يُعرِّفه بأسمائها ومصالحها وقال : تبيت الليلة عندنا ، فقال : أيها الملك ، إن لي في السفينة وديعة عاهدتها أن لا أكل أمرها لغيري ، وهي امرأة صالحة ظهرت لي بركتها ، فقال الملك : إني سأبعث إليها أمناء يبيتون عندها ، ويحرسون ما لديها ، فأجابه التاجر إلى ذلك ، وبقي عند الملك ، فوجه الملك كاتبه ووكيله وهما ولداها ، وقال : تحرسان سفينة هذا الرجل الليلة من غير أن تناما إن شاء الله ، فلما ذهباً صعدا السفينة ، وجلس أحدهما في مقدمها ، والآخر في مؤخرها ، فذكرا الله تعالى وقتاً من الليل ، ثم قال الواحد للآخر : يا فلان ، إن الملك قد أمرنا بالحراسة ، ونخاف النوم ، فتعال نتحدث بأخبار الزمان ، وما رأينا من الخير والامتحان ، فقال الآخر : أما أنا يا أخي فمن امتحاني أن فرق الدهر بيني وبين والدي وأمي وأخ لي كان اسمه كاسمك ركب والدنا بنا البحر من بلد كذا وكذا ، فانكسرت السفينة وفرق الله شملنا ، فلما سمع أخوه مقالته قال : وما كان اسم والدك ؟ قال : فلان وأمي فلانة ، قال فقام كل واحد إلى أخيه يقول : أنت أخي ورب الكعبة ، ثم قال أحدهما للآخر :

يا أخي حدثني بأمرِكَ من صغركَ إلى الآن بما لقيتَ ، فجعل يحدثه والأم تسمع إلى ما حلا على قلبها ووقع ، فكتمت أمرها ، فيا عظمَ سرورها لما سمعتُ ما أسرها ، فلما طلع الفجر قال الواحد للآخر : سر بنا يا أخي نتحدث في منزلي ، قال نعم ، وأما التاجر فتوجه إلى السفينة ، فوجد المرأةَ كاظمة : ظاهرها حزن وباطنها سرور ، فقال يا أختي ، ما لك ؟ فقالت : بعثت إليَّ مَنْ أقلقني ، ولم أتم الليلة منهما على ما بلغني ، فظن التاجر أنهما أغضبها بقصد سوء ، فغضب من ساعته ، وتوجه إلى الملك وأحيره ، فأمر بإحضارهما ، وكان الملك يتحقق أمانتهما ، ويعرف براءتهما ، فلما حضرا قال : عليَّ بالمرأة ، فلما حضرت قال لها : ما رأيت أيتها المرأة من هذين الرجلين ؟ فقالت : أيها الملك ، أسألك بمولاك إلا ما سألتهما يعيدان كلامهما الذي تحدثا به البارحة ؟ فقال الملك : قولا ما قلتماه ولا تكتماه ولا تخافا الذي أسمعتما هذه المرأة ، فأعادا كلامهما ، فإذا الملك قام من على سريرهِ وصاح صيحة وكذا المرأة ، وترامى كل واحد على الآخر وقال : والله ، أنتما ولداي ، وقالت المرأة : والله ، أنا أمهما ، فجمع الله شملهم ، وألَّفَ بينهم بعد تفريقهم وتشتيتهم ، فسبحان من إذا قصده قاصد نبجاه ولم يخيب فيه رجاه ، ولسان حالهم يقول :

لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ مِيقَاتٌ	وَالْأَمْرُ فِيهِ أَخِي مَحَوٌّ وَإِبْثَاتٌ
لَا تَجْزَعَنَّ لِعُسْرِ قَدْ دُهِيَتْ بِهِ	فَالْيُسْرُ آتٍ بِذَا جَاءَتْكَ آيَاتُ
وَرُبَّ ذِي كُرْبَةٍ بَأْتَتْ مَضَرَّتُهَا	لَهُ وَبَاطِنُهَا فِيهِ الْمَسَرَّاتُ
وَكَمْ مُهَانَ عِيُونُ النَّاسِ تَنْظُرُهُ	مِنَ الْهَوَانِ فَتُعْشِيهِ الْمَبْرَاتُ
هَذَا الَّذِي نَالَهُ فَقْرٌ وَكَابَدَهُ	ضُرٌّ وَحَلَّتْ بِهِ فِي الْوَقْتِ آفَاتُ
وَفَرَّقَ الشَّمْلَ مِنْهُ بَعْدَ أُفَّتِهِ	فَكُلُّهُمْ بَعْدَ طَوْلِ الْجَمْعِ أَشْتَاتُ
أَعْطَاهُ مَوْلَاهُ خَيْرًا ثُمَّ جَاءَ بِهِمْ	وَفِي التَّجَمُّعِ لَوْ تَذَرَى إِشَارَاتُ
سُبْحَانَ مَنْ عَمَّتِ الْأَكْوَانُ قُدْرَتُهُ	وَأَخْبَرَتْ بِتَدَانِيهِ الدَّلَالَاتُ
فَهُوَ الْقَرِيبُ بِلا حَدٍّ يَكِيفُهُ	عَقْلٌ وَلَا فِي تَدَانِيهِ الْمَسَافَاتُ
قَدْ خَصَّنَا بِنَبِيِّ شَرْعُهُ حَسَنٌ	صَلَاةِ رَبِّي عَلَيْهِ وَالتَّحِيَّاتُ

المجلس السابع عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧] .

الحمد لله ناشر كل طي وميت كل حي ، الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ، خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة أمشاج كاللعاب ، وكتب على جبينه ما قضاه عليه في أم الكتاب ، سبحانه وتعالى عما يقول الآفكون ، رفع السماء وزينها بالنجوم ، ودحا الأرض ونمقها بالرقوم ، وأوتدها بالجلال الراسيات فاستقرت على التخوم ، وإذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، أجرى الأنهار بالماء النмир ، وأخرج الأقوات وقسمها بالتقدير ، وأنبت الحبوب والفواكه والثمار ، فلكل واحد منها مطعم يعرفه الكبير والصغير ، و ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠] ، جعل الدنيا دار أشتات وزوال ، وامتنح فيها الأنبياء والأولياء والأرسال ، وأوصاهم بالصبر على الحن والبلايا العضال ، وقال لنبيه حين أسف على أهل الضلال : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨] ، أحمله على ما يوليه من نعمه ، وأشكره على إحسانه وكرمه ، وأقر ببقائه وقدمه ، وأنزهه عن إدراك اللحظات وخطرات الظنون ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أجدها في يوم تشخص فيه الأبصار وتطيش الأفكار وتحيط الأوزار ويندم المفرطون ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ذو البهجة الباهرة والحجة القاهرة والطلعة الزاهرة والحببة البينة الطاهرة ، الذي لم يزل صادعاً بما قلده حتى أتاه اليقين وغاب عن العيون ، واختلى بمولاه فقربه وأدناه وجعل مقامه أعلى المقامات يغطيه فيه الأولون والآخرون ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وأصحابه الأطهرين وعترته والتابعين ما تعاقبت السنون ولزمت الطيور الغصون وناح كل مصاب ومحزون ، وقيل :

وَقَلْبُهُ بِسِهَامِ الشَّقَوِّ مَكْثُومٌ
وَمُتَّحَتِي طَوْعُهُ فَالْلُبُّ مَحْكُومٌ

صَبْرُ الْحَبِّ عَنِ الْمَحْبُوبِ مَذْمُومٌ
أَيْحَسُنُ الصَّبْرَ عَمَّنْ مُلْكُهُ جَلْدِي

إِنَّ قُلْتُ أَهَأَ دَرَى مَا قَدْ أَشْرْتُ لَهُ وَإِنْ سَكَتُ فِسِرُ السِّرِّ مَعْلُومُ
 يَلْدُ عِنْدِي تَعْذِيبِي وَيَعْذِلْنِي وَمَا أَنَا فِي الَّذِي يُدِيهِ مَظْلُومُ
 فَالصَّبْرُ يَحْسُنُ إِلَّا عَنْهُ وَيَحْكُمُ إِنَّ الصَّبْرَ عَنِ الْأَحْبَابِ مَحْرُومُ
 قَدْ غَبْتُ عَنِّي بِهِ فِي كُلِّ آوَنَةٍ حَتَّى فَنَيْتُ وَمَنْ أَهْوَاهُ قَيُّومُ
 وَرَأْيَةُ الْحُبِّ فِي الْأَحْشَاءِ خَافِقَةٌ وَرَقْمُ طُرَّتْهَا بَادٍ وَمَرْسُومُ
 لَوْ قَطَعُونِي فِي مَرْضَاتِهِ قِطْعًا مَا قُلْتُ لَمْ إِنَّهُ فِي حُبِّهِ لَوْمُ
 يَا مَنْ تَبَاتُ رَجَاءِ الصَّابِرِينَ بِهِ أَمُنُّ عَلَى فَجَيْشِ الصَّبْرِ مَهْزُومُ

قال : لما كان الصبر في الشدائد يجلب المنن والفوائد ، ويورث العلو على كل معاند ، ويرغم أنف كل حاسد ، أمر الله به رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأوصى به أصحابه الكرام ، وأمرهم أن يبلغوها كل من دخل في دين الإسلام ، قال رسول الله ﷺ لأحد أصحابه الكرام : « عليك بالهجرة ، فإنه لا مثل لها ، وعليك بالصبر فإنه لا مثل له ، وعليك بالسجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط بها عنك خطيئة » ^(١) في رواية ذكرها النسائي . وقال ابن عباس : « كنت بين يدي رسول الله ﷺ فقال : يا غلام ، أو قال : يا بني ، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فقد جف القلم ، فلو أن الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن يضروك بشيء لم يقدره الله عليك لم يقدروا عليه ، واعمل لله بالشكر واليقين ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وإن النصر مع الصبر ، وإن مع العسر يسراً » ^(٢) رواه النسائي . وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إن المعونة تأتي من الله

(١) أخرجه النسائي في الكبرى ٤ / ٤٢٦ ، والمجتبى ٧ / ١٤٥ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٤ / ٦٦٧ ، والحاكم في مستدركه ٣ / ٦٢٣ ، والضياء في المختارة ٢٣ / ١٠ .

على قدر المثونة ، وإن الصبر يأتي من الله على قدر البلاء » ^(١) ذكره البزار ، وقال على رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « من رضي بالقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل - يعني من النوافل - وانتظار الفرج بعد الصبر عبادة » ^(٢) رواه ابن عبد البر . وقال خباب بن الارت ﷺ : « شكونا إلى رسول الله ﷺ ما نلقاه وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تدعو لنا ؟ ألا تستنصر لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فُتحفر له في الأرض حفرة ، فيجعل فيها ، ثم يجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيجعله نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما يصدده ذلك عن دينه ، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » ^(٣) ذكره البخاري . وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإذا أحب الله قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » ^(٤) ذكره الترمذی . وقال سعد ﷺ : « قلت : يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأئمة فالأئمة ، فيبتلى الرجل على قدر دينه ، فلا يبرح البلاء عن العبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » ^(٥) ذكره الترمذی . وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد بعبد الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة » ^(٦) هذا معناه - والله أعلم - في حق المؤمن الخالص المخلص الذي هو على الكتاب والسنة ، بحيث إذا ابتلى في الدنيا بشيء يكون تكفيراً لسيئاته ، ورفعاً في آخرته لدرجاته ، وأما الفاجر أو المبتدع سواء ابتلى أم لا ، فهو كالجمل إن عقله أهله لا يدري فيم عقلوه ولا فيم أطلقوه ؟ إن أصيب في دنياه فزيادة في عذابه ، وإلا فمدخرة له على الزيادة في نكاله ، وعظم حسابه . وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا

(١) أخرجه الشهاب في مسنده ٢ / ١١١ .

(٢) أخرجه الشهاب في مسنده ١ / ٦٣ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣ / ١٣٢٢ .

(٤) أخرجه الترمذی في سننه ٤ / ٦٠١ .

(٥) أخرجه الترمذی في سننه ٤ / ٦٠١ ، وابن حبان في صحيحه ٧ / ١٦٠ .

(٦) أخرجه الترمذی في سننه ٤ / ٦٠١ .

كفر الله بها من خطاياها» ^(١) رواه البخاري ومسلم . وعنه قال : « كان لأبي طلحة رضي الله عنه ابن يشتكي ، أي ضعيف ، فخرج أبو طلحة فقبض الصبي ، فقالت أم الصبي : لا تحذثوا أبا طلحة بابنه حتى أنا أحدثه ، فلما رجع أبو طلحة ، قال : ما فعل ابني ؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي : هو أسكن ما كان ، فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ، ثم صنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل وقوع بها ، فلما رأت أنه قد شبع ، وأصاب منها ، قالت : يا أبا طلحة ، أرايت أن قوماً أعاروا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، قالت : فاحتسب ابنك ، قال : فغضب ، ثم قال : تركتني حتى إذا تلطخت ثم أخبرتني بابني ، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : أعرستم الليلة ؟ قال : نعم ، قال : اللهم بارك لهما ، فولدت غلاماً ، فقال لي أبو طلحة : احمله ، فأتى به النبي ﷺ وبعث معه بتمرات ، فقال : معه شيء ؟ قال : نعم ، تمرات ، فأخذها النبي ﷺ فمضغها ، ثم أخذها من فيه ، فجعلها في في الصبي ثم حنكه ، وسماه : عبد الله » ^(٢) متفق عليه . وفي رواية البخاري قال ابن عيينة - رحمه الله - : « فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن ، يعني من أولاد عبد الله المذكور » . ويروى « أن أبا طلحة لما أخبر النبي ﷺ بصنيع زوجته وصبرها قال : هكذا كان رجل ممن كان قبلكم له زوجة ولها ولدان منه ، أحدهما أكبر من الآخر ، فخرجت أمهما يوماً في حاجة لها ، فقال الكبير للصغير : ألا أريك يا أخى كيف تذبج الشاة ؟ قال : بلى ، قال : فاضطجع على جنبك ، فأخذ سكيناً ومر بها على رقبته ، فأدركته الأم وقد قتله ، فصرخت فيه فاهزرم ، فألقى نفسه في البئر ، فماتا وأبوهما غائب ، فطلبت أحد جيرانها فأطلعته وقالت : لا تخبر والدهما حتى أنا أخبره ، فوضعتهم ملاصقاً للصغير وجللتهم بمطر ، فحضر أبوهما مستمسياً ، ولم يعلم الخبر ، فوضعت له عشاء ، ثم تطيبت وتزينت ، وأتت فراشها فواقعها ، ثم قال : أين ولدائي ؟ قالت : تراهما مضطجعين ، فناداهما فأجاباه في الحال بإذن الله تعالى ، وقاما ماشيين ، فأخذت الأم تتعجب ، فقال مالك : فقصت القصة عليه ، فأخذ يتعجب ، فأخبر أن صبر الأم وصنيعها مع الوالد سبب حياتهما » . وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢١٣٧ ، ومسلم في صحيحه ٤ / ١٩٩٠ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢٠٨٢ ، ومسلم في صحيحه ٣ / ١٦٨٩ .

أهل الدنيا إلا الجنة» ^(١) رواه البخاري . وقال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « من مات له فرطان من أمتي أدخله الله الجنة ، فقالت عائشة : ومن مات له فرط واحد من أمتك ؟ قال : ومن مات وله فرط واحد يا موفقة ، قلت : ومن لم يكن له فرط من أمتك ، قال : فأنا فرط أمتي لم يصابوا مثلي » ^(٢) ذكره الترمذي . وعنه أيضاً قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته : أقبضتم روح ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : أقبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسموه بيت الحمد » ^(٣) رواه الترمذي . وعن أنس مر النبي ﷺ عند قبر صبي وأمه تبكي ، فقال : اتقي الله واصبري ، فقالت : إليك عني ، فإنك لم تُصَبِّ بمصيبتي ، ولم تعرفه ، فقيل لها : إنه النبي ﷺ ، فأنت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين ، فقالت : لم أعرفك ، فقال : إنما الصبر عند الصدمة الأولى « متفق عليه . وقالت عائشة : « سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون ، فأخبر أنه إذا كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء ، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين ، فليس من عبد يقع في الطاعون ، فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتبه الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد » رواه البخاري . وقال جابر : كان معاذ من أحسن الناس وجهاً وخلقاً وأسمحهم كفاً ، ولما وقع الطاعون بالشام قال معاذ : اللهم ، أدخل على آل معاذ نصيبهم من هذا ، فطعن له امرأتان فماتا ، ثم طعن ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم طعن معاذ فجعل يُغشى عليه ، فإذا أفاق قال : رب عمي ، فوعزتك ، إنك لتعلم أي أحبك ، ثم يُغشى عليه ، فإذا أفاق قال مثله ، فلما حضرته الوفاة قال : مرحباً بالموت ، مرحباً زائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم ، إنك تعلم أي كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، إني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار وغرس الأشجار ، ولكن لظماً الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر . وقال أنس : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يقول : إذا ابتليت عبدي بحبيتي فصبر ، عوضته منهما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢٣٦١ .

(٢) أخرجه الضياء في المختارة ١٠ / ٤٢١ .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٣ / ٣٤١ ، وابن حبان في صحيحه ٧ / ٢١٠ .

الجنة» ^(١) يريد عينيه . رواه البخاري . لكن الأعمى إذا صبر واحتسب ، وكان عاملاً بما أمر الله ، منتهياً عما حرم الله ، نال الجنة بعفو الله ، كما قال الله ، وإلا فكم من أعمى خسر دنياه وأخراه بارتكابه الآثام وأكله الحرام ، وكم من بصير ربح دنياه وأخراه بملازمته التقوى وصرف نفسه عن الهوى ، قال الكريم المولى : **﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾** [الليل ٥ : ١٠] ، قال عطاء بن أبي رباح : قال ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ فقال : بلى ، فقال هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت : « إني أصرع ، وإني أتكشف فادعُ الله لي ، قال : إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوتُ الله أن يعافيك ، فقالت : أصبر ، فقالت : إني أتكشف ، فادعُ الله أن لا أتكشف ، فدعا لها » ^(٢) متفق عليه . وقال عبد الله بن مسعود : « كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء يضربه قومه ، فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » ^(٣) متفق عليه . وقال أنس : قال النبي ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به » . وفي رواية « لضر أصابه فإن كان لا بد فاعلاً فليقل : اللهم ، أحييني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » ^(٤) متفق عليه .

وحكي أن رجلاً من الفقراء كان صابراً على فقره لا يشكو إلى غير ربه بفقره ، ولا يسأل مخلوقاً حتى ولا صديقاً ، فضاق صدر زوجته لذلك لما ضاقت عليها المسالك ، وأنى لها الصبر واليقين وهي ناقصة عقل ودين ؟ فأشارت على زوجها أن يقعد في الطرقات يلتمس من الناس الخيرات ، فكره قولها في ذلك ، ولم يسمع منها لكون هذه الخصلة لم يتعودها ولم يسأل مخلوقاً عنها ، فألحت عليه ، ولم تزل تلح عليه حتى سمع قولها ، وسأل ومال إليه ، وكيف لا وهن الغالبات والداهيات والمصيبات ؟ فقال لها : إني أستحيي أن أسأل غير ربي ، فقالت : أسبل مندبلاً على وجهك ،

(١) أخرجه البخاري ٥ / ٢١٤٠ ، وأحمد في المسند ٣ / ١٤٤ .

(٢) أخرجه البخاري ٥ / ٢١٤٠ ، ومسلم ٤ / ١٩٩٤ .

(٣) أخرجه البخاري ٣ / ١٢٨٢ .

(٤) أخرجه البخاري ٥ / ٢٣٣٧ ، ومسلم ٤ / ٢٠٦٤ .

واجلس في الطرقات ، فلك أسوةٌ بغيرك ، فبينما هو قاعد يوماً على الطريق وهو فريد إذ جاءه والي الشرطة والعبيد ، فقالوا له : أنت سرقتَ كذا وكذا لفلان من هذ الحارة يا هذا ؟ فأقسم بالله إنه ما سرق شيئاً فلم يصدقوه ، بل جروه وأخذوه ، وعند أمير البلدة أوقفوه ، فأمر بقطع يده ، وأن يطلقوه ، فقطعوا في الحال يده ، فمضى نحو بيته ويده معه حتى أتى أهله ، فلما أقبل عليها رمى يده إليها ، قالت ما هذه اليد يا فلان ؟ قال : هي يد من سأل غير الرحمن ، وقيل :

إِذَا مَا مَدَدْتُ الْكَفَّ أَتَمِسُّ الْغَنَى إِلَى غَيْرٍ مَنْ قَالَ اسْأَلُونِي فَشَلَّتْ
أَصْبَرُ نَفْسِي إِنَّ فِي الصَّبْرِ عِزَّةً وَأَرْضَى بِدُنْيَايَ وَإِنْ هِيَ قَلَّتْ

وقيل : لما مات أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، لَجَّ المشركون في أذيته ، ونالوا منه ، فصار يعرض نفسه على القبائل ، ويسألهم الدخول في دينه فلم يأت أحداً من القبائل إلا صده ورده ، ويقول : قوم الرجل أعلم به ، أترأه يصلحنا وقد أفسد قومه ؟ فعمد إلى ثقيف بالطائف ، فوجد سادات ثقيف وهم إخوة ثلاثة ، فعرض عليهم نفسه ، وشكا إليهم على سبيل الحكاية ما يلقيه من الأذية ، فقال أحدهم : أنا أمزق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط ، وقال الآخر : يا محمد أعجز الله أن يرسل غيرك ؟ وأما الآخر فقال : لا أكلمك بعد مجلسك هذا أبداً ، إن كنت رسولاً من الله كما تزعم ، فلأنت أعظم شرفاً وقدراً من أن أكلمك ، وإن كنت كاذباً على الله لأنت أشرُّ من أن أكلمك ، وأفشوا في ثقيف الذي قال لهم ، واجتمعوا يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقعدوا بالحجارة ، فخلص من سماطهم وقدماه يسيلان بالدماء ﷺ في طريقه كلما رفع ، فعمد إلى حائط من كرومهم ، فأتى ظل شجرة من الكرم ، فجلس مكروبا في أصلها ، ثم نظر إلى السماء ، وقال : اللهم إني أشكو إليك غربتي وكربتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين ، إلى من تكلمي ، إلى عبد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك لي أوسع ، أعوذ بنور وجهك من أن يتزل بي غضب ، أو يحل عليّ سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك ، لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، لك العقبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك . وكان في الكرم عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، فكره أن يأتيهما لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله ، فتحركت له رحمهما ، فقالا لغلام لهما نصراني يقال له : عداس : خذ

قطفين العنب ، وقدحاً من الماء ، ثم اذهب به إلى هذا الرجل ، وإنه سيسألك أهديته هو أم صدقة ، فإن قلت له : صدقة لم يأكل فقل له : هدية ، فسار عداس بما أرسلاه به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضعه بين يديه ، فقال : أهديته أم صدقة ؟ فقال : هدية ، فمد يده ، وقال : بسم الله ، وكان عداس من أهل نينوى ، فلما سمع قوله تعجب منه ، وصار ينظر إليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أين أنت ؟ قال : من أهل نينوى ، قال : من مدينة الرجل الصالح أخي يونس بن متى ؟ قال : وما علمك به ؟ فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم قصته وما أوحى إليه فيه ، فخر عداس ساجداً ، وجعل يقبل قدميه صلى الله عليه وسلم ، وكان عتبة وشيبة ينظران إليه ، فقال أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما أتاهما قالاه : ما شأنك سجدت لحمد وقبلت قدميه ولم نرك فعلت ذلك بأحد منا ؟ فقال : يا سيدي ما على وجه الأرض خير من هذا ، حدثني بشيء وهو شأن نبي بعثه الله إلينا يقال له : يونس بن متى ، فأخبرني أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا : لا يفتنك عن دينك ، فقال : هو والله نبي مرسل ، فقالا : ويحك ، عزمت قريش على أنها تقتله وتستأصله ، فقال : هو والله يقتلهم ويسودهم ، فإن اتبعوه فهنيئاً لهم باتباعه ، وقيل :

هَدَى اللَّهُ عَدَّاسًا إِلَى رُؤْيَا الْحَقِّ	فَأَبْصَرَ بَدْرَ التَّمِّ يَلْتَاخُ فِي الْأَفْقِ
أَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ فِي حَالِ عُسْرَةٍ	وَقَدْ نَالَ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ مَا يُشْقِي
فَقَدَّمَ لِلْمُخْتَارِ مَا جَاءَهُ بِهِ	فَمَدَّ لَهُ كَفًّا يَزِيدُ عَلَى الْوَدْقِ
وَسَمَّى حَبِيبَ اللَّهِ بِاسْمِ الَّذِي لَهُ	تُسَبِّحُ فِي طُولِ الْمَدَى سَائِرُ الْخَلْقِ
وَسَمَّى حَبِيبًا لَمْ يَزَلْ بَوْدَادِهِ	يُصْرِّحُ فِي كُلِّ الْأَحْيَانِ لِلْخَلْقِ
فَحَنَّ إِلَى ذَاكَ السَّمَاعِ وَلَمْ يَزَلْ	يُنَاجِيهِ عَمَّا قَدْ أَعَادَ مِنَ الثُّنْطِقِ
فَقَالَ لَهُ إِنِّي رَسُولٌ إِلَى الْوَرَى	حَقِيقٌ وَقَوْمِي الْآنَ قَدْ جَحَدُوا حَقِّي
فَمَا قَامَ إِلَّا وَالْعِنَايَةُ قَدْ بَدَتْ	عَلَيْهِ وَعَبْدُ الرِّقِّ قَدْ خُصَّ بِالْعِنُقِ
عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ ثُمَّ سَلَامُهُ	صَلَاةٌ تُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ وَالْحَرْقِ

قال الشيخ أبو علي الدقاق - رحمه الله تعالى - : الصبر على الخروج من البلاء على

حسب الدخول فيه ، كأيوب عليه السلام حين حفظ الأدب في الخطاب ، فقال :
 قدرت الضر عليّ وابتليتني وأنت أرحم الراحمين ، ولم يقل : ارحمني ، وقيل : لم يقل
 ذلك على وجه الشكوى ، وإنما قال ذلك لتكون له أسوة بالمبتلين وسنة للضعفاء
 والمضطربين ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : "إنما أسهوا لأسن" ، فكان سهوه
 في العدد لاشتغال قلبه بالواحد الأحد ، وقيل : لم يقل : مسني الضر اعتراضاً على
 الأقدار ، إنما كان قوله إظهاراً للافتقار ؛ لأن عدم المبالاة بالبلاء مقاومة للمقدور ،
 وهو في الحقيقة إذا صبر العبد نال السرور ، وقيل : إنما قال ذلك شكوى لا ضجراً ،
 أي مسني الضر الذي تبلي به أنبياءك وأصفياءك وأنت أرحم الراحمين حيث رحمتني
 به ، وقيل : لم يقل : مسني الضر حقيقة ؛ لأن البلاء استغاث من أيوب حيث لم
 يكن بأيوب طاقة له ، وقيل : أكل الدود جسمه كله إلا قلبه ولسانه ، فقصدت
 دودة قلبه وأخرى لسانه ، فقال مولاي : لم يبق لي إلا لساني به أذكرك ، وقلبي به
 أعرفك ، فإذا أكلت ذهبت مني الفوائد ومسني الضر ، وقيل : كانت الدودة عنده
 بمنزلة الأضياف قراها لحمه ، فلما فني اللحم تنغص لخصاصة أضيافه ، فقال : مسني
 الضر ، وقيل : استعجم أمره إليه ، فلم يدر أبلأؤه تخصيص أم تحييص أم تهذيب أم
 تعذيب ؟ فقال : مسني الضر ، وقيل : إن الله تعالى أوحى إليه : إن البلاء الذي
 أصابك اختصصت به سبعين نبياً قبلك ، فلما أحس بكشفه عنه قال : إني مسني
 الضر ، وقيل : إن جبريل عليه السلام كان يتلقاه كل يوم ، ويأتي إليه يعوده بأمره ،
 ويقول له : ربك يقرئك السلام ، ويقول لك : كيف حالك ؟ كيف تتحدث ؟
 فيقول : لربي الحمد والشكر على كل حال ؛ إذا كان راضياً عني فلا أبالي ، فيلذ
 بمناجاته وافتقار ربه كل يوم له لا يحس بألم ، فانقطع عنه يوماً فأحس بالضعف ،
 ووجد ألمه ، فقال : إني مسني الضر ؟ وقيل : حبس عنه الوحي أربعين يوماً ، فقال :
 مسني الضر ، وقيل : ضعف عن القيام بأوراده ، وعادة أهل الخير إذا اعتادوا الخير
 وأقدموا بالمواظبة على أورادهم ، يحصل عندهم بقطعه المشقة العظيمة ، فلما ضعف
 عن القيام بما اعتاده من الخير قال : مسني الضر ، وقيل : مر به رجلان ، فقال
 أحدهما للآخر : رب جرمه صنعها المبتلى هذا فعوقب بها ، فاستشعر العتاب من
 الحق على ألسنة الخلق ، فقال : مسني الضر ؛ لأنه كان سبب ابتلائه أن ملكاً ببلدته
 حدث منه جور في حق الرعية العوام ، فتوجه الأكابر ومعهم أيوب صلى الله عليه
 وسلم إليه لكي ينهوه ويردوه عن المظالم ، فلما حضروا عنده أغلظوا له القول
 وزجره ولم يخشوا منه إلا أيوب صلى الله عليه وسلم ، فإنه ألان الكلام مداراة

لأجل ملكه وماشيته ، فابتلاه الله الحكيم تهذيباً لما ذكر في كتابه ، وقيل : إن قوله : مسني الضر خير يتضمن الدعاء لا الشكوى ، يدل عليه قوله تعالى : (فاستجبنا له) ، وقيل : إن زوجة أيوب رضي الله عنها كان لها قرون شعر في راسها ، وكان من عادتها لما افتقر بعلها تخدم النساء وتسوق إليه ما يقوته إلى أن عرّف النساء بها إبليس - لعنه الله - فقال لمن : هذه تغسل قدر المبتلى ، وتعجن عجينة ، وتصنع طعاماً ، وإني لا آمن يصيبكن ما أصاب زوجها المبتلى ، فطردنها عنهن ، وأغلقت الباب في وجهها ، وبقي أيوب صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام لم يذق طعاماً ، فأدركه الضعف ، وأشفقت عليه ، فخرجت تطلب له شيئاً ، فأثت واحدة واقفة ببابها وقد جاء خبزها فسألته من ، فقالت : لا ، إلا أن تعطيني ضفيرة من صفائرك أزين بها شعري ، فقالت لها : هي عون نبي الله أيوب عليه السلام إذا قام لحاجة ، قالت : فإذا لا أعطيك شيئاً ، فتذكرت جوعه واحتياجه فقطعت لها ضفيرة ، فناولتها رغيفين ، فأثت بهما أيوب عليه السلام ، وأخبرته بصنيعها في ضفيرتها ، فحصل عنده غم ، وأقسم بالله كما حكاها الله تعالى عنه ، فحلف أن يضرها مائة ضربة ، فسهل الله تعالى عليها بما ذكره في كتابه العزيز لما علم صدق النية منها وإبراراً لما أقسم زوجها ، وقيل في المعنى :

قُلْتُ لِعُذْرِكَ يَا زَمَانُ كَتَّابِي	وَرُمِيتُ بِالسَّهْمِ الْقَتُولِ الصَّائِبِ
غَيَّرْتَنِي ذَلَّلْتَنِي وَأَنَا الَّتِي	كُنْتُ الْمُطَاعَةَ فِي بَنَاتِ أَقَارِبِي
لَكِنِّي أَرْضَى بِمَا قَدْ نَلَيْتُهُ	وَأَلُوذُ بِالْبُلُوذِ لِيَنَعَمَ صَاحِبِي
قَدْ صَبَرْتُ بَعْدَ الْعِزِّ أَسْأَلُ جَارَتِي	وَلَطَّالَمَا سَحَّتْ سَحَابُ مُوَاهِبِي
وَيَهُونُ مَا أُلْقَى وَإِنْ طَالَ الْمَدَى	وَيَقِلُّ فِي الْمَحْجُوبِ قَطْعُ ذَوَائِبِي

قال : فلما رأى أيوب الخبز سألها ، فأخبرته ، فقال : سيدي ومولاي صبرتي أعيش من شعر حليلتي ، مسني الضر ، وقيل : إن قوله : مسني الضر لم يقده في صبره ؛ لأن الغالب عليه الصبر ، فنادر مقالته لا تؤثر في حاله ، وكذلك قول يعقوب عليه السلام : (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) ، فقوله هذا لا يقده في صبره الجميل ، بل كان مسلماً أمره إلى الله في جميع أحواله . وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قال : كان يعقوب عليه السلام حين أتاه خبر بنيامين ، كان يخرج وقائد يقوده ، فيقعد على الطريق ، فتمر به الخادم ، فيقول لها : هل

معك شيء قد حملتيه؟ فتقول : نعم ، فيقول : ضعيه في الأرض ، ثم يقول : ألا ترين ما فعل بي في ولدي ، ويذكر لها قصته على سبيل الحكاية ، فيبكي وتبكي معه ، ثم يمر به الغلام على رأسه حزمة الحطب ، فيفعل ذلك معه ، فأوحى الله تعالى إليه : كم تشكوني إلى خلقي ولا يملكون لك ولا لهم ضرراً ولا نفعاً ، وعزتي وجلالي ، لو شكوت إلي لفرجتُ عنك ، فدخل بيته وأغلق بابه ، فبينما هو قاعد إذا برجل قد دخل عليه من غير الباب في أحسن صورة وأطيب رائحة ، فقال : مَنْ أدخلك عليّ وقد أغلقت الأبواب وشيدت حائطي ؟ فقال : أنا عبد من عبيد ربك أتيتك لتسألني فأخبرك ، قال : ومن أنت؟ قال : ملك الموت ، قال : سبحان الله ، أتقبض روحي قبل رؤية حبيبي يوسف ؟ قال : لا ، أتيتك لتسألني ما شئت فأخبرك ، قال : هل قبضت روح يوسف ؟ قال : لا ، وإنه حي ، وستلقاه عاجلاً ، واطلبه من ههنا ، وأشار إلى ناحية مصر ، فعندها خرج وقال لبنيه ما أخبر الله تعالى : (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) أي فابحثوا واسألوا عن يوسف وأخيه ، يعني بنيامين ، (ولا تياسوا من روح الله) أي من رحمة الله والفرج الذي يأتي به برحمته ، (إنه لا يياس من روح الله) أي من رحمة الله (إلا القوم الكافرون) ، يريد أن يرجو الله في الشدائد ، ولا يياس منه إلا الكافر المعاند ، وقيل في المعنى :

تعلقت الآمالُ منك بنظرة فيا ليت شعري هل لذاك سبيلُ

إذا كنتَ في الأحياء لم أخشَ فرقةً لأن لقاء الميتين طویل

قال : ثم دعا بقرطاس ، وقال لابنه روبيل : اكتب عني إلى هذا الملك كتاباً أمليه عليك فكتب : باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب إلى عزيز مصر ، أما بعد أيها الملك ، اعلم أنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، أما جدي إبراهيم فألقي في النار وقاسى فيها ما قاسى ، فصبر فردها الله عليه برداً وسلاماً ، وأما عمي إسماعيل فابتلي على صغر ظنه بالغربة والقلی والعطش ، فصبر لأمر الله تعالى حتى فداه الله بذبح عظيم ، وفي آخر عمره كف بصره إعظماً وإجلالاً ، وأما أنا فإني أضعفهم ركناً ، وأقلهم حيلةً وأعظمهم مصيبةً ، كان لي ولد يقال له : يوسف ، اختلس من بين يدي ، فبكيته عليه حتى ذهب بصري ، وأما الذي أخذت وأمسكت عندك بكونه سارقاً فوالله ليس بسارق ولا مثلي من يلد سارقاً ، ولكنه كان أحمأً للمفقود ، إذ خفت أن يتصدع قلبي من ناحية أخيه ضممتُهُ إلى صدري ، وشممتُ رائحة أخيه فيه ، فاتق الله أيها الملك ، واصرفه وعجل برده إلي ، وارحمْ تُرحم ، فوالله ، ما يسرق ولا هو

يسارق ، فلا تحبسه عندك ، وارحم ضعفي وقلة حيلتي ، واغتنم الأجر من الله تعالى (فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً) ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وقيل في المعنى :

وَبُعْدُكَ هَلْ يَكُونُ لَهُ اقْتِرَابُ	مَغِيبُكَ هَلْ يَكُونُ لَهُ إِيَابُ
وَكَمْ سِرٌّ يُصَانُ لَهُ الْكِتَابُ	تَرْفَقُ بِالْفُؤَادِ فَأَنْتَ فِيهِ
وَوَجْهُكَ لَا يُحِطُّ لَهُ نِقَابُ	أَأَرْجُو أَنْ أَحْطَ عَنَانَ وَجْدِي
فَهَتِّكَ فِي جَوَانِبِهِ حِجَابُ	إِذَا اسْتَرَقْتَ حَدِيثَكَ أُذُنُ قَلْبِي
وَلَا طَعْمٌ يَلِذُّ وَلَا شَرَابُ	فَلَا نَوْمٌ يَطِيبُ وَلَا انْتِبَاهُ
كَعْصْفُورٍ تَخْطِفُهُ عُقَابُ	وَقَلْبِي بَيْنَ بَابِكَ وَالتَّدَانِي
وَلَا أَذْرِي بِمَا يَأْتِي الْجَوَابُ	كِتَابِي قَدْ مَضَى بِالشَّوْقِ مَنِي

قال : ثم قال لروبييل : اذهب بكتابي ، وعجل برد جوابي ، فذهب به روبييل ، ودفعه إلى يوسف ، فأخذه وجمع بنيه ، وقال : اسمعوا كتاب جدكم المغموم المكظوم لكي أقرأه عليكم ، ثم كتب إليه يوسف بعد ما قرأ الكتاب وفهم ما فيه : أما بعد ، قد وصل كتابك ، وذكرت فيه مصابك ومصاب آبائك ، فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا ، وما أحسن هذا الجواب كيف لا والصديق من أولي الألباب ، وقيل :

وَالصَّبْرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ حَسَنُ	مَا أَحْسَنَ الصَّبْرَ فِي مَوَاضِعِهِ
وَعَايَةُ الصَّبْرِ مَا لَهَا ثَمَنُ	حَسْبُكَ مِنْ حُسْنِهِ عَوَاقِبُهُ

قال : فلما قرئ عليه قال يعقوب : والله ما هذه مكاتبة الملوك إنما هو كلام الصديقين ، (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) ، فرجعوا كلهم إلى مصر ، ودخلوا على الصديق خاشعي الأبصار ، مطرقي الأحداق ، فلما رأى ما نزل بهم وقد تغيرت ألوانهم ، وخضعت رءوسهم ، فلما نظر إليهم رق قلبه ، وقال لهم : كيف تركتم أباكم ؟ قالوا : مكروباً حزيناً ، قال : على أي أبتيه أشدُّ حزناً ؟ قالوا : أما الأول فقد يئس منه ، وإنما اشتدَّ حزنه على هذا المحبوس عندك ، وقال لنا قولاً لولا هيبتك ومخافتك لأخبرناك به ، قال : قولوا وأنتم آمنون ، قالوا : قال : لم

تفجعه في ولد له حبسته عندك بغير جُرم ، وعليه كان يشم ريح المفقود ، ولا ترحم ضعفه وكفَّ بصره ، ويخاف عليك من دعائه في السَّحر، وهذا لا يليق بكرمك ، ولا هو المشهور عنك في صنعك ، فلما سمع ذلك منهم لم يملك نفسه ولا دمه ، فبكى بأعلى صوته ، ولسان حاله يقول:

أَحْبَابَنَا مَا بِاخْتِيَارِي تَخْلُفِي وَلِي مَعَكُمْ قَلْبٌ عَنِ الْجِسْمِ آبِقُ
فَلَا تَحْسَبُوا أَنِّي تَغَيَّرْتُ بَعْدَكُمْ لَكُمْ بِوَفَا عَهْدِي عَلَيَّ وَثَائِقُ
وَحَقُّ الْهَوَى الْمَعْصُومِ إِنِّي أَحِبُّكُمْ وَإِنِّي مَتَى أَجْحَدُ هَوَاكُمْ أَنَا فِقُ

قال : ثم أكرمهم ، وأكرم مثوهم ، وبالغ في إكرامهم ، فلما جن الليل قام وصلى ما شاء الله أن يصلي ، ثم دعا الله تعالى باسمه الأعظم ، وقال لأخيه أَمَّنْ على دعائي وسأل الله أن يردَّ بصر أبيه ، وأن يجمع به شمله مع كل من يليه ، فهبط عليه جبريل الأمين ، وقال : يقرئك السلام رب العالمين ، ويقول لك : وَجْهٌ قَمِيصُكَ لِأَبِيكَ ، فإنه إذا أُلقي على وجهه ارتد بصيراً بقدره الله تعالى ، وقيل في المعنى :

أَلَا وَجْهٌ إِلَى الْمَكْظُومِ ثَوْبًا فَإِنَّ بِهِ يُزِيلُ اللَّهُ كَرَبًا
وَيَصْرِفُ لَحْظَهُ مِنَّا عَلَيْهِ إِلَهُ إِنْ دَعَاهُ الْعَبْدُ لَبَّى
وَقَبْلُ وَضُؤْلِهِ يَرْتَاحُ قَلْبٌ لِنَسْمَتِهِ إِذَا مَا الرِّيحُ هَبَّا
فَإِنَّ زَمَانَ بَعْدَكُمْ تَقْضَى وَأَعْقَبَهُ إِلَهُ الْعَرْشِ قُرْبًا
فَخَلَّ الْعَتَبَ عَنْ قَوْمٍ أَقْرُوا وَأَبْدَوْا مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ ثَوْبًا

قال : فلما أصبح أذن لإخوته في الدخول فدخلوا عليه ، فقال قد خليت سبيلكم كما تريدون فانصرفوا ، قالوا : (يا أيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر) ، أي أصابنا المخمصة والجوع ، (وجئنا ببضاعة مزجاة) ، أي قليلة ندافع بها الأيام ونتقوت ، وليست مما يُتسع به ، وكانت دراهم زيوفاً ، (فأوف لنا الكيل) ، سألوه مساهلتهم في النقد ، (وتصدق علينا) بما بين الجياد والرديئة ، وقيل : تصدق علينا برد أحنينا (إن الله يجزي) أي يتولى جزاء (المتصدقين) ؛ فلما أعلنوا بهذا القول أدركته الخشية ودمعت عيناه ، وقال في نفسه : إلى كم أقلقل قلوب إخوتي ، إنما كان القصد أن يتوبوا وقد هان الأمر وهذا منتهاه ، فقال توبيخاً لهم لما سبق من فعلهم : (هل

علمتم ما فعلتم بيوسف) وإخراجه عن أبيه ونزوله في الجُبِّ وربطه بالحبل وقطعه بعد إذ هممتم بقتله وبيعه ؟ وكذلك فعلتم بأبيه من إدخال الغم بإفراده من يوسف (وأخيه إذ أنتم جاهلون) أي جهلتم قدر أبيكم وأخيكم ، وأثمتكم بكونكم عققتم أباكم ، وأبعدتم أحاكم جهلاً منكم ، ولما قال هذه المقالة رفع البرقع عن وجهه ، فرأوا وجهاً منيراً كالبدر لا محالة ، (قالوا أأنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد منَّ الله علينا) بالجمع بيننا بعد ما قصدتم الفرقة بيننا ، (إنه من يتق ويصبر) على المصائب في الدنيا ويشكر المولى ، (فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) أي لا يضيع أجر من كان هذا حاله وهو من المتقين ، وقيل في المعنى:

الْحِجَابُ قَدْ زَالَ وَلاَحَ الْحَبِيبُ وَبَدَأَ الْإِقْبَالُ وَوَلَّى الْمَغِيبُ

عِنْدَمَا لَاحَ لِلْحَظِّ عِيَانِي صَارَ مِصْبَاحًا لِحَنْدَسِ جَنَانِي

وسقى بالراح من غير بنان

فَحَلَّتْ أَحْوَالٌ وَهَامَتْ قُلُوبُ وَأَتَى الْإِذْلَالُ وَعَزَّ الْغَرِيبُ

قَالَ لِي : اقْرُبْ مِنْ غَيْرِ مَسَافَةٍ ثُمَّ سَلْ وَاطْلُبْ فَعِنْدِي الضَّيَافَةُ

وَيَحْكُ كَمْ تَنْدُبُ مَا تَمَّ مَخَافَةُ

أَكْثَرِ الْأَقْوَالِ فَإِنِّي مُجِيبُ وَاسْحَبِ الْأَذْيَالَ فَالْمُلْكُ رَحِيبُ

فَعَلَا قَدْرِي وَجَلَّ مَقَامِي وَانْجَلَى فِكْرِي وَزَادَ غَرَامِي

وَبَدَأَ بَدْرِي مِنْ غَيْرِ ظَلَامِي

رَجَّحَ الْمِكْيَالَ فَالْعَيْشُ خَصِيبُ مَعَشَرَ الْعُذَالِ الْحَقُّ قَرِيبُ

مَنْ يَرُمُ وَصْلِي يَهْجُرُ مَنْ سِوَائِي مَنْ يَجِدُ مِثْلِي مِنْ دَانَ وَنَائِي

فَأَنَا الْمُبْلَى وَمَهْدِي الشِّفَاءُ

نَعْمَتِي تُنَالُ كَعَمَامِ سَكُوبُ وَلِي الْإِفْضَالُ وَالصَّنْعُ الْغَرِيبُ

أَقْصِدُوا بَابِي طُرًّا يَا عِبَادِي وَيَحْ مُرْتَابٍ لَوْ لِعِنَادِي

إِنَّ أَحْبَابِي هُمْ أَهْلُ وَدَادِي

أخلصوا الأعمال والكل منيبُ زالت الأوجال ومرت كروبُ

قال : فانكبوا عليه يقبلون يديه وقدميه ﷺ ويقولون : (تالله لقد آثرك الله) أي فضلك الله (علينا) بالعلم والعقل والرفعة والجمال والحسن والكمال ، (وإن كنا لخطائين) آثمين في أمرك (قال لا تثريب) أي لا تعيير ولا بأس (عليكم) بعد هذا (اليوم) ، ثم أبرأ ذمتهم وحالهم ، وسأل لهم المغفرة ، فقال : (يغفر الله لكم) الآية ، ثم سألمهم عن أبيه ، فقالوا : ذهب عيناه من كثرة بكائه عليك ، فقال : يا إخوتي قد ارتفعت الوحشة من قلوبنا ، فأزال الله فضله ما نزل بنا ، فلا بد من زوال الكربة عن أيينا ورفع الهموم عنه (اذهبوا بقميصي هذا) ، وكان كما ذكرنا أنه نزل به جبريل على إبراهيم يوم أُلقي في النار، وكان فيه ريح الجنة ، لا يقع علي مبتلى ولا سقيم إلا عُوفي وصحَّ ، وذلك قوله : (فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً) أي يرجع ويعود مبصراً ، (وائتوني بأهلكم أجمعين) ، فأخذ يهوذا القميص ، وعجل إلى أبيه بالتجهيز ، وكسا يوسفُ إخوته ، وبعث إلى أبيه بكسوة هائلة ومائتي راحلة لجهازه وجهاز أهله ، وخرج يهوذا بالقميص راجلاً حافياً شاكرًا لله تعالى ، وقيل : تزود سبعة أرغفة لم يأكل منها شيئاً حتى قدم على أبيه ، فلما كان يهوذا من أبيه يعقوب على ثمان مراحل فكَّ القصة ، وأخرج القميص ونشره ، فهبت ريح الشمال ، فوجد يعقوب رائحة يوسف عليه السلام في القميص على ثمانين فرسخاً ، وقيل في المعنى :

أُحِبُّ الشَّمَالَ وَأَهْوَى الْجَنُوبَا	لَأَنْهَمَا يُسْعِدَانِ الْكَيْبَا
تَهْبُ الشَّمَالُ بِرِيحِ الْحَبِيبِ	فَتَفْعَلُ فِي الْقَلْبِ شَيْئًا عَجِيبَا
وَتَأْتِي الْجَنُوبُ بِرَدِّ الْجَوَابِ	فَتَأْخُذُ وَاللَّهِ مِنِّي نَصِيبَا
أَعْلَلُ نَفْسِي بِمَرِّ الرِّيحِ	لَأَنِّي غَرِيبٌ أُحِبُّ الْغَرِيبَا

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ [يوسف : ٩٤] . أي القافلة ، ومعهم يهوذا خرجوا من مصر متوجهين نحو كنعان ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ [يوسف : ٩٤] . يعني يعقوب لمن حضره ﴿ إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٩٤] . وذلك لما هاجت الريح حملت ريح القميص ، واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة ، فعلم أنه ليس

في الجنة من ريح الدنيا إلا ما كان من ذلك القميص ، ثم قال : « لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ » [يوسف : ٩٤] . أي تسفهوني وتجهلوني « قَالُوا » أي حفدته وهم أولاد أولاده ، وقيل : غيرهم ممن حضره « قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » [يوسف : ٩٥] . أي في شقائك ، أي مما تكابد من الأحزان على يوسف وخطابك في النزاع إليه على بعد عهده منك ، وكان عندهم أنه مات « فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا » [يوسف : ٩٦] . أي عاد ورجع بصيراً ، وقيل في المعنى :

لما جفا مؤنسي وأبعدني أنستُ منه ببعض أسبابه

كمثل يعقوب بعد يوسفِ حنَّ إلى شَمِّ بعضِ أثوابه

قال - رحمه الله تعالى - : ويُحكي أن فراق يعقوب من يوسف سببه أمران : أحدهما أنه دخلت عليه يوماً جارية له وبين يديه طعام ، فشمت رائحته وخرجت ولم تذق منه شيئاً ، وكان في زعم يعقوب إذا خرجت يبعث لها منه ، فنسي وكانت حاملاً ، فأسقطت من رائحة الطعام وعدم ذوقها منه . الثاني أن يعقوب عليه السلام اشترى جارية بولد لها معها ، فباع ولدها ، وكان يقال له : البشير ، فرّق بينه وبينها ، فحصل عندها بسبب فراق ولدها وجد وتأسف عليه وشوق إليه ، فترلت دمعها على خدها ، فشكت ذلك إلى ربها ومولاها ، فقدر سبحانه عليه بفراق أحب أولاده إليه ، وأن لا يراه حتى ترى الجارية ولدها ، ثم يقدم عليه ، فاتصل ولد الجارية بمصر ، وصار من الخدام ليوسف عليه الصلاة والسلام ، فتوجه إلى يعقوب بالثوب البشير ، ولم يعلم أنه هو الذي باعه لأنه وقت بيعه كان طفلاً وهو صغير ، فلما قرب البشير من منزل يعقوب رأى امرأة تغسل ثياب يعقوب ، فسألها عن منزلها ، فقالت : يا هذا ، إليك عنه ، فإنه مهموم مكروب ، فقال : أنا رسول إليه ، قالت : ما اسمك ؟ ومن أرسلك حتى أدلك عليه ؟ قال : اسمي البشير ، جئتُ رسولاً من عند يوسف الصديق ذي الوجه المنير ؛ فلما سمعتُ بذكر البشير ارتخت أعضاؤها ، وخطر ببالها أنه ولدها ، فلم تملك نفسها أن قامت إليه ، وأبصرت علامة في يديه كانت تعرفها في صغره عليه ، فألقت نفسها عليه وضمته إليها وقالت : والله ، أنت ولدي الذي باعك سيدي ، وأنت صغير يا بشير ، فقدر الله اجتماعها بولدها قبل اجتماع يعقوب بولده لما الكرم وعدّها حيث ألهمها ، فأخذت بيده ، ودخلت على سيدها ، وقيل في المعنى :

إذا كان ما فات لا يُستردُّ وما خُطَّ في اللوح لا ينمحي
فلا تأسفن ولا تحذرن ولا تحزنن ولا تفرح
فكم حدث الهم بعد السرور وكم بات هم فلم يُصبح

قال : فلما قدم يهوذا على أبيه قال : يا أبت ، إن الملك الذي هو بمصر هو ولدك يوسف ، فالتفت إلى حفدته الحاضرين ، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٩٦] . ثم التفت إلى يهوذا القادم عليه قبل إخوته ، وقال يا ولدي ، ما أدري ما أكافئك ببشرائك لي ، لكنني أدعو الله أن يهون عليك سكرات الموت ، فقال يهوذا : يا أبت ، وإنه قد أمرنا أن نصل بأهلنا إليه ومن معنا أجمعين ، وقد بعث إليك مائتي راحلة وجهازاً لك ولمن بين يديك ؛ فلما قدم عليه الأولاد قالوا كما حكى رب العباد : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يوسف : ٩٧ و ٩٨] . قيل لابن عباس : بماذا عرفوا يوسف ؟ يعني إخوته . فقال : كانت علامة في رأسه ، وكان ليعقوب مثلها ، وكذا لإسحاق وكان لسارة مثلها ، وهي شامة بيضاء ، فرفع التاج عن رأسه ، والبرقع عن وجهه ؛ فلما نظروا إلى الشامة عرفوه . قال ابن عباس في قوله ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ : أخر ذلك إلى السحر ليكون أقرب إلى الإجابة . وقال مجاهد : أخر دعوته إلى الثلث الأخير من الليل لكونه أفضل أوقات الليل . وقال سعيد بن جبیر : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ ، يعني في الليالي البيض ، وهن ليالي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ؛ لأن الدعاء فيها مستجاب ، ويقال : أيامهن اللاتي يسمون البيض لظهور القمر آخر النهار ، أخر ذلك إلى سحر ليلة الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وقال ابن عباس : وجد يعقوب رائحة يوسف في القميص على ثلاثة أيام ، وقيل : ثمانية ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وقيل في المعنى :

ما للنسيم لدى الأصيل عليلا أتراه يشكو لوعةً وغليلا
جر الذبول على ديارٍ أحبتي فأتى يجرُّ من السقام ذيو لا
حتى النسيم إذا ألمَّ بأرضهم خلعوا عليه رقةً ونحو لا

رحلوا غداة أقام في القلب الأسي فالصبر مثلهم أجد رحيلاً
والسحر معقود بهذب جفونهم والمسك في أطواقه محلولاً
مروا ففرقت القلوب عليهم طير يضل عيسهم تظليلاً
يحكين غربان الفراق وإنها لقلوب قوم خيلت تخيلاً

قال : ومع ذلك سلك يعقوب الأدب مع ربه بقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ كما سلك جده إبراهيم ﷺ بقوله : ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤٨] . وإن كان لفظ "عسى" وقع في القرآن واجباً إلا في سورة التحريم ، فما قصد الخليل ويعقوب إلا سلوك الأدب مع الله العظيم على قدر المقام والتعظيم . قال : وكان قد بعث الصديق مع البشير إلى يعقوب عدة المسير ، فتهياً يعقوب وخرج معه أهله حتى لم يبقَ منهم أحد . قال وهب بن منبه : كانوا سبعين ذكراً ، واستاقوا مواشيهم ؛ فلما أن كانوا من مصر على يوم وليلة أرسل يعقوب يهوذا إلى يوسف يعرفه بقدمهم ، فخرج يوسف إلى لقائه في مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته ، وكان على يوسف حلة حمراء ، فنظر يوسف إلى يعقوب ، ونظر يعقوب إلى يوسف ، فكان يقول : يا يهوذا من هذا الذي عليه الحلة الحمراء كالقمر بين الكواكب ؟ فينظر يهوذا فلا يرى شيئاً ، وقيل في المعنى :

أراك على البعاد وما تراني وكم ناب الخيال عن العيان
وأرضى من وصالك بالترجي وأقنع من لقاءك بالأمان
سجية من له في كل عضو فؤاد هائم يهواك عاني
يفهمك الغرام بلا فؤاد ويسمعك الدعاء بلا لسان

قال : فلما كان بينهما مقدار ميل ، نزل يوسف عن دابته ، ويعقوب عن ناقته ، وجعل كل منهما يسعى إلى الآخر ، فضج الناس بالبكاء ، وأشرقت الملائكة من السماء ، فلما اعتنقا خر يعقوب مغشياً عليه من عظم الملتقى ؛ فلما أفاق جعل يلحس يوسف لسانه كما تلحس البقرة عجلها وهو يقول : يا بُني أخبرني بفعل إخوتك معك ، فقال : يا أبت ، نحمد الله على نعمه ، ونشكره على ما أولانا من فضله ، كان وانقضى ، ولا نذكر الذي مضى : وأنشد بعضهم فقال :

تعالوا بنا نطوي الحديث الذي جرى فلا شعر الواشي بذاك ولا درى
تعالوا بنا حتى نعود إلى الرضا وحتى كأن العيش لم يتغيرا
ولا نذكر الماضي الذي كان بيننا على أنه ما كان ذنباً فيُغفرا
وقيل : إنه لما سأله ما فعل إخوتك بك ؟ قال : يا أبت ، لا تسليني عما فعله
إخوتي ، واسألني عما كان من الابتلاء والامتحان ونزغة الشيطان ، وكان ذلك
مقداراً قدره الملك الديان ، ثم جاء من فضل الله من الخير والإحسان والجلود
والامتنان ما لم يكن خطر على بال الإنسان ، فالحمد لله على كل حال ، ولا تذكر
ما فعل إخوتي يا أبت ، وقيل في المعنى :

وإذا المسيء جنى جناية مذنب فاقبله بالمعروف لا بالمنكر
أحسن إليه إذا أساء فأنتما من ذي الجلال يسمع وينظر

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ ﴾ [يوسف : ٩٩] . يعني
أباه وخالته ، فالخالة بمنزلة الأم كما أتى في الحديث ، فان أمه قد ماتت ؛ وقيل :
تمثلت له بإذن الله مع أبيه حتى رآها دون غيرها تحقيقاً لرؤياه ، ولا عجب فإن
الصالحين يكشف الله عن بصرهم وسمعهم ، فيرون ما لا يرى غيرهم ، ويسمعون
ما لا يسمع غيرهم ، فما بالك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم قال : ادخلوا
مصر ، وذلك أن يوسف لما استقبلهم قال لهم قبل : ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ
اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٩] . وكانوا قبل ذلك يخافون دخول مصر إلا بجواز من
ملكهم ﴿ وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، أي أجلسهما على سرير
الملك ، ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، أي سجدوا ليوسف سجدة التحية
لا سجدة العبادة . قال بعض المفسرين : إنما كان انحناء عبر عنه بالسجود . وقال
بعضهم : كان تحية الناس في ذلك الزمان السجود بعينه مع الانحناء ؛ فلما جاء الله
بالإسلام أبدلنا من السجود التحية بالسلام ، ثم قال يوسف : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ
مِنْ قَبْلُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] . يعني سجدوا الأحد عشر كوكباً هم إخوته والشمس
والقمر أبوه وخالته ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف : ١٠٠] . أي ليست بأضغاث

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴾ [يوسف : ١٠٠] . أي مولاي ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ [يوسف : ١٠٠] . وهو البسيط من الأرض ، وكان يعقوب وولده بأرض كنعان أهل مواشٍ وبرية ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف : ١٠٠] . أي أفسد بيني وبينهم بالحسد ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] . عالم بدقائق الأمور ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

[يوسف : ١٠٠] ، فيهم بما شاء . قال وهب : عاودوا أباهم في طلب الاستغفار فدعا لهم وهم خلفه عشرين سنة ، ثم استجاب الله فيهم ليلة الجمعة في الثالث الأخير من الليل . قال وهب : دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل ومراة ؛ فلما خرجوا من فرعون مع موسى كان منهم المقاتلون ستمائة ألف وعشرين ألفا لا يعدون ابن العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره سوى الذرية . وقال أيضاً : عاش أبوه وخالته بعد دخول مصر أربعاً وعشرين سنة في أرغد عيش وسرور لا يأتي عليهم يوم وليلة إلا أحدث الله لهم سروراً وغبطة . فلما حضر يعقوب الموت جمع ولده وولد ولده ، وقال ما حكاه مولاهم : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، الآية ، فقال : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى

لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢] . فقالت الأسباط : يا أبانا ، إنا نخاف من أحيانا أن يحقد علينا ما كان منا إليه ، فأوصه بنا ، فقال : يا بُنَيَّ ، لا تحقد على إخوانك ما كان منهم إليك ، فقال : أو لي يقال هذا ؟ قد عفوت عنهم ، ووهبتهم جريمتهم رجاء أن يعفو الله عني ، ثم أوصى يعقوب يوسف إذا مات أن يحمله من مصر إلى الأرض المقدسة ، ويدفنه عند أبويه إبراهيم وإسحاق . قال وهب : مات يعقوب وأخوه عيص في يوم واحد ، ودُفنا في قبر واحد كما كانا أول حالهما في بطن واحد ، وكان عمر يعقوب وعيص مائة سنة وسبعة وأربعين سنة . فلما جمع الله تعالى ليوسف شمله وأقر عينه بمراة تمني الموت ، فقال كما حكاه عنه ربه تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

يعني ملك مصر ، وقيل : أراد ملكه لنفسه حين قهرها عن السوء ، ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : ١٠١] . يعني تفسير الأحلام ﴿ فَاطَرَ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ [يوسف: ١٠١] . خالقها ابتداءً ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١] .
 اقبضي على الإسلام ، ﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] . من آبائي
 الكرام إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، يريد الرفعة إلى درجاتهم ؛ لأن أعلى
 درجة في الجنة مقام النبوة . قال رسول الله ﷺ : « ما تمنى أحد من الأنبياء الموت
 إلا يوسف » ، فلما حضره الموت أوصى إخوته إذا خرجوا من مصر يخرجونه
 معهم إلى الشام مع آبائه ، ثم استخلف من بعد يوسف يهوذا ثم روبيل ثم زبالون ثم
 شمعون ثم سخر ثم ممعايل ثم دان ثم لاوى ، كل هؤلاء أولاد يعقوب ، وكان
 موسى وهارون من لاوى بن يعقوب . وكان بين دخول يوسف مصر ودخول
 موسى أربعمئة وثمانون سنة ، وولد ليوسف من زليخا اثنان إفرايم وهو جد يوشع
 بن نون ، والآخر ميشا ، وهو جد موسى وهرون . قال وهب : ما أنزل الله كتاباً
 من السماء بعد يوسف إلا وفيه سورة يوسف تامة كما في القرآن . وقيل عاش
 يوسف مائة سنة وسبع سنين ، وتوفاه الله طيباً مرضياً ، ودُفن في صندوق مرمر في
 بطن النيل ، وذلك أن بني إسرائيل تمت كل فرق منهم أن يدفن في محلها تبركاً به ،
 حتى خافوا أن ينشب بينهم القتال ، فاتفقوا على دفنه في النيل ليصيب الكل من
 بركته ﷺ وعلى آبائه الكرام ، وقيل في المعنى :

دفنوه في النيل المعين تبركاً	فأروا جميعاً فوق ما قد أمَلُوا
فكأنه بدرٌ تغيبَ وجهه	تحت السحابِ وضوءه لا يُجهلُ
فقدوه لكنْ لم تزلْ بركائه	موجودةً فيهمْ تروحُ وتقبلُ
والنيلُ يحكي كفه في قبضه	بالجودِ والتَّعَمُّ إذا ما يُسئلُ
لم يغنِ عنه إذ أتاه حِمَامُه	سلطانهُ وحُسامُه والمِقُولُ
وغدا دفيناً بينَ أطباقِ الثرى	والرملُ يعلو جسمه والجنْدَلُ
هذا القضاءُ على الخلائقِ بالفنا	فجميعنا عما قليلٍ يرحلُ
والحكمُ للجبارِ حقٌّ مُثَبَّتٌ	وله يكونُ رجوعنا والموئلُ
وعلى نبيِّ الله يوسفَ مثلها	وجميعُ مَنْ للخلقِ حقاً مرسلُ

مَا لَاحَ بَدْرٌ أَوْ تَرْنَمَ طَائِرٌ وَانْهَلَّ وَسَمِيٌّ وَفَاحَ الْمَنْدُلُ

قال : فلما خرج موسى ببني إسرائيل من مصر ، وسار وضرب عليهم التيه فلم يدرؤا أين يذهبون ، فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل ، وسألهم عن سبب ذلك فقالوا : إن يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أخذ على إخوانه عهداً أن لا يخرجوا من مصر حتى يُخرجوه معهم ، فلهذا استدَّ علينا الطريق ، فسألهم عن موضع دفنه فلم يعلموا ، فقام موسى ينادي : أنشدكم الله ، كل من يعلم قبر يوسف أين هو إلا أخبرني به ، ومن لم يعلم صُمت أذناه عن قولي ، فكان يمر بين الرجلين ينادي فلا يسمعان صوته ، حتى سمعته عجوز لهم ، فقالت له : رأيته إن دلتك على قبره ، أعطيني كل ما أسألك ، فأبى عليها ، وقال : حتى أسأل ربي ، فسأله فأوحى الله إليه من لطفه وإحسانه ورفده جبراً لقلبها بإيتاء سؤالها ، فقال : سلي ، فقالت : إني عجوز كبيرة ، لا أستطيع المشي فاحملي ، وأخرجني من مصر ، هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فأسألك أن لا تتزل غرفة من غرف الجنة إلا نزلتها معك ، قال : نعم ، قالت : إنه في جوف الماء في النيل ، فادع الله أن يجبس عنه الماء ، فدعا الله أن يؤخر طلوع الفجر إلى أن يفرغ من أمر يوسف ، فحفر موسى ذلك الموضع فاستخرجه وحمله حتى دفنه عند آبائه بالأرض المقدسة ، وقيل :

لَنَا فِي نَبِيِّ اللَّهِ يُوسُفَ أَسْوَةٌ وَلَيْسَ لَخَلْقِ اللَّهِ فِي الْأَمْرِ مَدْفَعُ
حَبَاهُ فَأَحْيَاهُ وَبَعْدُ أَمَاتُهُ وَكُلُّ أَمْرٍ حَيٌّ إِلَى اللَّهِ يَرْجَعُ

قال - رحمه الله - : لما ترك الأسباط أباهم ، وقصدوا للميرة أخاهم ، جهزهم بجهاز الكرامة والإيثار ، وطلب منهم سَوَقَ أخيهام بعد المزار ، فاحتالوا على يعقوب بحيلة ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ [يوسف: ٦٣]. فأضحت سفينة العتاب تجري بهم بنسيم ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٦٤]. وقد ظهر منكم ما ظهر ، فلم يزالوا حتى حملوه إليه ، فلما رآه أنس ببشراه ، وأقبل عليه ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ [يوسف: ٦٩]. وسأعمل حيلة عندي على رغمهم يدعوك ، فحال بينهم وبينه بحيلة ﴿ جَعَلَ السَّقَايَةَ ﴾ [يوسف: ٧٠]. فلما دخل وقت التهمة ﴿ أَذَّنْ مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف: ٧٠]. فأبرز عروس احتياله يقدمها وصائف

﴿ مَاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ [يوسف: ٧٠ و ٧١]. فرغبته ليس إلا ذلك ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ ﴾ [يوسف: ٧٦]. لما أمسكهم وهي تعقب أعقابهم في كنف ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا ﴾ [يوسف: ٧٦]. فأعقبهم الخجل منها ، فلما عادوا إلى أبيهم عاد ألم الشجا بشجن ، وغم على حزن ، وترح على ترح ، وجرح على جرح ، فقابل زائد الأسى إذ عسى بلفظ عسى ، ثم بعثه لطف ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ [يوسف: ٥٣] ، على أن يبعثهم برسالة ﴿ فَتَحَسَّسُوا ﴾ [يوسف: ٨٧]. فلما رجعوا دخلوا من فقر الفقر فاستلقوا في ساحة النصر ينادون على غليل الذل : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف: ٨٨] برد أحننا ، تالله ، لقد جُوزيتَ أيد مدها خنتم من قبل أن يقال : تبتم ، فكشف ستر الستر بيد ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ ﴾ [يوسف: ٨٩]. فانقشع غيم كرههم بشمال ذهم ، فلاح هلال يوسفهم ، فقالوا في غرفات عرفانهم ينادون : ﴿ أَلَيْكَ لَأُتَ يَوْسُفُ ﴾ [يوسف: ٩٠]. فأجاب عن ضمير شاكر بعبارة : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ [يوسف: ٩٠] يا إخوتي ، فاعترفوا بما اقترفوا ، وعرفوا ما أسلفوا ، ولما أن صفوا ، فكان جملة ما وصفوا ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف: ٩١] يا أخانا ، فلما طلعت شمس العفو في سماء ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [يوسف: ٩٢]. حفت كواكب عتاب ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ ﴾ [يوسف: ٨٩] ، فرفع الصديق من تلك الفوائد على موائد نصيب الوالد ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾ [يوسف: ٩٣] ، ولا تقولوا ماذا فهبت نسائم الفرج ، فتوغلت في خياشيم المريض القرح ، فجر زمام المزكام من فرح عن منخر الضر والسقام ، فأدى غليل البعد عن عليل الوجد قبل انقضاء العمر ﴿ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف: ٩٤] ، فجاءت أفراح وسم المحزون من أمر ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] ، وقيل في المعنى :

ناشدتك الله يا نسيماً	ما فعلت بعدنا الرسوم
هل استهلت بها الغوادي	ونمقت روضها الغيوم

أم نسختها يدُ الليالي	حتى عفا رسمها القدمُ
أم هل بها من عهدتُ فيها	بَعْدُ على حاله مقيمُ
عللُ بروح الوصالِ صَبًّا	أنتَ بأشواقه عليمُ
وعُدَّ وسلَّم على أناسٍ	ما أنا من حبههم سليمُ
واشرح لهم حالَ مستهامٍ	أنفاسُهُ بالهوى سَمُومُ
وقل : غريبٌ ثوى بأرضٍ	في غيرهم قلبُهُ مقيمُ
أحبابنا تنقضي الليالي	وما انقضت مني الكلومُ
أصبحتُ من بعدكم وحيداً	فلا خليلٌ ولا حميمُ
يكابدُ الشوقَ حين يُمسي	وتعترى قلبَهُ الهمومُ
لم يحِرْ ذكرُ الفراقِ إلا	حنَّ كما حنَّتِ الرسومُ

قال : فلما كشف ليعقوب قوام الوجد « قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ » [يوسف : ٩٤].
أحدقت به عواذل « تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ » [يوسف : ٨٥]. فحارهم بسلاح « إِنِّي
أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » [يوسف : ٩٦]. هذا وهم على قدر علمهم
يلومون ، تالله لو وجدوا ما وجد ما أنكروا ما عرف ، لكن من الله عليهم ، وعفا
عما سلف ، فلما هبت شمال تنسم جميع الشمل فرق وفرق سدن الفراق ، فانقشع
عمى العمى « فَارْتَدَّ بِصِيرًا » [يوسف : ٩٦] ، فعاتبهم باليُم « أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ »
[يوسف : ٩٦] ، فلجوا من صريع توبيخه إلى صرع « يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا »
[يوسف : ٩٧] ، فأخبرهم إلى سيف « سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ » [يوسف : ٩٨] ؛
ليعمل سيف الأسف في سقامهم ودا ، فلما قدموا على يوسف « وَخَرُّوا لَهُ
سُجَّدًا » [يوسف : ١٠٠] ، فبان قول أبيك بقوله : « وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ »
[يوسف : ٦] . فلما رأى يوسف بدر التمام قد تم مشرقاً على دار الغرور كصباح
الظلام حذر على تمنيه نية تمنيه من كف المحاق ، فاغتم الإدلاج في الليالي البيض

المشركات ، وسأل الفوز من مفازات الآفات ، فقال مَقُولُ إبدائه وإنشائه معلناً :
 ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ [يوسف : ١٠١]. فالعجب ممن يحتقر الضعيف إذا رآه وينسى
 قوة مَنْ خلقه وبراه ، أما علم الجهول الغبي أن الله يصنع بالضعيف ما يتعجب منه
 القوي ؟ وقيل في المعنى :

لا تعجبَنَّكَ قوة أوتيتها	واعلم بأنك مُكرَّرٌ محكومٌ
وانظر بعينك في الوجود فإنه	يا ذا التغافل مصحفٌ مرقومٌ
فلکم غني قد أصيبَ بفقره	فإذا به بين الأنعام علمٌ
ولرب مخدومٍ رفيعٍ قدره	نزلتْ به الأغيارُ فهوَ خدَمٌ
وصحيح جسمٍ قد مشى متبخرًا	ذهبتْ قواه فجسمه مسقومٌ
لا شيء يبقى بعد هذا كله	إلا الإله الواحدُ القيومُ
فهو الذي لا ينقضِي سلطانه	وله الثنا والمجدُ والتعظيمُ
صلى الإله على النبي وآله	ما سار نجمٌ أو مضى معلومٌ

(حكاية) : قال شيخ المريدين والحجاج ، الشيخ أبو الحسن الدراج - رحمه الله تعالى - : كنتُ كثيرًا ما آتي مكة ، فكان الناس يتبعوني لمعرفتي بالطريق ، فلما كان في عام من الأعوام أردتُ السفر إلى بيت الله الحرام ، فقلتُ : آخذ طريق الثغر لأستريح من الناس ، ولا يتبعني أحدٌ ، فأخذتُ طريق الثغر لأسافر وحدي ، فإذا رجل مجذوم قاعد في الحراب ، فلما رأيته قال : أبا الحسن ، الصعبة ، فقلتُ في نفسي : فررتُ من الأصحاء ، وأصحب المجذومين ! فقلتُ : لا أصحب أحدًا ، فسكتَ عني ؛ فلما كان من الغد دخلتُ الطريق وحدي ، فجئتُ المغيبة ، فلما دخلتها أويتُ إلى المسجد ، فلما دخلته إذا بالرجل المجذوم قاعد في الحراب ، فقلتُ : سبحان الله ، هذا سبقني إلى ههنا ، فرفع رأسه إلي وتبسم وقال : يا أبا الحسن ، يصنع الله بالضعيف ما يتعجب منه القوي ، قال : فبتُ تلك الليلة متحيرًا ، فلما أصبحتُ دخلتُ الطريق وحدي ، فوصلتُ الفرع ، فدخلتُ المسجد ، وقصدتُ الحراب ، فإذا هو قاعد فيه ، فقلتُ : يا سيدي ، الصعبة ، وجعلتُ أقبل قدميه ، فقال : ليس لي إلى ذلك من سبيل ، فجعلتُ أبكي

وأنتحب لما حُرمتُ منه ، فقال لي : مهلاً عليك ، فإنه لا ينفعك ، وقيل في المعنى :

أَتبكي على بُعدي ومنك بدا البعدُ	وترغبُ رَدًّا حيث لا يمكن الرَدُّ
نظرتُ إلى ضعفي وظاهرِ عليّ	وقلتُ : سقيماً لا يروحُ ولا يغدو
ولم تدرِ أن الله جلَّ جلاله	يمنُّ بلطف ما تخيله العبدُ
لئن كنتُ في رأي البيان كما ترى	وبالجسم من فرط الزمانة ما يبدو
وليس معي زادٌ يوصلني إلى	محل به يأتي إلى السيد الرَفْدُ
فلي خالقُ أطفافه بي خفية	فليس له نِدٌّ ولا منه لي بُدٌّ
فَسِرْ سالماً عني ودعني وغربي	فإن الغريبَ الفردَ يؤنسه الفردُ

قال : فكنتُ بعد ذلك لا آتي منهاهلاً ، إلا وجدته قد سبقني إليه ، فلما وصلتُ المدينة غاب عني أمره ، وعمي عني خبره ، فلقيتُ أبا يزيد البسطامي وأبا بكر الشبلي وطائفة من المشايخ ، فذكرتُ لهم قصتي ، وشكوتُ لهم غصتي ، فقالوا لي : هيهات ، ذلك الشيخ أبو جعفر المجدوم ، بحرمة نستسقي ، وبركته يجاب الدعاء إذا دعا ، قال : فزاد شوقي إليه ، فسألتُ الله أن يجمعني به ، فبينما أنا واقف بعرفات وإذا أنا بجاذب يجذبني من خلفي ، فالتفتُ إليه ، فإذا هو فصحتُ صيحةً ، وغشي عليّ ، فلما أفقتُ من غشيتي لم أجده ، فزاد الوجد لذلك ، وضاعت عليّ المسالك ، فسألتُ الله رؤيته ، فلم يكن إلا أيام قلائل ، وإذا به يجذبني من خلفي ، فالتفتُ إليه وقلتُ : عزمتُ عليك بالله إلا ما ثبت عليّ ، فسألتُهُ أن يدعو لي ثلاث دعوات : الواحدة أن يحبب الله لي الفقر . الثانية أن لا أبيتَ على معلوم ، ولا يعوزني شيء . الثالثة أن يرزقني الله النظر إلى وجهه ، فدعا لي وغاب عني ؛ قال : فحبب الله لي الفقر ، فوالله ما في الدنيا شيء هو أحب إليّ منه ، الثانية أني منذ كذا وكذا سنة ما بتُّ على معلوم ، ولا يعوزني شيء ؛ وإني لأرجو الله أن يمنَّ عليّ بالثالثة ، ويحييه فيها ، كما أجابه في الاثنين ، وقيل في المعنى :

زِيُّ الْفَقِيرِ تَبَلُّ وَوَقَارُ	وَلِبَاسُهُ الْخُلُقَانُ وَالْأَطْمَارُ
وَحُلَاهُ مِنْ طَوْلِ الصَّيَامِ نَحْوُهُ	فَدَمَوْعُهُ مِنْ جَفْنِهِ مِذْرَارُ
وَالْإَصْفَرَارُ يَزِينُهُ وَلَرَبَّمَا	بَسْرَارُهُ تَتَزِينُ الْأَقْمَارُ

فأنيسُهُ بنهاره تذكَّارُهُ وجليسُهُ في ليله الجبارُ
متدللٌ متدللٌ في وقته يمشي تراه وقلبه طيارُ
ولأجله يحيي الإله بلاده وبفضله تتزلُّ الأمطارُ
وإذا دعا يوماً بدفعِ مُلْمةٍ ردَّ الظلومُ ويُقصر القهارُ
فالخلقُ أجمعُهُم مريضٌ مدنفٌ وهو الطيبُ المشفقُ الزوارُ
سيماء تبدو إن نظرتَ لوجهه صفتِ القلوبُ ولاحتِ الأنوارُ
يا طالباً لهم وليس يراهم حجبتك ويحك عنهم الأوزارُ
ترجو لحاقهم وأنتَ مقيدٌ قد أحرثك عن المني الأعذارُ
لو كنتَ تعرفُ قَدْرَ كلِّ جنايةٍ لجرتُ أخي من جفئك الأنهارُ
أنى إلى المزكومِ شمْ أزهري والثوبُ يدري قَدْرُهُ السمسارُ
فاضرعُ إلى مولاك واسألْ فضله فعسى تساعد من نأى الأقدارُ
فترأخُ من فرطِ التباعدِ والقلى وتنالُ ما تهوى وما تختارُ
فجناؤه رَحْبٌ لكلِّ مؤمِّلٍ وهو الإلهُ الواحدُ الغفارُ
ثم الصلاةُ على النبي وآله سفنُ النجاةِ وهم هم أقدارُ
والصحبُ ثم التابعينَ لفضلهم ما مرَّ ليلٌ دائمٌ ونهارُ

إخواني ، قد مضى أكثر الأجل ولا خوف ولا وجل ، ما أظنك تذكر سيدك إلى الفوت إلا عند حلول الموت ، يا مشتاقون أين شارقكم إلى ما فوقتم ؟ وأين توقفكم إلى ما ألقتم ؟ يا قيس الحبة مُت على قبر ليلي .

واختلفوا في مدة الفراق بينه وبين والده وإخوته ، فذهب بعضهم إلى أنها كانت أربعين سنة ، وذهب بعضهم إلى أنها كانت ثلاثاً وثمانين سنة ، وقد جمع الله شملهما بعد هذه المدة المديدة .

فنسأل الله تعالى أن يجمعنا وكافة إخواننا المؤمنين والمؤمنات في دار كرامته ، وأن يتفضل علينا بوابل غفرانه ورحمته ، وأن يجعلنا من أهل محبته .

اللهم صلّ على سيدنا محمد الصلاة التامة ، وسلّم سلاماً تاماً عليه . اللهم
 إنك أمرتنا أن نعتق أرقاءنا ونحن أرقاؤك فأعتقنا . اللهم إنك أمرتنا أن نعفو عمن
 ظلمنا ونحن سُؤَالُكَ واقفين ببابك ، فلا تردنا من رحمتك خائبين . اللهم إنا دعوناك
 دعوة من خضعت رقبته وفاضت عبرته ، فاقبل اللهم توبتنا واغفر لنا ولوالدينا ،
 وللمؤمنين والمؤمنات ، إنك جواد بالخيرات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
 وصحبه وسلم .

الفهرس

٥	تقديم
٦	ترجمة المؤلف
١٢-٧	وصف المخطوطات
	المجلس الأول
٢٦-١٣	في قوله تعالى : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهًا »
	المجلس الثاني
٤٠-٢٧	في قوله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ »
	المجلس الثالث
٥٦-٤١	في قوله تعالى : « الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »
	المجلس الرابع
٧٣-٥٧	في قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ »
	المجلس الخامس
٩٣-٧٤	في قوله تعالى : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »
	المجلس السادس
١١٠-٩٤	في قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ »
	المجلس السابع
١٢٧-١١١	في قوله تعالى : « إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ »
	المجلس الثامن
١٤٥-١٢٨	في قوله تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ »
	المجلس التاسع
١٦٣-١٤٦	في قوله تعالى : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ »
	المجلس العاشر
١٧٩-١٦٤	في قوله تعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »
	المجلس الحادي عشر
١٩٩-١٨٠	في قوله تعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ »

المجلس الثاني عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ ٢١٥-٢٠٠

المجلس الثالث عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا ﴾ ٢٣٥-٢١٦

المجلس الرابع عشر

في قوله تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ٢٥٢-٢٣٦

المجلس الخامس عشر

في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ ٢٧٣-٢٥٣

المجلس السادس عشر

في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ٢٩٥-٢٧٤

المجلس السابع عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ ٣٢٣-٢٩٦